المغرب العربي الكبير في العصر الحديث

(ليبيا – تونس – الجزائر – المغرب)

دكتور شوقي عطا الله الجمل

الطبعة الأولى

١٩٧٧

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد . القاهرة

محتويات الكتاب

الباب الأول

الموضوع

اتجاه الأطماع الأجنبية إلى المغرب العربي

الباب الثاني

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع

ليبيا والأطماع الاستعمارية (٣٦٣—٣٩٣)

مقدمة

يمثل المغرب الجناح الغربى للوطن العربى ، وكان إنضمام هذه البلاد إلى حظيرة الأمة العربية وإنتشار الدين الإسلامى والثقافة والدماء العربية بها فى وقت مبكر فصبغت هذه البلاد بالصبغة العربية .

إذ أن فتح مصر وانضمامها لصفوف الأمة العربية كان بشيراً بانطلاق العرب غرباً يحملون الدين الجديد والحضارة العربية بمختلف مميزاتها إلى بلاد الشمال الأفريقى .

وهكذا أضيفت دماء جديدة وقوة جديدة جددت شباب هذه البلاد وغيرت من تاريخها وحددت مسارها على مر العصور .

وأدت بلاد المغرب العربى للإسلام خدمات جليله ، فقد حمل سكان هذه البلاد شعلة الدين الجديد والحضارة العربية إلى قلب أفريقيا بل وإلى إأوروبا . وظل المغرب العربى الظهير الذى يساند المد العربى الذى يصل إلى الأندلس ووقف عند حدود جبال البرانس — لكنه استطاع أن يستقر فى الأندلس لعدة قرون إلى أن كانت تصفية الوجود العربى بهذه البلاد فى نهاية القرن الخامس عشر (سقوط غرناطه ١٤٩٢) فأصبحت الأندلس بحق فردوس العرب المفقود ، ولا شك فى أن خروج العرب من هذا الفردوس يرتبط بالأوضاع التى آل إليها المغرب العربى الذى كان يساند هذا الوجود إبقدر ارتباطه بأوضاع العرب فى شبه جزيرة ايبريا نفسها وانقسامهم إلى طوائف متناحرة .

هذا على أن تاريخ المغرب منذ أن بسط العرب وجودهم فى هذه البلاد وأصبحت جزءاً من الأمة العربية — ارتبط بالتاريخ العربى كله وأثر فيه وتأثر به .

وكان لموقع المغرب العربى أثره على تاريخه أيضاً فقد أتاح موقعه البعيد عن مركز الخلافة العربية فى بغداد أو غيرها — مجالا للعناصر المنشقة عن الخلافة

وإذا كان البرتغال والأسبان قد أفتتحوا هذه الصفحة الإستعمارية فى القرن الخامس عشر بهجماتهم المتتالية على الثغور المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى — فقد شهد القرن التاسع عشر موجة أخرى من هذه الموجات متمثلة فى نشاط القوى البحرية والدول العظمى الأخرى التى بدأت تدخل هى الأخرى ميدان الإستعمار ، فقد تنافس الفرنسيون والإنجليز والإيطاليون والألمان على الخصوص فى بسط نفوذهم على بلاد المغرب العربى .

وتاريخ المغرب العربى فى هذه الفترة — فترة الصراع الإستعمارى طوال خمسة قرون تقريباً (من القرن الخامس عشر حتى أوائل العشرين) هو موضوع هذا الكتاب .

وقد بدأنا بتمهيد سريع ذكرنا فيه بالأحداث السابقة المتصلة بتاريخ هذه المنطقة ، ثم انتقلنا لتتبع تاريخها وما تعرضت له من تيارات داخلية وخارجية منذ بداية القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن العشرين .

وإعتمدنا فى هذه الدراسة — قبل كل شىء — على الوثائق الأصلية من معاهدات واتفاقات ومصادر أصلية أخرى بالاضافة إلى ما كتبه الذين تناولوا تاريخ المغرب سواء أكانوا من أبناء المغرب ذاته وهم قلة أم من الأجانب وعدد كبير منهم شاركوا فى الأحداث التى تناولوها سواء كسياسيين أو سفراء لبلادهم أو كقادة عسكرين اشتركوا فى معارك المغرب أو فى رسم الخطط المتصلة بها . وحاولنا — قدر جهدنا — أن نستخلص الحقيقة من مناقشة مختلف هذه الآراء .

وإذا كنا قد أبرزنا حركات الكفاح الوطنى البطولى التى تصدت لقوات الإستعمار حينما اتجهت لهذه البلاد — فإننا آثرنا ألا نتعرض هنا للمراحل النهائيه المعاصرة لهذا الكفاح والتى أتت أكلها باستقلال هذه البلاد وتخليصها من براثن الإستعمار — إذ أن هذه الصفحات من الكفاح من الأفضل أن نخصص لها دراسة خاصة تعتبر الدراسة الحالية الأساسى لها.

وقد ذيلنا هذه الدراسة بثبت بالمراجع التى رجعنا إليها مرتبة حسب أبواب وفصول الكتاب ، وبخرائط توضيحية تمثل المراحل التاريخية المختلفة التى مرت بها المنطقة،وكذلك جداول للأسر الحاكمة، وفهارس أبجدية بالإضافة لنصوص الاتفاقات والمعاهدات الهامة الخاصة بالاحداث التى تعرضنا لها فى هذه الدراسة

ونرجو أن تقدم هذه الدراسة صورة واضحة لتاريخ المغرب العربى فى العصر الحديث بما فيه من دروس وعبر .

والله ولى التوفيق

شوقى الجمل

الرباط فى : فبراير ١٩٧٦ .

تمهيد

لمحة عن المغرب العربى قبل العصر الحديث

مباحث التمهيد

أولا : امتداد النفوذ الإسلامى إلى المغرب العربى

ثانياً : الدول الإسلامية المستقلة بالشمال الأفريقى

ثالثاً : تفتت وحدة الشمال الأفريقى وقيام دول منفصلة فى أقطاره .

أولا : امتداد النفوذ الاسلامى إلى المغرب العربى

كان استيلاء المسلمين على مصر (٦٤١ م) إيذاناً بأمتداد سلطانهم غربا صوب الشمال الأفريقى فتوالت حملاتهم على هذه البلاد حتى دخل الشمال الافريقى كله فى كنف الدولة العربية العظيمة .

وسنمر سريعا بالأحداث التى انتهت بهذا العمل الذى ترتب عليه أن صبغ الشمال الأفريقى كله بالصبغة العربية وأصبح يمثل الجناح الغربى فى جسم العالم العربى المتكامل — للتذكير بهذه الأحداث الهامة السابقة لموضوع دراستنا .

ففى عهد الخليفة (عثمان بن عفان) أرسلت حملة بقيادة (عبد الله بن سعد بن أبى السرح) عامل مصر فى ذلك الوقت فاستطاعت أن توقع الهزيمة بجيوش (قرطاج) وتم الصلح بين الطرفين بعد أن غنم المسلمون غنائم كثيرة.

وفى خلافة (معاوية بن أبى سفيان) جهز جيشا ضخما من عشرة آلاف مقاتل التقى بالبربر والبيزنطيين وتوغل الجيش الإسلامى فى تونس .

وفى عام (٦٦٦ م) أعطيت قيادة الجيش العربى فى الشمال الافريقى (لعقبة بن نافع الفهرى)[1] كان ذلك فى سنة (٥٠ هـ) فبنى مدينة القيروان فى قلب البلاد التونسية وذلك ليطبع الفتح العربى بطابع الاستقرار ، فكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية اسلامية بهذه البلاد[2].

وقد أحاط عقبة مدينته هذه بسور بسيط وجعل فى وسطها الجامع الذى نسب إليه وابتنى بها دار الإمارة ، ولكن الخليفة استدعاه إلى المشرق .

---

(١) ولد عقبة فى أوائل الهجرة النبوية فعد بذلك صحابى المولد وقد تولى إمارة جيش افريقية مرتين كما سنذكر .

(٢) القيروان : لفظ فارسى ، دخل فى العربية ومعناه محط الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس فى الحرب .

وفى خلافة (يزيد بن معاوية) أعيد (عقبة بن نافع) مرة أخرى سنة (٦٨١) لامارة أفريقية ، فتدارك أمر القيروان بعد أن كان قد أصابها الأهمال ثم استخلف عليها (زهير بن قيس البلوى) وخرج عقبه بجنده يقصد الاستيلاء على الشمال الأفريقى كله وضمه لحوزة العرب ، فسار إلى (الزاب) وعرج على (تلمسان) واتجه صوب المغرب الأقصى فاستولى على (طنجه) واستسلم له أميرها (يوليان) الرومانى[١] . وتقدم عقبة فى بلاد المغرب فوصل إلى (السوس الأدنى) و (السوس الاقصى) وانتهى إلى مدينة (اسفى) ووصل إلى المحيط الاطلسى وأدخل معه فرسه حتى بلغ الماء لب الفرس وشهر سيفه ، ورفع بصره إلى السماء وهو يقول « اللهم لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل الكفر حتى لايعبد أحد سواك ». وهكذا خضع الشمال الافريقى كله للدولة الاموية وانتشر الإسلام فى ربوعه[٢] لكن فى أثناء عودة عقبة — وكانت جيوشه قد سبقته فلم يبق معه من رجاله سوى الثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين — ثار عليهم البيزنطيون والبربر وعلى رأسهم زعيمهم (كسيله) وقاتل عقبة ورجاله قتال الابطال ، ولكن تكاثر عليهم أعداؤهم وقتلوهم عند مدينة (تهوده) بالقرب من مدينة بسكرة وكان ذلك فى عام (٦٨٢م) ودفن عقبة هناك ولايزال قبره قائما إلى الجنوب الشرقى من مدينة بسكره فى المكان المعروف بأسم (سيدى عقبة) وهو واحة صغيرة جنوب قسنطينة ويزوره الناس تبركا — وسار كسيلة بعد هذه الموقعة إلى القيروان فاستولى عليها ، وقامت دولة بربرية جديدة فى هذه البلاد استمرت حوالى ست سنوات — بينما انسحب الجيش العربى إلى (طرابلس)[٣] .

وفى عهد الخليفة الاموى (عبد الملك بن مروان) سار زهير بن قيس البلوى،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح البلدان ص (١٩٨) .
والنويرى : نهاية الإرب ص (٧٠) وما بعدها . — والزاب يطلق على القسم الجنوبى من قسنطينه وقاعدته مدينة (بسكرة) .

(٢) المنجى الكعبى : تحقيق وتقديم لقطعه من كتاب :
الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب (تونس ١٩٦٨) ص ٤٥ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤٦ .

ملاحظة : انظر خريطة فتح العرب للمغرب الأقصى (خريطة رقم ١) بملحق الكتاب

عامل أفريقيه إلى القيروان فى عام (٦٩ هـ) فهزم « كسيلة » ورجاله وأسترجع المسلمون عاصمتهم واعادوا تعميرها ، ولكن الامر كان يحتاج لجهود أضخم ليسترجع المسلمون مكانتهم فى هذه البلاد ، فندب الخليفة « عبد الملك » — قائداً من أشهر قواده هو « حسان بن النعمان الغسانى » لمتابعة الفتح فصار على رأس ٤٠٫٠٠٠ جندى فدخل « القيروان » فى عام (٧٧ هـ) ثم هاجم « قرطاج » برا وبحرا وكانت لاتزال قاعدة للروم فحاصرها وقطع الماء عنها وأنتهى الامر بفتحها عنوة .

ولكن اصطدمت قوات حسان بقوات البربر الذين اجتمعوا ناحية « جبال أوراس » تحت لواء إمرأة بربرية اسمها « دهيا بنت ثابت » وقد اشتهرت عند العرب بأسم « الكاهنة » فانهزم حسان وأضطر للتقهقر إلى « طرابلس » وكتب للخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بما لقى المسلمون على يد الكاهنة ، فكتب له الخليفة يأمره بالمقام حيث هو إلى أن يرسل له المدد المناسب فأقام خمسة أعوام ملكت الكاهنة خلالها تونس[1] .

وقد ظنت الكاهنة أن العرب طلاب مال وثراء فأمرت اتباعها بتخريب المدن والقرى وإحراق الأشجار ويقال إنها قالت لهم « إن العرب لا يطلبون من أفريقية إلا المدن والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعى فالرأى عندى تخريب المدن والحصون وقطع الأشجار حتى ييأس العرب منها ويقل طمعهم فيها — فعاث أتباعهم فى البلاد فساداً[2] .

وقد غاب عن الكاهنة أن المسلمين إنما كانوا يرمون إلى غاية أرقى مما توهمته هى ، وكانت نتيجة هذا العمل الجنونى عكس ما توقعت ، فقد نفرت قلوب الأهالى من هذه المرأة المخربه للمدن وكتب أهل شمال أفريقيا إلى حسان يستغيثون به

---

(١) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ٢١ . (نشر دوزى) .

— والمنجى الكعبى : مرجع سابق (ص ٥٦ ، ٥٧) .

(٢) المنجى الكعبى : المرجع السابق ص ٦١ .

ويدعونه للقدوم إليهم بجيوشه، فعاد حسان بجيشه والتقى بجيش الكاهنة وهزمها وقتلت فى عام ٨٤ هـ ، وبعد ذلك دخل البربر فى الإسلام وكان منهم إثنى عشر ألف يجاهد مع جيوش المسلمين ، كون « حسان » منهم لواءين ووضع على رأس كل لواء منهما أحد ولدى الكاهنة وقد اشترك هذا الجيش فى فتوح المغرب والأندلس[1] .

وانصرف حسان بعد ذلك إلى تعمير البلاد ، فجدد جامع القيروان ، وأسس داراً لصناعة السفن لحراسة السواحل الإسلامية ، وعمل على تنظيم الدواوين، كما وزع الأراضى الزراعية على البربر وغيرهم من القبائل التى انضوت تحت لوائه لتستقر وتنتج .

ولما تولى « موسى بن نصير » الأمر فى أفريقية سنة (٨٥ هـ) عمد إلى نشر الأمن فى ربوع البلاد ، ثم أجاز مولاه « طارق بن زياد » إلى بلاد الأندلس فى جيش عظيم من البربر والعرب فاجتاز البحر ونزل بالمكان الذى عرف بأسمه « جبل طارق » وفتح الأندلس، وقدم موسى بن نصير إلى الأندلس ليشارك فى هذا العمل العظيم ثم عاد إلى « القيروان » فالمشرق .

ومن أشهر الولاة الذين تولوا الأمر فى أفريقية « عبد الله بن الحبحاب » قدم إليها فى عام (١١٦ هـ)، ويذكر له فتوحه فى بلاد « السوس » والصحراء الكبرى وأرض السودان وانشاؤه جامع الزيتونة بتونس ، وتجديده لدار الصناعة التى كانت تمد الأسطول الإسلامى بحاجته من السفن الحربية .

وفى عام ١٢٠ هـ نشبت ثورة كبيرة من البربر واضطر الخليفة « هشام بن عبد الملك » لأن يرسل قواته لإعادة النظام والأمن لهذه البلاد .

هذا ونشير إلى أن الشمال الأفريقى كان شديد التأثر بالأحداث المختلفة التى تعرض لها العالم الإسلامى ، فقد حدث أن الخوارج الذين فروا بعد

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٦ ص ١٠٩ .

مقتل الخليفتين عثمان وعلى — وجدوا مجالا لنشاطهم فى الشمال الأفريقى فأخذوا يبثون أفكارهم بين البربر وكانت أكثر مذاهب الخوارج انتشاراً فى هذه البلاد مذهب « الصفرية » و « الاباضية » وقد زكت هذه المذاهب روح الثورة بين البربر وأدت لإضطراب الأمور بالشمال الأفريقى [١] .

---

(٢) الصفرية : أتباع زياد بن الأصفر ، والبعض يرجع التسمية إلى صناعة الصفر أى النحاس .

أما الاباضيه : فهم أتباع عبد الله بن أباض التميمى ، والبعض يرجع نسبهم الى (أباض) وهى قرية بأرض اليمامة .

ثانيا : الدول الاسلامية المستقله بالشمال الأفريقى

أدى الإنقلاب الذى ترتب عليه زوال دولة بنى أميه وظهور العباسيين إلى خروج الشمال الأفريقى كله من نفوذ الخلافة العباسية .

يستثنى من ذلك « تونس » التى قامت بها دولة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ ٨٠٠ — ٩٠٩ م) — التى ظلت على ولائها للعباسيين .

ويرجع تأسيس دولة الأغالبة إلى « ابراهيم بن الأغلب » الذى ولاه هارون الرشيد فى أواسط جمادى الثانية سنة ١٨٤ هـ « ولاية أفريقية » وجعلها وراثية فى عقبه ومنحه شبه استقلال داخلى مع التبعية الأسمية للخلافة العباسية[1] .

واتخذ ابراهيم بن الأغلب مدينة « القيروان » عاصمة لولايته لكنه أسس سنة (١٨٥ هـ) جنوب القيروان مدينة سماها « العباسية » تعبيراً عن ولائه للعباسيين وانتقل إليها بأهله وعبيده وقد طمرت معالمها اليوم لكن انقاضها تسمى « بقصور الأغالبة » وهى جنوبى القيروان بأربعة كيلو مترات .

وقد حكمت دولة الاغالبة مائة واثنى عشر سنة ، وأهتمت بتحسين أحوال البلاد فأستتب الامن ، وارتقت الصناعة والتجارة ، وازدهرت العلوم والفنون ، هذا بالإضافة إلى فتوحهم العظيمة بالبحر المتوسط فقد مدوا نفوذ العباسيين والإسلام إلى صقلية ٢٦١ هـ ، و « مالطه » بل عبروا « مضيق مسينه » إلى جنوب إيطاليا .

---

(١) الدراسة التفصيلية عن ألاغالبة فى تونس انظر :

— حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (١/٦٥) جـ ٣ ص ١٠٧ — ١٥٩ ، وكذلك الرقيق القيروانى : مرجع سابق ص ٢١٢ — ٢٣٧ .

ملاحظه انظر خريطه العالم الاسلامى فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) (خريطه رقم ٢) فى ملحق الكتاب .

ومن أهم آثارهم التى خلفوها فى الشمال الافريقى ما أضافوه إلى « جامع القيروان » و « جامع الزيتونة » الذى أصبح منارة علمية لعبت فى شمال أفريقيا دور « جامع القرويين » بالمغرب الاقصى والجامع الازهر بمصر .

كذلك بنى ابراهيم بن أحمد « ابراهيم الثانى — الاصغر » مدينة « رقاده » وأجرى إليها المياه وبنى فيها القصور وأنتقل إليها من مدينة العباسية .

وحين ولى الامر « زيادة الله الثالث » بنى بها قصرا صرف عليه مبالغ طائلة ولم تزل « رقادة » دار ملك الاغالبة حتى دخلها « عبيد الله المهدى الشيعى » وسكنها إلى أن بنى المهديه فأنتقل إليها[1] .

وقد طبع الاغالبة المغرب العربى بطابع خاص باحتضانهم المذهب المالكى وظلوا يمارسون نشاطهم فى هذه البلاد حتّى قضى عليهم الفاطميون سنة ٢٩٦هـ كما سنوضح بعد[2] .

وقد وجدت الدعوة الشيعية فى الشمال الافريقى بيئة صالحة للظهور فقامت دولة الأدارسة الشيعية الزيدية بالمغرب الاقصى وبايعت قبائل « زناته » مؤسسها « إدريس الاول بن عبد الله » بالإمامه فى رمضان سنة ١٧٢ هـ « فبراير ٧٨٩م » فى بلدة « وليلى » من أعمال طنجه ، وبعد أن استقر الامر للأدارسة بالمغرب الاقصى زحفوا على المغرب الاوسط « الجزائر » فدانت لهم[3] .

وأسس الأدارسة مدينة « فاس » وأتخذوها عاصمة لهم ، وأسسوا فى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ جامع القرويين الذى أصبح جامعة شهيرة تعددت فيها

---

(١) ابن الخطيب : أعمال أبو علام — القسم الثالث تحقيق العبادى ، ابراهيم الثانى ص ٢٧ ، ٤٥

(٢) حسن محمود : العالم الإسلامى ص ٤١٩ .

(٣) ابن عذارى المراكشى جـ ١ ص ١٥٨ .

والاستقصاء : جـ ١ ص ١٥٢ .

مجالس العلم وتنوعت أساليبه وأصبح مركزاً هاماً للدراسة فى العالم الإسلامى[1].

وحكم بعد إدريس الثانى ثمانية آخرون من الادارسه كان أعظمهم قوة هو « يحى الرابع بن إدريس عمر ٢٩٢ — ٢١٠ هـ » وقد بسط نفوذه على جميع بلاد المغرب الاقصى .

وتميزت دولة الادارسة بدورها فى نشر الإسلام فى شمال أفريقيا وغربها ، فقد كانت « فاس » ومازالت إلى اليوم تقوم بدور حضارى إسلامى فى شمال أفريقيا وغربها وسيظل التاريخ يحفظ للادارسة هذا الفضل فى خدمة الإسلام والعلم[2].

وتولى الامر فى البدايه حكام أكفاء ، لكن الامر كان فى النهاية عكس ذلك فقد تولى حكام لم تكن لهم من الكفاءة وحسن السلوك مايساعدهم على القيام بأعباء الملك فثارت عليهم الامة ولم يبق للدولة فى نظر رعاياها ما كان لها من احترام هذا فى وقت كان « العبيديون » يضيقون عليها الخناق من الشرق والامويون فى الاندلس من الغرب ، فأضطرت الاسرة الإدريسية للاعتصام بجبال الريف حيث تكونت إمارة إدريسية صغيرة انتهى أمرها فى عام « ٣٧٥ هـ » وبذا انتهت الدولة الإدريسية .

---

(١) اختلفت الأراء حول تأسيس مدينة (فاس) وتاريخ هذا العمل ؟ وقد جمع بلانشت (Blanchete) كل بيانات الجغرافيين عن فاس فى مقال بعنوان فاس عند الجغرافيين العرب وذلك فى مجلة (Hespéririis) الجزء الثامن عشر سنة ١٩٣٤ ص ٤١ — ٤ وقد أفاض أيضاً فى الحديث عن فاس : على بن أبى زرع الفاسى فى الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (طبعة الرباط ١٩٧٣) . ويبدو من هذه الإبحاث كلها ، أن فاس مدينتان احداهما . بناها إدريس الأول سنة ١٧٢ هـ) والاخرى بناها إدريس الثانى فى عام ١٩٢ بالقرب من الاولى وأصبح اسم (فاس) يطلق على المدينتين معاً ، وقد اندمجتا بعد ذلك كما يحدث للمدن عند اتساعها وامتدادها ، وكانت — بها عدوتان — عدوة الاندلس حيث نزل عرب الاندلس ، وعدوة القرويين حيث نزل أهل القيروان .

(٢) ارنولد : الدعوة إلى الاسلام (مترجم) ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

على أنه ظهرت على مسرح الاحداث بالشمال الافريقى دولة شيعية أخرى هى « الدولة العبيدية الفاطمية » التى تنتسب إلى عبيد الله المهدى الشيعى مؤسس هذه الدولة فى المغرب .

وكان إبتداء ظهور هذه الدولة بالجزائر حوالى سنة ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م » . بواسطة الدعاة الذين كان ظهورهم لاول مرة بناحية قسنطينة « فج الاخيار » حيث استطاع أبو عبد الله المحتسب الصفانى الشيعى الداعية الأكبر لهذه الدعوة الشيعية أن يوقع الأغالبة[1] .

وأستولى « أبو عبد الله الصفانى » على سطيف، وقسنطينة وسائر بلاد الجزائر الشرقية ثم احتل « القيروان » سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، وتقدم إلى « رقادة » عاصمة الأغالبة فاستولى عليها وقضى على دولة الأغالبة ووضع يده على دواوين الدولة الأغلبية وذخائرها ، وتقدم إلى « سجلماسة » لإنقاذ سيده « عبيد الله المهدى » الذى كان معتقلا هناك وسلم له مقاليد الملك ، وبايع أهل القيروان « عبيد اله المهدى » وأستلم زمام الدولة وتلقب بأمير المؤمنين — واستطاع العبيديون بعد ذلك فتح الجزائر الغربية ، كما استطاعوا إخماد الثورة التى أشعلتها قبيلة « زناتة » والتى ساءها أعتماده « أبو عبد الله الصفانى » على قبيلتى « كتامة » و « صنهاجه » وتحيزه لهما .

وهكذا استطاع العبيديون تأسيس دولة شيعية انتسبت إلى فاطمة الزهراء زوجة على بن أبى طالب وابنة الرسول «ص»[2] .

---

(١) ابو عبد الله المحتسب الصفانى : سمى بالمحتسب لانه كان ولى الحسبة والصفانى ، لانه جاء من اليمن و (فج الاخيار) الذى اختاره قرب قسنطينه لجمع الاتباع خاصة من قبيلة (كتامة) التى عرفت بكثرة عددها وصلابة عودها امله مكان حصين فى الجبال المحيطة بقسنطينة ، وقد اطلقوا عليه أسم (دار الهجرة) .

— انظر البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (مارس ١٩١١) ص ٦١ — ٦٤ .

— وكذلك حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٩ .

(٢) يفرق بعض المؤرخين بين (العبيدين) وهم أمراء الأسرة المتولين فى افريقية ، والفاطميين وهم الذين تولوا الخلافة بمصر .

ولما دانت هذه البلاد بشمال أفريقيا للمهدى باشر الأمور بنفسه بل إنه أوجس خيفة من « أبى عبد الله الصفانى » الداعى فعجل بقتله آخر سنة ٢٩٧ ويذكرنا هذا بما وقع « لأبى مسلم الخراسانى » مع المنصور العباسى .

ووقع اختيار المهدى على مكان حصين على الشاطىء الشرقى لتونس على شبه جزيرة « جمة » بين سوسه وصفاقس فأمر ببناء مدينة فى ذلك الموضع سماها « المهدية » وانتقل إليها واتخذها مركزاً لحكمه فى عام ٣٠٨ هـ وحصنها وبنى بها الجامع و « دار الصناعة » ، ولما ضاقت بسكانها بنى للناس من اتباعه مدينة أخرى قريبة منها أطلق عليها اسم « زويلة » والبعض يطلق عليها اسم « إحدى المهديتين » .

وفى عهد « المعز لدين الله » أرسل قائده « جوهر الكاتب » الذى اشتهر باسم « جوهر الصقلى » إلى المغرب الأقصى فاستولى فى عام « ٣٤٢ هـ » على فاس عاصمة الإمارة الإدريسية وبذا امتد سلطانه من المحيط إلى برقة .

إلا أن العبيديين اتجهوا بأنظارهم نحو الشرق خاصة أن الأحوال فى مصر كانت مضطربة بعد وفاة « كافور الأخشيدى » فسير المعز قائده « جوهر » فى جيش كثيف إلى مصر ، فأستولى عليها وخطب فيها لسيده المعز وبنى مدينة « القاهرة » . وفى ٥ رمضان ٣٦٢ هـ — ٩ يونية ٩٧٣ م دخل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله القاهرة التى أنشأها له قائده جوهر فكانت مقر ملكه وملك الخلفاء الفاطميين بعده الذين امتد نفوذهم إلى الشام والحجاز إلى آخر دولتهم[١] .

وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية منقسمة فهناك :

١ — الخلافة العباسية بالمشرق وقاعدتها « بغداد » ،

٢ — الخلافة الأموية المجددة بالأندلس وقاعدتها « قرطبة » .

---

(١) تولى بعد المعز عشرة خلفاء فاطميين بمصر (من سنة ٣٦٥ إلى ٥٦٧ هـ)

ملاحظة : انظر خريطة رقم ٤ بملحق الكتاب .

٣ — والخلافة العبيدية الفاطمية بأفريقية ثم بمصر والشام والحجاز واليمن وأصبحت قاعدتها القاهرة .

وفيما يتعلق بالمغرب بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر — فقد ترك الخليفة المعز لدين الله الأمر بهذه الجهات للصنهاجيين الموالين له إذ على أكتافهم قامت الدعوة الفاطمية بالمغرب الاوسط (الجزائر) وأيدوا سلطانه بهذه الجهات، فعهد إلى (بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى) بالإمارة على المغرب ، باستثناء طرابلس ومضارب قبيلة (كتامة) التى كانت هى الأخرى موالية للفاطميين وكانت مدينة (سطيف) من أكبر مراكز هذه القبيلة — وكان ذلك يوم ٢٢ ذى الحجة ٣٦١ — ٤ أكتوبر ٩٧٢ ولقبه الخليفة المعز الفاطمى بلقب (سيف الدولة) وسماه بيوسف فكانت هذه هى بداية الدولة الزيرية الصنهاجية بهذه الجهات .

واختط بلكين بن زيرى مدينة (الجزائر) ومدينة (مليانة) . وحين ثارت قبيلة (كتامة) التى كانت ترى أنها أولى من (صنهاجة) فى أخذ الإمارة لما قدمته للدولة الفاطمية من خدمات لم يتأخر (المنصور بن بلكين) الذى أخذ الإمارة بعد وفاة والده فى عام ٣٧٣ هـ — ٩٨٤ م عن مهاجمتها فحاصر أتباعها فى مدينة (ميلة) القريبة من قسنطينة كما دخل (سطيف) أكبر مراكز كتامه وعين بكل من المدينتين خليفة عنه .

على أن الدولة الزيرية الصنهاجية لم تلبث أن انقسمت إلى إمارتين :

(ا) إحداهما شرقية قاعدتها القيروان (قصور سردانية — قرب القيروان)[1].

(ب) وأخرى غربية لبنى (حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى) وقاعدتها (قلعة بنى حماد) التى أنشأها حماد فى عام (٣٩٨ هـ — ١٠٠٧ م) ، وقد شملت

---

(١) سردانية : أصلها حدائق عظيمة انشأها الأمراء العبيديون بجوار القيروان ، وكانت بها قصور وبساتين ، ومكانها مشهور بهذا الإسم الى الآن .

هذه الدولة الغربية تقريباً حدود عمالتي الجزائر وقسنطينة المعروفة اليوم . وكان باديس بن المنصور قد سير عمه (حماد) على رأس جيش كبير لإخضاع قبيلة (زناته) وجعل له حكم جميع ما يفتحه بعد أن انتصر (حماد) على الثائرين عاد إلى جهة قسنطينة حيث ابتنى (قلعة) حصينة نسبت إليه وإتخذها مقراً لحكم المناطق التي استقل بها .

وحين أراد (باديس) رفع يد عمه عما خضع له من المناطق الشاسعة إمتنع حماد وقامت بين الطرفين حروب طاحنة استمرت حتى وفاة باديس وتوطد حكم بني حماد بالمغرب الأوسط .

على أنه لما نبذ حكام الدولة الصنهاجية دعوة الفاطميين وخلعوا طاعتهم ونادوا بأن تخطب على المنابر للخلافة العباسية — دبر الخليفة الفاطمي المستنصر بإشارة من وزيره (اليازوري) مكيدة للانتقام من الأمراء الصنهاجيين — ففتح الباب للأعراب من بني هلال ، وبني سليم . ورياح و زغبة ، للهجرة للمغرب وعقد لرؤسائهم على أمصار البلاد ورغبهم في الزحف ، وكانوا يعيثون فساداً في البلاد المصرية .

وانتهى هذا الزحف الهلالي بانتصارهم على قوات (المعز الصنهاجي) ودخولهم القيروان وغيرها من المدن واستقروا فيها ، وتفرعت عنهم فروع كثيرة وبطون عديدة انتشرت بالشمال الأفريقي وامتزجت بأهله[1].

* * *

وظهرت بالمغرب الأقصى دولة المرابطين أو (الملثمين) التي أسسها يوسف بن تاشفين معتمداً على قبائل لمتونة الصنهاجية .

أطلق عليهم اسم (المرابطين) لأنهم تتلمذوا على (عبد الله بن ياسين)
[illegible] اسة والعبادة في صحراء

---

(١) الجيلالي ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام (١٩٠٤) حـ ١ ص٢٩٨ .

المغرب (فى جزيرة بالسنكال) أما لفظ الملثمين فقد أطلق عليهم لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم حر الصحراء وبردها ورمالها[١] .

وقد زحف المرابطون على المغرب فى عام ٤٤٧ هـ تحت قيادة (عبد الله بن ياسين) ووصلوا إلى تافيلالت ، وفى عام ٤٤٨ هـ غزوا (السوس) وفى ٤٤٩ هـ فتحوا (تادلة) ، وبذا دان لهم جنوب المغرب وواصلوا مسيرتهم بقيادة (يوسف بن تاشفين) الذى أظهر براعة عسكرية وقدرة على التنظيم العسكرى ، وفى عام (٤٦٢ هـ — ١٠٦٩ م) أسس (يوسف بن تاشفين) مدينة مراكش لتكون مركز الدولة ، فأخذت تزدهر وأمها رجال العلم والأدب والفن من كل صوب ، ومن أهم آثار المرابطين بها جامع ابن يوسف ويعتبر المعهد الثانى فى المغرب ، بعد جامعة القرويين[٢]

وبعد أن أتم الأمير (يوسف بن تاشفين) تنظيم جيشه توجه إلى مدينة فاس فاستولى عليها . ثم استولى جيشه على طنجة سنة ٤٧٠ هـ ، واتجه بعد ذلك نحو المغرب الأوسط فلم تصل سنة (٤٧٥ هـ) حتى كانت (تلمسان) عاصمة المغرب الأوسط قد سقطت فى يده . وكذا مدن (تينس) و (وهران) و (جبال) و (تشريش) وجميع أعمال (شلف) .

ولما بلغ (يوسف بن تاشفين) هذه الدرجة وذاع صيته فى العالم الإسلامى

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الإسلام السياسى ج ٤ ص ١١٥

ملاحظة : الرباط فى اللغة مصدر رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان — ويطلق فى اصطلاح الفقهاء على شيئين : أولهما البقعة التى يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو وعنها . الثانى : المكان الذى يلتقى فيه صالحو المؤمنين لعبادة الله وذكره والفقه فى أمور الدين .

أنظر : محمد بن على الدكالى : كتاب فى الرباطات ص ٢ ومابعدها .

(٢) هناك خلاف حول تاريخ تأسيس مدينة (مراكش) وقد ناقش (عبدالله عنان) هذا الأمر وهو يرجح أنها لم تبن إلا عام (٤٦٢ هـ — ١٠٦٩ م) .

انظر : عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (١٩٦٤) ص ٣٨ ، ٣٩ .

استنجد به ملوك الطوائف بالأندلس الذين كانت قد آلت إليهم الأمور بعد إنحلال دولة بني أمية في الأندلس لكنهم شغلوا بالمنازعات فيما بينهم فأتاح ذلك الفرصة للأسبان للإيقاع بهم والإستيلاء على بلادهم الواحد تلو الآخر .

فسار الأمير يوسف إلى الأندلس في عام (٤٧٩ هـ) ونزل بالجزيرة الخضراء بجيوشه العظيمة واستقبله أمراء الاندلس المسلمون استقبال المنقذ ، وتقابل مع جيوش (الفونس السادس) ملك قشتالة ، وكان انتصار جيش المرابطين حاسماً في (واقعة الزلاقة) في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ ، ولاذت فلول جيش الملك الأسبانى بالفرار ، وقد ذاع صيت (يوسف بن تاشفين) في أنحاء العالم الإسلامى بعد هذه الموقعة[1]

وعاود الفونس السادس تهديده للممالك الإسلامية في الأندلس، كما أن ملوك الطوائف المسلمين عادوا لما كانوا عليه من حياة الترف والإشتغال عن عدوهم الحقيقى بخلافاتهم فاضطر (يوسف بن تاشفين) للعودة إلى بلاد الأندلس مرة أخرى لتخليص المسلمين من خطر الإنقسام الداخلى وخطر العدو الأجنبى ، وبعد أن أبعد خطر العدو المهاجم ضرب على أيدى ملوك الطوائف وعزلهم وساقهم إلى مراكش ، وأسند إلى قائده (سيرين أبى بكر اللمتونى) ولاية الأندلس وبذلك ضمت بلاد الاندلس إلى الإمبراطورية المغربية المرابطية التى صارت تجمع مابين المغربين الاقصى والأوسط شرقاً ، وبلاد الاندلس . وتمتد إلى بلاد السودان و (السنغال) جنوباً .

---

(١) عبد الله عنان : عصر المرابطين ص ٤٠ .

ملاحظة : لم يشتهر شأن (يوسف بن تاشفين) كقائد حربى فحسب ، بل إن شهرته العلمية فاقت ذلك ، فقد كان محبا للعلم وأهله ، مغدقا عليهم الإنعام ، لايقطع أمراً دونهم ، حتى أنه انقطع إليه — كما يقول الشيخ محيى الدين فى المعجب — من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى شابهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولولده من أعيان الكتاب ، وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار — يكفى أن نذكر منهم القاضى عياضاً .

وقد خلف لنا المرابطون فى هذه البلاد التى إنضوت تحت لوائهم آثاراً مادية تدل على ماوصلوا إليه من حضارة ، ولعل من أهم هذه المنشآت الحضارية مساجدهم فى تلمسان والجزائر وقبة البروديين فى مراكش وما أضافوه لجامع القرويين بفاس[1]

وقد انتهى أمر دولة المرابطين فى المغرب بسقوط عاصمتهم (مراكش) فى يد الموحدين فى عام (٥٤١ هـ — ١١٤٧ م).

* * *

ويرجع تأسيس الدولة الموحدية إلى (محمد بن تومرت) الذى أدعى أنه (المهدى) المنتظر ودعا إلى تخليص الدين من الشوائب .

وقامت الدعوة فى البداية فى (السوس) تلك البلاد التى تتميز بقسوتها وندرة مزروعاتها ، ثم أخذت تنتشر فى مختلف أنحاء المغرب ، وكان من أوائل الذين بايعوه تلميذه (عبد المؤمن بن على) ، وأخذت قوة (ابن تومرت) تزداد ، ولما استفحل أمره إنتقل لجبل (تينملل) حيث تحصن هناك وشرع يشن الغارات على المرابطين فكانت بينه وبينهم حرب سجال وصل الموحدون فى بعضها إلى مراكش ، وقد توفى المهدى سنة ٥٢٤ هـ قبل أن تسقط مراكش فى أيدى الموحدين .

وخلف (عبد المؤمن بن على) أستاذه ابن تومرت فى رمضان ٥٢٤هـ — ١١٣٠ م[2] وبعد أن ثبتت أقدام عبد المؤمن بمبايعة الموحدين له — شرع فى

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص (٧٥٨) .

(٢) للدراسة التفصيلية للصراع بين المرابطين والموحدين انظر : عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القسم الأول) (١٩٦٤) الفصلين الثالث والرابع .

ملاحظة : انظر خريطة رقم ٥ بملحق الكتاب .

بسط نفوذه على أنحاء المغرب فاستولى على (تلمسان) بعد أن هزم جيش المرابطين بها . بعد ذلك قصد أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن على) مدينة (فاس) سنة ٥٤١ هـ ومن هناك وجه حملة لحصار (مكناس) ثم خرج قاصداً (مراكش) فافتتح فى طريقه (سلا) ، وفى مراكش كانت المعركة الاخيرة بين الموحدين والمرابطين حيث دارت الدائرة على المرابطين وتم فتح مراكش سنة ٥٤١ هـ واتجه الموحدون للاندلس ففتحوها مابين ٥٤١ ، ٥٥٦ هـ .

واتجهوا الفتح المغربيين الأدنى والاوسط ، فاستولوا على (بجاية) ثم اتجهوا إلى (قسنطينة) فحاصرها فاستسلم (يحيى بن العزيز) آخر ملوك بنى حماد فى عام٥٤٨ هـ و١١٥٣ م ، وفى عام ١١٥٦ سقط ميناء (عابه) وبذلك بسط الموحدون نفوذهم على الجزائر كلها ثم مدوا نفوذهم إلى تونس .

وقد قام أحد الموالين المرابطين ويدعى (بابن غانية) بحركة مقاومة للموحدين فى الجزائر الشرقية وتونس ، وحاصر هذا الثائر (قسنطينة) لكنه لم يقو على فتحها وتمكن (يعقوب المنصور الموحدى) أن يهزمه .

ولما بلغ (يعقوب المنصور) أخبار غارات البرتغال من غرب الاندلس ، وتقدم جيوش المسيحيين نحو (قرطبة) — أعد العدة لحربهم ودرء الخطر عن المسلمين . والتقى الجيشان فى معركة فاصلة فى موضع يقال له (الارك) شمال قرطبة — وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة على (الفونس الثالث) ، ومن معه وفر من الميدان تاركاً وراءه آلاف القتلى والأسرى ، وقد أعادت هذه المعركة التى وقعت فى ٩ شعبان ٥٩١ هـ — يوليو ١١٩٥ م ذكرى موقعة الزلاقة المرابطية [١] .

وقد كانت لأمير المؤمنين (يعقوب المنصور) مواقع أخرى مع ملوك الأسبان وكانت له غارات موفقة على (طليطلة) و (أشبيلية) التى دخلها فى

---

(١) القرطاس ص ٢٢٨ .

فى عام (٥٩٢ هـ) حتى أرغم الفونس على طلب الصلح ، وبعد أن نظم بلاد الاندلس عاد إلى عاصمة ملكه مراكش[1].

هكذا كان قيام دولة الموحدين فى الشمال الافريقى وامتداد نفوذها على بلاد الاندلس رمز القوة والمنعة للمغرب الإسلامى .

وقد ذاع صيت الموحدين حتى أن (صلاح الدين الايوبى) طلب فى عام ٥٨٥ هـ من (يعقوب المنصور) مساعدته بالاسطول المغربى ضد الصليبين الذين كانوا محاصرين للمسلمين فى عكا .

ويقال إن الملك المغربى (يعقوب المنصور) لم يستجب لرغبة صلاح الدين ولم يبعث إليه أسطولا ولم يحرك من أجله ومن أجل المسلمين جميعاً فى الشرق ساكنا ، وذلك لسبب واحد اتفق عليه جميع المؤرخين الذين أوردوا قصة هذا الاستنجاد ، ذلك السبب هو أن صلاح الدين لم يخاطب يعقوب المنصور بلقب (أمير المؤمنين) [2].

ويقال أن (يعقوب المنصور) فكر فى الإستيلاء على مصر لتتم له وحدة أفريقية الشمالية من شرقها إلى غربها لولا أن المنية عاجلته سنة ٥٩٥ هـ فحالت بينه وبين تحقيق مطامحه البعيدة المدى[3].

---

(١) المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (القاهرة ١٩٤٩) ص ٢٨٢ .

ملاحظة: أهمية المعجب ترجع إلى أن عبد الواحد المراكشى كان معاصراً لدولة الموحدين.

(٢) ذكر هذه القصة : ابو شامة شهاب الدين المقدسى : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ٢ (يذكر تفاصيل لإرسال الرسالة ، ونصها وهى من وضع القاضى الفاضل فى مصر بأمر صلاح الدين الذى كان بالشام ، وارسل للقاضى الفاضل بهذا الشأن) وإن كان القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ - يورد رسالة صلاح الدين مبتدئة بلقب (أمير المؤمنين) لكن القلقشندى متأخر فى الزمن عن المقدسى ، فكلام المقدسى مرجح .

(٣) المراكشى عبد الواحد : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

وبعد ذلك إتجه (يعقوب المنصور) للتعمير ومن مؤسساته الهامة إتمام بناء مدينة (الرباط) (٥٩٣ هـ) وجامعها العظيم المعروف اليوم (بصومعة حسان)[١].

وقد اهتم الموحدون ببناء المساجد والمدارس ونشر العمران سواء فى أفريقية أو المغرب أو الاندلس. وكذلك بناء (المارستانات) للمرضى وأجروا المرتبات على العلماء والطلبة فبلغت الحركة العلمية وحركة التأليف فى عصرهم درجة رفيعة ، وبنوا الصوامع والقناطر و (الجمعات) للماء وأقاموا المغارات وبنوا القصور مما يدل على ما كانت عليه دولتهم من الرخاء[٢].

ففى مراكش بنى (يعقوب المنصور) قصبتها وشيد الجامع الأعظم المنسوب إليه بمقصورته الفخمة ، ومنار (الكتبية) ، المارستان الذى خصص له مبلغا يوميا لمتطلباته وأقام فيه الصيادلة كما يقول المراكشى لعمل الاشربة والادهان والاكحال ، وأعد فية للمرضى ثياباً ، فإذا نقه مريض وكان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش .

وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل المارستان ليعود المرضى[٣].

ومن آثاره أيضاً المسجد الاعظم والمدرسة (بسلا) ضاحية الرباط ، أما فى أسبانيا فجامع أشبيلية وصومعة (جيرالدا) الشاهقة تدل على عظمة الفن المعمارى فى عهد الموحدين[3].

---

(١) القرطاس ص ٢٢٩ .

ملاحظة : شاهد المؤلف (صومعة حسان) هذه وهى رغم ما أصابها نتيجة الحريق والزلزال الذى أثر فى المنطقة كلها لازالت أعمدتها الرخام وبقايا المنارة (تشبه منار الكتبية بمراكش) تنطق بمبلغ ما كانت عليه من عظمة وضخامة .

(٢) القرطاس ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) المراكشى ، عبد الواحد : مرجع سابق ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٤) زار المؤلف أشبيلية فى مارس ١٩٧٤ — حيث مسجد أشبيليه العظيم الذى تحول اليوم الى كنيسة ضخمه ، كما تحولت المنارة الشاهقة الى برج للناقوس ، (برج الجيرالدا) لكنها كلها تنطق بلاشك بعظمة الفن العربى وتغنى عن كل دليل آخر عن غنى وثروة الدولة الموحدية فى أيام الامير (يعقوب المنصور) .

لكن كانت وفاة يعقوب المنصور سنة ١١٩٨م ثم هزيمة ابنه [محمد الناصر] فى [موقعة العقاب] فى الأندلس فى [٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م] إيذاناً بانهيار الدولة الموحدية التى ظلت تمثل وحدة الشمال الأفريقى طوال قرن ونصف قرن تقريباً .

ويقول المراكشى عن هذه الموقعة « لم يجر على مسلمى الأندلس فى تاريخهم الطويل مثل ما جرى عليهم فى هذه الموقعة المشئومة التى كانت نذيراً بذهاب ملكهم وانقراض عقبهم فى تلك البلاد بعد بضعة قرون من ذلك التاريخ »[1] .

فبعد معركة العقاب رجع الناصر من الاندلس فأخذ البيعة لولده [يوسف المنتصر] وهو فى السادس عشر من عمره ودخل قصره فأحتجب عن الناس وانغمس فى لذاته إلى أن توفى سنة ٦١٠ هـ .

أما المنتصر فقد أطلق هو الآخر العنان لميوله الفتية ، وترك أمر الدولة للوزراء ومشايخ الموحدين وسادتهم فاستبد كل منهم بعمالة ، من أعمال الدوله واصبح الآمر الناهى فيها ، فعجل هذا بانفصام عرى الدولة الموحدية[2] .

---

(١) المراكشى ، عبد الواحد : مرجع سابق ص ٣٢١ .

(٢) قبل أن انهى الحديث عن هذه الدولة اشير إلى أنها كانت دولة حضارة وتمدن تقدمت فى عصرها العلوم والمعارف ، وقطعت شوطا بعيداً وعم الترقى جميع مناحى الحياة فأقاموا المشاريع الحيوية وأغدقوا على العلماء الأرزاق واسبغوا عليهم الانعام ، وكانت مجالسهم منتديات علمية وأدبية يتجاذبون فيها العلم ويطارحون العلماء بأنفسهم .

ثالثا : تفتت وحدة الشمال الأفريقى وقيام دول منفصله فى أقطاره

أدى ضعف دولة الموحدين إلى تمزق الإمبراطورية الشاسعة الأطراف التى كانوا يبسطون سلطانهم عليها ، فسقطت بلاد الأندلس فى يد الأسبان ، والبقية الضئيلة الباقية التى لم تقع فى أيديهم استقلت تحت إمرة (بنى الأحمر) أصحاب غرناطة .

أما الشمال الأفريقى فقد ظهرت فيه ثلاث دول إسلامية ظلت تتنازع السلطان وتحاول كل منها أن توسع رقعتها على حساب جارتها — وهذه الدول الثلاث هى :

الدولة الحفصية : فى تونس .

الدولة المرينية : فى المغرب الأقصى .

الدولة الزيانية : فى المغرب الأوسط .

الدولة الحفصية

(٦٢٧[١] — ٩٤٣ هـ / ١٢٢٩ — ١٥٣٦ م)

ينتسب الحفصيون إلى (أبى حفص عمر بن يحيى الهنتانى) وهو من خاصة (ابن تومرت) وأحد مريديه ، ويرجع نسبه إلى قبيلة (هنتـانة) وهى قبيلة بربرية عظيمة تلتحق بالمصامدة التى هى من أكبر قبائل المغرب الأقصى .

وكانت (لأبى حفص) مكانة كبيرة لدى (محمد بن تومرت) زعيم الموحدين ، وقد تولى عدة إدارات فى عهده ، وظل مرموقاً حتى وفاته فى سنة

---

(١) سنة تولى أبى زكريا يحيى الحفصى الامر .

ملاحظه : انظر خريطة رقم ٦ — بملحق الـكتاب .

(٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) وظل أبناؤه من بعده يتداولون إمارة الأندلس والمغرب وأفريقية.

وفى أيام خليفة الموحدين (محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف) عقد على ولاية تونس (لأبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص) فى عام (٦٠٣ هـ — ١٢٠٧ م) وفى ولايته هذه استطاع أن يقضى على كثير من عوامل الإضطراب فى أفريقية فهزم (ابن غانية) بنواحى طرابلس ، وخلفه فى الولاية ابنه (عبد الرحمن) فى عام (٦١٨ هـ — ١٣٢١ م) .

وحين تولى (أبو زكريا يحيي الحفصى ٦٢٧ هـ — ١٢٢٩ م) كانت دولة الموحدين قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكان (بنو مرين) ينازعونهم السلطة فى المغرب الأقصى ، فانتهز أبو زكريا الفرصة وأعلن استقلاله بأعمال تونس والقيروان عن دولة الموحدين .

ولما عاد (ابن غانية) لإثارة الاضطرابات طارده بجيشه وظفر به وقتله وقمع الثورة التى أشعلتها قبيلة (هوارة) ضده ، وبذلك أستتب له الأمر فى (تونس) فأخذ يوسع نفوذه فأستولى على (الجزائر) وبايعته (تلمسان) و (سجلماسة)، بل بايعته بعض بلاد المغرب. وقدخطب (بنو مرين) الذين استولوا على (مراكش) بعد بنى عبد المؤمن — وده أول أمرهم وصار يتطلع لإخضاع المغرب الأقصى كله لنفوذه ، كما استنجدت به دول الأندلس الإسلامية .

ويعتبر بذلك (أبو زكريا يحيى) مؤسس أركان الدولة الحفصية بتونس ، وله بها عدة أعمال عمرانية فهو الذى بنى (جامع القصبة) وصومعته الجميلة ونقش اسمه عليها ، وغير ذلك من المساجد ، واهتم بالتعليم ففتح عدة مدارس وأنشأ فى قصره بالقصبة (داراً للكتب) جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات .

وخلفه ابنه (أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا) واتخذ لقب المستنصر بالله (٦٥٤ هـ — ١٢٥٦ م) وتلقب بلقب خليفة ، وأرسل له أمير مكة والحجاز

البيعة بالخلافة فاحتفل بها إحتفالا مشهوداً وتلقب من ذلك التاريخ بلقب (أمير المؤمنين) .

وحين تحولت الحملة الصليبية الثانية فى (١٢٧٠ م) حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى غزو تونس ، بدلا من أن تتوجه إلى القسطنطينية واجه (أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا) هذه المحنة ودارت رحى الحرب بين الجنود التونسيين الذين نزلوا بأطلال (قرطاج) ، واستمرت هذه الحرب نحو ستة أشهر ، لكن تفشى الوباء بين الجنود الفرنسيين وفى عدد كبير منهم من بينهم الملك لويس نفسه وخلفه أخوه (شارل دانجو) الذى اضطر لعقد صلح مع المسلمين على أن يدفع لهم غرامة كبيرة وبذلك أنتهت الحرب وأقلع الجنود الفرنسيون لبلادهم .

وانتابت البلاد بعد موت الخليفة المستنصر الفوضى لكثرة الخلافات على العرش ، وتعرض البلاد لهجوم المسيحيين من جهة وغارات القبائل العربية من جهة أخرى هذا بالإضافة إلى تعرض البلاد لغزوات (بنى مرين) .

وإن كان الحفصيون قد عادت إليهم وحدتهم واستعادوا قوتهم فى أوائل القرن الخامس عشر على أيدى (أبى العباس) و (أبى فارس) اللذين أعاداً للدولة بناءها ونشاطها ووحدتها فاستطاعت أن تستعيد سلطانها على الجزائر وقسم من المغرب الأقصى — لكن عاد الضعف إليها حتى أن نفوذ الحفصيين لم يكن يتعدى مدينة (تونس) نفسها .

وظل الأمر كذلك حتى استطاع أسطول (خير الدين بربروسا) بعد أن أعلن ولاءه للسلطان العثمانى (سليمان القانونى) أن يدخلها ويضمها للخلافة العثمانية .

الدولة المرينية

(٥١٢ هـ — ١١٩٦م)[1]

المرينيون فخذ من قبيلة « زناتة » وهم من ولد (مرين بن ورتاجى بن

---

(١) سنة تولى الامير عبد الحق بن محيو ـ الأمر .

ماحزح) فهم عرب صريحون[1] ، وكانت مواطنهم الأصليـــة فى المناطق الصحراوية وراء (تلمسان)[2] .

وقد انتهز المرينيون فرصة الضعف والإنحلال الذى أصاب دولة الموحدين فنازعوهم الامر فى المغرب .

وقامت معارك بين الأمير « عبد الحق بن محيو » المرينى وبين الموحدين قرب (وادسيو) . وقتل الأمير (عبد الحق) ، لكن بعد أن أوقع بالموحدين عدة هزائم .

واستمر الصراع بين بنى مرين والموحدين حتى بايع شيوخ بنى مرين الأمير (يعقوب بن عبد الحق) فجمع شمل المرينين وتابع الكفاح ضد الموحدين ، وانتهى الأمر بفتحه مدينة مراكش (٦٦٨ هـ — ١٢٦٩ م) فقضى بذلك على عرش الموحدين[3] .

ويعتبر (يعقوب بن عبد الحق) أو أمير المؤمنين يعقوب المنصور كما كان يلقب — المؤسس لدولة بنى مرين .

زحف على (تلمسان) وحاصرها ودخلتها جنوده فى عام (٦٧٠ هـ — ١٢٧٢ م) ، وأجبر ملوكها بنى زيان على عقد الصلح معه ، واستنجد (محمد بن الأحمر) فى الاندلس بالسلطان المرينى فأنجده وكانت له عدة وقائع مع الاسبان وأجبرهم على عقد الصلح معه ، وغزا (سجلماسة) ، و (تافيلالست) .

وخلفه ابنه (يوسف بن يعقوب) وتلقب بالناصر لدين الله وحذا حذو أبيه فنجح فى القضاء على الثورات التى أوقد نارها منافسوه على العرش وأمير تلمسان (يغمراسن بن زيان) .

---

(١) القرطاس : ص ٢٧٨، ٢٧٩ .

(٢) يذكر القرطاس أنهم جاءوا المغرب فى عام عشرة وستمائة. انظر القرطاس ص ص ٢٨٣ .

(٣) القرطاس ص ٣٠٧ .

وأنشأ على بعد أربع كيلو مترات غربى تلمسان مدينة (المنصورة) ، كما قام بعدة مشاريع عمرانية منها بناء المسجد الجامع بفاس ، والمسجد الجامع بمدينة (تازا) — لكن انتهت حياته بقتله وخلفه حفيده (أبو ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف) .

ومن ملوك بنى مرين البارزين (أبو الحسن على بن عثمان المنصور بالله) الذى تولى عام (٧٣١ هـ) ، واستمر حكمه ما يبلغ عشرين عاماً استطاع خلالها أن يخضع تلمسان نهائيا إذ كانت لا زالت مأوى المناوئين وملجأ المثيرين للإضطراب لا فى دولة (بنى مرين) فقط بل وفى دولة (بنى حفص) أيضاً وانتهى الأمر بانتصار (أبى الحسن) على (ابن تاشفين الربانى) وفتحه تلمسان وانتهاء دولة بنى زيان .

كما نجح (أبو الحسن) فى دخول (تونس) سنة ٧٤٨ هـ التى كانت تشكو من الاضطراب والفوضى .

وبهذا صارت دولة أبى الحسن تشمل أقاليم المغرب الثلاثة وأصبح بذلك ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق — على حد قول ابن خلدون . ولكن اضطر أبى الحسن للجلاء عن (أفريقية) بسبب ثورة قامت فيها ، وقد واجهت الأسطول المغربى أثناء عملية الجلاء هذه نكبة ، فقد عصفت به الرياح وغرق الكثير من سفنه ، وكان من بين الغرقى ما ينيف على أربعمائة من أعلام المغرب الممتازين الذين كان يصحبهم السلطان معه فى حله وترحاله وإن شاءت الأقدار أن ينجو السلطان أبو الحسن نفسه .

وقد تميز عصر هذا السلطان (أبو الحسن) بصلاته مع معاصريه من ملوك الإسلام فكانت له سفارات مع حكام فارس ، ومع السلطان (الناصر محمد ابن قلاوون) — سلطان مصر والشام والحجاز الذى أرسل له سنة (٧٣٨ هـ — ١٣٣٧ م) يخبره باستيلائه على تلمسان

وسفارة السلطان (أبو الحسن المرينى) هذه ورسالته ورد السلطان المملوكى

عليها كانت موضع أخذ ورد من كثيرين من المؤرخين , فقد لاحظ البعض أن (ديوان الإنشاء) فى مصر خلع على السلطان المرينى لقب (أمير المؤمنين) دون أن يخلعه هو على نفسه ، إذ كما يقول — القلقشندى أن رسالة السلطان المرينى جاء فيها : [بن عبد الله أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين مالك العدوتين — ملك البرين أبى الحسن ..][1] .

على كل ليس هنا مجال مناقشة هذه القضية . كما كانت له سفارات مع ملك مالى (منسا بن موسى) ، وغيره من ملوك السودان فى عصره .

وقد اشتهر عهد أبى الحسن المرينى بأعماله العمرانية — فقد شيد عدداً كبيراً من المدارس وعمرها وأسبغ على العلماء النعم فنضجت العلوم وأينعت ثمارها . من ذلك مدارس فارس ، وتازا ، ومكناس ، وسلا ، وطنجه ،وسبته ، والدار البيضاء وآزمور ، وأسفى ،ومراكش ، وأغمات ، والقصر الكبير ، وتلمسان ، والجزائر وغيرها .

وقد رتب لهذه المدارس الكتب وأجرى المرتبات على الطلبة والأساتذة والخدام ، وأوصد لها الأوقاف التى تحفظ أودها وغير ذلك — كما يذكر — ابن مرزوق[2] .

وحين نازعه ابنه (أبو عنان) السلطان — تنازل له عنه ، وعمل أبو عنان على استرجاع نفوذ الدولة المرينية على المغربين الأوسط والأدنى .

وقد كان الخلاف على العرش بين أفراد البيت المرينى مما أدى لكثرة الفتن والقلاقل فضعفت الدولة واستبد الحجاب والوزراء (بنى وطاس) بالأمر .

وكان عبد الحق (توفى سنة ٨٦٩ هـ) آخر ملوك بنى مرين من فرع (بنى عبد الحق) ، وقد ترتب على هذه الفوضى التى انتابت الدولة أن استقلت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٠٧ .

(٢) ابن مرزوق ، عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب ت ٧٨٢ هـ ١٣٨٠ م : المسند الصحيح الحسن فى أحاديث "سلطان الحسن . (الأصل بخزانة الاسكوريال — وهناك صورة [illegible] العامة بالرباط — وقد نشر طرف منه بمجلة معهد الدراسات العليا المغربية بمجلدها [illegible] ١٩٦٤) .

جهات برمتها عن سلطتها ، فاستولى [أبو عبد الله محمد الشيخ] سنة ٨٧٦ هـ [على فاس] وظل أميراً عليها حتى عام ٩١٠ هـ .

وخلفه ابنه [أبو عبد الله محمد] الذى عرف بالبرتغالى لأنه قضى أسيراً عند البرتغال سبع سنوات تقريباً أتقن فيها اللغة البرتغالية ، وقد احتدمت الحرب بينه وبين البرتغال الذين طمعوا فى السواحل الغربية .

ولما مات [أبو عبد الله] سنة ٩٣١ هـ خلفه أخوه [أبو حسونه] بينما كان الأمر فى [مراكش] فى يد السعديين ، وأدى هذا إلى انقسام البلاد واحتدام القتال بين أهلها .

وفى عام ٩٥٦ هـ نجح السعديون فى دخول [فاس] ، وقبضوا على بقايا الوطاسيين باستثناء [أبى حسونه] الذى فر إلى الجزائر ليستنجد بالأتراك العثمانيين فانجدوه بجيش توجه صوب (فاس) — لكن لم تلبث أن دارت الدائرة على (أبى حسونه) ودخل (محمد الشيخ السعدى) فاس وألقى القبض على أبى حسونه وقتله وبذا انقضى عهد حكم الوطاسيين .

وقد أدت الإضطرابات والنزاعات بين المتنازعين على العرش بالإضافة إلى الكفاح ضد الأطماع الأجنبية — إلى عدم التفرغ للمشاريع العمرانية ، فلم تبق لهذه الحقبة ، آثار عمرانية تذكر بل بالعكس أصاب بلاد الشمال الأفريقى الكثير من التخريب .

ويعتقد بعض المؤرخين أن قيام الدولة السعدية — التى أسسها فى المغرب (أبو عبد الله القائم بأمر الله) سنة ٩١٦ هـ — خلص المغرب من كثير من الأخطار التى كان يواجهها بسبب الأطماع الاستعمارية الأوربية من ناحية ، وأطماع الاتراك العثمانيين الذين كانوا قد بسطوا سلطانهم على الجزائر وتونس من ناحية أخرى . وأصبحت أنظارهم مركزة على المغرب الأقصى على أن تاريخ المغرب حفل فى ذلك الوقت بأخبار هذا الكفاح ضد هذه الاطماع التى زادت من خطرها هذه الفوضى التى ضربت أطنابها منذ فقد الشمال الأفريقى وحدته وأصبح يفتقر لقوة حقيقية يرهبها أعداء العرب والعاملون فى بلادهم .

الدولة الزيانية

(بنو عبد الواد) فى المغرب الأوسط

عاصر الزيانيون — المرينيين، فقد قامت دولتهم فى تلسان سنة (١٢٣٥م) ، وتعرضت هذه الدولة بحكم وضعها لهجات الحفصيين والمرينيين ولغزوات القبائل من الجنوب . وأول حكام هذه الدولة (يغمر إسن بن زيان بن ثابت) ، وقد أخلص أول الأمر لطاعة الموحدين ، لكن حين وصلت الدولة الموحديه إلى درجة كبيرة من الضعف تطلع (بنو عبد الواد) إلى التملك على المغرب الأوسط والانفراد بالسلطة فيه ، فحملوا الدولة الموحدية على التنازل لهم عن إمارة (تلمسان) .

واستقل (يغمر إسن) بتلمسان ، حتى لم يبق للموحدين بها سوى الخطبة فاستاء لذلك خليفة الموحدين (أبو الحسن السعيد — الملقب بالمعتصم) وخرج لقتال هذا الخارج على سلطانه ، وأنتهى الأمر بقتل خليفة الموحدين أبى الحسن وأدى ذلك لتثبيت أركان (دولة بنى عبد الواد) التى عرفت بعد ذلك فى عهد السلطان (أبى حمو الثانى) باسم الدولة الزيانية نسبة إلى والد « يغمر إسن بن زيان » .

واستطاعت هذه الدولة بأن تباشر سلطتها من (تلمسان) التى أصبحت قاعدة المغرب الأوسط[١] ، وتلقب سلاطينها بلقب (أمير المسلمين) ، ولم يثبت عنهم دعوى الخلافة .

ولكن موقف هذه الدولة كان من المبدأ محفوفاً بالمخاطر فقد كانت تتعرض لأطماع كل من (الحفصيين) الذين كانوا يطمعون فى أن يرثوا ملك الموحدين ، كما كانت معرضة أيضاً للإصطدام بالمرينيين .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦١ .

واضطر (يغمر إسن) مؤسس هذه الدولة إلى أن يتفاهم مع الحفصيين فى الوقت الذى ظهر أنهم من القوة بحيث بسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط كله .

كما اضطر للتهادن مع المرينيين الذين زحفوا حتى أبواب تلمسان وكادوا يقضون على دولة بنى عبد الواد الزيانية حتى أنه أوصى ابنه ووريثه (عثمان) قبل وفاته بأن يتجنب المجابهة مع المرينيين .

وحاول أبو سعيد عثمان (١٢٨٣ ه — ١٣٠٤ م) العمل بوصية أبيه لكن المرينيين لم يكادوا يتخلصون من مشاكلهم مع قشتالة وبنى الأحمر بالأندلس حتى اتجهوا لحصار تلمسان، واستمر الحصار عدة سنوات حتى اضطر المرينيون عقب اغتيال السلطان المرينى (يوسف بن يعقوب) إلى رفع الحصار .

ورغم أن سلاطين الدولة الزيانية استطاعوا بعد ذلك توطيد مركزهم الداخلى ، بل والتوسع على حساب الحفصيين — لكن استطاع المرينيون فى [٧٣٧ هـ ١٣٣٧ م] القضاء على الدولة الزيانية فى دورها الأول باحتلالهم تلمسان وإخضاعها لسلطانهم .

ولكن انبعثت الدولة الزيانية من جديد بعد ذلك على يد أبو حمو موسى الثانى [٧٦٠ هـ ١٣٥٩ م] وظل أمر هذه الدولة قائماً حتى ركن ملوكها للتواكل وكثر النزاع على الرئاسة بينهم فانتشرت الفوضى بين الناس واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ بما اتصل بأيديهم من أسباب الولاية والحكم واضطربت الأحوال .

وأتاح هذه الفرصة للأجانب الذين كانوا يتطلعون لمد نفوذهم للشمال الأفريقى ، وانتهى الأمر بأن استولى عليها الأتراك فى عام ١٥٥٤م[1] .

---

(١) عقد فى عام (١٤٩٤) مؤتمر (طوروزلاس) بعد الأحداث التى مرت بها الأندلس وفى هذا المؤتمر الذى يعد حلقه فى الحروب الصليبية تقرر مد النشاط الصليبى إلى الشمال الأفريقى ، وسيترتب على ذلك أن يتجه نشاط الاسبان بالاخص إلى بلاد الجزائر ، بينما اتجه البرتغال إلى المغرب الأقصى .

هذه صورة سريعة للمغرب العربي فى مستهل العصور الحديثة .

على أن هذا التفتت والإنقسام فى المغرب العربى شجع الدول الطامعة فى هذه البلاد لأن تعمل على بسط نفوذها عليها وهو ماسنعالجه فى الباب التالى .

* * *

أولا – الأطماع البرتغالية والاسبانية في المغرب الأقصى

الباب الأول

إتجاه الأطماع الأجنبية

إلى المغرب العربى

(فى بداية العصور الحديثة)

مباحث هذا البـــاب :

الفصل الأول

الأطماع البرتغالية

ارتبط تاريخ شمال أفريقيا ، والمغرب العربى بالذات وتأثر بالأوضاع فى العالم الإسلامى عامة ، كما ارتبط إلى حد كبير بالتاريخ الأوربى خاصة تاريخ البلاد المطلة على هذه الشقة المائية التى تفصل — أو بالأصح تصل خاصة فى مناطق الإختناق أو التلاقى عند جبل طارق — بين دول جنوب أوربا ودول شمال أفريقيا — بحيث يصعب فهم تاريخ شمال أفريقيا خاصة فى الفترة التى ندرسها منذ القرن الخامس عشر حتى وقتنا هذا دون الإلمام بالاحداث التى كانت تتفاعل فى هذه الأقاليم الأوروبية وتلك التى كانت تسير أمور العالم العربى عامة .

وفيما يتعلق بالدول الأوربية لعل أحداث شبه جزيرة أيبيريا كانت أقوى أثراً من غيرها على مجريات الأمور فى المغرب العربى .

فقد كانت شبه جزيرة أيبيريا — كما نعلم — محتلة من العرب ، ولما بدأت شعوب شبه الجزيرة تنشط فى مقاومة العرب ، بعد الظروف التى أحاطت بالدولة الأموية فى الأندلس ، استطاعت البرتغال أن تحقق حريتها فى القرن الثالث عشر قبل أسبانيا ، بينما ظلت أسبانيا حتى القرن الخامس عشر تطارد العرب فلم تسقط غرناطه إلا فى سنة (١٤٩٢م) وأضحت الأندلس كما أطلق عليها الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) .

على أن هذا الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تقتصر آثاره على شبه جزيرة أيبيريا فقط بل إمتدت أثاره إلى شمال أفريقيا ، فقد حمل مسيحيو الأندلس شمال أفريقية تبعه الغزو الإسلامى لبلادهم وتدعيم هذا الغزو ، كما صبوا نار غضبهم على المسلمين فى أسبانيا ، ففر منهم من استطاع الفرار بدينه

وبقى من عجز عن الفرار وتعقب المسيحيون المسلمين الفارين إلى الشمال الافريقى وقامت حروب طاحنة أطلقوا عليها اسم حروب الاسترداد . Recon Quista [1] .

ولم تكن هذه الحروب أقل ضراوة مما دار من حروب فى الشرق بين المسلمين وبين الذين جاءوا متخفين وراء صليب المسيح من الأوربيين ، وهكذا يمكن أن نقول إن موجة الحروب الصليبيه التى هدأت وطأتها فى الشرق بدأت تظهر آثارها بالمغرب وبعنف وإصرار لا يقلان عما كانت عليه فى أوجه قوتها فى الشرق ، ولعل المشاهد يدهش لانتقال سيرة هذه الحروب من الشام إلى مصر ثم إلى تونس ثم الجزائر والمغرب الاقصى .

وقد أتيحت الفرصة للبرتغال للاتجاه بحرياً وخارجياً فى وقت مبكر عن الاسبان — كما ذكرنا — لعدم وجود عدو داخلى يشغلها كما هو الحال بالنسبة لاسبانيا فى ذلك الوقت .

وقد أعطت الحروب ضد العرب والمسلمين التى أشرنا اليها . البرتغال دفعة دينية قويه بدليل أن الملك يوحنا — والد الامير هنرى الذى عرف فى الكتب باسم هنرى الملاح (Henry The Navigator) — صرح بأن الميدان الحقيقى الذى يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين فى المغرب ، وإنه سيمنح أكبر وسام فى بلاده وهو (وسام السيد الأعظم) لمن يجاهد فى هذا الميدان ،وكان هذا الشرف من نصيب (هنرى) الإبن الثالث للملك الذى تصدى لهذه المهمة، وكان إغداق الملك عليه بالرتب ومن دوافع استحقاقه بالمخاطر فى سبيل تحقيق الهدف الذى أعلن عنه الملك .

يضاف إلى هذا أن هنرى نفسه ، كان على رأس الجماعة التى عرفت باسم

---

(٢) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص٢٨٩ .
ملاحظة : استعن بالخريطتين رقم ٧ ، رقم ٨ بملحق الكتاب .

(جماعة المسيح) ونواة هذه الجماعه بعض الفرسان الصليبيين الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم فلجأوا إلى البرتغال وكانوا بالطبع يتوقون للإنتقام من المسلمين ،كما كانت من أمنيات الامير هنرى — كما صرح هو — أن يعمل عملا يتقرب به إلى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية فى سواحل أفريقيا الشماليه وبين الوثنيين الأفريقيين ،

هذا وقد راودت (الأمير هنرى الملاح) الذى حكم البرتغال فيما بعد (١٣٩٤ — ١٤٦٠م) — فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولى على سواحل أفريقيا الشمالية ، بل وتتابع أيضاً علها تصـــل إلى مصادر الثروة التى كانت تعتبر الأساس الذى يستند عليه المسلمون لتدعيم جيوشهم — وكانت هذه الخطة تتجه أولا للوصول إلى (غانة) التى ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين ، وكانت ثغور المغرب تعتبر المنافذ الرئيسية لهذه التجارة — فرأىأن يقطع عن المسلمين هذه التجارة وبذا يستنزف مصادر قوة البلاد الإسلامية فى شمال أفريقيه ، بل وصرح أن أهدافه أن ينشر المسيحية بين سكان المنـــاطق الاوربية الواقعة خلف هذه السواحل ويستخدمهم بعد ذلك لتحقيق مشروعاته.

وتطورت هذه الخطط فيما بعد إلى مدى أوسع فكان التفكير فى الوصول إلى بلاد إثيوبيا المسيحية وهى مملكة كانت شهرتها قد ملأت الاسماع فى أوربا وإن كان مكانها ظل لفترة غير محدد بالضبط وبذا يمكن عقد حلف مع هذه المملكة المسيحية ليتعاونا فى تطويق بلاد المسلمين .

ويمكن بذلك أيضاً الوصول إلى بلاد الشرق التى تدر على المسلمين فىالشرق (المماليك فى مصر والشام والحجاز) أرباحاً طائلة من جراء إحتكار السفن العربية نقل هذه البضائع حتى موانى البحر المتوسط بالإضافة إلى (المكوس) التى تجبى عليها[1] .

---

(١) Panikhar, Sardaa: The Afro-Asian State and Their Proplems, p. 20.

ولتحقيق هذا الهدف اهتم هنرى الملاح بتقوية أسطول البرتغال وجلب الفلكيين وراسمى الخرائط والبحارة من إيطاليا وصقليه - وأنشأ مدرسة بحرية واهتم بتعليم البرتغاليين فن الملاحة على الطرق الجديثه وعلى الأسس العلمية الصحيحة .

وقد أشار الضابط والكاتب البرتغالى (فاسكودى كارافللو) — الذى أرخ للاستعمار البرتغالى فى هذه الفترة — إلى الروح التى كانت تسود الشباب البرتغالى عامة يومئذ فقال :

« إن الشباب البرتغالى كان يعتقد أن المسلمين إذا كانوا قد التجأوا من شبه جزيرة الأندلس إلى الشمال الأفريقى — فإن الواجب يحتم على المسيحين ألا يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا [1].

وفى ٢٥ يوليو عام ١٤١٥ — غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة على ظهر أسطول من ٢٤٠ سفينة وحرصت البرتغال على إخفاء وجهة هذه الحملة حتى وصلت سفنها إلى ميناء سبته المغربى الذى فوجىء بهذا الغزو، ودخل الغزاة المدينة ، ومن هذا التاريخ إلى اليوم لم تعد سبته إلى حظيرة الوطن الأم ، ولذا يقول الضابط البرتغالى (فاسكودى كرافللو) : —

« إن هذا الحدث الخطير والعظيم أجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة ، من أن يتخذ سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين فى ١٤٥٣ — بداية لها »[2].

ولم تستطع الدولة المرينية بالمغرب أن تواجه هذا الخطر الداهم فقد كانت فى دور إحتضارها ، وكان أبو سعيد عثمان (٨٠٠ — ٨٢٣ هـ / ١٣٩٧ — ١٤٢٠ م) يعانى من المشاكل الداخلية ومنها أن نفوذ حجاب الدولة ووزرائها وتدخلهم فى الحكم ، كان قدزاد بشكل ملحوظ .

---

(١) De Caravalho, Vasco: La Domination Portugaise Au Maroc, 1415-1789 (Lisbonne, 1936) p. 15

(٢) Ibid. p. 17.

وقد حاول هذا الحاكم المغربى فى عام ١٤١٩ م أن يتخذ خطوة — بالإشتراك مع القوى الإسلامية فى غرناطة — لتوجيه حملة بحرية وأخرى برية ضد البرتغاليين فى سبته لكن أضطرت القوات الإسلامية المهاجمة للعودة ، ولم يجدد المغاربة محاولاتهم لإسترداداها إلا بعد ذلك بفترة طويلة .

على أن البرتغاليين لم يكتفوا بالإستيلاء على سبته ، فبعد أن ثبتوا أقدامهم فيها وحصنوها إتجهت أنظارهم إلى طنجه ، وأعدت حمله من ٨٠٠٠ جندى لتحقيق هذا الهدف ، ووصلت هذه الحملة إلى سبته فى ٢٧ أغسطس ١٤٣٧ م وأنقسمت إلى قسمين قسم على رأسه الأمير (D. Henrique) أتخذ الطريق البرى صوب طنجه ، والآخر على رأسه الأمير (D. Fernando) اقلع عن طريق البحر وذلك بهدف الإطباق على المدينة من البر والبحر .

اجتاح هذا الخطر الجديد المغرب فى فترة حرجة من فترات تاريخية فقد كان السلطان المرينى (أبو سعيد عثمان) قد قتل فى عام (٨٢٣ هـ ١٤٢٠) وخلفه ابنه عبد الحق وكان طفلا صغير السن، فآلت أمور الدولة إلى الحجاب والوزراء وكثر النزاع بينهم . لكن نجح الوزير (أبو زكريا يحيى الوطاسى) فى أن يقبض على ناصيه الأمور ونصب نفسه وصياً على الملك الطفل وأرسل للاقاليم المغربية يحضها على الإسراع فى تقديم المعونة للمدينة المجاهدة وكان هو على رأس الجيوش المدافعة عنها ، وانتهت المعركة بهزيمة البرتغاليين وعجزهم عن اقتحام المدينة والإستيلاء عليها ، واضطروا بعدأن أنزلت بهم القوات المغربية المستميته فى الدفاع عن بلادها خسائر فادحة أن يدخلوا فى مفاوضات للصلح ليستطيعوا الجلاء بقواتهم الباقية ، وكان مما أثاره الجانب المغربى كشرط أساسى للصلح أن يجلو البرتغال أيضاً عن ميناء (سبته) . لكنهم اعتبروا هذه لطمة تودى بسمعة الملكية البرتغالية الناشئة ، وفضلوا أن يبقى شقيق ملك البرتغال الصغير (Fernando) رهينة لدى السلطات الغربية لضمان عدم معاودة البرتغال الهجوم على طنجة أو غيرها من الموانى المغربية ، وقد ظل هذا الطفل سجيناً فى فاس ،

حتى مات فى ٥ يونيه ١٤٤٣ م ، وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ضمن الشهداء[1].

على أن هزيمة البرتغال وعجزهم فى هذه المرة عن إقتحام طنجة ، وشروط الصلح التى أضطروا لتوقيعها مع السلطات المغربية لم تثنهم عن الإعداد لمتابعة عمليات الغزو للثور الغربية .

وأشير إلى ظاهرة مهمة أضفت على هذا الصدام بين هذه القوى الأوربية وبين المسلمين بالمغرب العربى — صفة الحرب الدينية — وهى ظاهرة إنتشار الطرق الصوفية فى المغرب بالذات ، منذ أيام المرابطين والموحدين ، وكان سادة مراكش فى ذلك الوقت قد منعوا أتباع هذه الطوائف من مزاولة نشاطهم خارج زواياهم — لكن الأحداث التى ارتبطت بمحاولات الغزو البرتغالى للثور المغربية — جعلت أتباع هذه الطرق الصوفية ينشطون من جديد ويظهرون على مسرح الأحداث فى مواجهة هجمات البرتغاليين وغيرهم من القوى المسيحيه خاصة بعد أن أظهرت السلطات فى (فاس) عجزها عن مقاومة هذه الهجمات البرتغالية ودفعها .

وكانت أكثر طوائف الصوفيين حماساً فى ميدان الجهاد ضد هذه القوى الإستعمارية طائفتان :

١ — أتباع الطريقة القادريه — التى تنتسب لعبد القادر الجيلانى الذى أنشأ هذه الطريقة فى فاس منذ القرن الحادى عشر الميلادى (مات فى بغداد سنة ١٠٦٦ .

٢ — وأتباع الطريقة الجزولية — التى تنتسب إلى محمد بن سليمان الجزولى الذى أنشأ هذه الطريقة فى القرن الخامس عشر . ووجد الوطاسيون أن الحكمة

---

(١) من أفضل المراجع عن أحداث هذه الحملة :

Ruy De Pina : Chronica De Sero ut Supra, T· I. (1790) pp. 16-42.

تقضى بتوجيه نشاط هذه الطوائف الصوفية إلى مجابهة العدو الخارجى . ولعل هذا يفسر لنا السبب فى اتجاه (أبو زكريا الوطاسى) وأتباعه إلى تشجيع أتباع هذه الطوائف ، والسماح لهم بإحياء ذكرى قادتهم بعد أن كانوا قد أجبروا على التقوقع داخل زواياهم[١] .

على أن استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ كان له من الناحية الأخرى تأثير ضخم على مجريات الأحداث فيما يتعلق باوروبا وموقفها من العالم الإسلامى ، فقد كان لسقوط عاصمة الامبراطورية البيزنطية فى يد هذه الدولة الإسلامية الفتية دوى هائل فى أوربا حتى أن الكنائس دقت أجراسها الدقات الجنائزية حداداً على هذا الحدث الجلل، ودعا البابا إلى حرب صليبية جديدة ضد القوى الإسلامية التى تهدد العالم المسيحى ، وكان من الذين استجابوا لهذا النداء الفونس الخامس (Alphanse V) ملك البرتغال .

وكان هذا الملك البرتغالى قد أخذ منذ وصل إلى عرش البرتغال فى عام ١٤٣٨ - يعد العدة لمتابعة عمليات الغزو للثغور المغربيه، وكان مما استقر عليه رأى هذا الملك ومستشاريه أن توجه الجهود أولا - للاستيلاء على ميناء (القصر الصغير) الواقع بين سبته ، وطنجه توطئة للاستيلاء على طنجه ، وقاد الملك الفونس - فى ٢١ اكتوبر ١٤٥٨ حملة ضخمة لمهاجمة ميناء القصر الصغير ، ونجحت الحملة فى تحقيق أهدافهما فاقتحمت القوات البرتغالية الميناء المغربى وبنى البرتغال به حصنا لحمايتهم[١] .

وفى وسط الجو الدينى المشبع بالإثارة الذى سيطر على العالمين الإسلامى والمسيحى ، وفى وسط الأحداث التاريخية المتتالية المتمثلة فى الزحف العثمانى

---

(١) توجد صورة دقية الحصن البرتغالى فى القصر الصغير بمحفوظات تطوان .

من الشرق على أوربا ، وانحصار سلطان المسلمين عن الأندلس لم يكن غريباً أن تشهد بلاد المغرب فصلا أو أكثر من فصول هذا الصراع الذى اتسم بالسمة الدينية . فقد أعدت الحملة الصليبية التى دعا اليها البابا إثر سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين ، على أن الملك البرتغالى (الفونس الخامس) نجح فى أن يوجه هذه الحملة الصليبية إلى المغرب بدلا من أن تكون صوب القسطنطينية ، وذلك بحجة إرساء قاعدة بحرية فى الشمال الأفريقى تكون فى خدمة الأساطيل والجيوش الأوربية فى المستقبل ، وقصدت الحملة (طنجه) بإعتبارها أنسب مكان لذلك لكنها فشلت فى الإستيلاء عليها [1] .

على أن الأستيلاء على (طنجه) ظل منذ ذلك الوقت الحلم الذى يتطلع التاج البرتغالى لتحقيقه ، وقد بذلت البرتغالى لذلك ثلاث محاولات للاستيلاء على هذا الميناء المغربى آخرها فى يناير ١٤٦٤ خسر فيها البرتغاليون مايقرب من مائتى قتيل ، وأكثر من ألف أسير .

وقد حاول أتباع (الجزولى) من الصوفية الذين بلغ عددهم فى ذلك الوقت ما يقرب من ثلاثة عشر ألف ، وملأوا البلاد بالزوايا والمجاهدين ، أن يمسكوا بدفة الأمور فى تلك الساعات الحاسمة ، لكن البلاد كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب أدت إلى كثير من الفتن وحوادث القتل والاغتيال ، خاصة بعد مقتل (عبد الحق أبى سعيد المرينى) فى عام (٨٦٩ هـ - ١٤٦٤) ، فقد كان هـــذا السلطان يهودياً استبد بالناس ، فضج أهل فاس بالذات وفتكوا بالسلطان والوزير معاً وانتخبوا للإمارة أحد الشرفاء من أحفاد الأدارسة هو (أبو عبد الله الحفيد) ، لكن لم تستقر له الامور فقـــد نافسه فى الإمارة

---

(١) ملاحظة :

اصدر البابوات فى هذه الفتر من الصراع عدة مراسيم دعوا فيها الجهاد ضد المسلمين ، نذكر منها على سبيل المثال المرسوم الذى أصدره البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) والمرسوم الذى اصدره البابا كالست الثالث (Galliste III) الذى تولى كرسى البابوية (١٤٥٥ — ١٤٥٨) ، والمراسيم التى اصدرها البابا اسكندر السادس بعد ذلك — وقد وصل الأمر ببعض هؤلاء البابوات الى انهم وصفوا الاسلام بانه الطاعون الذى يجب القضاء عليه نهائيا .

(محمد الشيخ بن أبى زكريا الوطاسى) عامل أصيلا الذى سار إلى فاس وحاصرها ، وأستمر الصراع بين الإثنين من عام ١٤٦٥ الى عام ١٤٧٢ .

ولم يتأخر البرتغاليون فى الإستفادة من هذه الفوضى — فأرسلوا فى عام ١٤٦٩ — قوة هاجمت انفا (Anfa) واستولت عليها . كما أرسلوا فى ١٤٧١ قوة استولت على أصيلا (Arzila) وأسرت الحامية البرتغالية عدداً كبيراً من المدافعين عن المدينة ، وفى قصبة المدينة قبضوا على كثير من النساء والأطفال منهم أولاد وزوجات (محمد الشيخ بن أبى زكريا) .وكان فى هذا الوقت مشغولا بحصار فاس فأسرع بجيشه لنجدة المدينة المنكوبة لكنها كانت قد سقطت فى أيدى البرتغال — فدخل معهم فى مفاوضات انتهت بعقد صلح أتفق فيه على ألا يحاول المغاربة الهجوم على القوات البرتغالية فى المناطق التى احتلوها ، وأطلق البرتغال صراح زوجات محمد الشيخ وأولاده ماعدا أحد أبنائه الذى بقى كرهينة عندهم لضمان تنفيذ شروط المعاهدة[1] .

ولم يلبث البرتغال أن استولوا على العرائش . ثم استولوا على (طنجة) فى أغسطس ١٤٧١ ، وقد سقط هذا الميناء الذى استعصى من قبل عليهم — فى أيديهم دون مقاومة تذكر فقد كانت الخلافات الداخلية تفتت الجهود وتصرفها عن التفرغ للعدو الخارجى.ومن ذلك التاريخ أصبح ملك البرتغال يلقب بلقب ملك البرتغال والأقاليم البرتغالية فيماوراء البحار .

وقد هاجم السلطان (محمد الشيخ) مدينه سبته فى عام ١٤٧٦ ،فى محاولة لتوجيه ضربة للبرتغال بها ، وكان مدفوعاً فى ذلك بإيعاز من ملك أسبانيا فرديناند الكاثوليكى (Ferdinand le Catholique) الذى كان فى حرب ضد الفونس الخامس(Alphonse v)والذى وعد بمهاجمة المدينة بحراً فى الوقت الذى تهاجمها فيه القوات المغربية من البر

---

(١) هو (أبو عبد الله محمد) وقد قضى عند البرتغال سبع سنوات تقريبا . . كما أشرنا سابقا — وحين رجع كان يتقن اللغة البرتغالية — فلقب بالبرتغالى وقد حكم (٩١٠ — ٩٣١ هـ ـ ١٥٠٤ — ١٥٢٤ م)

(٢) بقيت طنجه — فى يد البرتغال ما ينيف على قرنين من الزمان حتى تنازلوا عنها للانجليز عام ١٦٦١ ، كمهر قدمته(كاترين دوبرا كانس) شقيقة ملك البرتغال لزوجها شاول الثانى ملك انجلترا — وقد استردها المولى اسماعيل (١٠٩٥ هـ — ١٦٨٤ م) ..

لكن استطاعت القوات البرتغالية فى سبتة أن تصمد لهذا الهجوم ، كما نجح البرتغال فى عقد صلح مع قشتالة فى ٤ سبتمبر (١٤٧٩) ،وأعقب ذلك معاهدة صلح فى ٦ مارس (١٤٨٠) وضعت نهاية للحرب بين الدولتين وأطلقت فيها أسبانيا يد البرتغال فى الموانى المغربية .

واتجه البرتغال إلى الطريقة التى سادت بعد ذلك فى القارة الأفريقية والتى اتبعتها الدول الإستعمارية المختلفة وهى الإتصال بالسلطات غير الشرعية أو بالخارجة عن سلطة الحكومة المركزية ومحاولة الاتفاق معهـــا لتحقيق أطماعها الإستعمارية .

وكانت قبائل (المصامدة) بالذات التى — كما يقول البكرى — قد تأيدت فى الجبال واشتهرت بالمنعة والبأس وحظيت بما لم يحظ به غيرها من الثراء والإستقرار[1] — لا تعترف بالسلطة المطلقة لحكام فاس .

وكانت مواطن هذه القبائل — وهى أماكن لها أهميتها باعتبارها الظهير للموانى المغربية الهامة على المحيط الاطلسى — مركز ثورة وإضطراب، واشتهرت من قبائل المصامدة (هنتاته) وموطنهم — الجبل المتاخم لمراكش ، و (دكالة) وموطنهم الساحل المواجه لجبال الأطلس من جانب الحوف فيما يلى مراكش إلى البحر ، (حاحة) وموطنهم السوس الأقصى . فاتصل البرتغال ببعض شيوخهم المناوئين لسلطة الحكومة المركزية فكانوا يهموتهم بحاجة جيوشهم من المؤن والخيل وغير ذلك[2] .

---

(١) البكرى : الممالك والمسالك ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) المصامدة نسبة إلى مصمود بن يونس ، وهم من أكثر قبائل البربر عدداً ، وكان لهم التقدم والدولة قبل الإسلام وبعده — ولم تزل مواطنهم بجنوب المغرب الأقصى منذ الأجيال المتطاولة كما يقول المراكشى فى المعجب .

وانظر : ابن خلدون ج ٦ ص ٤٦١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

ويعتبر ابن خلدون من أعظم المؤرخين الذين كتبوا عن البربر

وأقام البرتغال فى جزيرة نهرية فى اللوكس حصناً أطلقوا عليه إسم حصن جراسيوزا Gra ciosa ليشرفوا منه على مراكزهم فى المواقع الأصلية فى (سبتة) ، و (القصير الصغير) و (طنجه) و(أصيلا) .

ومهد جيان الثانى JeanII الذى حكم البرتغال(١٤٨١ — ١٤٩١) لبسط النفوذ البرتغالى على ميناءى (أسفى) و (أزمور) فعقد مع شيوخ القبائل فى المناطق المحيطة بالمينايئين معاهدات وإتفاقات كفلت للبرتغال بعض الامتيازات فيهما[١] .

وتركزت أنظار الملك عمانوئيل الأول Emanuel 1. الذى توصل لعرش البرتغال سنة ١٤٩١ أولا على (أسفى) الثغر المغربى الواقع على شاطىء البحر المحيط بأقصى الغرب — كما يقول ياقوت فى معجم البلدان [٢] .

وكانت أسفى فى ذلك الوقت تتنازعها عدة سلطات هى :

(أ) سلطة الوطاسيين الضعيفة .

---

(١) نصوص هذه الإتفاقات موجودة بالأرشيف البرتغالى :

Archives Nationales de La torre do Tombo Gaveta 11 Maco 1, No. 7.

(٢) يقول ياقوت فى معجم البلدان :

اسفى بفتحتين ، وكسر الفاء ، بلدة على شاطىء البحر المحيط باقصى المغرب ، وتارة بسكون مهموزة ، وتارة ممدودة — وكلاهما قيل به .

أما عن سبب تسميتها هذه ، فهناك أقوال متعددة فى هذا الشأن — فابو عبد الله محمد ابن محمد الشريف الادريسى (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤) فى نزهة المشتاق يورد قصة طويلة يرجع لها هذا التسمية .

لكن آسفى فى لغة الشلوح معناها (المدينة) أو محطة الحجاج ، فلعل هذا هو السبب المعقول للتسمية .

(ب) سلطة رؤساء القبائل فى المنطقة التى اقتطعوها من حكومة الوطاسيين ولم يقدروا على إدارة أمورها .

(ج) سلطة البرتغاليين المتسربة بواسطة الدسائس والإتفاقات مع مشايخ القبائل .

ويحدثنا الحسن بن الوزان (ليو الأفريقى) عن أسفى بأنها كانت مدينة تجارية هامة وأنها حتى ختام القرن الخامس عشر كانت تلعب دوراً هاماً فى تجارة غرب أفريقيا وشمالها الغربى ، كما يشير إلى كثرة النزاع بين قبائلها وأن الدول الاستعمارية أستفادت من هذه الخلافات والأطماع القبلية لتدعيم نفوذها فى هذا الثغر الهام . فيذكر أن شخصا يدعى (عبد الرحمن) أستطاع الوصول للسلطة فى أسفى بمساعدة البرتغال ، لكن قتله يحى بن تعفعفت Yahia Ben Tafafıt وأصبح هو أيضاً صاحب النفوذ فى أسفى بتقربه للبرتغال ، وقد لعب هذا الأخير دوراً حاسماً لتدعيم نفوذ البرتغال فى هذه الجهات [١] .

وكانت لأسفى بالذات أهمية خاصة باعتبارها مرسى مراكش ونافذتها ، وفى عام (١٥٠٨) أرسل الملك عمانوئيل الأول قوة برتغالية حملتها أربع سفن حربية لتدعيم نفوذ البرتغال فى أسفى وتأييد السلطات الموالية لهم بها وإسكات أصوات المعارضين للنفوذ الأجنبى فى الميناء ، واستطاع قائد القوة البرتغالية (C.Mendes) أن يحصل من سلطات الميناء على حق بناء دار تحفظ للبرتغال بضائعهم ويأوى إليها التجار من رعاياهم حين يحضرون بسفنهم للإتجار مع هذا المنفذ البحرى ، وبنى البرتغال لهذا الهدف قصبة مربعة الشكل جعلوا على كل ربع منها برجاً ،

---

(١) Leo Africanus : The History and Description of Africa (Published by Hakluyt) . (London, 1896) pp. 284-193, 367.

وجعلوا فى وسطها عدة دور وخزائن سمح لهم حاكم أسفى بإقامتها باعتبارها دوراً للتجارة ، لكنها فى الواقع كانت قلعة حربية ، فلما اكتمل كل شىء فتحوا لها باباً على البحر وقيل إنه من هـذا الباب كانوا يزلون عساكرهم ، كما كانت أسلحتهم تأتى فى صناديق تحمل للداخل حيث تفرغ باعتبار أنها بضائع ، ولم يفطن لذلك المسئولون عن الميناء إلا بعـد أن تجمعت للبرتغال القوة فانقضوا على السكان بأسلحتهم حتى اضطروهم للجوء إلى المساجد وأسلم لهم الميناء [1] .

وقد عامل البرتغال أهل أسفى بعد تسليمهم للسلطات البرتغالية أسوأ معاملة وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وأهانوا المعاهد الدينية ، فنقضوا بعضها حجراً على حجر ، بينما جعلوا المسجد الكبير محلا للقاذورات وعبثوا بالمحارم واستباحوا التجارة فى الأحرار فباعوا أهلها جهاراً ، وسفكوا الدماء ونهبوا المال وهدموا الدور [2] .

ولعل خطاب سكان أسفى للملك عمانوئيل الأول المؤرخ ٢ يوليه ١٥٠٩ — يعطى فكرة عن الأوضاع فى المدينة وماعاناه المواطنون من جنود الإستعمار ،

---

(١) زار المؤلف بقايا الحصن البرتغالى بأسفى المعروف اليوم بقصر البحر Chateau de Mer وهو مقام على ربوة تطل على المحروبه ثلاثة أبراج ، أحدها برج القيادة حيث توجـد سلالم تؤدى الباب الذى يؤدى للبحر ، ومن أعلى هذا البرج يظهر مكان السارى البرتغالى ، وحوائط الحصن من الحجارة السميكة ، والنوافذ عاليه وبشكل يهيىء لمن فى الداخل الحماية والقواعد تحتها عليها المدافع البرتغالية الموجهة للبحر أو المدينة . وبداخل الحصن فى الدور السفلى مساكن الجنود وساحة لتدريبهم وخزان للمياه — وفتحات النوافذ بشكل الصليب — وملحق بالحصن مكان موحش هو سجن للمعتقلين — والحصن يؤدى سرداباً طويل الى الكنيسة البرتغالية — وهناك بقايا السور الذى أحاط به البرتغال المدينة ، وبنوه بشكل يمكنهم من التحكم فى المدينة كلها بعد أن هدموا السور القديم وأقاموا المدافع فى أماكن متفرقة من هذا السور .

وهذا الحصن يعطى صورة للحصون البرتغالية الأخرى التى أنشئت بنفس النظام فى الموانى المغربية التى وقعت فى أيديهم

(٢) الكانونى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الكانونى العبدى : آسفى وما إليه قديما وحديثا (١٣٥٣ هـ) ص ٨٢ .

وكذلك الأسلوب الذى اتبعه البرتغال لتثبيت أقدامهم وفرض سلطانهم على القبائل هناك[1] .

فقد وجدت السلطات البرتغالية فى تنازع شيوخ القبائل فيما بينهم فرصة لتحقيق أهدافها وبرز هذا الخلاف على الخصوص بين (يحيى بن تعففت) و(على ابن عثمان) ، وكان كل منهما يتقرب للمستعمر ليحصل على تأييده فيعهد إليه مشيخة البلد على أن يقوم بإخضاع الأهالى للسلطان البرتغالى ونقض الولاء للسلطات المغربية . وسكان أسفى يشكون فى خطابهم مما أصاب الجوامع من سرقة الحصر، وتدنيسها ، والاستيلاء على الأوقاف (الاحباس) ، كذلك وصل الأمر إلى أن الجنود البرتغال كانوا يقبضون على أولاد المسلمين ويبيعونهم كالرقيق . فأضطر الكثيرون للهجرة وترك البلد . على أن (يحيى بن تعففت) الذى عين من قبل البرتغال لمشيخة أسفى ، وسلم زمام الأمور المتعلقة بالمسلمين بها يعتبر من الشخصيات التى إستند عليها الحكم البرتغالى هنا ، فقد أدى خدمات ضخمة للمستعمر ، وظل يعمل لحسابه حتى قتل فى عام (١٥١٨) وأعتبر البرتغال فقده خسارة لاتعوض ، حتى أن الوثائق البرتغالية التى ترجع لهذه الفترة تذكر قتله وقتل (ملك بن داود) سنة ١٥٢١ — الذى لعب نفس الدور كما سنشير فى أكادير (سانتا كروز) — على أنه ضربة أصابت عمودين من أهم الأعمدة التى يقوم عليها النفوذ البرتغالى فى الثغور المغربية ، وقد أطلق البرتغال يدى يحيى ابن تعففت فيما يتعلق بشؤون المسلمين حتى إنه وضع التنظيمات وسن القوانين التى تنظم علاقات السكان بعضهم بالبعض الآخر ، وكان ينيب عنه من يقوم بالفصل فى الخصومات بين الأهالى إلى غير ذلك من الشؤون الداخلية[2] . على إنه يبدو

---

(١) نص الخطاب موجود فى .

Archives Nationales de la Torre do Tombo Casa dos Tratados Documents Arabes.

— وقد نشر المؤلف بعض هذه الوثائق كملحق لبحث له نشر فى مجلة معهد الدراسات والبحوث الأفريقية فى جامعة القاهرة — العدد السنوى (لعام ١٩٧٥) .

(٢) نص التنظيمات التى أصدرها يحيى بن تعففت موجوده فى :

Archives Nationales de la Torre do Tombo Casa dos Tratados Documents Arabes.

أن ثقة البرتغاليين به جعلته يشتط فى معاملته للوطنيين حتى اضطر بعض كبار شيوخ القبائل لتقديم الشكاوى ضده للحاكم البرتغالى[1] .

وبسط البرتغال نفوذهم أيضاً على ميناء (الصويره) الواقعة على بعد ٣٨ كيلو متراً جنوبى أسفى على مصب نهر تانسيفت (Tensift) .

كما كانت أنظار البرتغال متجهة إلى ميناء (أكادير) ، فقد كانت لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفذ لحاصلات منطقة (سوس) ومنتجاتها الوفيرة بالإضافة إلى أنه مرفأ صالح لرسو السفن ، وقد أدرك البرتغال هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوف الجغرافية الحديثه فعمدوا منذ عام ١٤٤٧ لربط شيوخ القبائل فى المناطق المجاورة (فى ماسة بالذات) — بإتفاقات.

ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان مغامر يدعى Joao Lopes De Sequira يسعى لعقد إتفاقات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الساحل المغربى على المحيط الأطلسى تتيح له فرصة القيام بنشاط تجارى وخلافه فى هذه المناطق ، ولفت نظره بالذات المناطق المحيطة بـ (أكادير) شمالا وجنوباً .
ولقى هذا الشاب البرتغالى تأييداً من الملك عمانوئيل الأول لكن بصفة غير رسمية — فقد كان هذا الملك يتحاشى الدخول فى نزاع سافر مع الأسبان الذين كانت أنظارهم مسلطة على (جزر كناريا) المواجهة للساحل المغربى فى هذه الجهات وقد وقعت هذه الجزر فى أيديهم منذ عام ١٤٧٦ م[2] .

وقد اضطر المغامر البرتغالى (Lopes) إلى الإعتماد على ثروة زوجته للصرف على أوجه نشاطه فى هذه المناطق الساحلية بالمغرب ، وفق فى عام

---

(١) هناك خطابان للشكوى من تصرفات يحيى بن تعفوفت مقدمان للقائد البرتغالى أحدهما بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٥١٢ ، والآخر فى ديسمبر من نفس العام .
(٢) فيما يتعلق بنشاط الأسبان فى جزر كنارى — أنظر .
Johnston, H. : A History of the Colonisation of Africa by Alien Races (Cambridge, 1913), p. 116.

١٥٠٨ فى بناء حصن (فونتى) فى المنطقة الواقعة شمال أكادير أطلق عليه إسم Senta Cruz de Naiba ، كما استطاع اتخاذ نقطة إرتكاز أخرى على ساحل (ماسه) ، لكنه كان بحاجة لقوة عسكرية للإحتفاظ بهذه المناطق ولحماية نشاطه وليمكنه مواجهة المنافسة والمعارضة القوية من السفن الأسبانية — ولذا عرض (Lopes) على الملك عمانوئيل أن يتنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقه .

وفى عام ١٥١٣ حلت الحكومة البرتغالية محله وعينت هذه الحكومة (D Francisoc de Castro) للنهوض بأعباء المنطقة تحت إشرافها .

ونشاط المغامر الأسبانى (lopes) له أمثلة مشابهة عديدة فى تاريخ أفريقيا وعلاقتها بأوربا[١] .

وقد استطاع (D. Francisco) فى مدة حكمه التى استمرت تسع سنوات (١٥١٣ — ١٥٢١) أن يثبت أقدام البرتغال فى (سانتا كروز) ، فأكمل بناء القلعة البرتغالية بها ، وجعل لها أبراجاً أحاطها بسور لحمايتها وجعل لها بابين أحدهما على البحر والآخر للبر وأعد الميناء لإستقبال السفن ، وقدر عدد رجال الحامية البرتغالية بالحصن فى عام ١٥١٤ بـ ٧٠٠ جندى نظامى تساندهم قوة أخرى من الجنود غير النظاميين ، وعدد من أفراد القبائل الموالية للبرتغال — ومن الشخصيات التى لعبت لحساب البرتغال هنا دوراً هاماً (ملك ابن داود) أحد رؤساء القبائل التى دانت بالولاء للبرتغال ، وكثر ترديد اسمه فى الوثائق البرتغالية بالذات . والكتاب البرتغال يشبهون دوره فى (سانتا كروز) كما أسلفنا بدور (يحيى بن تعففت) فى أسفى — وحين ترك (D. Fransciaco) المنطقة نهائياً فى عام ١٥٢١ كانت أقدام البرتغال قد رسخت فى المنطقة ، وتعتبر فترة حكمه أزهى فترة بالنسبة للاستعمار البرتغالى للمنطقة وليس أدل على ذلك إنه منذ رحيله حتى سقوط (سانتا كروز) فى مارس

---

(١) من أبرز الأمثلة لهذا — نشاط المغامرين الألمان فى غرب أفريقيا وشرقها من أمثال بيترز (Karl Peters) وغيرة قبل دخول بسمارك وحكومته فى هذا الميدان ، كذلك جهود سيسل رودس (Cecil John Rhodes ، التى ترتب عليها بسط النفوذ البريطانى على مناطق شاسعة فى جنوب القارة الأفريقية

١٥٤١ أى فى أقل من عشرين سنة تعاقب على هذه المنطقة أحد عشر حاكماً فلم تنعم فترة حكم أى منهم بالإستقرار حتى أن وضع الحامية البرتغالية نفسها أصبح حرجاً ، فقد أصبحت تفتقر إلى السلاح والرجال ولم تستطع البرتغال أن توجه العناية الضرورية لحاميتها هنا ، حتى إنه يظهر إنها فى خضم مشاكلها نسيت — كما يقول فريجينيه — أن لها حامية ومصالح فى هذه المنطقة[1] .

أما عن (ماسة) التى أشرنا لأهميتها من قبل ، فالوثائق البرتغالية تمدنا بمعلومات هامة عن الظروف والوسائل التى ثبت البرتغال عن طريقها أقدامهم فى هذه الجهات ، ففى وثيقة مؤرخة يناير ١٤٩٧ م محفوظة بالأرشيف البرتغالى نجد ثلاثة من شيوخ القبائل فى ماسة يعلنون ولاء قبائلهم للسلطان البرتغالى ، ويتعهدون بتيسير بناء قلعة برتغالية فى المكان الذى تراه البرتغال مناسبا ، ويبدون إستعدادهم لتقديم إثنى عشر من أبناء أشرافهم كرهائن بالبرتغال حتى يتم إقامة القلعة ولضمان استتباب الأمن فى إقليمهم .

وفى خطاب آخر بتاريخ ٦ يوليه ١٥١٠م يعبر الموالون للبرتغال من أهل ماسة للملك عمانوئيل الأول عن ترحيبهم لقراره بإرسال قوة من خمسين فارساً لحماية القلعة البرتغالية التى بنيت بهذا المكان ، ويطلبون من الملك أن يظهر سطوته ويحمى الحصن الذى رفعوا أعلامه عليه ، ويحميهم هم ، ويذكرون إنهم أصبحوا موضع استهزاء القبائل الأخرى لإنضوائهم تحت لوائه دون أن يجدوا منه الحماية المنتظرة[2] .

---

(١) Friganier, M. : Historia de Santa Cruz, p. 119.

(٢) الأصل العربى للخطابين غير موجود — لكن الأصل البرتغالى مع ترجمة فرنسية موجود فى :
Archives Nationales de la Torre do Tombo Livrodos Fol. 50, Copie XVI Siecle.

ومن هذه الوثيقة يتضح لنا أنه حتى ذلك الوقت (١٥١٠ م) لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة لكن كانت البرتغال تعتمد على إرتباطاتها ببعض شيوخ القبائل ، وكان (Lopes) يعمل لحساب البرتغال هنا ، لكن منذ (١٥١٣) — كما أوضحنا — حلت الحكومة البرتغالية فى إدارة هذه المنطقة كلها محل هذا المغامر .

ومن المناطق الهامة التى بسطت البرتغال نفوذها عليها أيضاً فى الساحل المغربى منطقة (أزمور)[1] وكانت لها أهمية باعتبارها الميناء الذى يصدر حاصلات قبائل (دكالة) ومنتجاتها المتنوعة ، كما أنها مفتاح الطريق إلى مراكش ، وكان البرتغال قد نجحوا منذ عام ١٤٨٦م فى عقد معاهدة مع شيوخ أزمور تبيح لهم الحق فى بناء حصن برتغالى فى الميناء — لكن حين حاول البرتغال بعد ذلك تنفيذ هذا الشرط تعرض لهم الأهالى ، كما تعرضت بعض السفن البرتغالية الراسية فى ميناء أزمور فى عام ١٥٠٤ للهجوم — وقد قدم سكان ازمور اعتذاراً للملك البرتغالى (عمانوئيل الأول) عن هذا الحادث ، ورد الملك على الاعتذار بأنه صفح عنهم لتوسط زوجته ، لكنه اشترط تقديم كمية كبيرة من القمح رمزاً للصداقة ولتثبتوا كذب الشائعات التى يروجها أعداؤهم[2] .

وانتهز الملك عمانوئيل الأول فرصة الخلاف بين الوطاسيين — لتحقيق احلامه فى الإستيلاء على أزمور ، فقد لجأ (مولاى زيان) إلى ازمور حيث كان له بها انصار ، وذلك للخلاف بينه وبين محمد بن محمد الشيخ البرتغالى ، واعقب ذلك سفر (مولاى زيان) بنفسه إلى البرتغال ليدرس مع الملك مشروع الحملة على ازمور ، ولاندرى هل الملك عمانوئيل هو الذى استدعاه ام انه سافر من نفسه ، فلم نعثر فى الوثائق البرتغالية مايوضح ذلك وإن كانت الوثائق تشير إلى ان البرتغال كانوا يمهدون للإستيلاء على ازمور فقد بنوا حصن

---

(١) كلمة أزمور — فى لغة البربر تعنى (الزيتون)

(٢) أصول هذه الخطابات المتبادلة بين الطرفين موجودة فى :
Archives Nationales de la Torre do Tombo Casa dos Tratados Documents Arabes.

البريجة (موكان) [1] وكان العمال والبناؤون يعملون به ليل نهار لإنجازه فى أقصر وقت ، كما جددوا الحصن البرتغالى فى (سانتا كروز) ، لكن يبدو أن (مولاى زيان) حين عاد لأزمور استطاع أن يمسك بدقة الأمور بها دون الإستعانة بالبرتغال فحين وصلت الحملة البرتغالية بعد ذلك عام (١٥٠٧ م) لم تجد التيسيرات التى كانت تنتظرها وأضطرت للانسحاب — لكن حين شعر (مولاى زيان) أن البرتغال يعدون العدة لحملة جديدة خشى العاقبة فعرض التفاوض مع البرتغال وانتهى الأمر فى (١٥١٠) بعقد معاهدة جديدة مع ملك البرتغال .

وكان الملك عمانوئيل مصمماً على إعداد العدة لبسط النفوذ كاملا على (أزمور) وتحقيق أحلامه فى الزحف على مراكش ذاتها — وفى ٢٠ أغسطس ١٥٨٣ كانت الحملة على أهبة الاستعداد لتحقيق أهدافها — وكان على رأسها دوق براجانس (Duc De Bragance) الذى لقب بلقب أمير البلاد فيما وراء البحار » .

والوثائق البرتغالية تمدنا بمعلومات وافية عن هذه الحملة فهناك خطابات عدة متبادلة بين الملك عمانوئيل ، والبابا ليو العاشر [2] بشأنها وهذا يدل على الأهمية التى كانت تتسم بهـا هذه الحملة وأنها ارتبطت بالروح الصليبية .

---

(١) البريجه تقع شمال (أسفى) ، وقد تهدمت أثناء حصار السلطان محمد بن عبد الله العلوى لها فسميت المهدومة ، لكنها جددت فسميت الجديده.

أنظر : الكانونى — مرجع سابق ص ٤٣ .

(٢) جلس هذا البابا (ليو العاشر) على كرسى البابوية (١٥١٣ — ١٥٢١) وهو من أسرة ميديتشى Medici وهو الذى عاش فى كنفه فى روما الرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقى) .

— أنظر الطبعة الانجليزية لكتابه عن (تاريخ ووصف أفريقيا) التى أشرنا اليها سابقا .

وكذلك البحث الذى نشره مؤلف هذا الكتاب عن هذا الرحالة فى (مجلة للمناهل المغربية العدد الثانى — ١٩٧٥)

وفى أول سبتمبر ١٥١٣ كانت السفن البرتغالية قد وصلت إلى مواقعها وبدأت تصوب نيران مدافعها على المدافعين واضطرت المدينة لفتح أبوابها للمهاجمين . ويذكر ليو الأفريقى أن الأهالى أضطروا لإخلاء المدينة والجلاء عنها تحت ضغط نيران القوات المهاجمــة فحين دخلها البرتغال كانت تقريباً خالية من سكانها .

وفى ١٩ سبتمبر أذاع الملك البرتغالى فى لشبونه خطاباً ، زف فيه إلى الشعب الأنباء عن فتح (أزمور) ، وفى روما استقبل البابا ليو العاشر خبر الإستيلاء على أزمور على أنه نصر للمسيحية ، وعلق على خطاب الملك بهذا الشأن بقوله : « إنه يقدم له الشكر على هذا العمل الذى يسهم فى تحقيق رسالة المسيح » [1] . وبعد أن استتب الأمر للبرتغال فى (أزمور) تقدم مستشارو الدوق بالنصيحة له بانتهاز الفرصة للسير إلى (مراكش) لفتحها ، لكنه تردد وأخيراً رفض الفكرة لأن الملك أعطى الأوامر كما ذكر باحتلال أزمور وليس مراكش ، على أن إحتلال مراكش ظل هدفاً من أهداف البرتغال ستحاول تحقيقه ، كما ستحاول توطيد نفوذها فى حوض نهر سبو (Sebou) بهدف فتح فاس .

وفى الشهور الأولى من عام ١٥١٤ كانت البرتغال تعد قوتها لفتح مراكش لكن انتشار الطاعون بين الجنود البرتغال والقبائل المتحالفة معهم ، ووفاة حاكم أزمور البرتغالى (De Joa de Menses) أخر تنفيذ عملية الزحف على مراكش . وفى صيف (١٥١٥) كان الموقف من وجهة نظر البرتغال مناسباً لتحقيق حلمهم فى غزو مراكش ، فقد استطاعوا بعد انتصارهم فى أزمور أن يغروا بعض القبائل فى المناطق المجاورة بالدخول فى طاعتهم ، وكان دخول مراكش – من وجهة نظرهم – لا يعدو أن يكون نزهة ستنتهى بهالة من المجد على رأس من يسبق إليها ، لذلك كان هناك تنافس بين القواد البرتغال فى أزمور

(١) خطاب الملك عما نوئيل الذى أبلغ البابا فيه بفتح أزمور مؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٥١٣م — وتوجد صوره منه بالارشيف البرتغالى .

وآسفى ليسبق كل غريمه فى دخول مراكش .

على أن ملك فاس الذى أزعجته أخبار جيوش البرتغال واستعداداتهم لغزو مراكش — أرسل يعرض عليهم المفاوضة للصلح. فقد كان ازدياد نفوذ السعديين والتفاف الناس حولهم يقلق باله ويشغله (١) ، لكن شروط ملك البرتغال لم تكن معقوله ، فلم يكن فى الإمكان قبولها . وقد طلب أن يسمح له ببناء قلعة برتغالية فى مراكش، وأن يدفع له حكام فاس سنوياً مبلغاً من المال رمزاً للخضوع، وهكذا كان على كل من الطرفين — السلطات المغربية والبرتغالية — الاستعداد للمعركة الحاسمة. وفى إبريل سنة ١٥١٥ بدأت القوات البرتغالية من أسفى وازمور والقبائل الموالية لها (٢) تتحرك صوب مراكش ، وقد بدا منذ البداية أن المعركة لم يكن مخططاً لها تخطيطاً كاملا من جهة البرتغال لدرجة أن خريطة المدينة المهاجمة وطبيعة المنطقة لم تكن — كما ظهر عند بداية المعارك — مدروسة دراسة وافية، ولم تكن هناك قيادة موحدة تخضع كل القوات لتعليماتها — فاتجهت كل قوة من القوات المهاجمة تبغى اقتحام المدينة من الناحية التى تروق لها . وتعثرت فرقة الفرسان التى كان يعتمد عليها الجيش المهاجم ، واضطرت لتغيير مواقعها أكثر من مرة بحثاً عن المكان الذى يلائم تحركاتها ونشاطها — وأدى التشتت لإضعاف قوة العدو المهاجم ومكن المدافعين عن حريتهم من الصمود ، وساهمت الطبيعة مساهمة ضخمة فى معاونة القوات المدافعة ، ولم يكن البرتغال قد رتبوا أمرهم على الحصار الطويل للمدينة فاضطروا فى ٢٢ إبريل للإنسحاب بعد أن يئسوا من قدرتهم على اقتحام المدينة .

---

(١) كانت مبايعة قبائل (درعة) و(السوس الأقصى) و (حاحة) لأبى عبد الله القائم بأمر الله (٩١٥ هـ — ١٥٠٩ م) بداية لتأسيس الدولة السعدية ، واستطاع السعديون فى عام ١٥٢٠ انتزاع مراكش من الوطاسيين ، لكن لم يستقر الامر لهم نهائيا فى فاس الا فى عام (٩٧٥هـ — ١٥٥٠م) بعد مقتل (أبى حسون) آخر أمراء الوطاسين — كما سنوضح بالتفصيل بعد .

(٢) من القبائل التى كانت موالية للبرتغال والتى لعبت دوراً هاماً فى هذه المعارك قوات الشراقوة (قبائل الشرقية) وهناك خطابات عدة فى الأرشيف البرتغالى متبادلة بينهم وبين الملك عما نوئيل الأول .

وكانت لهذا الانتصار نتائج بالغة الأهمية نجمل بعضها فيما يلى :

١ — قوى هذا الإنتصار نفوذ السعديين لدورهم البطولى فى تأييد كفاح أهالى مراكش ضد القوات الغازية .

٢ — شجع المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغاليـة فى الثغور المغربية الأخرى .

وإذا كان فشل البرتغال فى تحقيق أحلامهم المتعلقة بالتوسع من نقط ارتكازهم فى (أسفى) و (آزمور) إلى مراكش فى الداخل قد أضعف مركزهم ـ فإن معركة المعمورة التى قصد بها توسيع نفوذهم فى حوض نهر « سبو » بهدف فتح الطريق نحو فاس ، تمثل الحلقة الثانية فى هذا الفصل الختامى من فصول نفوذهم الإستعمارى فى المغرب .

وكان البرتغاليون قد جمعوا فى المعمورة « المسماه اليوم المهدية » قوة كبيرة قدرت بـ ٨٠٠٠ مقاتل ، حيث أقاموا قلعة هناك لتكون مركزاً للهجوم على فاس ، لكن رغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف فى أيامها الأخيرة هذه — فإنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربى المتحمس للدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته — لا أن توقف الزحف البرتغالى على العاصمة المغربية فحسب — بل استطاع المغاربة أن يشنوا هجوماً مضاداً على القلعة البرتغالية فى المعمورة وأسفر الهجوم عن قتل أكثر من أربعة الآلاف من البرتغاليين وإغراق ثمانى سفن بحرية برتغالية .

ويعتبر جمهرة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيراً بانحسار موجة التوسع البرتغالى فى المغرب ، وينظرون لعصر عمانوئيل الأول ، على أنه قمة ما وصل إليه النفوذ البرتغالى فى المغرب بينما يعتبرون عصر جيـان الثالث

(Jean III ١٥٢١ — ١٥٥٧) عصر تصفية هذا النفوذ البرتغالى[1] .

على أن هذا القول لا يعطى صورة شاملة عن الواقع إذ أن عملية انحسار هذا المد الإستعمارى البرتغالى ثم تصفية هذا الاستعمار ترجع فى الحقيقة لعوامل معقدة و متعددة بعضها يتصل بظروف البرتغال الداخلية والخارجية والبعض الآخر يرجع لظروف المغرب نفسه .

وفيما يتعلق بالمغرب فإن وثبة القوى الشعبية والحكام السعديين لوضع حد للأطماع البرتغالية فى المغرب والروح التى أوجدها الانتصار فى صد البرتغال عن مراكش ـ فى نفوس المغاربة جعلهم يواجهون الموقف بثقة وحزم ، بعكس ما كان عليه الحكام الوطاسيون الذين وصلوا لدرجة كبيرة من الضعف ، فأصبحت الكثير من القبائل لا تعترف بسلطانهم كما أنهم لم يجدوا بدأ من مسالمة العدو البرتغالى — والخطابات المتبادلة بين الحكام السعديين والبرتغال توحى بهذه الثقة فى النفس ـ بعكس الوضع فى نهاية حكم الوطاسيين حتى قبل أن تستقر الأمور نهائيا للسعديين فى فاس التى لم يستقرلهم الأمر بها إلا فى شوال ٩٦١ هـ ـ ١٥٥٣ [2] .

أما فيما يتعلق بالبرتغال فقد كانت الدفعة الأولى التى قاموا بها فى فجر حركة الكشوف الجغرافية ، قد أوصلتهم إلى كشف طريق رأس الرجاء

---

(١) من أحسن ما كتب عن هذه الفترة :

Luiz de Sousa ; Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557 (Lisbonne, 1940).

فقد عايش المؤلف الاحداث التى تعرض لها أوعلى الأدل عاصر أصداءها وقد كتب مقدمة الكتاب . Robert Ricard الاستاذ بجامعة الجزائر والمتخصص فى تاريخ شمال أفريقيا .

(٢) بالأرشيف البرتغالى عدد كبير من هذه الخطابات — وهناك على سبيل المثال خطاب مؤرخ ٢٤ صفر ٩٣٢ هـ (١٠ ديسمبر ١٥٢٥) من الأمير السعدى (أبو العباس أحمد بن محمد القائم) إلى الملك جيان الثالث يحتج على اعتداءات البرتغال وأتباعهم على المسلمين وتعرضهم لقوافلهم التى تحمل الشمع وغيره من البضائع ، وطلب وضع حد لهذه الإعتداءات . وقد سلم رد البرتغال إلى أبى عبد الله محمد الشيخ (شقيق السلطان أبى العباس) وفيه يعد الملك البرتغالى بوضع حد لهذه المخالفات .

الصالح والوصول لشرق أفريقيا ثم الهند محققين حلمهم فى الوصول إلى مراكز التجارة الشرقية ، رحلة فاسكو داجاما ـ ١٤٩٧ - ١٤٩٩ » كما اكتشفوا فى عهد عمانوئيل الأول البرازيل وغيرها من الأقاليم فى العالم الجديد نتيجة رحلات أمريجوفيزبوتشى « Amerigo Vespucci » الذى أرسله الملك عمانوئيل لهذا الهدف ، والذى اطلق اسمه بعد ذلك على الأمريكتين .

لكن حين وصل جيان الثالث إلى الحكم فى البرتغال فى عام ١٥٢١ كانت الحروب قد استنزفت الكثير من موارد البرتغال البشرية المحدودة ، كما كانت الحالة الإقتصادية سيئة فى الوقت الذى بدأت البرتغال تواجه فيه مقاومة حقيقية من المغاربة ضد الوجود البرتغالى فى ثغورهم ، بالإضافة إلى مواجهة قوة العثمانيين الذين كان نفوذهم قد امتد إلى الجزائر وتلمسان بعد أن رأى خير الدين باربروس أن يعلن سنة ١٥١٨ ولاءه للسلطان العثمانى ، هذا بالإضافة إلى منافسة بالأسبان وتحفزهم لتوجيه ضربة قوية للبرتغال .

فى وسط هذه الظروف جاءت فكرة إخلاء كل أو بعض الثغور التى تحتلها البرتغال فى المغرب .

تصفية الوجود البرتغالى فى المغرب :

منذ أن ترك الحاكم البرتغالى فرنسيسكو دى كاسترو Francisco de Castro إدارة المستعمرات البرتغالية فى منطقة أكادير وما حولها فى عام ١٥٢١[1] - بدأت الأمور فيها تضطرب ، فقد أخذت القبائل المغربية تمتنع عن تقديم القمح والأخشاب وغيرها مما كانت تقدمه للحاميات البرتغالية . وتدل الوثائق البرتغالية

---

(١) ذكرنا أنه ورد على سانتا كروز فى الفترة من ١٥٢١ حتى سقوطها فى ١٥٤١ أحدى عشر حاكما برتغاليا .

وقد وصح (Luiz De Sousa) الحالة السيئة التى كانت عليها شمال أفريقيا عامة والمستعمرات البرتغالية خاصة فى عام ١٥٢٢ بسبب انتشار المجاعات والأمراض .

Luiz de Sousa : op. cit., p. 25.

كذلك أنظر :

Robert Richard : Médecine et Médecins à Arzila (Hésperis, 1933), pp. 177—178.

على أن عدد الحامية البرتغالية فى سانتا كروز كان يتراوح عام ١٥٢١ بين ٧٠٠ ، ١٠٠٠ فانخفض فى عام ١٥٣٠ إلى ٢٠٠ رجل ، وكانت هزائم البرتغال فى المعمورة فى ١٥١٥ ، واغتيال حليفهم يحى بن تعففت فى ١٥١٨ ، ملك بن داود فى ١٥٢١[١] ، قد هزت كيانهم وشجعت السعديين على مهاجمتهم لإستخلاص الثغور المغربية من أيديهم .

وقد تعرضت أصيلا خلال عام ١٥٢٤ لهجمات متعددة من الشريف أبو العباس الأعرج ، كما تعرضت أسفى فى عام ١٥٣٤ لهجوم مماثل[٢] وإن كانت القوة المهاجمة اضطرت لرفع الحصار الذى فرضته على المدينة وأرسل الأمير إلى ممثل البرتغال فى أسفى (Jacob Rosales) فى ٢٣ سبتمبر ١٥٣٤ يقترح عليه أن يرسل أحد الذين يثق بهم ممن يعرفون العربية للتفاوض فى وضع هذه الأقاليم التى تحت حكم البرتغال[٣]. ولكن يظهر من هذا أن وضع البرتغال أصبح غير مستقر ، كما أثبتت هذه الهجمات المغربية أن الحاميات البرتغالية بوضعها الذى أصبحت فيه غير كافية فى عددها وسلاحها ، ولذا تسجل الوثائق البرتغالية العديد من الخطابات يستعجل فيها الحكام البرتغال إرسال التعزيزات لهم دون جدوى .

وأدى هذا لظهور فكرة الجلاء عن كل أو بعض الثغور المغربية وتركيز الجهد فى المناطق الأخرى فى الشرق وفى العالم الجديد التى كانت البرتغال قد وضعت أيديها عليها . ولعله من الطريف أن نستعرض بعض آراء الذين حرص الملك جيان الثالث أن يأخذ رأيهم فى الجلاء عن الثغور المغربية من عدمه لمعرفة نوعية هؤلاء الأشخاص وآرائهم ومبرراتها .

---

(١) حل محله فى مشيخة البلد أى إدارة شؤون المسلمين تحت نفوذ البرتغال شخص يدعى (أحمد ناصر) لكنه لم يكن موضع ثقة البرتغال كسلفه .

(٢) Luiz de Sousa : op. cit. p. 42.

(٣) خطاب الأمير السعدى موجود فى :

Archives Nationales de la Torre de Tombo Corpo Chronologico, parte 1, Maco 53, No. 110.

أولا — أيد فكرة الإخلاء عدد قليل منهم :

(أ) بعض الأساقفة ورجال الدين مثل (L'eveque de Lamego) الذى وجد فى إخلاء اسفى وازمور ، وسنتا كروز تخفيفا من العبء على الدولة ، وأن ذلك لا يمثل أى خطر على مصالح البرتغال لكنه نصح بالاحتفاظ بسبتة[1].

(ب) أيد (D· Frencetco Lobo) — الذى أصبح فيما بعد سفير البرتغال فى روما — سياسة الإخلاء وذكر أن الأموال التى تصرف على هذه الاماكن يجدر صرفها على تعمير وتشييد الكنائس[2].

(ج) كذلك أيد حاكم سنتياجو البرتغالى فكرة الإخلاء وذكر إنه استرشد برأى كبار القادة فى سنتياجو ، فاتفقت آراؤهم على ضرورة إخلاء آسفى ، وأزمور لأن الدفاع عنها يتطلب تكاليف باهظة وقوات كبيرة لكن يجب تدعيم قوة البرتغال فى سبتة[3].

ثانياً — كانت إجابات البعض أن المعلومات التى لديهم عن الأوضاع فى الثغور المغربية غير كافية فلا يستطيعون إصدار حكم سليم .
من هؤلاء مثلا أسقف (Coimbre) الذى أضاف إنه غير خبير فى شؤون الحرب فيتعذر عليه إصدار حكم يطمئن إليه[4] .

ثالثاً — طالبت الغالبية الاحتفاظ بهذه المواقع وتحصينها و اقترح البعض وسائل لتدبير مايحتاجه ذلك من أموال من هؤلاء مثلا :

---

(١) الخطاب مؤرخ ٧ أكتوبر ١٥٢٤ وموجود فى :
Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 4.

(٢) **Archives Nationales de la Torre do Tombo Corpo Chronologico, parte 2, Maco 195, No. 134.**

(٣) **Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 6**

(٤) **Archives Nationales de la Torre do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 9, No. 50.**

(ا) شقيق الملك جيان الثالث المدعو (فرناندو) ، فقدذكر إن الحصون البرتغالية فى هذه الثغور لها أهميتها ، ويمكن اتخاذها فى المستقبل كقاعدة لعمليات عسكرية أخرى ، ويذكر انه إذا لم يؤخذ برأيه فى الإحتفاظ بالثغور الثلاثة (أزمور ، آسفى ، سانتاكروز) فلا أقل من الاحتفاظ بأسفى وسانتا كروز[1].

(ب) عارض كبير مستشارى الملك المدعو (Joao de Mello Barreto) فكرة الإخلاء نهائيا ، وذكر أن كل من هذه الموانى يجب تزويده بقوة جديدة من ٥٠٠ جندى للدفاع عنه ، كما يجب تقوية وسائل الدفاع عن (سبته) وباقى مراكز البرتغال فى الثغور المغربية[2].

(جـ) أجاب (Nuno Rodrigues Barreto) الذى شغل فى بعض الأوقات منصب وزير المالية بأن فكرة إخلاء هذه الموانى التى بذل الكثير فى سبيل تثبيت أقدام البرتغال فيها لا يمكن تصورها ، وأن أسفى بها قصبه عظيمة بينما أزمور بها تحصينات طبيعية وأنه إذا أحسن تدبير أمور هذه الجهات يمكن الدفاع عنها بيسر ضد هجمات الحكام المغاربة[3].

(د) وأجاب (D.Rodrigo de Lima) بأن الأجدر بناء حصون وقلاع جديدة لا التخلى عن الحصون القديمة ـــ أما الإحتجاج بالحاجة إلى المال لتدعيم حاميات هذه الجهات فيجب اللجوء لكافة المسيحيين ليس البرتغال فقط ولكن فى كل أوربا ، هذا بالاضافة إلى البابوية للدعوة للتبرع لتدعيم حميات هذه الجهات[4].

---

(١) الخطاب مؤرخ ٦ أكتوبر ١٥٣٤ وموجود فى :

Archives Nationales de la Torro do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 3.

(٢) الخطاب مؤرخ ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ وموجود فى :

Archives Nationales de la Torro do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7.

(٣) الخطاب مؤرخ أول نوفمبر ١٥٣٤ وموجود فى :

Archives Nationales de la Torro do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 11.

(٤) الخطاب مؤرخ ٦ نوفمبر ١٥٣٤ — ويتسم بالروح الصليبية المتيمة وموجود فى :

Archives Nationales de la Torro do Tombo Reforma das gavetas, gaveta 2, Maco 7, No. 8.

هذه بعض الآراء التى أثيرت حول موضوع إخلاء الثغور المغربية . وقد أستقر رأى الملك جيان الثالث على إخلاء سانتا كروز ، وأصدر أمره فى ١٥٣٤ للحاكم البرتغالى للميناء بذلك لكن أعتذر الحاكم عن تنفيذ هذا الأمر فقد اعتبر فكرة الاخلاء فكرة خطيرة جداً وغير وطنية ولكن أقترف هذا الحاكم خطأ كبيراً فقد أستغنى عن فرقة (الخياله) وأعتبرها عديمة الجدوى فى عملية الدفاع عن الميناء .

وإذا كان الإخلاء الإختيارى ممكنا فى عام ١٥٣٤ فقد أصبح بعد ذلك متعذراً ، فقد نجح أبو عبد الله محمد الشيخ أخو أبو العباس الأعرج السعدى وحاكم إقليم (سوس) فى إقامة قاعدة عسكرية على بعد إثنى عشر كيلو متراً من الحصن البرتغالى فى سانتا كروز ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر وتشتد أثار الحصار الذى فرضه المغاربة الذين أخذوا يضيقون الخناق على الحامية البرتغالية فى الميناء .

وكان حاكم الميناء البرتغالى (D. Gutare de Monroy) قد طلب نجدة ليواجه الحصار الذى فرضه الأمير محمد الشيخ السعدى الذى أعد العدة لتصفية الوجود الاستعمارى الأوربى فى بلاده ، ووصلت نجدة من جزر ماديره ومن أسفى لمساندة الجنود البرتغال المحاصرين فى (سانتاكروز) . لكن هذا المدد وصل بعد أن كان كل شىء قد أنتهى ، فقد سقط الميناء فى ١٢ مارس ١٥٤١ وكان معظم سكان المدينة قد هجروها ، أما الباقون فقد وقع معظمهم أسرى فى أيدى المغاربه الذين نقلوهم إلى تارودانت .

وكان الحاكم البرتغالى (D. Gutare de Monroy) وأبنته ضمن الأسرى ، ولم يطلق سراحه إلا فى صيف عام ١٥٤٤ بعد وفاة أبنته .

على أن سقوط سانتا كروز كان ضربة قوية لكل الوجود البرتغالى فى السواحل المغربية ، ويمثل أول شرخ فى هيكل البناء الاستعمارى الذى بدأ

باستيلاء البرتغال على سبتة فى عام ١٤١٥ [١] .

أما (أزمور) و (أسفى) فقد أصبح موقفهما فى غاية الحرج منذ سقوط سانتا كروز ، وأصبح إمدادهما بما تحتاجانه من تعزيزات صعباً — وكان لابد من أخلائهما قبل أن يصبح ذلك مستحيلا — فأرسلت السفن التى حملت النساء والأطفال أولا ثم الرجال إلى الجديده (مزاكان) حيث حملتهم السفن للبرتغال.

وقد تم إخلاء أزمور ، وأسفى فى الفترة ما بين ٢٠ ، ٣١ أكتوبر ١٥٤١ وأعقب ذلك إخلاء (القصر الصغير) و (أصيلا) [٢]، ويقول M. Friganier « إن سقوط سانتا كروز يمثل الفصل الأول فى رواية استمرت ما يقرب من ١٢٥ عاما، بينما يمثل سقوط (أصيلا) ،و(القصر الصغير) الفصل الأخير فى هده الرواية » . وقد تم إخلاء (القصر الصغير) و (أصيلا) فى عام ١٥٤٩ — ١٥٥٠ — ويذكر لنا (Francisco de Andrad) الذى كان معاصراً لهذه الأحداث تفاصيل كاملة عن الظروف التى أنتهت بإخلاء هذين الثغرين [٣] .

ويذكر لنا هذا الكاتب فى تفصيل وإسهاب كيف أهمل البرتغال تجديد تحصينات هذه الواجهة الهامة فى هده الجهات المقابلة لجبل طارق والتى أطلق عليها لفظ (Le Seinal) [٤].

ومنذ عام ١٥٣٢ كان الملك جيان الثالث قد منح حاكم (القصر الصغير) حرية إتخاذ الإجراءات لإخلاء الميناء إن وجد ذلك ضرورياً ، لكن الحاكم المذكور وجد أن هذا الميناء صغير لدرجة أنه يمكنه بعدد قليل من الرجال أن يحتفظ بسلطة البرتغال فيه ففضل فى ذلك الوقت عدم إخلاء الميناء .

لكن ازدياد قوة الشرفاء السعديين العسكرية جعل وضع الحاميات

---

(١) Luiz de Sousa : op. cit., pp. 143—156.

(٢) Ibid, pp. 157—158.

(٣) Robert Ricard : op. cit. p. 159.

(٤) لم نجد لهذا اللفظ مدلولا معيناً ، ولعل هناك خطأ كتابى فيه .

البرتغالية فى القصر الصغير ، وأصيلا يزداد سوء فأصدر الملك جيان الثالث أوامر حاسمه بإخلاء الميناءين . كما أمر القائد (Luis de Lourivo) بتنفيذ ذلك ، وترك هذا القائد لشبونة فى نهاية يونيه ١٥٤٩ على رأس المراكب والأدوات اللازمة للاخلاء كما عملت ترتيبات لإستقبال النازحين فى ميناء (قادس) لكن وردت أخبار بعد ذلك أن (أبا حسون الوطاسى) [1] قد كتب للحاكم البرتغالى فى القصر الصغير يطلب منه أن يحتفظ البرتغال بمراكزهم فى القصر الصغير ، وأصيلا ولذا أرسل القائد البرتغالى يطلب من حكومته تعليمات جديده فى ضوء الوضع الجديد .

وجرت محادثات بين البرتغال والأسبان أشترك فيها الثائر المغربى (أبو حسون) للوصول إلى إتفاق تتنازل بموجبه البرتغال عن (القصر الصغير) و (أصيلا) بتحصيناتهما للأسبان ، ووضعت الخطوط العريضة لهذا الإتفاق لكن وجد (جيان الثالث) أستحالة تنفيذ رغبة الأسبان هذه فأصدر أوامره باتمام عمليات إجلاء النساء والأطفال ثم الرجال ،وفى أبريل (١٥٥٠) تأكد أن عملية الإخلاء قد تمت نهائياً .

وهكذا طويت هذه الصفحة التى ترجع إلى أيام الفونس الخامس Alphonse V الذى أستولى عام ١٤٥٨ م على القصر الصغير ، وعلى أصيلا عام ١٤٧١م وكان أستيلاؤه على الميناءين تمهيداً لبسط نفوذ البرتغال على (طنجه) التى كانت قد استعصت عليهم من قبل .

وقد كان لإخلاء هذه المواني الهامة أثر ضخم فى العالم المسيحى عامة والبرتغال خاصة ، وقد وجه كثيرون من المعاصرين البرتغال نقداً مريراً للملك جيان الثالث لإقدامه على هذا العمل .

---

(١) لعب أبو حسون الوطاسى دوراً هاماً فى إثارة الفتن ضد السعديين ، وفى سبيل ذلك لجأ لاكثر من قوة من أعداء بلاده وانتهى الأمر بأن عاونه الاتراك العثمانيون على الاستيلاء على (فاس) ، لكن ظفر به أخيراً السلطان السعدى أبى عبد الله الشيخ وانتهى أمره بقتله عام ٩٦١ هـ — ١٥٥٣ م) واسترجع السعديون مدينة فاس ، ثم خلص لهم المغرب كله .

فقد ناقش قضية الاخلاء هذه (Le Comte de Redondo) [١] وأشار إلى عدة نقاط هامة منها :

(أ) أن تاريخ أصيلا فى الفترة التى كانت فيها تحت يد البرتغال مشرق فقد أدت للمسيحية عامة خدمات جليلة ، فالأسباب السياسية والمالية التى بررت بها عملية إخلائها لا يمكن قبولها .

(ب) يقول إنه يعرف هذه البلاد وبشىء قليل من الجهد كان يمكن إمتلاك مملكة فاس كلها بدلا من ترك ما بأيدينا (أيدى البرتغال) ليسقط فى أيدى الأتراك أو الأسبان ، لكن كما يذكر إن جيان الثالث وحوله شرذمة من كبار السن أصبح غير قادر على إدارة شؤون الإمبراطورية البرتغالية .

(جـ) يذكر أنه لو فرضنا أن الظروف — وليست الرغبة فى الإخلاء — هى التى فرضت التفكير فى ترك المواقع البرتغالية على الساحل المغربى فإن هذا لا ينطبق بحال ما على ميناء (أصيلا) بالذات لأسباب ذكرها منها :

— موقعها الممتاز على المحيط الأطلنطى .

— موقعها فى الطريق المؤدى إلى القصر الكبير .

— سهولة إتصالها بالداخل .

— سهولة الدفاع عنها .

— تمتاز عن طنجة ، وسبته باعتبارها رأس حربة يمكن توجيه الهجوم منه على فاس .

(د) ويذكر أن ميناء الجديدة (مزاكان) كان يمكن أن يعوض إلى حد ما ، النتائج المترتبة على إخلاء أصيلا ، لكن المشكلة لم تكن أصيلا أو القصر الصغير بل المشكلة هى الامبراطورية كلها التى بدأت تنهار .

---

(١) هو الحاكم البرتغالى لأصيلا ، وقد نشرت خطاباته فى لشبونه بين عامى ١٥٥٧ ، ١٥٦١ .

ومن الذين ناقشوا بالتفصيل أيضاً قضية إخلاء الثغور التى كانت بيد البرتغال — الفاتح البرتغالى (ديجودى جوتو Diogo De Gouto) . (١٥٤٢ — ١٦١٦) [1] .

ويتساءل هذا القائد البرتغالى فى البداية هل لم يكن جيان الثالث يكترث بالرأى العام البرتغالى وهو يصدر أوامره بإخلاء هذه المناطق ؟

وأوضح أن الأمر يرجع إلى أن الرأى العام البرتغالى انقسم إلى :
(أ) معسكر يؤيد الإحتفاظ بالثغور المغربية بأية ثمن .

(ب) ومعسكر يحبذ تركيز الجهود على الهند .

ويذكر هذا الكاتب العسكرى إن أفريقيا الشمالية كانت فى ذلك الوقت لها شهرتها كقطر خرافى ، ويذكر أن شرطين يجب توافرهما لتصبح لأية منطقة من الناحية المادية قيمتها وتستحق الاحتفاظ بها :

(ا) توفر إنتاج زراعى ، ورعوى بحيث توفر حاجة الموجودين بها ولا يكونون دائماً تحت رحمة الغير .

(ب) وجود ثروة معدنية ، يمكن أن توفر المصاريف اللازمة لإدارة الحرب التى لابد منها للاحتفاظ بالمنطقة .

ويذكر أن المغرب يتوفر فيه الشرطان ، فالقمح متوفر بكميات كبيرة كذلك الخضروات والماشية، هذا، بالإضافة إلى كل مايحتاجه الإنسان كالصوف ، والقطن ، والسكر ، والجلود ، والفاكهة ، وبالإضافة إلى ذلك المعادن بكميات كبيرة فى جبال الأطلس وهذه المناجم لاتستغل الآن - كما يقول .

ويقول فى لهجة حماسية : — « إن الشمال الأفريقى هذا هو الذى كان مجال مجد سيبو الأفريقى (Scipion Africanus) وأن الأمر آل فى هذه البلاد إلى أباطرة روما حماة الكنيسة الرومانية وبقى لهم النفوذ بها حتى كان غزو البربر ، والعرب لأفريقية ، ففى عصر القوة والمنعة ملوكنا أيها السادة غزوا

---

(١) أنظر : Revista da Faculda de Letras 111,(Lisbonne 1936,) pp. 54-55

بعض ما كان خاضعاً للامبراطورية الرومانية، والآن تركنا هذه الأماكن للبربر ! وكم كان يكلف حمايتها . . لم تكن أصيلا فى خطر كبير حين فكرنا فى إخلائها كان يمكن تحصين قلعتها ، وكم كان يلزم لحماية مزاكان ، وأزمور كل ما كنا نحتاج اليه هو تدعيم مركزنا فى هذه الحصون بإمدادها ببضعة جنود وبالعتاد اللازم . لكننا فقدنا كل الحصون وكل النبل والشهامة التى كانت ترمز له امبراطوريتنا . .

ولو قدرنا كم أدت هذه المدن والموانى للاحتنا فى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى . . لو نظرنا نظرة جادة كتلك التى كان ينظر بها الملك ألفونس الخامس . ، لو وجدنا قادة مثل :

(D· Joao de Mensss) ، (Nuno Farnandes de Atade)

لما كان قد حدث ماحدث . . لقد كان من الأفضل أن نستمر فى توسيع نفوذنا فى أفريقيا بدلا من تضييع الجهود فى مشروع كهذا (الهند) غير مضمون العاقبة . . ونحن نجد أننا بعد أن ضحينا بالمراكز فى أفريقيا لنركز جهودنا على الهند بدأنا نجد منافسة خطيرة لنا فى هذه الجهات أيضاً . . ياإلهى ! ! »[1] .

بهذه الروح الإستعمارية عالج هذا الكاتب البرتغالى وكثيرون من أمثاله قضية إخلائهم للأراضى المغربية المستعمرة. ومن الذين نحوا نفس المنحى القائد الأسبانى (Captaine Jean de Loeusa) الذى كان فى خدمة البرتغال فقد كتب للملك جيان الثالث عقب إخلاء أصيلا مباشرة يعدد الأضرار التى ستنجم من وجهة نظره عن هذا العمل فقال إن هذه الأماكن الهامة التى أخليت سيشغلها البربر والقراصنة وستصبح طنجه وغيرها من الموانى الهامة فى خطر ، كما أن شواطىء الجزائر ستصبح مركزاً للقراصنة وبالجملة ستصيب البرتغال والأسبان اضرار جسيمه[2] .

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحات .

(٢) Archives Nationales de la Torre do Tombo-Cartss missivas sendate, Maco 1, No. 73.

العوامل الحقيقية التى أدت لتصفية الوجود البرتغالى بالمغرب :

لعل من الواجب أن نحاول أن نحلل العوامل الحقيقية التى أدت لتصفية الوجود البرتغالى فى المغرب بشىء من الروية بعيداً عن (العصبية) التى عالج بها الكتاب البرتغاليون هذا الأمر .

لقد سبق البرتغال غيرهم من الدول الأوروبية فى ميدان الإستعمار فوضعوا أيديهم على الثغور المغربية ومدوا نفوذهم على مساحة واسعة ، لكن بدأت امبراطوريتهم هذه تنهار فجأة فسقطت (أكادير) فى ١٥٤١ ، ثم أخليت أسفى ، وآزمور فى نفس العام وتبع ذلك إخلاء القصر الصغير ، وأصيلا فى ١٥٥٠ . ومعظم الكتاب يرجعون هذا الحدث إلى سببين ظاهرين هما الضائقة المالية التى استفحل أمرها فى عهد جان الثالث(Jean III)والحاجة لإدارة حازمة لكن هناك أسباب أعمق نذكر منها :

١ — انعزال الثغور التى احتلها البرتغال وصعوبة إتصالها مع العاصمة لشبونه ، ولم يكن الحكام فى هذه المناطق المتناثرة متفاهمين دائماً ، وعلى صلة بعضهم بالبعض الآخر ، ويتعاونون مع بعضهم عند الأزمات ، وكان الحل البسيط لهذا هو إيجاد ممثل للملك ، أو حاكم عام يكون حلقة الإتصال بينها فلو وجد حاكم بهذا الشكل لاستطاع أن يعالج الكثير من المشاكل ، وكان يمكن أن يجتمع الحكام المتفرقون برئاسته لتقديم معونه عسكرية وغيرها لنقطة مهددة مثلا ، هذا ولم يكن كل حاكم يعرف تماماً حدود المنطقة المسؤولة منه ومدى السلطة المتاحة له .

٢ — وفى لشبونة — لم تكن لهذه المستعمرات جهة واحدة مسؤولة عن هذه الثغور التى بيد البرتغال ، وأدى هذا إلى التعقيد والتعطيل فمثلا عندما حوصرت سنتا كروز فى ١٥٤١م ، فان القائد (Gutare de Monroy) بقى مدة طويلة متحيراً ينتظر المعونة ، ولما بدأت أسفى ولشبونة تفكر فى نجدته كان الوقت قد فات ، ولو وجدت شخصية تقوم بعملية التنسيق بين طلبات جميع الأطراف وبين الاحتياجات الفعلية — كان يمكن تفادى التعطيل والتقصير، وكان يمكن توثيق الصلات بين القادة المختلفين .

٣ — والسؤال الذى يتبادر للذهن هو لماذا لم تنفذ البرتغال فى المغرب النظام الذى نفذته فيما بعد فى الهند وفى البرازيل ؟

بالطبع ليس من المعقول أن الأمر يرجع إلى الخوف من تفكير حاكم ماإذا وضعت فى يده كل السلطات فى الإنفراد بالحكم . ففكرة الإنفراد أو الانفصال هذه لم تكن موجودة ، ولعله أقرب للصواب أن يقال إن البرتغال اعتبروا أن الشمال الأفريقى كان فى متناول أيديهم ـ لكن لو وجد حاكم عام لأصبح فى مقدوره أن يرى الأمور بوضوح ، وبالعكس فإن قرب وجود المستعمرات والاعتماد على هذا كان من أسباب التأخير والتعطيل .

٤ — نظام البرتغال فى الدفاع عن مستعمراتهم يمكن أن يوجه اليه الكثير من النقد . حقيقة إنهم بنوا الحصون لكنهم لم يوجدوا أسطولا صغيراً يلبى طلبات واحتياجات الحامية فى كل ثغر فأصبح الحصن نفسه تحت رحمة القبائل المحيطة به .

ونقطة ضعف أخرى هى ، عدم استمرار النظام ، فلم يفكروا فى نظام واحد ، أو فى تخطيط سليم دقيق موحد .

ونظرة واحدة للخريطة تؤكد هذه الحقيقة ـ فالمسافة مثلا بين أصيلا وأزمور كبيرة . ولم تكن هناك خطة للربط بين الحصون المختلفة المتناثرة ـ وكان يجب أن تكون هناك خطة واحدة للفتح والاتساع وللحكم ولا يتم الأمر بطريقة عشوائية .

٥ ـ لم تكن هناك خطة أيضا مرسومة فى سياستهم تجاه المسلمين الذين كان من الطبيعى أن يحاولوا استرداد ثغورهم ، خاصة بعد أن تبدلت الحالة الداخلية بالمغرب ووجدت حكومة قوية تمسك بدقة الأمور .

٦ ـ أهمل البرتغال أماكن هامة كان يجب أن يفكروا فى بسط نفوذهم عليها ، حقيقة إنهم استطاعوا أن يقووا نفوذهم فى منطقة سوس عن طريق سانتا كروز وآسفى ، وفى منطقة أم الربيع عن طريق الجديدة (مزا كان) وأزمور ، لكن مناطق كأبو الرقراق وسيبو ، واللوكس لم يكن لهم فيها

أى نفوذ والحقيقة إنه لم يكن من السهل على البرتغال أن يتحكموا فى قطر كالمغرب له واجهة بحرية كبيرة بهذا الشكل .

وكانت آخر حملات البرتغال فى المغرب هى التى قام بها الملك سبستيان Sebastian الذى خلف أباه فى الحكم فى ١١ يونيه ١٥٥٧ لكنه لم يحكم فعلا إلا فى ١٥٦٨ فقد كان تحت وصاية الملكة كاترين وعمه الكاردينال هنرى (Henri) . وقد قتل هذا الملك البرتغالى فيما بعد فى معركة وادى المخازن فى جمادى الثانية سنة ٩٨٦ ﻫ (٤ أغسطس ١٥٧٨ م) وكانت هزيمة البرتغال الساحقة فى هذه المعركة نذيرة بأفول نجمهم فى المغرب ـ فآلت آخر مواطن أقدامهم فيه (طنجه ، سبته ، مزاكان) للأسبان كما ستوضح بعد .

الفصل الثانى

الأطماع الأسبانية فى المغرب العربى

فى الوقت الذى بدأت فيه البرتغال نشاطها الإستعمارى فى أوائل القرن الخامس عشر ، كانت أسبانيا لاتزال مقسمة إلى مالك لم تتحد بعد ، لكن لم تلبث أن أصبحت أسبانيا دولة أوروبية عظمى قوية فى البحر والبر بعد انضمام دولة أرجونة البحرية ، ودولة قشتالة فى عام ١٤٦٩ بزواج فردیناند صاحب أرجونة (١٤٦٧ — ١٥١٦) من ايزابيلا صاحبة قشتالة (١٤٧٤ — ١٥٠٤)(١)

وقد حققت المملكية الأسبانية الفتية فى عام ١٤٩٢ م نجاحاً منقطع النظير ، فشهد هذام العام سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس فى يد الأسبان ، كما سجل هذا العام وصول كريستوف كولمبوس (Christophe Colombus) الذى كان يعمل لحساب فردیناند ، وايزابيلا الى إحدى جزر البهاما وأطلق عليها اسم سان سلفادور (San Salvador) . وهكذا سارت أسبانيا فى إثر البرتغال فى عملية الكشوف الجغرافية وما تبعها من إستعمار . وكان مما تقرر فى معاهدة توردسيلاس (Tordesillas) فى ٧ يونيه ١٤٩٤ التى أبرمت على ضوء القرار الذى أصدره البابا اسكندر السادس لحل المشكلات التى كادت تؤدى إلى الاصطدام بين الدولتين فى ميدان الكشوف الاستعمارية أن يتولى الأسبان مهمة حرب الإسترداد (وهو ما أطلق فى ذلك الوقت على هذه الحرب الصليبية ضد المسلمين فى شمال أفريقيا) فى المناطق

---

(١) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربى الحديث .
(ترجمة د . زينب راشد ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مراجعة د . أحمد عزت عبد الكريم — القاهرة ١٩٧٠) ص ٧٤ .

الواقعة شرقى حجر (باديس) ، بينما يكون من نصيب البرتغال المناطق الواقعة غربى هذه المنطقة .

وكان الأسبان قد وضعوا أيديهم على جزر كناريا فى وقت مبكر منذ عام ١٤٧٦ ، وقد كثر عدد المهاجرين الاسبان إلى هذه الجزر واختلطوا بالسكان الأصليين وتزاوجوا معهم ، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم وهى تعبر الأطلنطى خلال الخمسين سنة الأولى من إكتشاف واستعمار الأمريكتين ، بل إن كثيرين من سكان جزر كناريا اشتركوا فى نشاط الأسبان الاستعمارى فى الأمريكيتين . على أن ما يهمنا هنا فيما يتعلق بالمغرب العربى أن الأسبان أصبحوا من مواقعهم فى هذه الجزر يمثلون خطراً على الساحل المغربى المقابل ، وأصبحوا يراقبون كل نشاط فى الموانى المغربية فى (إفنى) و (أكادير) وغيرهما ، بل إنهم فى وقت متأخر ادعوا أن لهم حقوقاً فى بعض المناطق القريبة من (إفنى) لأن حاكم هذه الجزر الاسبانى كان قد أقام محطة على الساحل المغربى فى مكان إشتراه من أحد الصيادين . وقد رأينا إنه حين مد البرتغال نفوذهم لآسفى والصويرة وأكادير ـ كاد يحدث تصادم بينهم وبين الأسبان فى هذه المناطق .

على أن الأسبان عملا بوصية ملكتهم إيزابيل لابنتها (جوانا) وزوجها (فيليب)[1] بأن يواصلا الزحف حتى يدين لهم شمال أفريقية كله وتنتشر المسيحية بين سكانه . تابعوا حملاتهم الإستعمارية على الشمال الأفريقى . ومن الذين تحمسوا لفكرة الغزو الصليبى فى هذا الشمال الأفريقى الكادرينال (زيمينيس) Ximinis ، وقد شارك مشاركة فعلية فى إعداد الحملات الأسبانية على الشمال الأفريقى .

---

(١) مات الأمير فيليب (صاحب) الفلاندرز فى ريعان شبابه عام ١٥٠٦ . بعد زواجه من الأميرة الأسبانية بعشر سنوات تقريباً ، على أن أبنهما شارل الأول صار فى عام (١٥١٦) وارثاً لعرش أسبانيا بعد وفاة أبيه فرديناند الخامس ، وانتخب فى يونيه عام (١٥١٩) إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة بالإضافة إلى حكم أسبانيا والأراضى المنخفضة وتلقب بلقب (شارل الخامس Charles Quint) .

وكان الأسبان قد استولوا على ميناء مايله (Melila) المغربى ومنه أخذوا يبعثون الجواسيس للكشف عن حالة المناطق المجاورة . ومن هذه البعثات الإستطلاعية البعثة التى كان على رأسها (لوريثودى باديا) إلى مملكة تلمسان ، وكان المبعوثون يتنكرون فى زى التجار وبذا تمكنوا من الحصول على كافة المعلومات التى يحتاجها الغزو[1] .

وكان الأسبانيون عقب استيلائهم على آخر معقل للاسلام (غرناطه) فى عام ١٤٩٢ م — قد تعهدوا بتأمين المسلمين فى أنفسهم وأموالهم واحترام دينهم وشعائرهم ، غير أن الاسبان نكثوا هذا العهد فاضطر عدد كبير من المسلمين للهجرة إلى البلاد العربيه الافريقية فى شمال أفريقيا . . واستقر عدد كبير منهم فى تطوان وسلا والرباط . وأشير هنا إلى ظاهرة هامة ازدهرت على الخصوص بعد هجرة المسلمين من الاندلس لشمال أفريقيا وهى (القرصنة)[2] .

وان كانت المراجع الأجنبية تطلق . هذا اللفظ على جميع العمليات التى كانت تجرى فى ذلك الوقت فى البحر المتوسط وتعتبرها من أعمال النهب التى تقف فى نفس المستوى مع عمليات الاسترقاق للإنسانية — فإن الواقع يغاير ذلك فقد اتسمت هذه العمليات فى كثير من الحالات بدافع الجهاد ضد سفن ورجال وإقتصاد الاعداء ، فقد كون المهاجرون الاندلسيون (بتطوان) و (سلا) و (الرباط) اسطولا حربياً قوياً أخذ يغير على مراكب البرتغاليين والاسبان فى البحر ، بل ويهاجم السواحل الاسبانية . وقد أثار هذا الاسطول الرعب فى نفوس البحارة المسيحيين . وكانت أطماع الدول الاستعمارية وبخاصة أسبانيا ، والبرتغال، ثم الدول البحرية الاخرى فيما بعد فى بسط نفوذها على مدن وموانى الشمال الافريقى — مما شجع على تركيز السلطة فى هذه المدن والموانى فى أيدى القوات البحرية القادرة على مواجهة الخطر الاجنبى ، ويذكر دوكاستري

---

(١) الجيلانى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ح ٢ (١٩٥٥) ص ١٨٢ .

(٢) مشتقة من كلمة (course) — وتعنى لصوصيه البحر . .

(De Castrus) إنه كانت هناك أربعة مراكز هامة للقرصنة فى الجزء الغربى من البحر المتوسط هى طرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، وسلا[١] .

وما كاد القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) يأذن بالحلول حتى كان الأسبان قد اتموا استعداداتهم لمهاجمة الجزائر .وأختار الملك فرديناند لقيادة الحملة الأسبانية التى أبحرت من (مالقة) فى سبتمبر (١٥٠٥) متوجهة نحو الضفة الجنوبية من البحر المتوسط القائد دون ديجو (Don Diégo Devéra) وكان تحت إمرته ١٠٫٠٠٠ مقاتل ، فأرست هذه القوة على بعد ثمانية كيلو مترات غربى وهران عند ميناء (المرسى الكبير) ، وبعد معركة مع القوات المدافعة عن الميناء احتله الجنود الأسبان فى ١٥٠٩ وأخـــذوا يعملون لتثبيت أقدامهم فيه وليتخذوه نقطة إنطلاق لاحتلال المناطق الأخرى فى الشمال الافريقى التى كانت أنظارهم تتجه إليها[٢] .

ولعل اختيار الاسبان لميناء (المرسى الكبير) لبداية عملياتهم الإستعمارية على الثغور المغربية فى الشمال الأفريقى ، يرجع إلى موقعه الهام ، وصلاحية الميناء لرسو السفن بالإضافة إلى انه كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الأسبانية .

واتجهت أنظار الأسبان بعـــد أن استقروا فى المرسى الكبير الى قرية (مسرغين) الواقعة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من وهران . ويبدو أن الأسبان لم يـكونوا يتوقعون أن يجدوا هناك مقاومة قوية لهم ، ويرجع إهتمامهم بالاستيلاء على هذه القرية إلى حاجتهم للمواشى التى تسد حاجة جيشهم الجرار الذى أتوا به إلى المرسى الكبير ، لكنهم فوجئوا بأهالى القرية والمدافعين

---

(١) أنظر : عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة . مجلة تطوان ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ العددان ٣ ، ٤ ص ٦٨ وكذلك :

Roger Coindreau : Les corsaires de Salé (Paris 1948)

(٢) الجيلالى — مرجع سابق جـ ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

عنهـا يقفون فى وجه الجيش المغير مدافعين بصلابة عن حقهم فى بلادهم وعن ممتلكاتهم . وأتاح صمود سكان القرية الفرصة لوصول النجدات التى تدفقت من القرى المجاورة ومن وهران ذاتها ، ودارت الدائرة على الجيش الأسبانى فقتل منه ما ينيف على ٣٠٠٠ جندى ، وفر الباقون إلى المرسى الكبير للاعتصام بأسواره المنيعه . وفى عام ١٥٠٨ أرسل بدرونافرو Pedro de Nafaro على رأس حملة تجحت فى الإستيلاء على حجر (باديس) بموقعها الممتاز على سواحل المغرب الأقصى الشمالية .

وتابع الأسبان نشاطهم الإستعمارى فى هذه الجهات فقاد الجنرال بيدرونا فارو حملة ضخمة فى عام ١٥٠٩ لمهاجمة (وهران) ذاتهـا ووصلت الحملة إلى المرسى الكبير ، وأخذ المشاة يزحفون صوب وهران حتى أحدقوا بالمدينة ، ولم يجد الجيش الغازى مقاومة تذكر بسبب خيانة القائدين القائمين على حراسة الثغر وبعض القبائل الأخرى مثل بنى عامر وغيرهم ،فتدفق الجنود الأسبان على المدينة، وفر من أستطاع الفرار من أهلها وأعمل الجنود الأسبان القتل والذبح فيمن عجز عن الفرار من العجزة أو من أقعدهم المرض عن الفرار من المذبحة فقتل نحو ثمانية آلاف من الأبرياء وانتهكت حرمات المنازل والمساجد .

وقد كان لسقوط (وهران) فى يد الأسبان دوى عنيف فى العالم الإسلامى كله فأنبرى العلماء والشعراء يستثيرون همم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها للوقوف فى وجه الغزاة الطامعين فى أراضيهم ، ومن ذلك قصيدة أحد علماء سجلماسة (الشيخ أحمد بن القاضى عبد الله بن أبى محلى) جاء فيها[1] .

يا معاشر الإسلام فى كل موطن
وفى كل ناد سالف ومعاصر
يا سادة العربان من آل هاشم
وغيرهم ، بالله ما صبر صابر

---

(١) القصيدة كلها موجودة فى :
المشرفى ، عبد القادر : بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبنى عامر (الجزائر ١٩٢٤) .

يا معاشر الاتراك ياكل عالم
وكل ولى حافظ الأوامر
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم
لدى الله فى (وهران)أمر الخنازر

وقد أصبحت (وهران) مركز نشاط الأسبان فى الشمال الأفريقى بينما كانت (مليلة) مركز ملاحظة ومراقبة فحسب لحركات الأسطول التركى بالإضافة إلى أحداث المغرب الأقصى، كما أصبحت وهران ومليلة مأوى للخارجين على السلطات الحاكمة فى المغرب أو المناوئين لهذه السلطات، فطالما تردد عليها بقايا البيت الوطاسى من أمثال أبى حسون على بن محمد الشيخ، ومنذ أواسط القرن السادس عشر كان حاكم وهران الكونت دى الكوديت أى أمير قرطبة (lo Comte d'Alcaudete) بشخصيته القوية هو المحرك (الدينمو) والمنفذ للسياسة الأسبانية فى الشمال الأفريقى كله والأرشيف الاسبانى يحوى عدة مراسلات توضح السياسة التى اتبعها هذا الحاكم الاسبانى فى هذه الجهات فهو تارة يؤيد الوطاسيين الثائرين على حكم السعديين وأخرى يساند الثائرين من الزيانيين المطالبين بالسلطة فى تلمسان.

ولما اختفى الوطاسيون وبنو زيان من المسرح السياسى؛ اتجهة للسعديين فى المغرب فى محاولة للاتفاق معهم ضد الاتراك العثمانيين فى الجزائر وغيرها من ثغور الشمال الافريقى، وكان حول هذا الامير الاسبانى عدد من الجواسيس والوسطاء يعملون لتنفيذ سياسته هذه، أشتهر منهم شخص يهودى يدعى يعقوب كانسينو (Jacob Cansino) وتاجر جنوى كان مقيماً لفترة طويلة فى فاس يدعى بولوجريللو (polo Grillo) بالإضافة إلى عدد من أبناء الامر الاسبانية

التى عاصرت وتعاملت مع المسلمين فى الاندلس(١) .

ولم يكتف الأسبان بالاستيلاء على وهران. ففى يناير ١٥١١ تحرك أسطول أسبانى من ١٤ سفينة حربية عليها ١٠,٠٠٠ جندى صوب (بجاية) فهاجموا المدينة العظيمة ودخلوها عنوة ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى نقل ما بها من تحف ونفائس إلى أسبانيا فى مراكب غرق عدد كبير منها فى الطريق ، وعمدو إلى تحطيم ما تعذر نقله ، وهدموا (قصر اللؤلؤة) الذى يعتبر من أبدع نماذج الفن المعمارى الجزائرى ، كما حطموا (قصر الكوكب) ليبنوا مكانه حصناً آخر ، وهدموا المسجد الجامع ، واتخذ الاسبان من بجاية مركزاً لقيادتهم ولمواصلة فتوحهم فى الشمال الافريقى .

وواصل الاسبان فتوحهم فى الجزائر فاستولوا على (شرشال) و (بونه — عنابه) وغيرها من المدن الساحلية دون أن يحرك سلاطين بنى زيان ساكناً لوقف هذا الخطر الداهم مما يدل على مقدار ماوصلوا إليه من ضعف واضطراب

---

(١) أنظر على سبيل المثال :

— خطاب ابى حسون لشارل الخامس المؤرخ ١٥ سبتمبر ١٥٥١ .

— وخطاب (مولاى الناصر بن مولاى عبد الله) أحد المطالبين بعرش تلمسان لشارل الخامس (مؤرخ وهران ربيع الأول ١٩٦٢ ﻫ)

Archivo General de Simancas — Estado Legazo — 477.

ملاحظة : توجد بالأرشيف الأسبانى عدة خطابات متبادلة بين الأسبان والخارجين عن السلطات الشرعية منها مثلا :

— خطاب من الطامع فى عرش تلمسان لشارل الخامس مؤرخ . بوهران فى ٢١ مارس ١٥٥

— ومراسلات الكابتن كونزالو هرنانديز(**Conzalo Hernandez**) بخصوص المفاوضات بين السعديين والاسبان التى بدأت فى عام ١٥٥٥ م للاتفاق على عمل موحد لمواجهة الخطر العثمانى ، وقد كان هذا الشخص ممثلا للأسبان فى المفاوضات ويؤرخ مذكراته عنها بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٥٥٦ .

وأضطر الجزائريون للخضوع مؤقتاً للقوة ، فكونوا منهم وفداً برئاسة الشيخ (سالم التومى الثعالبى) للتوجه إلى (بجايه) لعقـــد هدنة وصلح مع (بيدو نافارو) المفوض العسكرى الاسبانى بالجزائر ، كما سافر الوفد إلى أسبانيا حيث قابل الملك فرديناند الخامس (Ferdinand V) لتقديم فروض الولاء وكان الوفد يحمل هدايا ثمينة للملك الأسبانى .

وكان مما أتفق عليه :

١ — يفرج الجزائريون عن جميع الأسرى الأسبان .

٢ — تسلم للاسبان إحدى الجزر المرتفعة الواقعة تجاه مدينة الجزائر ويبنى الأسبان على هذه الجزيرة وفى مكان مرتفع منها حصن البنيون (Penion) ليكون مركزاً لقيادتهم البحرية [1] . وتم تشييد الحصن وانزلوا به نحو مائتى جندى وشحنوه بالسلاح وأصبحوا يهددون بعدادهم من الحصن مدينة الجزائر نفسها . كما أصبحوا يراقبون حركة المسلمين فى مختلف ثغور الجزائر .

٣ — التزموا بدفع مبلغ كبير من المال سنوياً .

وقد أضطرت عدة موانى أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل (دلس) و (تنس) ، و (مستغانم) أن تعترف بسلطان الأسبان ، فأصبحوا بذلك يبسطون نفوذهم على الموانى الهامة فى كل المغرب الأوسط ، كما أنهم استولوا على طرابلس فى عام ١٥١٥ ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية فى البحر

---

(١) كانت تجاه مدينة الجزائر أمام المرسى ، أربع جزر صخرية منها الجزيرة الصخرية الكبرى التى بنى عليها الحصن الأسبانى وقد هدم هذا الحصن على يد الأتراك (خير الدين) عام (١٥٣٠) وبعد تحطيم الثكنة الأسبانية ردم مابين هذه الجزر واتصلت الجزر بالمدينة برصيف طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً ولعل هـذا هو السبب فى اطلاق اسم الجزائر عليها .

انظر :

محمد بن أبى شنب (ناشر) : الذخيرة السنية (الجزائر ١٩٢٠) .

المتوسط ، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاما ، ثم تنازلوا عنها فى عام ١٥٣٥ لفرسان القديس يوحنا فى مالطة فحكموها بدورهم حتى انتزعها منهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥٥١ .

ولما وضع الأسبان أيديهم على طرابلس سيطروا على تجارة الميناء واحتكروها .

واتجه الجزائريون فى وسط هذه المحنة إلى مقاومة المستعمرين عن طريق حرب القرصنة البحرية ، فأنضم عدد كبير منهم لصف كبار رجال البحر المسلمين العاملين فى هذا المجال كما اتجهت أنظارهم للدولة الإسلامية التى كانت قد أخذت فى ذلك الوقت تظهر وتثبت أقدامها فى المشرق الإسلامى وتتطلع للمغرب الإسلامى أيضاً وهى الدولة التركية العثمانية

ومنذ ذلك الوقت أصبح المغــــرب العربى مسرحاً للتنافس بين القوى الإستعمارية الطامعة المتمثلة فى الدول الأوربية الاستعمارية (إسبانيا والبرتغال بالذات)، والدولة العثمانية من ناحية أخرى .. هذا بالإضافة إلى أطماع الرؤساء المتنازعين على السلطان هم وأتباعهم .

وكانت (تلمسان) مسرحاً للتنافس بين هذه القوى المتصارعة ، فقد حدث فى عام ١٥١٧ م تنافس على الحكم بين اثنين من الأسرة الزيانية هما (أبو حمو) و (أبو زيان أحمد) واستنجد الأول بالأسبان ، بينما استنجد الثانى (بعروج) الذى كان قد أعلن نفسه فى عام ١٥٠٤ أميراً على الجزائر، فأتجه عروج بقواته إلى تلمسان فدخلها ، وجاءت القوات الأسبانية فى مايو ١٥١٨ م لنجدة (حمو) فحاصرت تلمسان وأضطر عروج لمغادرتها متجهاً إلى مدينة الجزائر ، لكنه وقع فى أيدى الأسبان فقتلوه . وقد ظلت تلمسان فى مهب التيارات المختلفة بسبب ضعف حكامها من الزيانيين مما اضطرهم للجوء إلى هذه أو تلك من القوات المتصارعة لمساندتهم حتى انتهى أمرها فيما بعد بإلحاقها بحكومة

الجزائر التركية فى عام (١٥٥٤ م) لوضع حد لذلك. وبذلك انتهى حكم دولة بنى زيان بها [١].

على أن خير الدين بعد أن خلف أخاه عروج فى حكم الجزائر وأعلن فى عام (١٥١٨) ولاءه للسلطان العثمانى وتبعية بلاده للإمبراطورية العثمانية ـ تصدى للأسبان محاولا طردهم من الثغور التى كانوا يحتلونها فى الشمال الأفريقى، ونجح فعلا فى أن يطاردهم من عدد من الثغور التى كانوا متمركزين فيها، بل استطاع فى عام ١٥٢٩ أن يطردهم من حصن البينون الذى كانوا يهددون منه الجزائر.

واتجهت انظار خير الدين بعد ذلك إلى (تونس) فقد كانت الدولة الحفصية بها قد وصلت لدرجة كبيرة من الضعف وكانت أنظار الإمبراطور شارل الخامس (Charles Quint) قد أخذت تتجه إليها [٢].

فخرج خير الدين من الجزائر فى جيش من الأتراك وأستولى على (بنزرت) ودخل تونس فى عام ٩٣٥ هـ، ١٥٢٩ م وخطب بها للسلطان العثمانى.
لكن الحسن بن أبى عبد الله الحفصى توجه إلى أسبانيا مستنجداً بملكها شارل الخامس فأعدهذا قوة ضخمة قادها بنفسه، ونزل فى (حلق الوادى)، ومنها زحف صوب تونس فدخلها فى سنة ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م)، وعاث الجنود الأسبان فى المدينة سلباً ونهباً وتقتيلا كما نهبوا جامع الزيتونة، وبددوا ما كانت به من نفائس ومخطوطات، ونصب شارل الخامس ـ الحسن الحفصى على كرسى الحكم وأمضى الطرفان معاهدة فى ٦ صفر ٩٤٢ هـ (٢٦ يوليه ١٥٣٥ م) وأهم ما جاء بها:

---

(١) Archive General de Simancas — Estado legazo 79

ملاحظة: سنتعرض بالتفصيل فى الفصل التالى للدور الذى لعبه عروج، وخير الدين والعثمانيون فى هذه الجهات.

(٢) حكم أسبانيا باسم شارل الأول ١٥١٦ وأنتخب إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ١٥١٩ م، وأصبح يلقب بلقب شارل الخامس، وأصبحت تحت حكمه أسبانيا والأراضى المنخفضة واتحاد ألمانيا الإمبراطورى.

١ — يسمح للأسبان بسكنى جميع أنحاء القطر ، وإقامة طقوسهم الدينية دون أن يتعرض أحد لهم .

٢ — تنازل لهم الأمير الحفصى عن مدن (عنابه) و (بنزرت) وحلق الوادى ليقيموا بها حاميات لهم .

٣ — يدفع الأمير الحفصى سنوياً للاسبان إثنى عشر الف دوكه .

وقد كان قبول الأمير الحفصى لهذه الشروط المهينة سبباً فى ثورة الأهالى عليه فأمسكوا به وسملوا عينيه ، وخلفه إبنه أبو العباس الثانى فى إدارة شئون البلاد .

وقد حاول هذا الحاكم الحفصى الجديد أن يوقف التيار الإستعمارى الاسبانى دون جدوى ، فقد نجحوا فى عام ١٥٤٠ م فى الإستيلاء على موانى (سفاقص) و (سوسه) ، و (مناستير) .

كما أن الصراع بين الأمير الحفصى « ابى العباس الثانى » ووزيره (أبى الطيب الخفار) ، أدى لدخول الأسبان والعثمانيين فى الصراع ، وقد أقام الأسبان قلعة الباستيون العظيمة خارج أسوار تونس ، كما حصنوا (حلق الوادى) وغيرها من الموانى ، بأسوار حجرية اقتطعوها من الآثار الرومانية القديمة .

وظلت تونس منذ ذلك الوقت موضع صراع بين التونسيين والأسبان والعثمانيين حتى استولى عليها العثمانيون فى عام ١٥٦٩م — كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد — وكان لهذا النصر دوى فى أوروبا حتى أن البابا دعا إلى تأليف حلف مسيحى يعمل على الأحتفاظ لاوربا بالمراكز التى استولت عليها فى السواحل الافريقية . وقد التقت أساطيل الحلف وعلى رأسها (دون جوان) أخو الملك فيليب ملك إسبانيا بالأسطول العثمانى فى معركه غرب سواحل مالطة هى معركة ليبانتو (Lepanto) (١٥٧١ م) هزم فيها الأسطول التركى ، مما شجع

الأسبان على إعادة الحفصيين لحكم تونس عام ١٥٧٣ ؛ لكن استطاع القائد العثمانى سنان باشا فى عام ١٥٧٤ أن يقضى على الحفصيين فى تونس نهائياً بعد أن حكموها مايقرب من ٣٥٠ عاما .

وقد أصاب تونس على يد الأسبان الكثير من صنوف الدمار، فقد اندثرت كثير من المعالم الدينية بها ، ووصل الأمر بهم إلى أن اتخذوا جامع الزيتونة إسطبلا لخيولهم واتلفوا مابه من نفائس الكتب وحمل بعضها إلى روما حيث أهدوها لكنيسة الفاتيكان . هذا وكان شارل الخامس قد حاول فى عام (١٥٤٠) أن يوجه ضربة قاصمة للاتراك فى (الجزائر) ذاتها فاعد حمله وأسطولا على رأسه القائد البحرى الشهير (اندريه دوريا) (١) .

وقد اشترك الإمبراطور بنفسه فى هذه الحملة التى أعد لها ٢٤٫٠٠٠ مقاتل حملتهم ٤٥١ سفينة حربية . كما أشتركت فيها أيضاً ٦٥ بارجة ، ونزل جنود الحملة عند ناحية (حسين داى) يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٤١ وتحركت صوب المكان الذى عرف بقلعة الإمبراطور (Fort l'Empereur) فاحتلته ومنه اتجهت لحصار العاصمة ، ولم يكن بها فى ذلك الوقت إلا ٨٫٠٠٠ جندى لكن الطبيعة اشتركت فى تحديد نتيجة المعركة ، فقد هطلت امطار غزيرة وثارت الزوابع البحرية والجوية فأدت ثورة الطبيعة لتحطيم جزء كبير من أسطول العدو وغرق الكثيرون من جنوده ، واضطرت البقية للإلتجاء بالمراكب المتبقية إلى بعض المراسى المجاورة ، ونجا الإمبراطور بنفسه وأتجه صوب (بجايه) ومنها قفل عائداً إلى أسبانيا ، وهوت هذه الهزيمة مركز الأسبان فى وهران وغيرها من مدن شمال أفريقيا .

وكان العثمانيون قد أخذوا يضيقون الخناق على وهران مما دعا حاكمها (الكونت الكوديت) لأن يستصرخ طالباً نجدات سريعة من أسبانيا ، لكن ظروف أسبانيا وحروبها فى القارة الأوربية التى أدت إلى تنازل شارل الخامس عن عرشه فى عام ١٥٥٦ ، واعتكافه فى دير فى إسبانيا ، لم تمكنها من نجدة قواتها مما مكن الأتراك من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مراكز الأسبان .

---

(١) قائد بحرى جنوى مشهور كان فى خدمة أسبانيا .

وأستطاع الاتراك فى عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م أن يوجهوا ضربة قاصمة للجيوش الاسبانية قرب (مستغانم) فاسروا منهم ١٢ ألف نسمة وأحاطوا بالبقية الباقية منهم وأوقدوا النيران فى مخازن البارود التابعة لهم فانفجرت، وكان ممن قتل فى هذه المعركة الكونت الكوديت حاكم وهران الذى كان على رأس القوات الاسبانية الزاحفة صوب مستغانم .

وحين ولى (درغوث رايس) قيادة الاسطول الجزائرى وكان من البحارة العثمانيين المهرة — استطاع فى عام ١٥٥١ أن ينتزع ميناء (طرابلس) من يد فرسان بيت المقدس، كما أستولى على (القيروان) ، وقد حاول الاسبان استرجاع (طرابلس) لقطع الطريق على السفن العثمانية فى اتجاهها للبحر المتوسط الغربى فاعدوا حملة بحرية على رأسها دوق دى مدينا سدونيا Duc de Medina Sidonia) ولكن هزمه القائد (درغوث) عند جزيرة (جربه) .

وقد حاول العثمانيون فى عام ١٥٦٥ انتزاع جزيرة مالطة التى كانت بيد فرسان بيت المقدس (الاسبتارية) وذلك لاهمية موقعها البحرى فى هذا الصراع بينهم وبين الاسبان ، ولكنهم اضطروا لرفع الحصار لقوة المدافعين عنها فظلت فى أيدى فرسان بيت المقدس حتى استولى عليها الإنجليز عام ١٨٠٠ م .

وبانتهاء القرن السادس عشر أخذ نشاط الأسبان فى الشمال الأفريقى يضعف واهتمامهم بهذه الجهات يقل فأكتفوا بما استولوا عليه من ثغور ساحلية ولم يحاولوا التوغل للداخل — ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

١ — حين بدأت اسبانيا نشاطها الاستعمارى شغلت عن أفريقيا بالجهات المستكشفة حديثا فى العالم الجديد ، خاصة بعد أن ظهر غنى هذه الجهات فى المعادن .

٢ — يضاف إلى هذا أسباب تتصل بالسياسة الخارجية لأسبانيا وعلاقاتها بالدول الأوربية الأخرى ، فقد شغلت أسبانيا بالصراع المرير فى شبه الجزيرة الإيطالية خاصة بعد أن توج الملك (شارل الخامس) ملك أسبانيا امبراطوراً

للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وقد استمرت هـــذه الحروب بين فرنسا وأسبانيا فى فترات متقطعه امتدت طوال خمسة وستين عاما (١٤٩٤— ١٥٥٩)، واستنزفت قوة اسبانيا وثروة مستعمراتها .

٣ — ظهور الدولة التركية العثمانية ، ومد نفوذها للشام (١٥١٦)،ومصر (١٥١٧) ، والجزائر (١٥١٨) ، ثم تونس (١٥٧٤) . . هذا بالاضافة إلى توغل العثمانيين فى قلب القارة الأوربية وفتحهم جبهة بحرية فى حوض البحر المتوسط باستيلائهم على العديد من جزرها التى اتخذوها مع أماكن استقرارهم فى الشمال الأفريقى قواعد عسكرية لهم — وهكذا شغل الاسبان بعد تخلصهم من العرب فى الأندلس بهذه الموجة الإسلامية الجديدة التى أصبحت تمثل فى نظر الأوربيين خطراً داهماً على العالم المسيحى — خاصة بعد أن أندفعت قوات العثمانيين البرية والبحريه عام (١٥٢٩) صوب (فينا) محاولة اقتحام هذه العاصمة الحصينة ، بل بعد أن تعرض الساحل الشرقى لشبة جزيرة أيبريا ذاتها لضربات كثيرة من العثمانيين [١] .

فكانت كل هذه المشكلات كافية لاستنزاف جهود أسبانيا ، وصرف أنظارها عن القيام بمزيد من المغامرات فى القارة الأفريقية ، فكانت تحركاتهم فيها محدودة .

ويلاحظ أن الأسبان لم يحاولوا — أو على الأصح — لم ينجحوا فى الربط بين مراكز استعمارهم فى الشمال الأفريقى ، فظلت مجرد ثغور أو حصون منفصلة متباعدة ، وظهرت خطورة هذا الوضع حين شغلت أسبانيا عن حامياتها فى هذه الثغور فانقطعت صلتها بها .

---

(١) تعددت غارات العثمانيين وحملاتهم على ثغر بلنسيه بالذات ، ويقال إنه كان يتجمع فى هذا الثغر المضطهدون من المسلمين المتبقيين فى أسبانيا .. وكان من أهداف الهجوم العثمانى على الثغر هو تخليص من يمكن تخليصهم منهم من أضطهاد الأسبان .

— انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس (١٩٤٩) .

وقد تعرضت هذه الحاميات الاسبانية للمجاعة وافتقرت للمزيد من التعضيد في الوقت الذى تعرضت فيه لهجمات القوات الوطنية والإسلامية فضعف شأنها في الوقت الذى كانت فيه قوة العثمانيين في البحر المتوسط والبلاد المطله عليه تزداد. بالاضافة إلى ازدياد نفوذ الدول البحرية والأوربية التي أخذ اهتمامها بالبحر المتوسط يزداد أيضاً باعتباره شريانا هاماً للمواصلات البحرية العالمية . إذ أن اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح للشرق (رحلات فاسكودا جاما عام ١٤٩٧ وما بعده) — مع أنها هزت لفترة مكانة البحر المتوسط كطريق تجارى . الا أنه لم تلبث أن رجعت له مكانته باعتباره أقصر طريق يؤدى للشرق [١] .

---

(١) من يريد التوسع في هذه النقطة انظر :

Hoskins, G.A. : British Routes to India (1928) .

ثانياً – الأتراك العثمانيون فى المغرب العربى

الفصل الثالث : الجزائر ولاية عثمانية

الفصل الرابع : تونس ولاية عثمانية

الفصل الخامس : ليبيا ولاية عثمانية

الفصل الثالث

الجزائر ولاية عثمانية

كانت الدولة العثمانية — كما ذكرنا — قد غدت فى أوائل القرن السادس عشر أعظم قوة فى الشرق الأدنى وفى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكانت تمثل القوة الإسلامية الفتية — خاصة بعد أن نجحت فى الإستيلاء على أملاك الدولة المملوكية فى السام ومصر والحجاز واليمن . وإلى ذلك الوقت لم تلعب البحرية العثمانية دوراً بارزاً فى حروبهم فقد كانت الجيوش البرية هى صاحبة الفضل فى مجدهم الحربى .

وقد تعرضت البلاد العربية فى شمال أفريقيا للخطر والأطماع الإستعمارية البرتغالية والاسبانية — كما رأينا — فاستولت البرتغال على شواطىء المغرب الأقصى بينما استولت أسبانيا على الشواطىء من الجزائر غرباً إلى (طرابلس) شرقاً — فكان الأمر يستلزم دولة فتية تظاهرها قوة بحرية لمواجهة هذا الخطر المحدق ببلاد الإسلام فى الشمال الافريقى .

ظهر فى هذه الاثناء بحاران جزائريان هما الاخوان (عروج) و (خير الدين) لعبا دوراً هاماً فى الوقوف فى وجه الإستعمار والاطماع الإستعمارية فى بلدان الشمال الافريقى كما أشرنا سابقاً . وهو ماسنوضحه بتفصيل فى هذا الفصل .

وهناك خـــلاف كبير حول المراحل الأولى من حياة هـذين الاخوين والظروف التى أدت بهما للعمل فى (القرصنه) — على أن ما يهمنا هو الدور الذى لعباه فى تاريخ الشمال الافريقى[1] .

---

(١) البعض يذهب إلى أنهما مسلمان يرجعان لأصل تركى ، والبعض يذهب إلى أنهما اعتنقا الإسلام مؤخراً .

— أنظر عبد القادر ، نور الدين : صفحات من تاريخ مدن الجزائر (قسنطينه ١٩٦٥) ص ٤٢ وما بعدها .

ملاحظة : انظر الخريطة رقم ٩ بملحق الـكتاب .

وقد اتخذ (عروج) من جزيرة (جربه) التونسية قاعدة لنشاطه فى البحر المتوسط بناء على اتفاق مع السلطان الحفصى محمد بن الحسن ، وأخذ صيته يذيع وتتناقل الالسنة القصص عن جرأته فى نقل أعداد كبيرة من مسلمى الاندلس وإنقاذهم من يد الاسبان . وأدى ذلك الى استنجاد المدن الساحلية فى المغرب به لتخليصها من براش الإسبان ، وقد بترت ذراعه فى أثناء محاولته فى عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م لتخليص (بجايه) منهم .

وفى ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م احتل عروج (جيجل) واتخذها قاعدة لنشاطه بدلا من جربه ، ثم احتل (شرشال)(١) .

واتجهت أنظار عروج إلى (الجزائر) حيث كان وجود الاسبان فى حصن البينون Penion الذى بناه الاسبان سنة ٩١٦ (١٥١٠م) بعد احتلالهم لصخرة المرسى الكبير يمثل تهديداً خطيراً لها .

ورغم أن عروج لم ينجح فى الإستيلاء على قلعة (البنيون) فقد استطاع أن يثبت أقدامه فى مدينة (الجزائر) رغم المؤامرة التى اشتركت فيها بعض القبائل برئاسة (سالم التومى) رئيس المدينة، وبعد أن خضعت الجزائر له أخذ عروج يبسط نفوذه على المناطق المجاورة واستولى على [ملياته] و [المدية] و [تنس] . وفى عام ٩١٣ هـ / ١٥٩٧ م نجح فى الإستيلاء على (تلمسان) وقضى على الاسرة الزيانية بها وتوغل عروج فى أقاليم المغرب فأستولى على وجدة (٢) .

لكن الاسبان أخذوا يشعرون بمدى الخطر المحدق بهم نتيجة هذه الانتصارات المتتالية من هذا المغامر فأرسلوا حملة من وهران بقيادة(دون مارتن) استطاعت أن تقطع الطريق بين عروج وقواته فى الجزائر ، كما نجح الاسبان فى إثارة أهالى تلمسان ضده ، وحاصروا عروج فى مدينة [مشورا]

---

(١) ابن أبى الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس — ١٩٦٣) — حـ ٢ ص ٩ وما بعدها .

(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث (١٩٦٩) ص ٢٦

قرب الوادى المالح (Rio Salado) وأسروه وقتلوه هو وعدد كبير من جنوده فى عام ٩٢٤ هـ ١٥١٨ م ، وكان فى ذلك الوقت فى الرابع والأربعين من عمره — ولم ينهار البناء الذى وضع عروج أسسه فقد تسلم الأمر بعده أخوه (خير الدين) الذى عرف فى التاريخ بلقب (بارباروس) أى ذى اللحية الشقراء ، وكان وقت قتل أخيه نائباً عنه فى الجزائر . فكان عليه أن يواجه بالإضافة إلى قوات الأسبان — المؤامرات والثورات التى قامت فى مدن الشمال الأفريقى التى أخضعها عروج ، فقد كانت هذه البلاد كلها تمزقها الإضطرابات والإنقسامات ، ولم يكن الإدراك والوعى لما يتطلبه الموقف من تكتل وحزم للوقوف فى وجه الأطماع الأسبانية — قد نضج بعد . واتخذ خير الدين خطوة حاسمة لمواجهة الموقف — فأعلن ولاءه للسلطان العثمانى وتبعية البلاد الخاضعة له للإمبراطورية العثمانية — وكانت فى ذلك الوقت تمثل القوة الأساسية فى العالم الإسلامى ، فأنعم عليه السلطان سليم الأول برتبة (بيكلر بك) أو بيلر باى (١) وأرسل له جيشاً من ستة آلاف مقاتل لشد أزره وسمح له بسك النقود ، وأصبح خير الدين بذلك والياً من ولاة الأتراك ، وظلت الجزائر من ذلك الوقت ولاية عثمانية حتى سقطت فى يد الفرنسيين عام ١٨٣٠ .

* * *

وتنقسم هذه الفترة من تاريخ الجزائر إلى ثلاثة أدوار :

[ا] دور الولاة الملقبين بلقب بيكلر بك (١٥١٨ — ١٥٨٧)

[ب] دور الباشوات (١٥٨٧ — ١٦٧١) .

[جـ] دور الدايات (١٦٧١ — ١٨٣٠) .

وسنشير للأحداث الهامة التى أحاطت بالجزائر فى كل طور من هذه الأطوار .

---

(١) لفظ تركى معناه أمير الأمراء — وكانت الجزائر يومئذ إحدى ثلاث ولايات بالامبراطورية العثمانية تلقب رئيسها بهذا اللقب (ولاية الأناضول ، والروميلى ، والجزائر) — انظر الجيلانى جـ ٢ ص ٢٧٧ .

فترة حكم الولاة (البيكلر بك) :

حاول الأسبان أن يتخلصوا من خير الدين ، كما تخلصوا من شقيقه، فأرسلوا حملة فى عام ١٥١٩ نزلت قرب الجزائر ، لكن استطاع خير الدين أن يوقع بها هزيمة وأسر من رجالها ثلاثة آلاف مقاتل فيهم عدد كبير من الضباط ، وأستولى خير الدين على مدينة (القل) الساحلية .

لكن نجح الاسبان فى إثارة (أحمد بن القاضى) (١) المناوىء لخير الدين، فتوجه بقوة نحو الجزائر ، كما ثار ضده الحفصيون بتونس وبنوزيان فى تلمسان والوطاسيون بالمغرب الاقصى ، واضطر خير الدين إلى اللجوء إلى (جيجل) ثم إلى جزيرة (جربه) حيث استطاع أن يستعيد قوته وأن يهاجم الجزائر جل وأستولى على قلعة بنيـــون الاسبانية فى مايو ١٥٣٠ ، وسهل له الاستيلاء عليها إنشاء مرسى الجزائر الذى أصبح ملجأ صالحاً لسفنه ، وفى ١٥٣٣ قادهجوماعنيفاً على تونس وزحف عليها .

وذاع صيته بعد هذه الانتصارات المتتالية فأنعم السلطان سليم عليه بلقب الباشوية وولاه إمارة الاسطول العثمانى ، فظل كذلك حتى وافته المنية فى عام ١٥٤٦ .

وخلف خير الدين فى إدارة شؤون الجزائر ٩٤٠هـ / ١٥٣٤ حسن اغا وفى عهده أعد شارل الخامس ملك أسبانيا حملة لغزو الجزائر ذاتها اشترك فيها بنفسه . لكن استطاع الجزائريون — كماأوضحنا سابقاعندالحديث عن الاطماع الأسبانية —أن يوقعوا الهزيمة بهذه القوة ، وهبت رياح حطمت عدداً كبيراً من سفن الاسطول الإسبانى . وكان من نتيجة هذا النصرأن نعمت الجزائر لفترة طويلة بالأمن . فقد أصبح الاوربيون يعملون لقوتها حساباً ، كما هز مركز الاسبان فى وهران وغيرها من مناطق نفـــوذهم بالشمال الأفريقى (٢) .

---

(١) أحمد بن القاضى من أعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية (بلاد القبائل) ، ولاه خير الدين على تلك الناحية — لكنه خرج عليه .

(٢) أحسان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) ص ٥٣ .

وفى عام ١٥٤٤ عين (حسن باشا) ابن خير الدين والياً على الجزائر واستمرت ولايته حتى عام ١٥٥٢ ، فوجه جهـــده أول الأمر لتحصين الجزائر ، ثم هاجم تلمسان و مستغانم فأستولى عليهما ؛ كما هاجم الأسبان فى وهران ، لكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها . خاصة أن فكرة التحالف مع السعديين فى المغرب لتكوين جبهة إسلامية ضد الأسبان لم يكتب لها النجاح حيث كان السعديون أنفسهم يطمعون فى بسط نفوذهم على تلمسان و مستغانم وغيرهما من مدن المغرب الأوسط، وقد أدى هذا لصراع بين الاتراك والمغاربة استمر فترة طويلة .

وفى عام ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م تولى الأمر فى الجزائر (صالح ريس) ، وكان من أعوان خير الدين ، وقد وقعت بينه وبين السعديين معارك نتيجة تأييده للأمير الوطاسى (أبى حسون على بن محمد الشيخ) ليستعيد نفوذه فى (فاس) . وقد نجح جيش صالح ريس فى دخول فاس وتنصيب أبى حسون فيها — لكن دارت الدائرة على أبى حسون بعد عودة الجيش الجزائرى لا وعـــاد السعديون للعرش . كما وجه الوالى الجزائرى ضربات قوية للأسبان ، ونجح فى طردهم من بجاية فى ١٥٥٥ ، ومن المهدية فى العام التالى ، وأستولى فى عام ١٥٥٦ على طرابلس ، وعين طرغوث [1] والياً عليها ، فأتاح بذلك ميناء هاما فى البحر المتوسط للأسطول العثمانى ، على أن وفاة صالح ريس فى عام ١٥٥٧ أدت لإضطراب الأمور فى الجزائر فتنازع رؤساء الفرق العسكرية على السلطة فيها .

وأعاد السلطان العثمانى (حسن باشا) لولاية الجزائر ليعيد الأمور بها إلى نصابها . وبعد أن أستتب الأمر للوالى الجديد بالجزائر هاجم القوات المغربية التى كانت قد استولت على تلمسان ، وطارد المغاربة حتى أبواب فاس ، وقد

---

(١) طرغوث : اسمه بالتركيه (طورغود رايس) — وأصله من بلاد الاناضول نشأ صغيراً فى الخدمة البحرية مع خير الدين ، واشتهر فى قيادة السفن ، وله غزوات عديدة فى البحر المتوسط ، ومات أثناء محاصرة جزيرة مالطه سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) .

دبر مؤامرة للتخلص من الأمير المغربى (أبو عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدى) فأرسل إليه جماعة من الجنود (إثنى عشر جندياً) دخلوا فى خدمته مدعين أنهم هاربون من الجيش التركى حتى إطمأن إليهم وقربهم إليه وأنتهى الأمر بقتله فى ذى الحجة ٢٣/٩٦٤ أكتوبر عام ١٥٥٧ [١].

وإتجه حسن باشا إلى الأسبان وكانوا قد أعدوا قوة كبيرة من ١٢٫٠٠٠ مقاتل على رأسها الكونت الكوديت (Le Comte Al Caudete) حاكم وهران لمهاجمة (مستغانم)، وأنتهت المعركة — كما شرحنا سابقاً — بهزيمة ساحقة للأسبان فقد أبيد معظم جيشهم وقتل الكونت الكوديت نفسه. لكن استدعى السلطان العثمانى حسن باشا للاشتراك مع الأسطول العثمانى فى حصار مالطة مقر رهبان القديس يوحنا .. وخلفه على ولاية الجزائر علج على ١٥٦٨ — ١٥٨٧ وكان فى الأصل من الإنكشارية وعمل فى الملاحة فى البحر المتوسط وأشترك مع الأسطول العثمانى فى حصار مالطه وتولى قيادة الأسطول الشرقى بدلا من طرغوث [٢].

وعندما عين علج على والياً للجزائر وجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره حتى أصبح من بعده — ولمدة نصف قرن — مبعث رهبة الأوربيين [٣].

وقد شهدت فترة ولاية علج على الأحداث الهامة التى أدت إلى بسط النفوذ العثمانى على تونس.

على أننا نشير إلى أن سقوط تونس فى يد العثمانيين بعد أن بسطوا نفوذهم على الجزائر — دفعهم للتفكير فى بسط نفوذهم أيضاً على المغرب منتهزين الخلافات التى كانت بين أفراد أسرة السعديين. وكان المغرب يواجه

(١) سنشرح بتفصيل دوافع هذه المؤامرة عند الحديث عن الدولة السعدية بالمغرب
(٢) Seinard, Auguste : l'Algerie (Paris, 1930) P. 356
(٣) أحسان حقى — مرجع سابق ص ٥٥.

أيضاً الاطماع البرتغالية — ولكن الجيش المغربى أوقع بالبرتغاليين هزيمة ساحقة فى معركة وادى المخازن (١٥٧٨ م) وجاءت وفود الدول الإسلامية للمغرب للتهنئة ومنها وفد عثمانى ، لكن العثمانيين أرسلوا حملة ضد المغرب سنة ١٥٨٠ بحجة أن السلطان المنصور السعدى أساء إستقبال الوفد العثمانى ، ولكن السلطان المغربى أرسل وفداً مغربياً لاسترضاء السلطان العثمانى كما سنوضح بالتفصيل عند دراسة الاسرة السعدية بالمغرب . وكان إنشغال الدولة العثمانية بمشاكلها مع الدول الاوربية بالإضافة إلى مشاكلها الداخلية كفيلا بأن يبعد خطرهم لفترة طويلة عن المغرب .

حكم الباشوات فى الجزائر (٩٩٥ — ١٠٦٩ هـ/ ١٥٨٧ — ١٦٧١) :

كانت الجزائر فى الفترة السابقه تحكم بواسطة الولاة ، وكانوا مخلصين للدوله العثمانية دولة الخلافة ، فلم يفكر أحدهم فى الإستقلال . والحقيقة إن الجزائر كان لها مركز خاص بالنسبة للولايات العثمانية الأخرى فقد كانت تتمتع بلا مركزية واسعة ، وكانت السلطة العثمانية عليها إسميه أو رمزية فقط ، تكاد أحياناً لا تتعدى الدعـــاء للخليفة العثمانى على المنابر فى مساجد الجزائر .

وكانت الجزائر مستقله فى ميزانيتها ، ولها (سكة) خاصة بها — وكان هناك مجلسان استشاريان إلى جانب الحاكم (مجلس الشورى) و (الديوان) ، وكانت هناك ثلاثة أقسام إدارية كبيرة على كل منها بأى هى :

بايلك الشرق — مقره قسنطينه .

وبايلك الغرب — ومقره المعسكر Mascara وتغير إلى وهران .

وبايلك تيطرى — مقره المديه Medea [1] .

---

(١) انظر الخريطة

لكن منذ عام ١٥٨٧ كانت استامبول ترسل للجزائر ولاة غرباء عن الجزائر يحملون لقب باشا ، وكان الباشا يعين لمدة ثلاث سنوات وإن كان من النادر أن يكمل هذه المدة . وكان باشوات الجزائر مثل غيرهم من الباشوات العثمانيين يشترون مناصبهم بالمال ، وكان الجنود يمثلون مركز القوة فكان الباشوات حريصين على جمع أكبر قدر من المال باسم (الضريبة) أو غيرها لدفع الالتزامات المتعددة ، وفى مقدمتها رواتب الجند والهدايا التى يتقرب بها الباشا من السلطان وحاشيته .

وشهدت هذه الفترة من تاريخ الجزائر ثورات متعددة من القبائل — حيث كانت للزعماء المحليين سلطة ونفوذ بالإضافة إلى سلطـــة طوائف الجند والبحرية وغيرهم .

وقد زاد الأمر سوءًا ضعف الدولة العثمانية، مما أثر على مركز ممثليها فى الجزائر ، خاصة أن الدولة جرت على التغيير المستمر للباشوات ، وأنهمك هؤلاء فى جمع أكبر قدر من المال فى فترات حكمهم القصيرة — فأضعف ذلك من مراكزهم وجعلهم موضع السخط والنقمة .

وفى عام ١٦٥٩ قرر الانكشارية [١] أن يجردوا الباشا من سلطاته وأن تكون السلطات التنفيذية بيد رؤسائهم الأغوات [٢] وأن يبقى الباشا مجرد ممثل فخرى للسلطان العثمانى ، وأصبح يتولى الأمر أحد الأغوات يغير كل شهرين . وترتب على هذا فوضى لا مثيل لها خاصة أن تغيير الأغوات لم يكن يتم بيسر بل كان يؤدى لحروب بين أنصار الأغا القائم والأغا الجديد، وانتهى الأمر إلى أن جميع من تولوا هذه السلطة قتلوا بأيدى الجند حتى أن عديدين رفضوا قبول هذا المنصب الخطير .

---

(١) أصلها (البنيشرية) ومعناها الجنود الجدد وتعنى الجيوش غير النظامية التى كانت بالدولة التركية قبل السلطان محمود .

(٢) أغا — كلمة تركية وهو رئيس الجند (كل ١٠٠ جندى من الإنكشارية عليهم رئيس هو الأغا) .

وزاد الأمر خطورة تعرض السواحل الجزائرية لهجمات الدول البحرية الأجنبية التى كانت تتنافس فى ذلك الوقت على النفوذ فى البحر المتوسط خاصة فرنسا وإنجلترا وهولنده جنوه .

وقد مرت علاقات الجزائر بفرنسا بالذات منذ ذلك التاريخ بفترات دقيقة بسبب رغبـــة فرنسا فى تدعيم مركزها فى البحر المتوسط والثغور الجزائرية بالذات إستناداً على معاهدتها مع السلطان العثمانى (معاهدة أحترام مراكبها فى البحر) وكانت هذه العلاقات تتأرجح من حين لآخر بسبب أعمال القرصنة فى البحر المتوسط وبسبب ماكان يصيب أتباع كل من البلدين من نتائج هـذه الأعمال (١) .

ويشبه بعض المؤرخين هذه الفترة من تاريخ الجزائر بفترة الفوضى فى التاريخ الرومانى ـــ حين كان الجنود يسندون شؤون الإمبراطورية الرومانية لمن يوافق هواهم من القادة وكان أنشغال الباشوات بشئونهم الخاصة ومحاولة الإثراء بأية طريقة ـ من العوامل التى أدت إلى سقوط هيبتهم ، كذلك كان الباشوات يدفعون أهل البلاد إلى أعمال التعدى على السفن والثغور لحسابهم ، ولذا لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاه على عاتقه ، ولم يكن الجند يحسون بوجوده بينهم إلا فى الإحتفال الذى يقام لاستقباله يوم وصوله من القسطنطينية .

وقد حاول بعض الباشوات أن يكسروا شوكة الانكشارية بالإستعانة عليهم ببعض زعماء القبائل ، وأدى هذا بالطبع إلى حروب شتى ساهمت بدورها فى انتشار الفوضى فى البلاد .

---

(١) حاولت فرنسا بعد موقعه (لبانتو) الشهيرة بجنوب بلاد اليونان والتى تحطم فيها الاسطول العثمانى (جمادى الأول ٩٧٩هـ أكتوبر ١٥٧١) وقد أشرنا لها من قبل — ان تصل مع الدولة العثمانية إلى إتفاق لبسط نفوذها على موانى الجزائر — وأخيراً نجحت فى نيل بعض الامتيازات الخاصة ، وذلك بتصريح من السلطان العثمانى بإقامة محارس تجارية لها فى (القاله) وغيرها من الموانى الجزائرية على الا تقيم بها حصونا ، لكن كانت هذه بداية لتحقيق الاطماع الفرنسية التى تحققت بعد ذلك بما يزيد عن قرن ونصف (سنة ١٨٣٠) .

فترة حكم الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠) :

لما ضربت الفوضى أطنابها فى البلاد أستولى رؤساء البحرية — وقد كانت بيدهم السلطة الحقيقية — على السلطة ونصبوا واحداً منهم والياً على البلاد بلقب داى (١) على أن تبقى بيده السلطة مدى الحياة .

ولما رأت السلطنة العثمانية أنها عاجزة عن فرض إرادتها على الجزائر — كفت عن إرسال الباشوات وصارت تكتفى بإرسال الخلع للداى وتلقبه بلقب (باشا) بإعتباره ممثلاً لسلطتها فى هذه الجهات.

وكانت للداى سلطة واسعة ، ويعاونه فى الحكم مجلس استشارى من كبار الموظفين . والداى هو الذى يختار وزراءه بنفسه . وكان الداى يقيم فى قصر الجنينة ، ثم نقل مقره إلى قلعة القبة — ومع ما كان للداى من سلطة فقد كان عرضة دائماً لقيام فتنة عسكريه تؤدى بحياته .

وإلى جانب الداى كان الأغا — قائد الجيش ، وشيخ الإسلام للشؤون الدينية ، والباشكاتب وهو بمثابة الأمين العام . ورغم ان الجزائر كانت تشترك فى حروب الدولة العثمانية بقوة بحرية تنضم إلى الأسطول العثمانى — فإن هذه الفترة فى الحقيقة تمثل ضعف الصلات بين الجزائر وأستامبول ، فقد كان الدايات ينتخبون محلياً كما ذكرنا وكانت سلطة الدولة العثمانية عليهم ضعيفة .

هذا وقد كانت القوة العسكرية فى الجزائر تتألف من (الأوجاق) وهم الجنود الأتراك الذين ينضمون للقوة العسكرية طواعية من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، فيلقون تدريباً خاصاً ثم يوزعون على (الأورط) المختلفة .

---

(١) لفظ تركى معناه (الخال) ، وتلقيب الجند لأميرهم بهذا اللقب هو من قبيل التكريم والإشارة إلى أنه أحد أفراد أسرتهم ، وظل هذا اللقب يطلق على (ولاة الجزائر) حتى استيلاء الفرنسيين عليها .

وكانت هذه القوة هى المسؤولة عن الدفاع عن البلاد ، والمحافظة على الامن وكان رؤساؤها يؤلفون (الديوان) . وقد أصبح لهؤلاء الرؤساء سلطة كبيرة حتى أنهم أصبحوا مصدر الفوضى والإضطرابات بدلاً من أن يكونوا حماة الأمن والنظام .

وفى الفترة المتأخرة من الحكم العثمانى فى الجزائرقل الإعتماد على هؤلاء الجند الذين كانوا يجلبون من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، وإتجه الدايات إلى إيجاد قوة جديدة من عناصر محلية أو من جنود مرتزقة (١) .

كما أن بعض الديات لجأوا إلى الاستعانة ببعض شباب القبائل لإخضاع الإضطرابات التى سببتها قبائل أخرى وذلك مقابل إمتيازات ضرائبية وغيرها من الإمتيازات .

هذا وقد ترتب على زواج الانكشارية من نساء بعض القبائل التى رحبت بمصاهرتهم ظهور طبقة من المولدين (٢) دخل بعضهم فى الجندية ومنهم تكونت فرق (القولوغلى) (٣) .

وبالإضافة إلى هؤلاء الجنود كان هناك (رجال البحر) ، وكما ذكرنا من قبل فقد لعبوا دوراً حاسماً فى تاريخ الجزائر وعلاقتها سواء بالدولة العثمانية أو بالدول الأوربية الآخرى التى كانت تتعرض سفنها فى البحر المتوسط وسواحل شمال أفريقية لهجوم مستمر ، وهو ما أطلق عليه الكتاب الأجانب تعبير (القرصنة) وقد تعرضنا لتحليل ذلك من قبل .

وكان للبحرية الجزائرية مركز ممتاز ، وكان نصيب البحارة من الغنائم مغرياً لدخول الكثيرين فى البحرية حتى أن عدداً كبيراً من أسرى المسيحيين

---

(١) عن الجيش الجزائرى انظر ما كتبه :

D. Grammont, H. :Histoire D'Alger sous la Domination Turque (Peris 1887)p.p . 381 — 382

(٢) من أشهر هذه القبائل قبيلة الزواوة حتى أنه أطلق على من دخل فى خدمة الفرنسيين من جنود القبائل فيما بعد اسم (الزواف) نسبة لهذه القبيلة .

(٣) لفظ تركى مركب معناه — أبناء الجنود .

اعتنقوا الأسلام وانخرطوا فى سلك البحرية وأطلق على هؤلاء اسم (العلوج)[١].

وقد كان جزء كبير من موارد الخزينة الجزائرية من حصتها من أرباح القرصنة بالإضافة إلى الضرائب التى كانت تفرض على الأهالى بصورة يعوزها النظام والعدالة، وتستخدم كافة وسائل العنف والقسوة لتحصيلها، إذ أن الدولة لم تكن تهتم كثيراً بالموارد الأخرى زراعية كانت أم صناعية — كما لم تكن تعتبر نفسها مسئولة عن حفظ الأمن وغير ذلك مما نعتبره اليوم من أول وظائف الدولة الحديثة، كالإهتمام بالتعليم أو الصحة أو غيرها من الخدمات. فلم تكن لهذه كلها اعتبارها فى ذلك الوقت، وقد لعبت التجارة بالذات دوراً هاماً فى حياة الجزائر وأثرى عدد كبير من التجار والبيوت التجارية، وبرز عدد من اليهود فى هذا المجال نذكر منهم على وجه الخصوص أسرة بوشناخ (Busnach) ، وهى أسرة يهودية جاءت للجزائر عام ١٧٢٣ واستطاعت بعد وقت أن تصبح من أكبر الأسر ثراء بل إن هذا الثراء مهد لهم سبل التقرب إلى الدايات حتى أصبح لهم نفوذ سياسى ضخم[٢].

وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الأسرة التجارية اليهودية لعبت دوراً مؤثراً فى تاريخ الجزائر.

وظلت الأحوال فى الجزائر على هذا المنوال حتى استيلاء الفرنسيين عليها.

---

(١) أسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام.

(٢) Julién, Charles André: Histoire De l'Algerie Contemporaine (Paris 1964) p.p. 11 — 12

الفصل الرابع

تونس ولاية عثمانية

وصل الضعف والإضطراب بالأسرة الحفصية فى منتصف القرن السادس عشر إلى الارتماء فى أحضان الأسبان ، وتوقيع معاهدة معهم تعطى الأسبان امتيازات ضخمة ، وتبيح لهم سكنى جميع أنحاء القطر التونسى . بل وتنازلت لهم عن مدن « عنابه » و « بنزرت » و « حلق الوادى »[1].

وأدى هذا لثورة وطنية انتهت بتولية السلطان الحفصى أبى العباس الثانى الذى حكم تونس ٩٤٢ — ٩٨٠ﻫ / ١٥٣٥ — ١٥٧٢م ، لكن الأمور فى تونس لم تستقر ، فالسلطان الحفصى لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يمسك بزمام الأمور الداخلية ، وأن يقف فى وجه الأطماع الأسبانية .

وحين اشتد الخلاف بين الأمير الحفصى « أبى العباس الثانى » ووزيره « أبى الطيب الخضار » — اتصل هذا الأخير بالعلج على والى الجزائر وحرضه على احتلال تونس ، فانتهز العلج هذه الفرصة وخرج على رأس جيشه حيث التقى بجيش الأمير الحفصى عند سهل « باجه » ، وبعد قتال مرير انخذل أبو العباس وتقدم العلج على صوب المدينة المحاصرة فاستحوذ عليها سنة ٩٧٢ﻫ / ١٥٦٩ ونصب عنيها أحد قواده ، وأخذ البيعة بها للسلطان سليم الثانى العثمانى — أما أبو العباس الحفصى فقد لجأ إلى الأسبان مستنجداً بهم ، فاعد الملك فيليب الثانى[2] قوة كبيرة لمواجهة تونس على أن يقتسم مع أبى العباس الحفصى حكم البلاد

---

(١) معاهدة شارلمان ، والحسن الحفصى بتاريخ ٩٤٢ ﻫ (يوليه ١٥٣٥) وقد أشرنا اليها من قبل .

(٢) تولى الحكم فى أسبانيا بعد اعتزال أبيه شارل الخامس ولجوئه الى ديرفى أسبانيا (١٥٥٦ — ١٥٩٨) .

ودخلها — لكن أبى العباس لم يقر الأسبان على هذا العرض فلجأ إلى صقلية سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م وأقام بها حتى مات . غير أن أخاه « محمد بن الحسن » قبل شروط الأسبان ، وتمكن بمساعدتهم من استرجاع « تونس » . وأخذ الأسبان يعملون مع الأمير الحفصى على ترميم حصون « حلق الوادى » و « الباستيون » (١) وأسوار البلاد .

وفى ربيع الأول ٩٨١ هـ يولية ١٥٧٣ م خرجت قوة عثمانية كبيرة من القسطنطينية على رأسها سنان باشا الوزير العثمانى ، بالإضافة إلى قوة بحرية من نحو ألف سفينة بقيادة « العلج على » وكان قد أصبح قائداً للأسطول العثمانى فعمد لتقويته وتسليحه بأحدث الأسلحة فى عصره ، كما خرجت حاميات تركية من « طرابلس » و « الجزائر » ، و « القيروان » . وحاصر العثمانيون « حلق الوادى » براً وبحراً ، فاضطر الاسبان والامير الحفصى الموالى لهم إلى الهرب والإلتجاء للحصون ، فلحق بهم الجيش التركى وتمكن سنان باشا من تضييق الخناق على الحاميات الاسبانية حتى سلمت للجيش العثمانى وقبض على الأمير الحفصى « محمد بن الحسن » وأرسله إلى القسطنطينية ، وانطوت بذلك صفحة حكم الحفصيين فى تونس ، بعد أن حكموا هذه البلاد مايقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما (٢) .

فترة حكم الدايات :

لما أتم سنان باشا فتح تونس — أخذ ينظم شؤونها فالحقها فى بداية الأمر بولاية الجزائر — لكنه أوجد بالقصبة « ديوانا » اشترك فيه بعض أعيان البلاد ، وعهد بحراسة البلاد إلى اربعة آلاف جندى من الانكشارية ، على كل ١٠٠ جندى منهم ضابط يسمى « الداى » وجعل لهم رئيساً هو « الآغا » بينما عهد بجباية المال لمأمور لقب « بالباى » ورجع سنان باشا إلى الاستانه لكن ثار

---

(١) كان هذا الحصن (القائمة) خارج باب البحر .

(٢) الناصرى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصاء جـ ٥ (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٥) ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١

أحمد الانصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب (طرابلس الغرب د.ت) ص ٢٢٩ (سنعرف بالمؤلف فى الفصل التالى عند الحديث عن ليبيا) .

صغار الجند على رؤساء الديوان سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م وعينوا أحد الدايات «ابراهيم ود على» حاكماً على البلاد واضطرت حكومة الاستانة لإقرار هذا الوضع . وقد تتابع على حكم تونس منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٦٤٠ م عدد كبير من الدايات .

ومن اشهر هؤلاء الدايات عثمان داى ١٥٩٨ — ١٦١٠ ، وقد اشتهر بما بذله من جهد لتعمير البلاد ، وما أصدره من القوانين المنظمة لشؤون الرعية ، وكذلك ما بذلة لتيسير استقرار مهاجرى الأندلس الذين اقطعهم الاراضى ومنحهم الأموال فقامت عدة مدن جديدة احتضنتهم وعمروها .

كذلك يوسف داى « ١٦١٠ — ١٦٣١ » ومن آثاره الباقية جامعه ومدرسة اليوسفية . وفى عهده اشتد الخلاف على الحدود بين الجزائر وتونس كما استرجعت تونس جزيرة « جربة » من ولاية طرابلس العثمانية(١).

فترة حكم البايات :

نجح احد البايات هو مراد باى فى أن يسيطر على شؤون تونس ، وأن يظفر من الخلافة العثمانية بلقب «باشا» فتحول النفوذ من يد « الداى » إلى الباى ، بل نجح مراد باى فى أن يورث الأمر من بعده لأبنائه فأسس أسرة حاكمة فى تونس هى الأسرة المرادية التى استمرت تحكم البلاد حتى عام ١١١٤هـ ١٧٠٢ م — وقد قام بايات هذه الأسرة بعدة مشروعات عمرانية من بناء المساجد ومدارس العلم إلى غير ذلك من الأعمال الهامة . لكن كثر النزاع بين أفراد الأسرة ذاتها على الحكم واستنجد فريق من المتنازعين بالجزائريين فانتهزوا هذه الفرصة للتدخل فى شؤون تونس، وقد خلفت هذه المنازعات الكثير من أعمال التخريب فى المدن التونسية .

---

(١) عبد الوهاب ، حسن حسنى : مرجع سابق ص ٠ ص ١٦١ — ١٦٥

فترة حكم الأسرة الحسينية ١٧٠٥ — ١٩٥٧ :

فى ربيع الأول سنة ١١١٧ هـ — يولية ١٧٠٥ م انتقلت الولاية فى تونس إلى (حسين بن على) فأسس أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الحسينية التى استمرت فى الحكم فى تونس إلى الاستقلال وإعلان الجمهورية بها عام ١٩٥٧ م(١).

ومؤسس هذا البيت (حسين باى الأكبر) يرجع أصله لجزيرة كريت (٢) وفد أبوه على تونس أيام الدولة المرادية ، وانخرط فى الجند ، ونشأ إبنه حسين فى كنف البايات من بنى مراد ، وتدرج فى عدة وظائف فى الولاية حتى انتخب والياً ، وقد عمل حسين باى على ترميم سور مدينة تونس وتحصين قلاعها ثم عمل على إقرار الأمن والعدل فى البلاد فازدهرت فى عهده الزراعة والصناعة والتجارة . ومن منشآته العلمية مدرستى الحسينية والنخلة ، وبنى قصراً فى (باردو) اتخذه مقراً رسمياً لحكومة الإيالة ، كما بنى مسجداً ، وأهتم بإحياء معالم مدينة (القيروان) وكانت قد تخربت أثناء الحروب بين أفراد الأسرة المراديه .

وقد حاول حسين باى أن يضع حداً للتنافس بين الطامعين فى الحكم فجعل الولاية وراثية فى بيته يتداولها الأكبر ، فالأكبر من ذريته ـ لكن مع ذلك خرج عليه ابن أخيه (على بن محمد) وأنتهى الامر باستشهاد (حسين باى) جنوب القيروان فى عام ١١٠٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ، وادى هذا لنشوب حروب متعددة بين أفراد الأسرة الحسينية وإلى تدخل الجزائر فى شؤون تونس .

وقد حفلت الفترة التى حكم فيها على بن محمد ١٧٤٠ — ١٧٥٦ والذى

---

(١) عبد الوهاب ، حسن حسنى : مرجع سابق ص · ص ١٦٧ — ١٧٧

(٢) كانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية — إلى أن استقلت سنة ١٨٩٨ ـ وألحقت بعد ذلك ببلاد اليونان .

اشتهر فى تاريخ تونس باسم (الباشا على) — وهو اللقب الذى منحه إياه عمه قبل خروجه عن طاعته - بالحروب بينه وبين ابنه (يونس) الذى خرج عليه ، ثم بينه وبين أبناء حسين باى الذين أرادوا الثأر لأبيهم منه وطلبوا معونة الجزائر لهم فأمدتهم بجيش زحف على مدينة الكاف ، ومنها على تونس العاصمة فدخلها وقتل (الباشا على) .

واشتهر « على باشا » بتشجيعه للعلم والعلماء ، وقد كان هو نفسه على قدر كبير من العلم [١] ، وقد جمع فى قصر باردو مكتبة حوت الكثير من المخطوطات النادرة فقد أغلبها أثناء الحروب والاضطرابات ، لكن نقل المتبقى منها لجامع الزيتونة ، وقد أهتم بتأسيس المدارس وتزويدها بحاجتها من الكتب وغيرها ، والتف حوله لفيف من الأدباء والعلماء (٢) .

وتولى الأمر بتونس بعد ذلك إبنا حسين باى — محمد باى (١٧٥٦ — ١٧٥٩ م (٣)) ، ثم على باى الثانى (١٧٥٩ — ١٧٨٣ م) وقد اشتهر هذا الأخير باهتمامه بترقية البلاد وتعميرها وبتعضيد الفلاحة والصناعة ، وتشجيع العلوم ، وقد وقع فى مدة ولايته خلاف مع فرنسا بسبب ضم فرنسا جزيرة (كورسيكا) لها عام ١٧٦٨ وعدم اعتراف إيالة تونس بهذا الإجراء — لكن سويت المشكلة وأتاح ذلك فرصة لتونس لتقدم الدولة العثمانية موازرتها فى حربها ضد روسيا عام (١٧٧١) م .

ومن مآثر على باى - عنايته بالعلم فأنشأ المدارس ، والملاجىء (التكايا) واهتم بتوفير المياه اللازمة لرى مساحات واسعة من الأرض .

---

(١) لعلى باشا كتاب فى النحو هو : التسهيل لإبن مالك فى النحو.

(٢) من هؤلاء الأدباء الشاعران (على الغراب الصفاقسى) ، و (محمد الورغى) ، والأديب (محمد الشريف العياضى) الذى ترجم لعلماء عصره .

(٣) اشتهر هو أيضاً بالعلم والادب وله قصائد مشهورة يتغنى فيها بوطنه تونس وهو فى غربته بالجزائر قبل أن ينجح فى استرجاع السلطة .

وتولى الأمر فى تونس بعد على باى ابنه حموده باشا (١٧٨٣ - ١٨١٤) فقام بأعباء الولاية بحكمة مسترشداً بمعونة عدد من أعيان البلاد تخص منهم بالذكر الوزير (يوسف صاحب الطابع) (١) ، ورئيس الكتبه (محمد بن محمد الأصرم) ، وقائد الجيش (سليمان كاهية) ، فنهضت البلاد فى عهده نهضة واضحة فى مختلف مجالات الفلاحة ، والتجارة ، والصناعة وكان يفخر بما تنتجه بلاده من مصنوعات ومنسوجات حتى أنه كان يرفض لبس أية ملابس من منسوجات غير وطنية فكان فى ذلك مثلاً يحتذى.

وحفلت فترة حكم حموده باشا بالحروب ، ومن أشهرها المعارك التى خاضها ضد الثائر على برغل الذى طرد على بن محمد قرمانلى حاكم طرابلس فاستنجد هذا الاخير بحموده باى ، واعقب ذلك استيلاء على برغل على جزيرة جربه التابعة لإيالة تونس - فاعد حموده باى جيشاً من أربعين الف مقاتل هزم على برغل وأعاد القرمانلى إلى حاضرة حكمه .

كذلك شن عدة معارك ضد الحكام الجزائريين الذين كانوا دائماً يطمعون فى مد نفوذهم لتونس .

هذا وقد ارتبط حموده باى بعلاقات طيبة مع نابليون بونابرت ، كما ارتبط بمعاهدات تجارية مع كل من أسبانيا ، وهولانده ، والولايات المتحدة الأمريكية .

وفى سبتمبر ١٨١٤ - تولى عثمان باى أمر تونس بعد وفاة أخيه حموده باى .

---

(١) أصله مملوك ، دخل منذ طفولته فى خدمة حموده باشا ، ولمس فيه علامات النجابة والإخلاص ، فمازال يتدرج فى وظائف الدولة حتى صار حافظ سر الباى وسمير نجوله ، وعمدة الدولة فى كافة المهام — وقد أثار مركزه هذا حسد كبار موظفى الدولة عليه فانتهزوا فرصة وفاة حموده باى وتولية إبن عمه (محمود بن محمد باى) ووشوا به لديه فقتله — وقد اشتهر هذا الوزير بالبر فانفق ثروته الطائلة على أعمال الخير من مساجد ، ومدارس ، وكتاتيب قرآنية وسقايات أمر ببنائها فى الأماكن التى تفتقر للماء العذب.
أنظر ترجمته — عبد الوهاب : حسن حسنى : مرجع سابق ص . ص . ١٩٤ ، ١٩٥ .

نازعه السلطة ابن عمه (محمود باى) الأكبر سناً وبذا يصبح أحق بالولاية حسب قاعدة الوراثة المعمول بها فى الدولة الحسينية ـ وكان عثمان باى قليل الخبرة ـ استهل حكمه بإبعاد أغلب أهل الرأى الذين عاونوا أخاه فى الحكم ، وانتهى الأمر بقتل عثمان باى بعد ثلاثة شهور تقريباً من توليه الحكم وخلفه محمود باى فى (٢٤ ديسمبر ١٨١٤) .

وقد شهدت تونس فى فترة حكم محمود باى ١٨١٤ — ١٨٢٤ الكثير من أوجه العمران ، فتعددت بها الجوامع والزوايا والمدارس والتكايا والمستشفيات وغير ذلك من أوجه العمران .

ساعد على ذلك الهدوء الذى ساد البلاد بعد أنهاء مشكلات الحدود مع الجزائر ، وعقد صلح نهائى معها بتدخل الدولة العثمانية . لكن يؤخذ على محمود باى قتله للوزير (يوسف صاحب الطابع) الذى أدى للدولة خدمات جليلة فى عهد حموده بأى والذى اشتهر بالتقوى والبر لكن نجح بعض حساده فى الإيقاع به لدى الباى الجديد فقتله ظلماً فى عام ١٨١٥ كما ذكرنا سابقاً .

وخلف محمود باى ابنه حسين باى ١٨٢٤ ـ ١٨٣٥ ، وقد قام بالكثير من الإصلاحات بمعاونة نخبة ممتازة من الرجال الذين اصطفاهم لمساندته ، منهم وزيره الأكبر (شاكير صاحب الطابع) ، ووزير القلم (محمد الأصرم) والقائد (محمود الجلولى) .

وقد عاصرت ولايته أحداثاً هامة وخطيرة فى العالم الإسلامى كان لها صداها فى تونس ، ففى ١٨٢٧ وقعت موقعة نوارين البحرية التى التقى فيها الأسطول العثمانى معززاً بسفن حربية من مصر والجزائر ، وتونس ـ بالأساطيل الأوربية فى المياه اليونانية ودارت فيها الدائرة على السفن الإسلامية .

ومنها مهاجمة فرنسا فى عام ١٨٣٠ للجزائر مما أضطر الكثيرين من أعيانها الهجرة إلى تونس فأكرم الباى وفادتهم .

وخلف مصطفى باى أخاه فى الولاية لكن مدة ولايته لم تدم أكثر من عامين

ونصف عام فقد توفى فى ١ كتوبر ١٨٣٧ وخلفه المشير أحمد باى ١٨٣٧ - ١٨٥٥ وحفل عهده بمظاهر الحركة الإصلاحيه ، وقد وجه عناية خاصة للنهوض بالجيش فأقبل على جمع الجنود وتربيتهم وتدريبهم حتى أصبحت لديه قوة ضاربة لم تنتظم لغيره من ولاة تونس(١).

وأنشأ أحمد باى ـ مدرسة عسكرية لتخريج الضباط الفنيين والمهندسين والموظفين أطلق عليها اسم (مكتب المهندسين) أو (مكتب العلوم الحربية) أو (مدرسة باردو العسكرية) .

وقد جلب لها أحمد باى أساتذة إيطاليين ، وانجليز ، وفرنسيين ـ وكانت تدرس فيها الرياضيات والمدفعية والتعبئة الحربية والشخصيات والتاريخ والجغرافيا(٢) .

وقد أصبح لتونس جيش ينيف على ثلاثين ألف جندى من المشاة وفرقة من الخيالة ، وأربعة الآيات من المدفعية ـ أما الأسطول فقد دعمه بشراء إثنى عشر باخرة حربية وبارجة من الطراز الكبير أطلق عليها اسم (الحسينية) ، وأعد مرسى حربيا (بغار الملح) الحق به دارا لصناعة السفن بحلق الوادى ، ومعامل لصنع السلاح وإصلاحه (٣) .

---

(١) أحمد أبن أبى الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان — تونس ١٩٦٣ / ١٩٦٤ حـ ٤ ص ٢٥ (للؤلف هو ابن الشيخ بالضياف كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع ، ولد بتونس فى ١٨٠٤ م ، وتلقى العلم على مشاهير عصره ثم تولى عدة وظائف حتى كان عهد المشير أحمد باى فقربه ، وجعل بيده قلم دولته ، وأعتمد عليه فى سفارته للدولة العثمانية وأصطحبه معه لفرنسا ، وحين تولى المشير محمد الصادق جعله من أعضاء مجلس الشورى الخاص سنة ١٨٦٠ واعتمد عليه فى شرح القانون الأساسى المعروف بعهد الأمان ،وأعفى من الخدمة كطلبه حين أقعدته الشيخوخة وتوفى فى أكتوبر ١٨٧٤ — وجاء كتابه وافياً يدل على إلمام كامل بالأحداث الهامة بالإضافة إلى ما أمتاز به من قدرة على الكتابة والتحليل) .

(٢) الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبيـة والفكرية فى تونس (١٩٥٦) ص ١٢ ، ٢٣ .

(٣) عبد الوهاب ، حسن حسى : مرجع سابق ص ٢٠٠ .

وقد اهتم المشير أحمد باى - بتنظيم التعليم بجامع الزيتونه فعمر خزائنه بالعديد من الكتب ، ودعا عدداً من الأساتذة الأجانب للحضور لتونس للالتقاء ، بأساتذة هذه الجامعة وكان لهذا أثره فى الإحتكاك بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية .

ونشير فى هذا المجال إلى زيارة الباى نفسه لفرنسا مصحوباً بخاصة رجال الدولة ، فزاروا أهم معالم العاصمة الفرنسية ، وكان لهذا الإحتكاك الفكرى والثقافى أثره ، بالإضافة إلى أثر ذلك فى توطيد العلاقات بين الدولتين ، وقد أفاض أحمد بن أبى الضياف فى وصف ما شاهدوه فى باريس[1] .

ومن مآثره الثقافية تأسيس المكتبة (الأحمدية) فى عام ١٨٤٠[2].

ويذكر لهذا الباى إصداره الأمر بغلق سوق العبيد فى العاصمة ، كما أصدر أمراً فى عام ١٨٤٦ بعتق جميع العبيد الموجودين بتونس .

وقد أنشأ مدينة جديدة على بعد ١٤ ميلا من تونس ، عرفت باسم « المحمدية » ، وعمرت هذه المدينة بعد إنشائها فنقل إليها مقر حكومته بدلا من « باردو » .

على أن مالية تونس لم تتحمل كل هذه الإصلاحات ، فاضطرت الحكومة لإحداث ضرائب جديدة على الصادر والوارد ، ومكوس على الأشياء المباعة لسد عجز ميزانيتها ، كما احتكرت الحكومة بيع مواد مختلفة كالملح ، والدخان والجلد ، والصابون .

وكانت هذه الأوضاع الإقتصادية بالإضافة إلى الحكم المطلق المستبد بداية المشكلات التى واجهتها تونس . فقد أدى ذلك إلى تدهور الحالة لجاعت

---

(١) أحمد بن أبى الضياف : الاتحاف حـ ٣ ص ٩٦ إلى ١١٠ .

(٢) الحبيب الجنحانى : الحركة الاصلاحية فى تونس خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر (حوليات الجامعة التونسية — ١٩٦٩) ص ١١٧ .

الجنود وتفرق الجيش ، وأغلقت مدرسة باردو أبوابها وذلك لزيادة الضرائب بما أثقل الظهر وأوجب الفقر . كما يقول محمد بيرم التونسي[1].

وقد زاد في الأعباء المالية التي تحملتها تونس ، وأدى لزيادة التدهور الإقتصادي ـ اشتراكها في حرب القرم ١٨٥٤ إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا ـ هذا بالإضافة إلى مفاسد كبار رجال الدولة[2].

وحين تولى محمد باي الثاني ١٨٥٥ - ١٨٥٩ تصدى لإصلاح الأوضاع التي وصلت إليها البلاد .

ومن أبرز إصلاحاته الإصلاح الدستوري ، فأصدر عام ١٨٥٧ ماعرف باسم « عهد الأمان »[3] وقد أدت لإصداره عدة ظروف فقد كانت الدولة العثمانية قد طالبت بتطبيق فرمان التنظيمات الذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩[4] وكان سفراء الدول الأجنبية يضغطون من جانبهم على الباب العالي مطالبين بسرعة تطبيق هذه التنظيمات التي تحفظ حقوق رعاياهم في كافة الولايات العثمانية ، واستغلت فرنسا وانجلترا ظروف صدور الحكم على يهودي في تونس بالإعدام فضغط القنصل الفرنسي ليون روشي (Leon Rochés) والقنصل الإنجليزي ريتشارد وود (Richard Wood) على الباي منتقدين الحكم الصادر مطالبين بتطبيق فرمان التنظيمات الخيرية ، ووصل الأمر لتلويح القنصل الإنجليزي بأن الاسطول البريطاني في مالطة مستعد للتدخل عندما يطلب منه ذلك ، كما هاجم وزير خارجية فرنسا في ٢٠ يولية ١٨٥٧ تصرف الباي في القضية التي حكم فيها بإعدام اليهودي[5] .

---

(١) محمد بيرم التونسي : صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (القاهرة ١٨٩٠) جـ ٢ ص ٦ — ٩ .

(٢) أحمد بن ابى الضياف ـ مرجع سابق ـ جـ ٤ ص١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) أنظر نصوصه في ملحق كتابنا هذا.

(٤) محمد بيرم : جـ ٥ ص ،ص ٥٥ — ٥٨ .

(٥) أحمد ابن ابى الضياف ـ جـ ٤ ص ٢٣٣ـ٢٤٠ .

فى هذا الجوقام الشيخ ابن أبى الضياف كاتب أسرار الوالى بصياغة نصوص عهد الأمان بالإسترشاد بما جاء فى التنظيمات الخيرية العثمانية – وفى موكب حضر فيه ممثلو الدول الاوروبية وكبار موظفى الدولة وأعيانها قرئت نصوص عهد الامان فى ٢٠ محرم ١٢٧٤ « ١٠ سبتمبر ١٨٥٧ » وحلف الباى على العمل بمقتضاه (١).

والحقيقة إن صدور عهد الأمان فى وسط هذه الظروف والملابسات إن دل على شىء فهو يدل على زيادة تدخل الدول الأوروبية فى سياسة تونس الداخلية – وقد كسب الأجانب بمقتضى هذا العهد مزايا عديدة من حيث مساواتهم بالوطنيين فى حقوق الملكية وفى حق العمل والتقاضى وغير ذلك مما كانوا محرومين منه (٢).

واعتنى محمد باى بعد ذلك بتنظيم القضاء الشرعى فكان « المجلس الشرعى » يعقد يوميا بإنتظام منذ عام ١٢٧٣هـ ١٨٥٧م ويحضره القاضيان المالكى والحنفى وليس أدل على حرصه على إنصاف المظلوم من هذا المنشور الذى أصدره يحرض فيه المظلوم على رفع ظلامته وبث شكايته ويبرأ إلى الله من مظلمته إن لم يبادر المظلوم بشرح حالته.

كذلك أحدث فى عام ١٨٥٨ م مجلساً بلديا بتونس لتنظيم شؤون المدينة واصلاح طرقاتها وإنارتها (٣).

ويذكر لهذا الباى إدخاله الطباعة العربية لنشر الأوراق الرسمية. وقد أشتهر فى دولته كثير من رجال العلم اذكر منهم شيخ الاسلام، محمد بيرم الرابع، والقاضى، محمد الطاهر بن عاشور، وغيرهما كثيرون.

---

(١) نقولا زياده : تونس فى عهد الحماية (١٩٦٣) ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) محمد بيرم : مرجع سابق ص ٨–١٠.

(٣) عبد الوهاب، حسن حسنى : مرجع سابق ص ٢٠٧.

وفى المجال الإقتصادى تصدى محمد باى لمواجهة الوضع الذى كانت تشكو منه البلاد ، ولم يلجأ لحل الأزمة المالية إلى سياسة الإستدانة أو إلى إرهاق الأهالى بالضرائب بل بالعكس فإنه خفف الجبايات عموماً وأسقط ماكان على الأهالى من ضرائب وعوضها بضريبة أخرى تعرف (بالمجبى) يدفعها الرجال القادرون من سكان المملكة وقدرها ستة وثلاثون ريالا فى السنة — ولاشك فى أن سياسته الإقتصادية هذه تدل على حنكة فقد انقذ البلاد من هاوية - كما يقول ابن أبى الضياف[1] .

وكانت فترة ولاية محمد الصادق باى ١٨٥٩ - ١٨٨١ - حاسمة فى تاريخ تونس - وبذلت فى هذه الفترة جهوداً صادقة فى محاولة إصلاح وضاع البلاد ، لكن تصطدم بعوامل أخرى أقوى منها - تهوى بالبلاد إلى أقصى درجات الإضمحلال وتقربها من براثن الإستعمار المخيف - خلقتها أيدى الطامعين الأجانب .

ويجمع عدد كبير من المؤرخين على أن محمد الصادق باى كان منذ بداية عهده عاقد النية على الإصلاح ، ويحمل هؤلاء الأوضاع التى وصلت إليها البلاد إلى المقربين للباى والذين ألقى إليهم بمقاليد الأمور فأساءوا التصرف واستغلوا الثقة الممنوحة لهم فى الإثراء على حساب الوطن وأمنه . ولعل أبرز دليل على نية الإصلاح « الإصلاحات العدلية » التى اتخذها الباى لتقنين عهد الأمان وإنشاء المجالس الأهلية « للفصل فى القضايا » و « المجلس الأعلى » من ستين عضواً لإبداء الرأى فى المسائل السياسيه والإقتصادية - وقد بدأت هذه المجالس نشاطها منذ ابريل ١٨٦١ م . وكما يقول أحمد ابن ابى الضياف « إذا كانت المصلحة السياسية قد اقتضت وجود عهد الأمان فإن حفظ النفس ، والمال قد إقتضى إنشاء مجالس للجنايات والأحكام الشرعية ومجالس عليا للتحقيق[2] » .

وقد تلقى الباى تهنئة الإمبراطور « نابليون الثالث » على هذه الإصلاحات العظيمة(٣) .

---

(١) أحمد بن ابى الضياف : جـ٤ ص٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص . ٣٢ وما بعدها .

(٣) عبد الوهاب ، حسن حسنى : مرجع سابق ص ٢٠٩ .

وإن كانت فرنسا وإيطاليا بالذات قد رحبتا بهذه التشريعات التى كفلت للأجانب حق ملكية العقارات وممارسة الحرف مما أدى إلى تدفق المهاجرين الأجانب من أصحاب المصارف والمتاجر والمغامرين على البلاد - لكن كان هناك اعتراض على عدم منح رعايا هذه الدول الإمتيازات التى اقرتها الدولة العثمانية[١].

على أن التدهور الاقتصادى الذى بدأت تعانى منه تونس منذ ١٨٣٠ وصل فى هذه الفترة إلى أقصاه بحيث طغى على كل محاولات الإصلاح .

ويرجع هذا الوضع الذى آلت إليه البلاد إلى عدة عوامل منها :

١ - انقياد الصادق باى إلى شخصيات ثبت أنها لم تكن أهلا للثقة ، وفى مقدمة هؤلاء وزيره الاكبر « مصطفى خزنه دار » الذى تولى عدة مناصب فى وقت واحد « وزارة العمالة ، والداخلية ، والخارجية ، والمال » ووصلت جملة مرتباته مقابل مناصبه هذه فى وقت كانت البلاد وأهلها يئنون فيه من الضائقة المالية ٣٨٠،٠٠٠ ريال تونسى سنوياً . ولم يكتف هذا الوزير بذلك بل حرص على أن يحصل على الثروة بكل طريق آخر « وأستأصل الأموال من أربابها ورماهم بالذل والإفلاس ، وصارت مفاسده على كل لسان يتناقلها العامة والشعراء وغيرهم »[٢] .

ولم يقف الباى موقفاً حازماً من وزيره فقد كان ينقاد إليـــه إنقياداً كاملا[٣] .

وقد سار على منهج « مصطفى خزنه دار » غيره من أرباب الدولة فكان هم كل منهم أن يامن على نفسه بثروة يعدها لتقلبات الزمان ، فأمتدت الأيدى إلى الأموال بحق و بغير حق حتى أصبحت البلاد على شفا الهلاك(٤).

---

(١) Safwat, M.M.: Op. Cit P.P. 27,40, 51

(٢) محمد بيرم : مصدر سابق ج ٢ ص٢٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ص١٨ .

(٤) عبد الوهاب ، حسن حسنى : مرجع سابق ص٢٠٨ .

٢ — لجأت الحكومة لسد العجز فى ميزانيتها عن طريق الإقتراض من الأجانب فاقترضت أولاً مليون فرنك بأرباح فاحشة ، ثم عقدت قرضاً ثانياً قدره ٣٥ مليون فرنك من فرنسا عبثت به الأيدى قبل أن يصل إلى خزينة الدولة ، وأخيراً لجأ الباى إلى مضاعفة الضرائب على الأهالى ، وأصدر سنة ١٨٦٣ قراراً بذلك فكان هذا بمثابة الشعلة التى أشعلت نار الثورة .

ثورة ١٨٦٤ - أسبابها ونتائجها :

تزعم الثورة التى نشبت عام ١٨٦٤ « على بن غداهم » وهو من قبيلة ماجر ، ولا شك فى أن مضاعفة « المجبى » لم يكن السبب الوحيد وراء هذه الثورة فإن الوضع كله فى تونس « من زيادة فى أداء المجبى ، إلى مجموع التكاليف الجبائية ، إلى تعسف العمال والحكام فى الأقاليم ، إلى إثراء المماليك الفاحش ، إلى بطء سير العدالة ، إلى سخط الجنود من أجل تخلف مرتباتهم ، إلى العسر الشديد فى الحالة الإقتصادية ، إلى التبذير فى النفقات ، إلى تزايد غضب الشعب على المنح المخولة للقناصل الأوربيين - كل هذه كانت الدوافع الباعثة على الحنق والسخط »[1] .

وقد كتب على بن غداهم فى ١٧ صفر ١٢٨١ هـ ، ٢٢ يوليو ١٨٦٤ ، يقول : « إن مطالبه هى نهى الظلم عن المظلوم ، والوقوف عند باب الحق قدر الأستطاعة . . . إن ثورة الناس هى لرفع الظلم ونهى البغاة والعمال الذين طالت أيديهم »[2] .

وفى رسالة أخرى مؤرخة أول ديسمبر ١٨٦٥ عبر هذا الثائر للباى « بأنه سوف يستمر إلى أن تخفف الدولة من الضرائب التى اثقلت كواهلنا » على حد قوله[3] .

---

(١) سلامة ، ب : ثورة على بن غذاهم ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) ص ٤٩ .

(٢) نص الرسالة موجود فى :

عبد الجليل التميمى : بحوث ووثائق فى التاريخ العربى (١٨١٦ — ١٨٧١) (تونس ١٩٧٢) ص ٨١—٨٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٨٣ .

والحقيقة إن هذه الثورة في تطوراتها ، وفي مواقف الدول الأجنبية منها — تعطي صورة واضحة للأوضاع التي آلت إليها تونس في ذلك الوقت، كما توضح بجلاء مرامي الدول الأجنبية وأهدافها التي كانت تسعى لتحقيقها .

فحين شعر الباي بعجزه عن وقف تيار الثورة أضطر للرضوخ لبعض مطالب الثوار الخاصة بالعودة بالضرائب إلى ما كانت عليه — لكن لم يصبح من السهل قمع الثورة بهذا الشكل بعد أن اندلعت، ولذا تطورت مطالب الثوار فأصبحوا يطالبون بمراجعة نظام الضرائب كله ، ثم طالبوا بعزل العمال ومحاسبتهم عما اقترفوه في حق الأهالي ، وتطور الأمر إلى المطالبة بتعديل النظام القضائي لما فيه من تطويل في الإجراءات وإرهاق للرعية . بل طالبوا بتعديل الدستور — فكان شعار الثوار : كفانا مجبى ، ومماليك ، ودستور[1].

وقد شرح ذلك بوضوح (Campenon) مدير مدرسة باردو الحربية في رسالته التي بعث بها إلى وزير الحربية الفرنسي بقوله « إن الاعرابي يطلب من سادته ألا يثقلوا كاهله بالضرائب الفادحة ، وأن يسوس أموره أقل عدد ممكن من المأمورين ، وأن تكون العدالة التي تطبق سريعة الإجراءات خالية من التشعب ، ولكن لايوجد شيء من هذا اليوم »[2].

وهكذا نرى أن الثورة كانت واضحة المطالب والأهداف وكانت دوافعها سياسية واجتماعيته واقتصاديته — وكانت قومية شاركت فيها غالبية الشعب التي كانت تعاني من المظالم وإن دلت على شيء فهي تدل على الوعي الشعبي .

أما مواقف الدول الأجنبية والباب العالي من أحداث الثورة فهي — كما ذكرنا — تنبع من الأهداف والمرامي الحقيقية لهذه الدول.

فمن جهة الدولة العثمانية — أهتمت بالأمر من حيث تبعية تونس للباب العالي ، والخوف من أطماع الدول الاوربية ، وكانت أحداث الجزائر مازالت

---

(١) جانياج ، جان : ثورة ١٨٦٤ ، ثورة علي بن غذاهم (أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية — تونس ١٩٦٥) ص ١٢٠.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣ ، ١٤.

ماثلة فى الأذهان - لذا أوفدت الدولة سفيرها فى إيران « حيدر أفندى » إلى تونس لبحث الأوضاع فيها . . وكانت التعليمات التى زود بها تقضى بالعمل على تأكيد تبعية تونس للدولة العثمانية - وقد أدرك هذا المندوب العثمانى حقيقة الوضع ، فأشار إلى اسراف الباى وحكومته مما أدى إلى إفلاس البلاد ، وأن هذا الوضع فتح الباب على مصراعيه للتنافس بين قناصل كل من انجلترا ، وفرنسا وإيطاليا ولذا يتحتم تسوية المسألة إنقاذاً للبلاد(١). وقد أثار وجود المبعوث التركى مشاعر الجماهير فاندفعت فى المساجد الشوارع للتعبير عن تعلقها بالسلطان حامى الإسلام .

أما من جهة فرنسا - فإن قنصلها فى تونس دى بوفال (De Beauval)(٢) وجد فى هذه الثورة فرصة ذهبية للتدخل فى شؤون تونس ، فنادى بتشجيعه للثورة ، بل تقدم بطلب تنحية المعروفين بعدائهم لفرنسا عن مراكز السلطة ، كما طالب بإلغاء الدستور - وشاع خبر هذين المطلبين بين الأهالى ، وكان لذلك وقع سىء فى النفوس فقد وجد الناس فى هذا تدخلا سافراً فى شؤون البلاد واتجاها من فرنسا لتثبيت نفوذها دون قتال (٣) .

أما القنصل الإنجليزى ريتشارد وود (Richard Wood) فقد كان على النقيض من ذلك يطالب بالحاح بالإلتزام بالدستور . بل إنه لم يفتأ يسدى النصح للباى عما يجب عمله لإخماد الثورة ، بل إنه قام بجولة فى عدة مدن ساحلية بحجة ممارسة نشاطه الدبلوماسى وكان يجتمع بالأهالى ويبصرهم بعاقبة الأمور ويدعوهم للإلتفاف حول الباى والركون للهدوء (٤) .

---

(١) عبد الجليل التميمى ، مرجع سابق ص ٣٣ ، ٣٥ .

— وكذلك سلامه ، به . : مرجع سابق ص ١٠١ -١٠٧ .

(٢) حل محله فى عام ١٨٧٤ روستان Roustan كقنصل لفرنسا فى تونس، وهذا الأخير هو الذى لعب الدور النهائى للتمهيد للاستعمار الفرنسى لتونس .

(٣) وثائق فرنسية - وثيقة رقم ٣٥٣ .

(٤) تولى منصبه كقنصل لانجلترا فى تونس عام ١٨٥٧ م

أما إيطاليا فقد كانت تخشى أن تلقى تونس نفس مصير الجزائر، وكانت الجالية الإيطالية بتونس أكبر الجاليات الأجنبية وكانت لغتهم أكثر اللغات إنتشاراً فكانت مطامعهم فى تونس واضحة، ولذا فقد حشدوا فى السواحل الإيطالية القريبة قوة كبيرة لتكون على أهبة الإبحار والتدخل فى الوقت المناسب [١].

على كل لقد استطاعت قوات الحكومة فى النهاية أن تقضى على الثورة بعد أن تشرت الفرقة بين صفوف الثوار ـ وبدأت قوات الثوار منذ يوليه ١٨٦٤ تستسلم وانتهى الأمر بالقبض على «على بن غذاهم» وزج به فى السجن وبقى به حتى وافاه الاجل المحتوم فى ١١ أكتوبر ١٨٦٧.

على أن هذه الثورة فى تطورها والتفاف الجماهير للمطالبة بأهداف واحدة محددة ـ كانت فى الحقيقة تعبيراً قوياً عن حيوية الشعب التونسى وعلى رفضه للضغوط ولعوامل الظلم والجور، ولكل تدخل أجنبى فى شؤون بلاده.

على أن البلاد لم تكد تتخلص من الإضطرابات التى لازمت هذه الحركة الشعبية حتى أبتليت فى أوائل سنة ١٢٨٢ /١٨٦٥ م بظهور مرض الكوليرا، ثم تلى ذلك إنتشار الحمى التيفوسية سنة ١٨٦٧ م. وأدى ذلك لتعطيل الإنتاج الزراعى والصناعى فأنتشرت المجاعة والقحط وارتفعت الأسعار ولاقى الناس من ذلك ضيقا وعنتا شديدين [٢]

ولم يكن أمام الحكومة التونسية فى هذه الظروف إلا طرق أبواب الاقتراض. ففى عام ١٨٦٥ عقدت قرضاً فى باريس قيمته ٢٥ مليون فرنك. ولما عجزت الدولة عن دفع فوائد القروض وأمتنعت البنوك عن إقراضها لجأت للاقتراض

---

(١) ابن ابى الضياف جـ ٥ ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) محمد بيرم جـ٢ ص. ص ٣٥ـ٣٧.

من الأجانب المقيمين فى تونس ذاتها . وانتهى الأمر بتوحيد الديون فى دين موحد بفائدة ١٢ ٪ ، وشكلت لجنة مالية مختلطة (كومسيون مالى) من أجانب وتونسيين تتولى قبض ايرادات الدولة وتوجيهها . وقد قسمت هذه الإيرادات التى قدرت بـ ١٣ مليون فرنك إلى قسمين متساويين - خصص القسم الأول منها لسداد الديوان ، والثانى للخزانة[1] . وقد تراءس هذا الكومسيون المالى عام ١٨٦٩ - خير الدين وظل كذلك حتى تولى رئاسة الوزارة بعد سقوط « مصطفى خزانة دار » عام ١٨٧٣ .

وكانت تولية « خير الدين » الوزارة عام ١٨٧٣ فاتحة عهد جديد (٢) . وقد عبر الشعب التونسى تعبيراً صادقاً عن فرحه لعزل مصطفى خزنه دار وتولية خير الدين (٣) .

بدأ خير الدين بعلاج المشكلات الإجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية والقضائية التى كانت تعانى منها البلاد ، فألغى الضرائب المرهقة التى كان يشكو منها الشعب ، وأجرى حركة تطهير بين الموظفين ، وأصدر عفواً عاماً عن

---

(١) محمد بيرم : مرجع سابق ج ٢ ص ٤١ (نص الأمر الصادر بترتيب الكومسيون المالى) .

(٢) لعب خير الدين دوراً حاسما فى تاريخ تونس فى هذه الفترة ، فكانت له مواقف وطنية حكيمة فى بداية حكم الصادق باى حين كان عضواً فى المجلس الخاص ، ورئيساً لمجلس الشورى ، وكان وراء تدعيم المؤسسات الدستورية ، وأعترض على مضاعفة الضرائب على الأهالى ، ونصح الباى بالعدول عن ذلك مذكراً إياه إن ذلك سيؤدى إلى مصاريف مضاعفة لتجهيز الجيوش لإخضاع الغاضبين — وقد أعتزل السياسة فترة ألف فيها كتابه المسمى :

« أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » طبع عام ١٢٨٤ هـ — ١٨٦٧م — كما طبع مرة أخرى بالأسكندرية فى ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢) .

— المنجى الشملى : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢) .

— كذلك أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسى (تونس ١٩٧٣) .

— كذلك أحمد امين : زعماء الأصلاح فى العصر الحديث ١٩٤٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .

(٣) محمد بيرم : مصدر سابق ص . ص ٤٤ — ٤٧ .

المعتقلين السياسيين ، ونظم العلاقات بين الملاك والمزارعين والحكومة ووزع مساحات من الأراضى على صغار المزارعين وشجعهم على زراعة الزيتون والنخيل على وجه الخصوص ، وأبطل الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة والإرهاب ، وأوجد أول (مجلس صحى) لمراقبة الأمراض الوبائية ، وأحدث إدارة للأوقاف العامة بنظام محكم ،وشرع فى توحيد الأحكام فى البلاد ، وأنشأ فى عام ١٨٧٥ (المدرسة الصادقيه) وهى أول معهد درست فيه العلوم العصرية فى تونس ،وكان هدفه من تأسيسها التوفيق بين العلوم العصرية والعلوم والتقاليد الإسلامية ولتعليم اللغات ، وفكر فى إرسال الممتازين من خريجيها للدراسة فى جامعات أوربا ، كما زاد مرتبات المدرسين بجامعة الزيتونة وأمر بإصلاح التعليم فيها ، كما أسس (المكتبة الصادقية) وجمع بها سائر الكتب التى كانت مبعثرة فى الجوامع والمدارس . وقد حظيت حركة الطبع والنشر فى أيامه باهتمام وتعضيد ، ولقيت صحيفة (الرائد) وهى أول صحيفة عربية فى تونس تشجيعاً منه كفل لها الإستمرار .

هذا وقد بذل جهده لإحياء الصناعات الوطنية التى كانت قد أخذت فى الإندثار وراجت التجارة فى عصره .

لكن رغم ماحققه فى مختلف الميادين من نجاح ، كان كفيلا لو سار إلى نهايته أن يخلص الأمة التونسية من الأوضاع التى تردت فيها . فقد اضطر خير الدين بعد أربع سنوات من تولية الحكم إلى أن يطلب إعفاءه بسبب الدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك له خاصة من (مصطفى بن اسماعيل) الذى نال الحظوة عند الباى . وكان تخليه عن الحكم فى عام ١٨٧٧ وتولية (مصطفى ابن اسماعيل) بداية للنكسة التى أصابت تونس فأصبحت البلاد مثل مركب فقد ربانه وسط الخضم تتلاطمها الأمواج وتتقاذفها الرياح من كل جانب فلا تدرى أى ساحل تقصد (١) .

---

(١) عبد الوهاب ، حسن حسنى : مرجع سابق ص ٢١٣
ــ وكذلك محمد بيرم جـ ٢ ص ٨٣ .
(ظروف استعفاء خير الدين)

ومازالت الحالة الداخلية فى تونس تتحرج وترتبك فى وقت كانت الدول الاستعمارية الطامعة فيها تسير الامر لتحقيق أهدافها حتى تهيأت الظروف لفرنسا لتضرب ضربتها .

وهذا ماسنوضحه فى الفصول التالية .

* * *

الفصل الخامس

ليبيا ولاية عثمانية

أثر موقع ليبيا الجغرافى وطبيعتها فى تاريخها ، فهى تمتد إلى أكثر من ثمانمائة ميل من تونس غرباً إلى مصر شرقاً ، كما تمتد مئات الكيلومترات جنوباً . ومنذ الأزمنة القديمة وجدت فيها وحدتان سياسيتان منفصلتان هما برقة وطرابلس ، فخليج (سرت) يقسم المنطقة الساحلية إلى قسمين ، بينما تمتد الأقاليم الصحراوية الداخلية صوب بحيرة تشاد والسودان الغربى وتسكنها قبائل بدوية ، اللهم إلا حيث يوجد نوع من الإستقرار فى الواحات الموجودة فى هذا الإقليم الثالث من أقاليم ليبيا المعروف باسم (فزان) .

وقد وقعت برقة فترة تحت نفوذ اليونان ، بينما كانت طرابلس الغرب تحت تأثير القرطاجنيين ، هذا بينما كان البربر يقيمون فى الأراضى الواسعة الشاسعة لا يكادون يعترفون بسلطان.. ولما امتد النفوذ الرومانى إلى شمال أفريقيا ـ رأت هذه الأقاليم نوعاً من الوحدة ، فقد دخلت كلها تحت إمبراطورية واحدة .

وحين فتح العرب مصر مدوا نفوذهم إلى هذه الجهات وبدأت القبائل العربية تتدفق عليها ، فاستقرت على الخصوص جماعات بنى سليم فى برقة ، واستقرت جماعات من بنى هلال فى منطقة طرابلس ، وحملت القبائل العربية لهذه الجهات لغتها ودماءها ودينها وتمت عملية التعريب بسرعة مذهلة . ورغم مابدا فى أول الأمر من الخلافات العربية البربرية ــ لكن فكرة الإسلام العالمية سهلت إخضاع أقطار الشمال الأفريقى كلها للحكام المسلمين وتم أو كاد يتم انصهار العرب والبربر فى بوتقة واحدة [1] .

---

(١) مجيد خدورى : ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زيادة ـ بيروت ١٩٦٦) ص ١٤ ــ ١٦ ــ وارجع لما ذكرناه فى التمهيد عن انتشار العرب والإسلام فى شمال أفريقيا .

ومنذ ذلك التاريخ ارتبط تاريخ ليبيا بتاريخ الأمة الإسلامية فى مشرقها وفى مغربها ، وكان موقعها بين الجناح الغربى للأمة العربية وجناحها الشرقى مما جعلها تتأثر بالأحداث فى المشرق والمغرب الاسلاميين معاً .

وكانت للحواضر الليبية إتصالاتها مع مراكز الحضارة والتجارة بغرب القارة الأفريقية ، فقد كانت القوافل تفد إليها من قلب القارة ، وكانت موانيها تعتبر من المنافذ الهامة التى تصل إليها غلات أفريقيا الغربيـــة ، كما كانت لها إتصالاتها مع الموانى التجارية الهامة فى إيطاليا وغيرها من أقاليم البحر المتوسط الأوربية[١] .

هذا بالإضافة إلى أن موقع ليبيا فى طريق الحجاج من شمال غرب أفريقيا وغربها الى الأراضى الحجازية ـــ جعل لها أهمية خاصة فى هـذه العصور التى كانت القوافل هى وسيلة النقل الرئيسية فيها .

وقد زار الرحالة الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقى) ليبيا فى الفترة بين ١٥١٥ ، ١٥١٩ وهو فى كتابه الشهير (وصف أفريقيا) يقسم القـــارة الأفريقية (يقصد أفريقيا شمال خط الإستواء) إلى أربعة أقسام : بلاد البربر ، ونوميديا ، وليبيا ، وأرض الزنج[٢] .

وقد خصص الكتاب السادس للحديث عن طرابلس ، وليبده ، وفزان ، وصحراء ليبيا . وأشار إلى القبائل التى تسكنها وتلك التى تنتقل بين (مصراته) الواقعة شرقى طرابلس على بعد ١٠٠ ميل تقريباً ـــ وبين (فزان) والسودان . وذكر أن مصراتة كانت تشتهر فى وقته بالسجاجيد ، بينما أشار إلى الجدب الذى يصيب الأقاليم الداخلية فى برقة ، فسكانها كما يقول يبدون دوماً محتاجين ويرجع إلى هذه الحالة من شظف العيش ـــ السبب فى الخشونة التى يقول إن

---

(١) أنظر خريطة طرق غلات أفريقيا الشمالية للعالم الخارجى .

(٢) يشبه هذا التقسيم ما ورد فى مقدمة ابن خلدون .

أنظر البحث الذى نشره مؤلف هذا الكتاب عن الحسن بن محمد الوزان بمجلة المناهل التى تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالمغرب ـــ العدد الثانى ـ مارس ١٩٧٥ ص ٢٣٦ — ٢٨٦

أهل برقة يتصفون بها ، والى افتقار البلاد إلى الأمن . فالمسافر يتعرض فى برقة دائماً للمخاطر . ولكن طرابلس — كما يذكر — كانت بالعكس عامرة ، بيوتها جميلة ، وميادينها منتظمة وتكثر فى أسواقها المصنوعات خاصة النسيج ومدارسها ومساجدها متعددة كما توجد بها الملاجىء والمستشفيات[١] .

وكما أشرنا سابقاً عند حديثنا عن نشاط الأسبان الاستعمارى فى شمال أفريقيا. إنهم نجحوا فى عام ١٥١٥ فى الإستيلاء على ميناء (طرابلس)، فاتخذوه قاعدة لعملياتهم الحربية فى البحر المتوسط ، وأحاطوا الميناء بسور ضخم لحمايته من هجوم الليبيين ، وظل الأسبان يحكمون طرابلس قرابة عشرين عاماً . ويبدو أن زيارة (ليو الأفريقى) لطرابلس والموانى الأخرى فى ليبيا القريبة منها — كانت فى هذة الفترة من سيطرة الأسبان على ميناء طرابلس ، فعند حديثه عن (تاجو راء) ذكر أن سكانها تضاعف عددهم بسبب نزوح الطرابلسيين إليها بعد إستيلاء الأسبان على طرابلس[٢] .

وقد تنازل الأسبان فى عام (١٥٣٥ م) عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا فى مالطه .

وواجه الأسبان فى طرابلس — كما واجه فرسان القديس يوحنا من بعدهم ـ محاولات عدة من الليبيين بغية إسترجاعها. وكان الليبيون يتخذون من (مصراته) و (تاجوراء) الواقعة شرق طرابلس مراكز هجومية ضد المستعمرين ـ لكن لم تكن هذه الهجمات مجدية فقد كان العدو يتحصن فى المدينة ويجد معاونة بحرية فعالة من سفنه فى البحر المتوسط .

---

(١) The History and Description of Africa—Done into English in the year 1600 by John Pory (London 1869) vol. 111 pp. 773—802

ملاحظة : خلف لنا الجغرافيون والرحالة العرب السابقون الرحالة الحسن بن الوزان من أمثال : ابن الفقيه ، المقدسى ، ابن حوقل ، الإدريسى ، وكذلك التجانى فى رحلته وصفاً لليبيا ومدنها .

(٢) نفس المرجع السابق .

وحينئذ ذهب وفد من (تاجوراء) للأسيتانة يستنجد بالقوة الإسلامية الناهضة فى ذلك الوقت ضد أعداء المسلمين ، فأرسل السلطان سليمان القانونى قوة على رأسها (مراد أغا) . ويشير صاحب كتاب المنهل العذب إلى هذه البعثة الليبية فيقول « لما تفاقم الخطب على أهل طرابلس واستفحل أمر ما نزل بهم من فتنة الاسبانيول ومخالبهم على حاميتها ، وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف — انتدب جماعة من أهلها سكنة تاجوراء ، ووفد وفدهم إلى دار السعادة العلية مستنجدين بالخلافة الإسلامية وكان ذلك سنة ٩٢٦ هـ »[١] .

فأرسل لهم السلطان العثمانى قوة على رأسها (مراد أغا) لكنها عجزت عن الإستيلاء على طرابلس ، فلجأت القوة إلى تاجوراء وتمركزت فيها واهتمت بتحصينها وتمهيد الطريق بينها وبين طرابلس ، كما أرسلت تطلب النجدة من السلطان — فأرسل فى عام (١٥٥١ م) قوة بحرية أخرى على رأسها سنان باشا وطرغود نجحت فى فتح ثغرة فى تحصينات المدينة ودخولها وانتزاعها من أيدى فرسان القديس يوحنا وبذا أصبحت ليبيا ولاية عثمانية .

وقد حكم سلاطين آل عثمان ليبيا كما حكموا غيرها من ديار العرب لا كحكام أتراك ، بل كخلفاء مسلمين . وهذه الرابطة الدينية حملت رعاياهم بقطع النظر عما إذا كانوا عرباً أو أتراكاً على الشعور بأنهم أهل بيت واحد تحت حكمهم[٢] .

ويقسم المؤرخون عادة فترة الحكم العثمانى فى ليبيا إلى قسمين :

١ — الفترة الأولى — تمتد من ١٥٥١ إلى ١٧١١ .

٢ — الفترة الثانية — تمتد من ١٨٣٥ إلى ١٩١١ .

وبين الفترتين من ١٧١١ إلى ١٨٣٥ (ما يقرب من قرن وربع) كانت السلطة فى يد أسرة القره مانلى التى ظلت تتوارث الحكم طوال هذه المدة .

---

(١) أحمد الانصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب (نشر مكتبة الفخرانى د . ت) ص ١٩٩ . وكان المؤلف من أعضاء مجلس شهر أمانت ، وقد طبع الكتاب لأول مرة فى الاسيتانة سنة (١٨٩٩ م)

(٢) خدورى - مرجع سابق ص ١٧ .

فترة الحكم العثمانى الأول (١٥٥١ — ١٧١١)

لم يختلف الحكم العثمانى فى ليبيا فى هذه الفترة عنه فى غيرها من الولايات العثمانية ، فقد عين العثمانيون والياً لحكم هذه الولاية . وكان القائد البحرى العثمانى (طرغود) أول وال عثمانى عليها(١) .

وعمل هذا الوالى لفرض نفوذ الدولة العثمانية على الشواطىء الليبية كلها . لكن نفوذ العثمانيين فى الحقيقة لم يتعد السواحل ، ولم يتغلغل العثمانيون فى الحياة العامة للسكان بل تركوا إدارة الأقاليم الداخلية لحكام المحليين وزعماء القبائل ، واكتفى الباب العالى بأن تحمل إليه الضريبة السنوية : ولم يبذل العثمانيون جهداً لإنعاش البلاد وتطوير اقتصادها ، ويبدو أن هذا النوع من التدبير لقى هوى فى نفوس حكام ليبيا وسادتهم العثمانيين ، لكن بالتدريج ضعف نفوذ السلطان العثمانى بحيث لم يبق له الا المظهر الإسمى متمثلاً فى ذكر اسمه فى الخطبة ، كما أن الضرائب كثيراً ما امتنع الناس عن دفعها .

وأكثر الولاة العثمانيون من الجنود الإنكشاريه فى طرابلس بالذات لحمايتها من الأطماع الخارجية ، ولحفظ النظام والأمن ، وتزاوج أفراد هذه القوات العسكرية بالليبيات فتكونت من ذلك طائفة من المولدين (القولوغية).

وكانت السلطنة العثمانية تكثر من تغيير ولاتها فى ليبيا — شأنها فى ذلك شأن باقى ولايات الدولة ، وذلك خشية أن ترسخ أقدام الوالى فى الولاية فيفكر فى الانفصال عن الدولة . ولذا فقد تعاقب على ليبيا عدد كبير من الولاة يذكرهم صاحب كتاب المنهل العذب وسنوات توليتهم فمنهم : (يحيى باشا ٩٧١ هـ) ، و(مصطفى باشا ٩٧٣هـ) ، (محمد باشا عرف التركى ٩٨٢هـ) و (جعفر باشا ٩٩٠هـ) ، و (سليمان طاى) الذى ولاه الجند عام ١٠١٢ هـ بعد أن

---

(١) اشترك (طرغود) باشا فى كثير من حروب الدولة العثمانية ضد الأسبان وغيرهم من الأوربيين وقتل فى إحدى الحروب ضد مالطه — سنة ٩٧١ (١٥٦٣ م) وحمل جثمانه الى طرابلس حيث دفن هناك .

حاصروا جعفر باشا فى قصر الحكومة ، ولم يمنحوه الأمان إلا بعد أن وعد بترك البلاد ، وكان آخر الولاة العثمانيين فى هذه الفترة خليل باشا (١١١٤هـ)(١)

وقد ترتب على هذا التغيير المستمر فى الولاة أن زاد نفوذ جنود الإنكشارية وأستبدوا بالأمر وأضطر الولاة لإسترضائهم فاعتبروا أنفسهم طبقة ممتازة .

وأصبح ميناء طرابلس ، وغيره من موانى ليبيا — موائل للقرصان الذين زاد نشاطهم حتى أن الدول الأوربية البحرية — أضطرت لدفع الإتاوات باستمرار ، وعقد الإتفاقات مع حكام ليبيا لضمان سلامة سفنها ورعاياها ، وأصبحت الدولة تقاسم القرصان دخلهم ، فأصبحت القرصنة تمثل جزء مهماً من دخل ليبيا ـ وأدى هذا بالتالى لزيادة نفوذ رؤساء القرصان الذين تلقبوا بألقاب مختلفة ونافسوا الولاة فى السلطة والنفوذ .

وساعدت كل هذه العوامل على إضعاف نفوذ الولاة واضطراب الأمن فى البلاد ، فكثرت الفتن والقلاقل الداخلية وزاد تدخل رؤساء الجند فى أمور الدولة ، بالإضافة إلى نفوذ القراصنة وممثلى العصبيات المحلية . ذلك فى الوقت الذى كانت الدول الأجنبية فيه لازالت تطمع فى وضع أيديها على الموانى الليبية الهامة متذرعة بالأضرار والمخاطر التى تتعرض لها سفنها ورعاياها من جراء أعمال القرصنة ، ومن جراء عدم استتباب الأمن فى ليبيا ؛ وعدم وجود الشخصية القوية التى تمسك بزمام الأمور .

ويعطينا صاحب كتاب (المنهل العذب) صوراً عن المدى الذى وصل إليه بعض الولاة العثمانيين من الضعف وانعكاسات هذا على الأمن فى البلاد ـ فحين يتحدث عن جعفر باشا يؤكد « إنه كان ضعيف الشكيمة ، عاجز الرأى والحيلة فتغلب عليه الجنود ، واضطربت البلاد ، وكثر الثوار والبغى والفساد ، وتخطف الناس من السابلة : وسرى هذا الداء فى جميع أعمال البلاد ، واظلم الجو من بغى الجنود وجور العمال »(٢)

---

(١) المنهل العذب ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٢ .

أما عن (سليمان طاى) فيذكر « إنه عاد فأساء السيرة ، وبسط فى الناس يد الجور ، وأطلق يد الجند ، وأباح لهم فى هذه السنة (١٠٢٢ هـ) نهب قرية تاجوراء ، فجاسوا خلالها ودمروها وساموا أهلها سوء العذاب ، ونهبوا جميع أموالهم وكافة مواشيهم» (١).

أما خليل باشا — آخر هؤلاء الولاة فقد تورط فى الحروب والخلافات التى كانت ناشبه بين تونس والجزائر ، وأدى هذا إلى مهاجمة والى تونس لطرابلس وإضطراب الأمر فيها (٢)

أتاحت كل هذه الظروف لأحمد القره مانلى لأن يتولى الأمر فى ليبيا فى عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) ويؤسس أسرة حاكمة بها ، حكمت ليبيا كما ذكرنا ما يقرب من قرن وربع .

ليبيا فى ظل أسرة القره مانلى (١٧١١ — ١٨٣٥)

ينتمى أحمد القره مانلى إلى أسرة تركيه - هاجرت إلى ليبيا واستوطنت طرابلس . وقد ولى أحمد القره مانلى عدة مناصب عسكرية فى ليبيا ، وكان قائداً (للمنشية) أيام ولاية خليل باشا ، وأستطاع بسياسته أن يتقرب إلى الجنود والشخصيات البارزة فى البلاد .

فلما وصلت الأحوال فى ليبيا فى آخر أيام خليل باشا إلى درجة كبيرة من الفوضى والإضطراب وحدث صدام بين الوالى وبين بعض رؤساء القرصان - اضطر للهرب ،ولما شعر خليفته فى الولاية (محمد أبو اميس) بما يتمتع به أحمد القره مانلى من نفوذ لدى الجند والشعب - فكر فى التخلص منه - فأرسله على رأس قوة إلى إقليم (غريان) فى الداخل ، وقيل إنه كان قد أرسل لعاملها سراً بقتله هناك حتى لا ينازعه السلطة - لكن تسرب الخبر إلى بعض أعيان طرابلس من المقربين إلى أحمد القره مانلى فأرسلوا له على الفور يلفتون نظره إلى ما هو مدبر

---

(١) المنهل العذب ص ٢٤٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٤ وما بعدها.

له ، ويدعونه للعودة إلى العاصمة ـ فعاد إليها فأختاروه والياً فى يوم الثلاثاء الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ١١٢٣ هـ (يوليه ١٧١١ م) وذلك بموافقة أعضاء الديوان وأعيان البلاد (١) .

ونجح أحمد قره مانلى فى التغلب على القوة البحرية (٣٠٠ مقاتل) التى أرسلتها الدولة العثمانية بهدف إعادة الوالى العثمانى (خليل باشا) إلى السلطة ، ووقع هذا الوالى فى يد قوات أحمد القره مانلى فقتله وأعلن أحمد القره مانلى ولاءه للسلطان العثمانى (أحمد خان الثالث) . وبعث بهدايا للسلطان والمقربين منه ، فاضطر السلطان لتثبيته فى الولاية ومنحه رتبه الباشوية (٢) .

وهكذا وطد أحمد باشا قره مانلى مكانته فى ليبيا بالقوة ، ودفع الإتاوة للباب العالى على نحو لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى اتبعه محمد على فى مصر .

وركز أحمد باشا جهده فى القضاء على الإضطرابات الداخلية ، فتخلص من المناوئيين له من أصحاب العصبيات فى البلاد ، وضرب على أيدى العابثين بالأمن فيها ، وعكف على تنظيم شئونها وحرص على تدعيم وحدة ليبيا بولاياتها الثلاثة فنشر سلطانه إلى (برقة) و (فزان) ، وعين أخاه (الحاج شعبان بك) عاملاً عنه فى برقة وبنغازى ، ليعمل على استتباب الأمور هناك ، كما ضرب على أيدى قطاع الطرق لضمان سلامة القوافل التجارية عبر الصحراء لبلاد السودان ، ولممالك وإمارات غرب أفريقيا ، وذلك حتى يعيد الرواج الإقتصادى إلى البلاد ، كما حتم على الدول الأوروبية دفع الجزية لضمان سلامة أتباعها ، فقد كانت هذه بالإضافة إلى الجزية التى تدفعها القبائل العربية وضريبة الروس التى تفرض على غير المسلمين ـ تمثل أهم مصادر الدخل فى الدولة ، وحرصت الدول الأوربية ـ لرعاية مصالحها ـ على تعيين قناصل لها فى طرابلس ، وساعد استتباب الأمن ، وأستقرار الأوضاع بالإضافة إلى الأحوال المناخية الملائمة على وفرة الإنتاج الزراعى وانتشار الرخاء (٣) .

---

(١) يصف صاحب كتاب المنهل العذب (محمد أبا امير) بالاثم وأن لسانه سلم موادع بينما قلبه حرب منازع ص ٢٩٩ .

(٢) نيقولا زياده ـ مرجع سابق ص ٤٥ .

(٣) يذكر صاحب المنهل العذب بالتفصيل سلسلة الحروب التى شنها أحمد القره مانلى على العابثين بالأمن ـ ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٤ .

ومن مـآثر أحمد قره مانلى الجامع الذى بناه قرب (باب المنشيـــة) . والمدرسة المتصلة به وقد وقف عليها الكثير من الأوقاف ، كما بنى (بورجاً) فى الجهة الغربية من ميناء طرابلس على جزيرة الساحل [1] .

وأهتم أحمد باشا بتدعيم وتقوية البحرية الليبية إذ أنها القوة التى كانت تعتمد عليها الدولة لنشر سلطانها فى البحر المتوسط والثغور الهامة به ، وعليها تعتمد هيبتها أمام الدول الأجنبية .

وقد واجهت طرابلس فى أيامه هجوماً بحرياً قامت به القوات الفرنسية فى عام (١٧٢٨) لكن لم تنجح القوات المهاجمـــة فى النزول للمدينة والإستيلاء عليها .

وهكذا نجح أحمد القره مانلى فى تدعيم سلطته فى ليبيا ، وفى نشر الأمن والسلام والهدوء فى ربوع البلاد ، وأستمر والياً إلى أن توفى فى السادس عشر من شوال ١١٥٨هـ - ١٧٤٥م وخلفه فى الولاية أبنه محمد باشا قره مانلى . .

وسار محمد باشا قرة مانلى على سياسة أبيه ، وتابع إرسال الهدايا المعتادة للسلطان العثمانى وحاشيته ، فاضطر للاعتراف بولايته . ولم تحدث فى أيامه اضطرابات داخلية هامة فقد كان الجهد الذى بذله أبوه كافياً لأن يبقى الأمن مستتبا وتدين له القبائل بالطاعة .

وأهتم محمد باشا بالأسطول فجدد سفنه ومعداته وزوده بما كان فى حاجة إليه فكانت ليبيا فى عهده مهابة الجانب .

---

(١) المنهل العذب ص ٣١٠ .

وفى عام ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م) عقد معاهدة مع انجلترا لضمان سلامة سفنها بلا إستئذان من الباب العالى وكان ذلك سبباً فى غضب السلطان (محمود خان الأول) عليه، لكنه استطاع استرضاءه بالهدايا ، ولما توفى محمد باشا قره مانلى فى عام ١١٦٧ هـ (١٧٥٤ م) خلفه إبنه على قره مانلى .

وكان على قره مانلى صغير السن حين تولى أمر البلاد — فحدثت فى بداية حكمه بعض المشكلات بينه وبين بعض البلاد الأوربية (كالبندقية) التى كانت مرتبطة بمعاهدات مع حكام ليبيا لضمان سلامة سفنها، لكن لم يحترم القراصنة هذه المعاهدات فثارت ثائرة هذه الدول ، كما أصيبت البلاد فى عهده بالقحط — لكن حين اشتد ساعده نجح فى ضبط البلاد وحسن القيام بأمرها .

وفى أواخر ولاية على باشا ساءت الحالة ، وخرج عليه ابنه يوسف قره مانلى ، واضطرب الأمن فى الداخل ، بالإضافة إلى قلة الأمطار وانتشار الأمراض ، مما أدى لضعف الإنتاج الزراعى ، وعادت الأمور للإضطراب فى الموانى مما أدى للإصطدام بالدول الأوربية صاحبة المصالح فى هذا البحر .

ويصف صاحب المنهل العذب ما آلت إليه الأمور فى هذه الفترة من حكم على قره مانلى باشا بقوله « لقد ساءت الحالة وانحلت الإيالة ، وأهملت التنظيمات العسكرية والتنظيمات السائرة وثقل على على باشا إعطاء مرتبـــات العساكر ، وعجز عن القيام بمهام الأمور فتتابع فرار العساكر ، وخلا الجو للأنذال حتى صار النهب والغصب بالسبل والأسواق علناً من غير مبالاة وكثر الهرج والمرج ، فاجتمع بعض الأعيان والأمراء للمفاوضة فيما ألم بهم من الإضمحلال وسوء الحال ، فأجمعوا على عرض ما نزل بهم على أعتاب الخلافة ، واستمداد المراحم بالإلتفات إليهم »[١] .

وأدى تنافس وتناحر أفراد البيت القره مانلى على الولاية إلى تدخل حكام الجزائر وتونس فى شئون ليبيا — فأتى (على باشا برغل الجزيرى) أخو والى

(١) المنهل العذب ص ٣١٥ .

الجوائر بقوة بحرية وأستولى على طرابلس فى ٢١ ذى الحجة ١٢٠٧ ﻫ (١٧٩٢م) وفر على باشا قره مانلى وأبناؤه وأسرته إلى تونس — وبمعاونة جيوش تونس استطاعت أسرة قره مانلى أن تستعيد السلطة . وتولى أحمد بك قره مانلى ابن على باشا قره مانلى السلطة فى رجب ١٢٠٩ ﻫ (١٧٩٤ م) لكن لم تطل مدته فى الإمارة أكثر من سنة وشهرين ، فقد انتهز أخوه يوسف قره مانلى فرصة خروجه إلى تاجوراء فاستولى على الأمر ووجد تأييداً من (حموده باشا) والى تونس ، وفر أحمد بك قره مانلى إلى مسراته ومنها إلى مالطة وأصدر الباب العالى فرماناً فى ١٢١١ﻫ (١٧٩٦م) بتقليد يوسف باشا أمر الولاية[١]

وقد اهتم يوسف باشا قره مانلى فى بداية ولايته بتقوية الأسطول وتحصين ميناء طرابلس،فأنشأ عدة أبراج فى مواقع متباعدة من سور الميناء ، وفى عدة مناطق خارج البلد ، وبنى حائط السور الممتد من قرب قصر الحاكم من جهة البحر إلى دائرة الكرك .

وألزم يوسف باشا قره مانلى الدول الأجنبية بدفع (الجعل) السنوى والهدايا المعتادة لضمان سلامة سفنها ، وتجديد الاتفاقيات المعقودة بينها وبين ولاة طرابلس بهذا الشأن[٢] .

ولم تقتصر علاقات ليبيا فى هذه الفترة على الدول الأوربية فقد كانت الثغور الليبية — كما ذكرنا — تعتبر من المنافذ التجارية الهامة لدول غرب وشمال غرب أفريقيا ، ولذا فقد ارتبطت ليبيا مع دولة (بورنو) و (كانم) وغيرهما من دول هذه المنطقة بعلاقات ودية . وقد حدث فى عهد يوسف باشا قره مانلى أن استنجد حاكم بورنو — الشيخ محمد الأمين — ضد بعض المنشقين عليه

---

(١) المنهل العذب ص ٣١٦ — ٣٢٥ .

(٢) بلغ مادفعته الدول الأجنبية (الولايات المتحدة ، انجلترا ، وفرنسا ، الدانمرك ، والسويد ، والبرتغال ، وهولندا ، وسردينيه) فى الثلاث سنوات الأولى من ولايته ٣٣٣,٠٠٠ قرش وهو مبلغ لايستهان به فى ذلك الوقت .

— أنظر نيقولا زيادة ص ٤٦، ٤٩ .

فجهز يوسف باشا قوة عسكرية عقد لواءها لقائده (عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر) وارتحل بهم هذا القائد الليبى فى أواخر عام ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) حتى وصل إلى هذه الأصقاع البعيدة ونجحت النجدة الليبية فى إخضاع الثائرين ، وعادت بهدايا وفيرة من الرقيق وغيرهم (١) .

وقد أستمرت العلاقات الودية مع (بورنو) وكانم وغيرهما من بلاد غرب أفريقيا بدليل أن المستكشفين الأجانب كانوا يطلبون خطابات توصية من الوالى الليبى لحكام هذه البلاد . وقد كتب يوسف باشا فى عام (١٨٢٣) خطابات من هذا القبيل يوصى حاكم بورنو ببعض المستكشفين الإنجليز (٢) .

نهاية حكم الأسرة القرمانلية :

شهدت الفترة الأخيرة من ولاية يوسف باشا قره مانلى عدة إضطرابات داخلية ، فقد عادت المنازعات بين أفراد البيت القره مانلى . وكان يوسف باشا ـ كما رأينا ـ قد وصل إلى الولاية بعد تغلبه على أخية أحمد بك قره مانلى الذى فر إلى مالطة وظل يترقب الفرصة المناسبة ليسترجع السلطة ، هذا بالإضافة إلى أضطراب الأمن وسوء الحالة الإقتصادية ، فامتنع كثير من ولاة الأقاليم والأهالى عن إرسال الخراج وغيره من الأموال التى كان يفرضها الوالى على الأقاليم المختلفة ، خاصة بعد أن أرتبكت أحواله المادية وزادت مصاريفه ، وتوقفت كثير من الدول الأجنبية عن دفع الإتاوات التى كانت تدفعها للدولة لضمان سلامة رعاياها ـ وأضطر يوسف باشا لفرض ضرائب أثقلت كاهل الأهالى وذلك لسداد الديون المتراكمة عليه وسداد حاجاته المتزايدة . ووصل الأمر إلى أن أضطر الوالى إلى بيع سفنه التى كانت تحمى موانيه وسواحله وتفرض سلطانه ، وأستعمل نحاس مدافعه لسك النقود النحاسية وبذا أصبحت العملة مغشوشة ، ولم يف كل هذا بحاجاته فكان كلما أحتاج إلى المال وزع المبلغ المطلوب على الأهالى .

---

(١) المنهل العذب ص ٣٤٦ .

(٢) نيقولا زيادة ص ٥٠ .

ويصف لنا صاحب (المنهل العذب) ما آلت إليه الأوضاع فى نهاية ولاية يوسف باشا فيقول :

« إن يوسف باشا لما انتقل من طور الشبيبة إلى طور الشيبة أستهان بأهل الإيالة واغتر بظاهر الطاعة من أهلها ، وحملهم بمقتضى ما كان له من إطلاق التصرف — من مصاريف شهواته وألوان لذاته أكثر من طاقته حتى آل الأمر إلى فاقته وفاقتهم ، فباع من إسطول الإيالة الحربى ، وسك مدافعه النحاس فلوساً ، وأرخى عنان التصرف لأبنائه وأصهاره ، وقسم الإيالة بينهم » [1] .

وقد أدى هذا إلى ثورة الأهالى الذين ضاقوا بمطالبه وعجزوا عن إجابتها - فاضطر الوالى أن يعلن للأهالى عن تركه تلك التكاليف التى يطالب بها - لكن الأمر كان قد وصل إلى حد أنه أفلت من يده - وانتشرت الثورة وروح التذمر فى مختلف أنحاء البلاد حتى أن الأقاليم والمدن الهامة ، مثل مصراته وفزان ، وأورفله - خرجت من سلطانه وأصبحت تحت سلطان ذوى العصبيات من الشخصيات فى هذه المناطق ، وأضطر يوسف باشا إلى أن يستنجد بباى تونس مرة أخرى فكتب إليه يقول « إن إقامة بيتنا كانت على يد بيتكم ولكم علينا منته وفضل ، والآن تداعى ذلك البناء ، والمطلوب من فضلكم تلافية قبل أن يخر ، بما يظهر لكم من الإعانة » [2] .

ولما تفاقم الأمر ويئس يوسف باشا من قدرته على جبر الصدع - تنازل عن الولاية لإبنه على بك قره مانلى - أملاً فى أن تهدأ النفوس وينقاد له الأهالى ، وكتب يوسف باشا إلى السلطان العثمانى بذلك - فأتاه فرمان بتقليد على باشا الولاية فى غرة ربيع الآخر سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

وفى هذا الوقت الذى كانت فيه ليبيا تعانى من هذه المشكلات الداخلية كانت المنطقة كلها تموج بأحداث هامة .

---

(١) المنهل العذب ص ٣٤٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٢ .

ففى عام ١٧٩٨ أحتل بونابرت مصر ، وأوجد الفرنسيون باعتدائهم على هذه المنطقة من أملاك الدولة العثمانية الواقعة شرقى ليبيا ـ إضطراباً عنيفاً فى المنطقة كلها . كما أن موقف نابليون فى مصر بعد تحطيم أسطوله فى أبى قير أصبح يحتم عليه أن يلتفت إلى ليبيا ، ولذا فقد كتب فى ٢٢ يناير ١٧٩٩ رسالة إلى القنصل الفرنسى فى طرابلس يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ، ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا إلى مصر بطريق ليبيا (١) .

ولم يخف أمر هذه المحاولات الفرنسية على إنجلترا التى كان أسطولها يتعقب الحملة منذ خروجها من ميناء طولون ـ ففرضت حصاراً على شواطىء ليبيا . وحتى بعد أن أجبرت فرنسا على الجلاء عن مصر وعقد صلح إميان (١٨٠٢) وبمقتضاه أعيدت مصر إلى حكم العثمانيين ـ ظلت ليبيا ميداناً للتنافس بين الدولتين (فرنسا ، وإنجلترا) لأهمية موقعها وموانيها المطلة على البحر المتوسط والتى تعتبر منافذ أيضاً للمناطق الداخلية غرب وشمال غرب أفريقيا ـ كما ذكرنا سابقاً . وقد تمثل التنافس الإنجليزى الفرنسى فى ليبيا فى نشاط سفيرى الدولتين لدى باشا ليبيا ـ وقد زاد تدخل فرنسا وضغوطها على يوسف باشا بعد أستيلائها على الجزائر فى ١٨٣٠ ، وكانت لهذا الحدث أثاره العنيفة فى المنطقة كلها ، فقد فتحت فرنسا بهذا العمل أول ثغرة فى أملاك السلطان العثمانى فى الشمال الأفريقى ونجحت فى نفس هذا العام فى أن تعقد مع يوسف باشا القره مانلى معاهدة أصبح بمقتضاها لها حقوق الدولة الأفضل رعاية .

وفى نفس الوقت كانت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بليبيا تمر بمرحلة خطيرة أيضاً ، فقد أنذر يوسف باشا فى عام ١٨٠٠ م ـ الولايات المتحدة بضرورة دفع مبلغ من المال لليبيا فى مقابل ضمان سلامة سفنها ، ولم تجب الولايات المتحدة الوالى على هذا الطلب ، وحدث فى أكتوبر ١٨٠٣ م أن جنحت إحدى السفن الأمريكية على الشاطىء الليبى وأسر بحارتها وضباطها ، فأعدت الولايات المتحدة حملة للإنتقام ، وأستغلت الخلافات بين أفراد البيت القره

---

(١) نيقولا زياده ص ٤٧ .

مانلى ، فأغرت (أحمد بك قره مانلى) والى طرابلس السابق — وكان فى ذلك الوقت لاجئا فى مصر — بمرافقة الأسطول الأمريكى لإعادته إلى حكم ليبيا ، ونجحت الحملة الامريكية فى أن تنزل فى (درنة) ببرقة وتستولى عليها فى أبريل (١٨٠٤ م) ، وخشى يوسف باشا العاقبة بعد سقوط درنه فجنح إلى المصالحة ، وتوسط والى الجزائر وقنصل إنجلترا فى ليبيا بين الطرفين ، فعقدت معاهدة صلح بينهما ، وأعاد الامريكان حليفهم أحمد قره مانلى إلى مصر وظل بها حتى وفاته سنة ١٨١١ م(١)

هذا على أن الدول الأوروبية التى كانت مضطرة فيما مضى لدفع أتاوات للسلطات الحاكمة فى ليبيا لحماية سفنها ورعاياها — شعرت بأن الوقت قد حان لوضع حد لهذا الوضع المهين الذى وصف بأنه لا يقل عن عمليات الإسترقاق التى تعرضت لها القارة الأفريقية لسنوات عدة — فعقد مؤتمر اكس لاشابل سنة ١٨١٦ لبحث هذه المشكلة ، واتخذ المؤتمر قرارات تقضى بوضع حد لعمليات الاعتداء على السفن الأوروبية ، وأن يعتبر هذا من مسئولية الدول التى يتبعها القراصنة دون أن تتقاضى أى شىء فى مقابل ذلك ، وعهد المؤتمر لبريطانيا وفرنسا بالعمل لتنفيذ قراراته ، وأن تقوم الدولتان فى البداية بإبلاغ الباشا فى طرابلس بقرارات المؤتمر . وفعلا أبحر الاسطولان الفرنسى والإنجليزى إلى طرابلس ، وفى ٨ أكتوبر ١٨١٩ أبلغ الباشا بقرار المؤتمر ، ولم يكن أمام يوسف باشا إلا أن يعلن إذعانه لقرار الدول — ولا شك فى أن هذا الأمر أدى إلى أن فقدت ميزانية ليبيا جزءا كبيراً من دخلها ، فكانت ضربة ليبيا شبيهة بما أصاب دولة المماليك فى مصر حين فقدت سيطرتها على طرق التجارة الآتية من الشرق واحتكارها لهذه الطرق .

وهكذا كانت الظروف الداخلية والظروف الخارجية المحيطة بليبيا فى هذه

---

(١) المنهل العذب ص ٣٣١ .
والدراسة التفصيلية لعلاقة أمريكا بشمال أفريقيا فى ذلك الوقت — أنظر .
Louis, B. wright and Julia, H. Macleod : The first Americans in North Africa (Princeton 1945)

الفترة من حكم الأسرة القرمانليه غير مؤاتية ـ وقد رأت الدولة العثمانية أن الوقت قد حان لإنهاء حكم هذه الأسرة وإعادة ليبيا إلى سلطان الدولة مباشرة .

ويورد صاحب (المنهل العذب) قصة لها صلة بهذا القرار الذى إتخذته السلطنة بإنهاء حكم الأسرة القرة مانلية ـ فيذكر إنه فى أواسط جماده الأول سنة ١٢٥٠ ﻫ (١٨٣٤ م)ـ قدم (محمد شاكر أفندى) فى أسطول من دار الخلافة العلية حاملا لسيف وفرمان عال من أمير المؤمنين مؤكداً للفرمان السابق بتثبيت (على باشا قره مانلى) على ولايته فتلقاه الوالى بالترحاب وأطلقت المدافع استبشاراً بقدومه ، وبالغ فى إكرامه . واستقدم المندوب السلطانى أعيان وزعماء الثوار فقدم لهم النصح بالإخلاد إلى السكينة واجتهد فى إصلاح ذات البين بينهم وبين الوالى — لكنهم أجابوه بقولهم « إن هذه الحروب والفتن الأهلية أبادت قواتنا وشتت شملنا فنحن قد انسلبت أمنيتنا فى هذه العائلة » واسترحموا إنقاذهم من قبضتهم وظلمهم وقدموا له عرضاً عمومياً بذلك فأخذه منهم ووعدهم خيراً ورجع بعد ذلك إلى دار السلطنة (١)

ومهما تكن الدوافع التى دفعت الدولة العثمانية للتفكير فى وضع حد لحكم هذه الأسرة ـ فقد كانت الأوضاع كلها توحى بضرورة التغيير ، ولم يكن مستبعداً إن لم تقدم السلطة العثمانية على ما أقدمت عليه أن تغرى الأوضاع التى آلت إليها ليبيا — دولة من الدولة الطامعة فى هذه المنطقة لتتخذ خطوة من جانبها . ولذا فلعل هذه الخطوة التى اتخذتها الدولة العثمانية فى عام ١٨٣٥ أخرت هذا المصير الذى لقيته ليبيا فيما بعد فى عام ١٩١١ م .

وقد ارسلت الدولة حملة من ٢٢ سفينة بدعوى حفظ الآمن والنظام فى ليبيا ، وكان على رأس الحملة الفريق نجيب باشا ، ووصلت القوة العثمانية إلى طرابلس فى أوائل محرم سنة ١٢٥١ﻫ (مايو ١٨٣٥) فاحتفل على باشا بقدوم ممثل السلطان . وفى أواخر هذا الشهر دعا القائد العثمانى على باشا إلى سفينته ، فلما وصل ألقى القبض عليه ، واستحضر القاضى والمفتى والعلماء

---

(١) المنهل العذب ص ٣٥٥ .

والأعيان وأعلنهم بالفرمان الصادر من قبل السلطان العثمانى بولايته وأمرهم باتخاذ الإجراءات الكفيلة بحفظ الأمن والنظام فى الولاية ، وأعلن نجيب باشا قناصل الدول فى طرابلس بالأمر وأفهمهم إنه جاء لحفظ الأمن والنظام وتأمين الناس على حياتهم وأملاكهم .

أما مصير الباقين من أسرة القره مانلى فقد ذكر صاحب المنهل العذب أن محمد بك قره مانلى قتل نفسه، بينما فر أخوه أحمد بك إلى مالطه وارسل على باشا إلى الاسيتانه .

وهكذا طويت هذه الصفحة من حكم هذه الأسرة فى ليبيا .

فترة الحكم العثمانى الثانى (١٨٣٥ — ١٩١١)

تولى شؤون ليبيا فى الفترة ما بين ١٨٣٥ ، ١٩١١ — ثلاثة وثلاثون والياً فى وقت كانت فيه ليبيا فى مسيس الحاجة للإستقرار والهدوء ولحكام يتصفون بالحزم والقدرة على الضرب على أيدى العابثين بالنظام والأمن وعلى تنظيم الولاية وتوجيهها لما يكفل لها النمو والتقدم الإقتصادى .

لكن كثرة تغيير الولاة بهذا الشكل — لم يتح الفرصة حتى للقادرين منهم على تنفيذ المشروعات العمرانية المطلوبة . وقد قضى معظم هؤلاء الولاة فى السلطة مدة لا تتجاوز بضعة شهور ، وبعضهم لم تتعد الشهرين ، ولذا قضى معظمهم فترة حكمه فى محاولة إخماد الثورات التى كانت قد أندلعت فى أنحـــاء ليبيا المختلفة منذ أواخر عهد القرهمنليين — دون جدوى[1] .

---

(١) لم تزد مدة ولاية (على كمالى باشا) مثلا عن شهرين (٩ ذى الحجة ١٢٩٥ — ٩ ربيع الآخر من نفس من السنة) ، أما الوزير محمد رشيد باشا فتولى (٢٢ جمادى الآخر ١٢٨٨ — ١٩ صفر ١٢٨٩) ، والمشير مصطفى عاصم باشا تولى (٢٩ شعبان ١٢٩٢ — ٨ جمادى الآخره ١٢٩٣) والوزير محمد صبرى باشا تولى (٩ ربيع الآخر ١٢٩٠ — ٥ ذى الحجة ١٢٩٥) .

وبذا لم تتجاوز مدة ولاية كل منهم ثمانية أشهر .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن ليبيا كانت تتعرض من وقت لآخر للقحط والجدب بسبب قلة الأمطار وعدم توفر المياه النقية الصالحة للشرب وما يترتب على ذلك من انتشار الأمراض الفتاكة بسبب إضطرار الأهالى لتناول المأكولات الرديئة — يمكننا أن ندرك مدى ما وصلت إليه البلاد فى هذه الحقبة من فوضى وإضطراب .

ويعطينا صاحب المنهل العذب صورة لذلك فيذكر « إنه فى أواخر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وقع إمساك فى الغيث وجدب شديد ومحل عظيم ، ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات فارتفعت أسعار الحبوب وعجزت الناس عن الأقوات ، وتفشى فيهم المرض والموت من تناولهم المأكولات الرديئة وأشتد الخطب على الرعية وجزعت به الناس ، وطاشت أفكارهم وباعت الأغنياء مواشيهم وآلات حرثهم لسد رمقهم ، وسمت العرب عامهم هذا (عام الجزر) لأنه كان أكثر غذائهم منه »[١] .

وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت تعانى من إضطرابات داخلية نتيجة ظهور الأحزاب والجمعيات المطالبة بالإصلاح ، ووقوف السلطات الحاكمة فى وجه هذه الحركات ومحاولة فضها بالقوة ، هذا فى وقت كانت الشعوب الأوربية بالذات الخاضعة للدولة قد بدأت تتحرك مطالبة باستقلالها ، فقامت حركات فى اليونان وبلغاريا والصرب ورومانيا ، ووجدت هذه الحركات تأييداً من بعض الدول الكبرى مثل روسيا ، وأضطرت الدولة العثمانية لأن تخوض غمار حروب طاحنة . وكان على الولايات العثمانية أن تقدم العون للدولة الأم فى حروبها هذه ، وهكذا انعكست أثار هذه الإضطرابات الداخلية والأخطار الخارجية على مختلف ولايات السلطنة .

وإذا كانت فرنسا قد فتحت ثغرة فى الأملاك العثمانية بشمال أفريقيا بحملتها على الجزائر (١٨٣٠م) فإن حرب القرم التى شنتها روسيا على الدولة فى عام

---

(١) المنهل العذب ص ٤٠١ .

١٨٥٣ م — أثارت بعنف مشكلة (رجل أوربا المريض) — كما كان يطلق على الدولة العثمانية فى ذلك الوقت — ومصير أملاك هذه الدولة الضعيفة فى شمال أفريقيا وفى أوربا وغيرها من المناطق الإستراتيجية الهامة التى كانت تحت سلطان العثمانيين . وأصبح مصير هذه الأملاك العثمانية متوقفاً على مدى إتفاق الدول الأوروبية فيما بينها على نصيب كل منها من هذه الأملاك ، وما تسمح لغيرها من أعدائها والمنافسين لها إقتطاعه منها . على أنه من الإنصاف أن نذكر أن بعض الولاة العثمانيين فى هذه الفترة حاولوا القيام ببعض الإصلاحات فعشقر باشا (١٢٥٤ — ١٢٥٨ هـ ١٨٣٨ — ١٨٤٢م) عمد إلى إصلاح ما ثلم من القلاع وما تخرب من الجوامع . وأنشأ قصراً للحكومة باورفله ، ومحلا للحكومة بالموضع المعروف (أبى نجيم) الكائن بين سوكنه وأورفله . وشكل من هناك ناحية ، كما ولى حليم باشا على بنغازى لينظم شئونها . وقد حفل عهده بالحروب ضد الخارجين على سلطان الدولة[1].

كما أهتم خليفته فى الولاية الوزير محمد أمين باشا (١٢٥٨ — ١٢٦٣ هـ ١٨٤٢ — ١٨٤٦ م) بتنظيم الشئون المالية والإدارية للولاية ، فجاء معه دفتر دار (عزمى بك) وهو أول من ولى مثل هذا المنصب فى ليبيا . ثم رتب القضاءات والمديريات واللوا آت ، وأسس المجالس والأقلام والدفاتر وعدل أموال الجباية ، وأنشأ المستشفى العسكرى بالمنشية ، وجعل الأميرالاى (بكر بك) متصرفاً بفزان ، كما ولى من الموثوق بهم وأصحاب الكفاءات من الأهالى قائمقامين ومديرين ، وأمن زعماء القبائل الذين كانوا خارجين على سلطان الحكومة وجعلهم أعضاء بمجلس الإدارة ، وبالغ فى إكرامهم فأنسوا إليه وإستكانوا للسلم وأستقروا بالمدن كما نجح بفضل جهود (اللواء أحمد باشا) فى أن يضرب على أيدى الذين أبوا الخلود للسكينة .

ولعل الوزير محمود نديم باشا (١٢٧٧ هـ — ١٢٨٣ / ١٨٦٠ — ١٨٦٦م)

---

(١) المنهل العذب ص ٣٦١ وما بعدها

من أبرز الولاة العثمانيين فى هذه الفترة — فقد حفل عهـــده بالعديد من الإصلاحات فى مختلف المجالات — ووجه أهتمامه إلى الزراعة باعتبارها الثروة الحقيقية فى ليبيا ،فجلب أشجار الزيتون وغيرها ووزعها على الأهالى بواسطة مشايخهم وحملهم على غرسها فى الأماكن الصالحة ، فازدهرت الزراعة فى عهده إزدهاراً كبيراً. ومن الناحية الإداريه انتهز نديم باشا فرصة صدور الفرمان العالى بالتنظيم النهائى للولاية فى عام (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م) فقـام بتوزيع الوظائف بمقتضى أحكام هـذا الفرمان ، ووضع مجالس الجنايات والحقوق والتجارة وفق نظامه .

ويرجع إلى نديم باشا الفضل فى تأسيس أول مطبعة حكومية بقصر الحكومة فى ليبيا ،وصدرت عنها أول جريدة رسمية باسم (طرابلس غرب) . ولتسهيل الإتصال بين سكان الثغر وأهل المنشية والقرى المجاورة - فتح نديم باشا باباً جديداً للثغر من الجهة الغربية ، ولا شك فى أن طول مدة حكم نديم باشا وإستقراره فى الولاية لمدة ست سنين وثلاثة أشهر - بالإضافة إلى ما أتصف به من سداد الرأى والهمة العالية - أتاحت له الفرصة للقيام بما قام به من مشروعات عمرانية(١).

وكان خليفته المشير على رضا باشا (١٢٨٣ - ١٢٨٧هـ/١٨٦٦ — ١٨٧٠م) على شاكلته ، فقد حرص على النهوض بالولاية وتوسيع نطاق التجارة والصناعة والزراعة بها ، كما اهتم بتسوية الطرق والمعابر بداخل الثغر وخارجه وتنظيم البوستة ، ومد التلغراف براً من نفس الولاية الى مشارف متصرفيه (لواء الخمس) مصمما على إيصاله إلى الحدود المصرية . . . وتصدى لعلاج مشكلة قلة الماء فى الثغر (طرابلس) ، وشدة احتياج السكان إليه لعدم وجود الأنهر ،

---

(١) يصفه صاحب المنهل العذب «بأنه كان ثاقب الرأى ، عالى الهمة ،قام باعباء الايالة أتم قيام ، وأخذ كل طبقه بما عليها ومالها ويحفظ عليها كمالها » .
— أنظر المنهل العذب ص ٣٩٦ .

وندرة العيون الجارية ـ فتشبث بإخراجه من أعماق الأرض بواسطة الأدوات الحديثة ، فحفر عيناً بخارج الثغر ، وجعل عليها سبيلا ، وربط الأودية وجعل لها ترعاً وسواقى وسلط ماءها على المزارع ، وحمل الناس على الإجتهـــاد فى الزراعة ، وتعاطى أسباب الثروة والعمران ، وأسس سوقاً فى العزيزيه فى ظاهر المدينة .

ولم تقتصر عناية هذا الوالى على العاصمة فحسب ـ بل إمتد نشاطه وإهتمامه إلى الأقاليم الداخلية . ففى (غدامس) عين حاكماً لإدارتها وتنظيم أمورها كما اعتنى (بطبرق) عناية خاصة فأنشأ بها محجراً صحياً ، وميناء وقلعة ودوراً للتخزين .

ولا شك فى أن إعفاءه من الحكم بعد هذه الفترة الوجيزة (سنتين وتسعة أشهر) يعتبر خسارة كبيرة لليبيا ، فقد أثبت انه من أقدر الولاة على النهوض بالبلاد ومن أفضلهم تفهماً لمشكلاتها الحقيقية[1] .

وقد اتجهت السلطنة العثمانيه ـ بسبب المخاطر التى أصبحت تتعرض لها ليبيا بعد أن أخذت الدول الإستعمارية تنشب أظفارها فى أملاك الدولة بشمال أفريقيا ـ إلى أن تختار ولاتها فى ليبيا من العسكريين برتبة مشير ، وكان الوالى بالإضافة إلى وظيفته هذه (قومانداناً) للفرقة العسكرية بالولاية[2] .

كما حرصت الدولة على تعزيز القوة العسكرية فى الولاية بقدر إستطاعتها ، فأرسلت عدة بواخر سلطانية مشحونة بمدافع (كروب) والمهمات والذخائر الحربية ، وصار الشروع فى إقامة الاستحكامات المتصلة على النظم الجديدة ، وذلك فى الأماكن الهامة ، فأكملت استحكامات (برج التراب) ، و (سانية

---

(١) نيقولا زيادة - مرجع سابق ص ٥٥ .

(٢) تولى المشير على رضا باشا (١٢٨٣ — ١٢٨٧ هـ) ثم أعيد للمرة الثانية ١٢٨٩ — ١٢٩١ هـ)، وتولى المشير سامح باشا (١٢٩١ — ١٢٩٢ هـ)، والمشير مصطفى عاصم باشا (١٢٩٢ — ١٢٩٣ هـ) ، والمشير مصطفى باشا (١٢٩٣ — ١٢٩٥ هـ) وكلهم من العسكريين .

الباشا) وزودت النقطتان بالمدافع الهائلة - ولكن الدولة العثمانية كما سنوضح فيما بعد اضطرت قبيل الإحتلال الإيطالى لليبيا إلى سحب جزء كبير من قواتها لإخضاع الثورة التى نشبت فى اليمن .

والحقيقة إن ليبيا كانت فى هذه الفترة التى أطلق عليها فترة الحكم العثمانى الثانى - مسرحاً لصراعات حامية ، فقد اتجهت إليها أنظار الكثير من الدول الأوروبية ، فبينما كانت المخاوف تثار حول نوايا فرنسا بالذات تجاه ليبيا - بعد إعلان حمايتها على تونس - حتى أن وزير الخارجية الفرنسية أضطر لأن يعلن بصراحة فى يولية ١٨٨١ إن بلاده لا تفكر فى إحتلال القطر الطرابلسى ، وكل ما تريده بلاده هو الأتبدى طرابلس روحاً عدائياً نحو فرنسا — فإن إيطاليا وألمانيا كانت تثار أيضاً المخاوف حول أطماعهما التوسعية بعدأن تخلصت الدولتان من مشكلاتهما الداخلية ، وظهرت كل منهما كدولة موحدة قوية تطمع فى دخول ميدان الإستعمار وتتطلع لنصيب فيه كغيرها من الدول التى سبقتها فى هذا الميدان . وكانت انتصارات المانيا على فرنسا فى عام ١٨٧٠ توحى بأن الخطوة التالية ستكون تقدمها نحو ليبيا ، ولذا فقد أثيرت الشكوك حول زيارات الرحالة الألمان من أمثال ناختيجال (Nachtigal) ويونكر (Junker) لهذه البلا . أما إيطاليا فقد كان نشاطها المتزايد فى مختلف الميادين فى هذه البلاد مثيراً للمخاوف ، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل عند الحديث عن الإستعمار الإيطالى فى ليبيا .

على أننا نشير الى أن الولايات المتحدة الامريكية كان لها أيضا دور فى هذا الصراع ، فقد سعى القنصل الأمريكى فى طرابلس فيدال (Fedal) فى عام ١٨٧٣م - لأن يحصل لبلاده على ميناء يكون قاعدة للأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط ووقع إختياره على ميناء (طبرق) بالذات . ولكن الصراعات الدولية فى ذلك الوقت لم تهيء لهذا المشروع فرصة الخروج لحيز التنفيذ .

وقد لجأت الإدارة العثمانية الى فصل برقة عن طرابلس وجعلت برقة (سنجقاً) مستقلا عن الولاية . على أن الأوضاع فى برقة تاثرت منذ النصف الثانى للقرن

التاسع عشر بقيام الحركة السنوسية فيها ، وقد أدت الظروف التى أحاطت بليبيا إلى قيام نوع من الإتفاق بين السنوسيين والدولة العثمانية ـ لفترة ما على الأقل .

ولو أننا سنشير بالتفصيل لدور السنوسيين فى مواجهة الإستعمار الإيطالى لليبيا فيما بعد — لكن قد يكون من المناسب هنا أن نشير لنشأة هذه الحركة فى وتطورها فى الفترة السابقة للغزو الإيطالى لليبيا .

السنوسية والدور الذى لعبته فى ليبيا حتى عام ١٩١١

شهد العالم الإسلامى حركات إصلاحية ظهرت بصفة خاصة فى وسط ما أحاط به من مشكلات .

ولعل الحركة الوهابية التى تزعمها ـ فى القرن الثـامن عشر ـ محمد بن عبد الوهاب ـ من أبرز هذه الحركات . وكان جوهر هذه الحركة هو محاربة الفساد الذى استشرى ، فكانت الدعوة حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد . فلا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء جنازة ، ولا إقامة اذكار ليغنى فيها ويرقص ، ولا محل يتبرك به . وقد لخصت تعاليمها فى أساسيين :

١ — التوحيد فى العقيدة — مجردة من كل شرك .

٢ ـ التوحيد فى التشريع — فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

وقد أراد مؤسس الوهابية أن يعيد فى محاربته عوامل الفساد هذه — عهد أسلافه من الحنابلة ، ولا سيما ابن تيميه . وكان قد درس كتبه ورسائله الإصلاحية [١] .

ودخلت الدعوة الوهابية طوراً جديداً بانضمام أمير الدرعية ـ ابن سعود ـ إليها ، وقيامه بنشر الدعوة فى جميع أنحاء الجزيرة العربية باللسان عند من يقبلها وبالسيف عند من لا يقبلها ، فشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز موطن الحرمين الشريفين من يدها — فعمدت للقضاء على الوهابيين .

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٤٨) ص ١٠ — ١٢ .

وقد شهد المغرب العربى حركات مماثلة تمثلت فى الطرق الصوفية . وسنرى أن اتباع هذه الطرق لعبوا دوراً هاماً فى مواجهة الإستعمار الأوربى فى وقت كانت السلطات الحاكمة قد وصلت لدرجة من الضعف والإنشغال بمشاكلها الداخلية بحيث لم تستطع أن تواجه المستعمر الغاصب[1] .

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن على السنوسى . وكان على رأس الحركة فى هذه الفترة التى نعالجها ثلاثة هم :

١ — السيد محمد بن على السنوسى فى الفترة من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٩ م .

٢ — السيد محمد المهدى فى الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٩٠٢ م .

٣ — السيد أحمد الشريف فى الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩١٨ م .

فترة السيد محمد بن على السنوسى[2] (١٨٣٧ — ١٨٥٩ م) :

ولد محمد بن على السنوسى فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧م) . بالقرب من مدينة (مستغانم) بالجزائر ، وبعد وفاة والده كفلته عمته السيدة فاطمة وكانت على علم فقد كانت تعمل بالتدريس والإرشاد ، وكذلك كان أفراد هذه الأسرة على هذا المنوال من العلم والمعرفة[3] .

وذهب محمد بن على السنوسى إلى مدارس مستغانم ، وأظهر منذ نعومة أظفاره حباً عظيماً للدراسة ، وأنتقل بعد ذلك إلى جامع القرويين فى فاس حيث

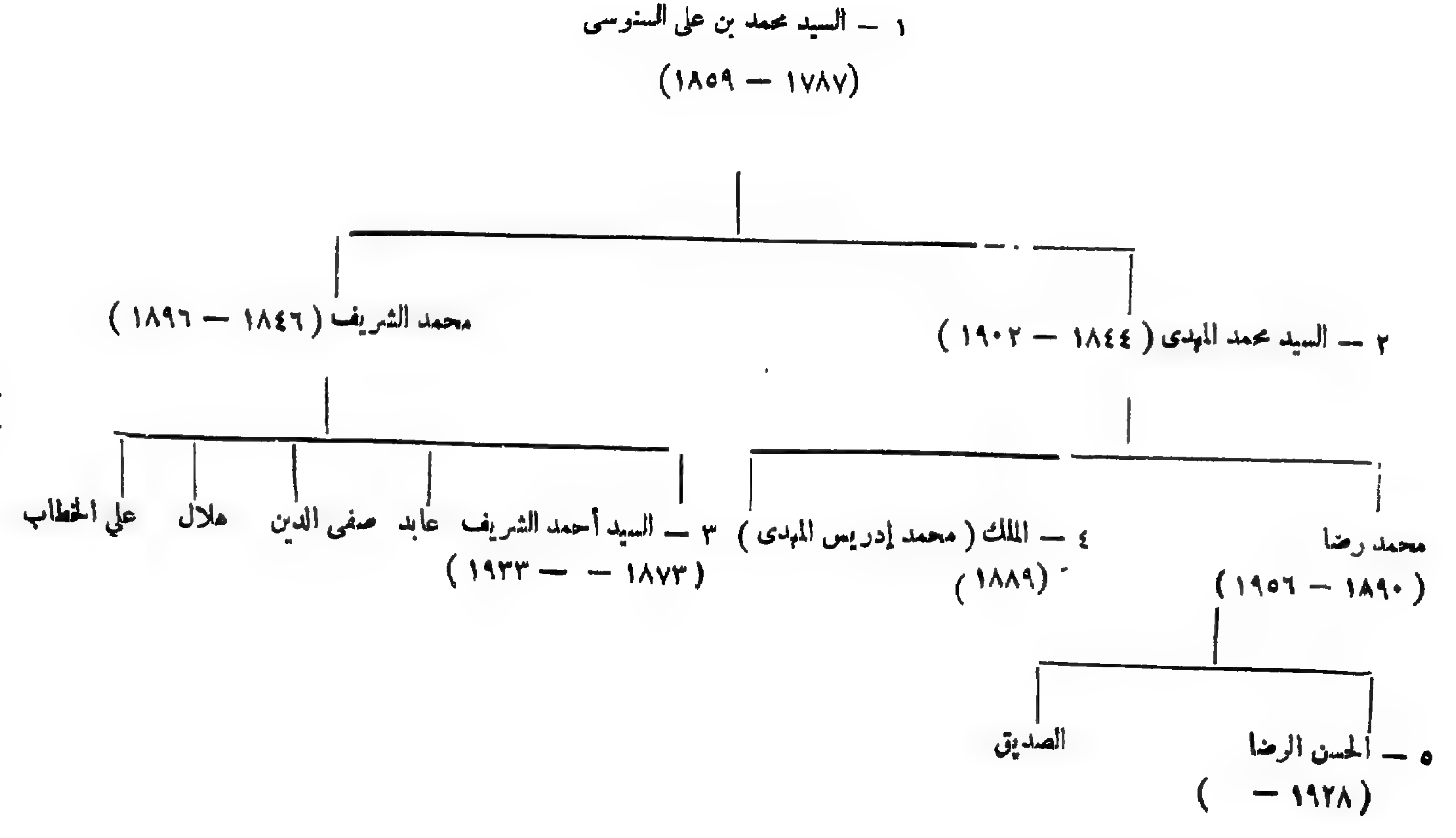
---

(١) من هذه الطرق (القادرية) و (الجزوليه) — وقد لعبت دورا هاماً فى مواجهة الاستعمار فى المغرب الأقصى .

(٢) يرجع نسب السنوسى إلى فاطمة وعلى بن أبى طالب، ويفسر آدمز Adams السبب فى تلقيبه بالسنوسى بأن جده التحق بإحدى قبائل شمال أفريقيا وهى قبيلة (بنوسنوس) فنسب إليها .

Adams, C.C. : the Sanusiya ordet (N.D.) P. 8

(٣) الأشهب، محمد الطيب بن ادريس : السنوسى الكبير (القاهرة ١٩٥٦) ص ٨٠ .


١ ـ السيد محمد بن على السنوسى
(١٧٨٧ — ١٨٥٩)
٢ ـ السيد محمد المهدى (١٨٤٤ — ١٩٠٢)
محمد الشريف (١٨٤٦ — ١٨٩٦)
محمد رضا
(١٨٩٠ — ١٩٥٦)
٤ ـ الملك (محمد إدريس المهدى)
(١٨٨٩)
٣ ـ السيد أحمد الشريف
(١٨٧٣ — — ١٩٣٣)
عابد
صفى الدين
هلال
علي الخطاب
٥ ـ الحسن الرضا
(١٩٢٨ —)
الصديق

أقام سبع سنوات (١٨٢٢ - ١٨٢٦)[١] . ثم رجع إلى الجزائر وكان بها فى بداية الإستعمار الفرنسى ، ومنها أنتقل إلى القاهرة ، فأقام فى الأزهر مدة يتعلم ويعلم ، ثم غادر القاهرة إلى الحجاز. ويعلل البعض سبب مغادرته لمصر بأنه وجد معارضة عنيفة من علماء الأزهر إذ وجدوا فى تعاليمه ومناداته بفتح باب الإجتهاد جرأة غير معتادة فناصبوه العداء[٢] .

هذا ويشير شكيب أرسلان ، إلى أن السنوسى لم يكن عالماً فحسب ، بل كان أيضاً فارساً ماهراً ورث الفروسية عن والده ، ولذا فإن هذا الكاتب يذكر « إن السنوسيين ينزع فيهم عرق إلى السيف ، كما ينزع عرق إلى القلم » [٣] .

وبقى محمد بن على بالحجاز حتى عام ١٨٤٠ وأتاح له ذلك فرصة الإلتقاء بعدد كبير من المسلمين والمشايخ ورجال الدين وأقطابه وحصل منهم على إجازات [٤] .

وفى الحجاز أسس أولى زواياه عند جبل (أبى قبيس) وكان ذلك فى عام ١٨٢٦ م ، ثم أنشأ زوايا أخرى فى الطائف والمدينة المنورة وبدر[٥] .

وتعددت رحلات السنوسى بعد ذلك فى طلب العلم والإتصال بأربابه ، وفى التعرف على أحوال العالم الإسلامى فقد جاب الشمال الافريقى كله مرات

---

(١) يحدد شكرى — تاريخ ذهابه إلى فاس بعام ١٢٣٣ هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) ويذكر أن سنه كان فى ذلك الوقت ثلاثين عاماً ، ولاشك فى أن زيارته لفاس وإتصاله هناك بأتباع الصوفية كان له أكبر الأثر فى اتجاهاته .

— شكرى ، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة (١٩٤٨) ص ١٣ — ١٤ .

— أرنولد ، توماس : الدعوة الى الإسلام (ترجمه حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين) ١٩٤٧ ص ٣٦ .

(٢) Rinn, Louis: Marabouts et Kouan (Alger 1844) P.P. 486-487

(٣) أرسلان شكيب : حاضر العالم الإسلامى (القاهرة ١٩٢٦) جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٤) Pritchard, Evans: The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1948) P.11

(٥) Ibid p.12.

بالإضافة إلى مصر والحجاز واليمن والشام وغيرها من البلاد الإسلامية . ويحاول الأشهب أن يحدد سنوات إقامه السنوسى فى كل من هذه البلاد المختلفة متتبعاً تنقلاته ، ويشير إلى أنه حصل على هذه التواريخ من مخطوط قديم ، وإن كنا لا نعرف الكثير عن هذا المخطوط الذى ذكره . وفى تنقلاته كان السنوسى يدعو لمبادئه [1] .

وغادر السنوسى الحجاز ـ كما ذكرنا ـ عام ١٨٤٠ م قاصداً قابس ، فمر بمصر واستأنف رحلته إلى سيوه وبقى فيها بضعة أسابيع لمرضه ، ثم ذهب لبنغازى عن طريق الجبل الأخضر ، ووصل طرابلس الغرب فى أواسط جمادى الثانية ١٢٥٧ هـ (أغسطس ١٨٤١ م) ومنها إلى قابس بتونس . ومن قابس كان ينوى التوجه إلى الجزائر ، لكن وصل إلى علمه أن الفرنسيين قد بثوا عيونهم على الحدود التونسية الجزائرية للقبض عليه ، فدفعه ذلك للعودة إلى طرابلس ، فالجبل الأخضر حيث كان قد أمر أتباعه بتأسيس (الزاوية البيضاء) فتم تأسيسها فى أواخر عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م) وأصبحت أم الزوايا السنوسية [2] .

ويقول إنه فكر لفترة فى أن يتخذ من (بنغازى) مركزاً لحركته لكنه عـــدل عن ذلك وفضل عليها الزاوية البيضاء حتى لا يصطدم بالأتراك العثمانيين [3] .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو ـ لماذا أختار السنوسى الكبير برقة بالذات مركزاً لحركته ؟ وهل هذا الإختيار تم عن طريق الصدفة أم إنه جاء حسب دراسة وتخطيط؟.

لقد أختلفت الآراء فيما يتعلق بهذا التساؤل . فقد ذهب البعض ـ وعلى رأسهم بريتشارد ـ إلى أن هذا الإختيار جاء صدفة وأن كل ما فى الأمر هو أن

---

(١) الأشهب : السنوسى الكبير ص ١١ .

(٢) Pritchard, Evans: Op. cit. P.13

(٣) الأشهب برقة العربية (١٩٤٧) ص ١٤٠ .

السنوسى كان مضطراً فى هذه الظروف للإستقرار بعض الوقت فى ليبيا، فالطريق إلى الغرب كان مغلقاً فى وجهه لوجود الفرنسيين فى الجزائر . والطريق إلى الشرق أيضاً كان مغلقاً لوجود العثمانيين فى مصر ومكة ـ فاضطر للبقاء فى ليبيا وأستتبع ذلك بناء الزوايا التى أقيمت بها [١] .

ويرجح البعض أن السنوسى كان يفكر فى بادىء الأمر فى إتخاذ الحجاز مركزاً لحركته بدليل تأسيسه أولى زواياه هناك ، ولما يوفره الحجاز من إمكانيات لا تتوفر فى غيره بسبب تجمع وفود الحجاج القادمين من مشارق الأرض ومغاربها فيه فى موسم الحج ـ لكنه لما أضطر لترك الحجاز لم يكن أمامه فى هذا الوقت سوى ليبيا كميدان يمكنه أن يمارس فيه نشاطه .

لكن البعض يرى أن أختيار ليبيا ، وبرقة بالذات كميدان لنشاطه جاء بعد جولات متعددة ، فهو أمر تم بناء على دراسة وأختيار دقيقين ـ ولعل أختيار برقة ومنطقة الجبل الأخضر بالذات ـ ترجع لأسباب منها :

١ ـ إن هذه المنطقة فى موقع ممتاز لوقوعها فى طريق حركة القوافل التجارية مع طرابلس الغرب ، ومصر ، وفزان ، وتونس ، وبرنو ، ووادای، وغات ـ بالإضافة إلى القوافل مع السودان وغيرها من أقاليم داخل القارة [٢] .

٢ ـ لا تثير هذه المنطقة المشاكل مع الأتراك العثمانيين الذين كان نفوذهم الحقيقى فى المدن الكبيرة الساحلية .

٣ ـ تتيح هذه المنطقة بيئة صالحة لنشر الدعوة السنوسية فسكانها بدو يفتقرون لمن يفقههم فى تعاليم الإسلام الصحيحة وأمثال هؤلاء يوجد عندهم الحماس والإستعداد للتضحية اللازمان لمثل هذه الدعوة فى مراحلها الأولى .

وفى عام (١٨٤٦ م) بعد ست سنوات قضاها السنوسى فى الجبل الأخضر ـ

---

(١) Pritchard, Evans: Op. cit. p. 14.

(٢) Adams: Op. cit P. 6.

غادر الزاوية البيضاء إلى الحجاز حيث أمضى ثمانى سنوات ، ولما عاد من الحجاز عام ١٨٥٦ إتخذ (الجغبوب) مركزاً له فانتقل إليها فى صفر ١٢٧٣ هـ (أكتوبر ١٨٥٦م) .

وأثار إتخاذ السنوسى الجغبوب مركزاً له وعدم نزوله (بالزوية البيضاء) بعد عودته من الحجاز تساؤلات عن السبب وراء هذه الحركة .

وقد أرجع الكتاب الأوربيون ذلك إلى رغبته فى الإبتعاد أكثر عن نفوذ الأتراك وسلطانهم بسبب الشكوك التى أخذت تحوم حول أهداف السنوسيين ومراميهم خاصة بعد ما لقيته دعوتهم من أنتشار كبير [١].

هذا بينما أعتبر البعض أنتقاله إلى الجغبوب بمثابة مرحلة أخرى من مراحل الجهاد بهدف نشر الإسلام فى غرب أفريقيا ، وأن الجغبوب كانت تمثل عمقاً أكثر، فهى فى موقع متوسط بين عدة مناطق فى شمال ، وشمال غرب ، وغرب القارة ومركز هام لإلتقاء القوافل [٢].

وقد أرجع البعض ذلك إلى أن السنوسى ـ وكان قد قارب العقد السابع من عمره ـ وجد فى هذا المكان البعيد مجالاً أوسع للتعبـــد والدراسة والرياضة الروحية .

وباستقرار السنوسى فى الجغبوب أصبحت لها مكانة خاصة وافتتحت طرق جديدة للتجارة بين الكفرة والجغبوب وبينها وبين الواحات الأخرى فى صحراء مصر الغربية [٣].

وقد أخذ عدد الزوايا السنوسية يزداد ويتضاعف بزيادة أتباعها والمنضمين إليها . وهناك خلاف كبير فى تقدير عدد المنتمين للحركة السنوسية ، وقد قدر

---

(١) Adams: Op. cit. P. 9

(٢) Pritchard, Evans : Op. cit. P.P. 15—16

(٣) Cumning, D.C.: The Modern History of Cyrenaica (N.D.) P. 19

عدد الزوايا فى أوج قوة الحركة السنوسية بثلثمائة ، والبعض أعطى أرقاماً غير ذلك ـ ولعل هناك مبالغة فى هذا العدد قصد بها التهويل من أمرها وإثارة المخاوف منها[١] .

ويلاحظ أن معظم الزوايا السنوسية أقيم فى الصحارى بين البدو ، وما أسس فى مدن شمال أفريقيا كان ضئيلا . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن مجتمع البدو كان أكثر ملاءمة للسنوسية من مجتمع المدن بالإضافة إلى الرغبة فى البعد عن السلطات الحاكمة .

ولعل إلقاء بعض الضوء على (زاوية الجغبوب) يعطينا فكرة عن الزاوية السنوسية وعن حياة السنوسيين ونشاطهم وأهدافهم .

كانت الجغبوب قبل أن يستقر بها السنوسى ويعمرها مجرد واحة غير مأهولة تفتقر إلى الماء الكافى للرى ، وكانت مأوى لقطاع الطرق ـ لكن تغير حالها تماماً منذ بنيت بها الزاوية السنوسية فأصبحت خلية عامرة بالنشاط والحيوية

وتشتمل الزاوية على عدة مبانى من أهمها المسجد ، والمدرسة . وكان مسجدها يسع حوالى خمسمائة متعبد ، أما التلاميذ الذين كانوا يدرسون بها فقد قدر عددهم بحوالى ثلاثمائة تلميذ .

وتشتمل الزاوية على (مضافة) تحوى أماكن فسيحة لإيواء التجار والزوار والمسافرين ، ويقضى المسافر عادة فى بيت الضيافة ثلاثة أيام حسب العرف عند العرب ، هذا بالإضافة إلى قاعات كبيرة يحفظ فيها التجار بضائعهم ومتاجرهم وعرصات يحتفظ فيها بالإبل وقد حفر بئران لسد حاجات سكان الزاوية من الماء .

وبالزواية منازل للمدرسين وطواحين للغلال ، وتحاط الزاوية بسور تعلوه حصون وأبراج لدفع أى هجوم على الزاويه إذا تعرضت لأى خطر[٢] .

---

(١) Duveyrier H. : Le Confrerie Musulmane de Sidi Mohamed ben Ali Senousi et son Domaine Geographique (Paris 1886) P.P. 57—58

(٢) Wingate, F.R. : Mahdism and the Egyptian Sudan (1891) P. 4

وقد اختلف الكتاب فى تقدير كثافة السكان بالجغبوب بعد أن عمرت ، فقدر قدرها البعض بسبعة الآف نسمة[١] ، بينما قدرها آخرون بألف نسمة فقط ، بالإضافة إلى عدد من العبيد كان يشتريهم السنوسى ويعتقهم لكنهم يبقون فى خدمة الزاوية[٢] .

وكانت مهمة التعليم فى الزاوية تسند إلى معلم خاص ، يقوم بإعداد الدارسين إعداداً كاملاً ليكونوا أكفاء لنشر تعاليم السنوسية ومبادئها فى المناطق الأخرى التى يرى رئيس الدعوة نشرها فيها .

وكان إمام المسجد يؤم المصلين ، لكن شيخ الزواية كان عادة هو الذى يؤم المصلين فى يوم الجمعة . وكان يطلق على الذين أخذوا الطريقة السنوسية وتمسكوا بوردها كما ذكرها السنوسى فى مؤلفه السلسبيل المعين ـ لفظ (الأخوان) أو (المريدين)[٣] . وقد أعطانا الأشهب صورة كاملة للنظام الذى كانت تسير عليه الزاوية السنوسية وواجبات كل فرد فيها . وحسب هذا النظام كان يجتمع فى الزاوية من حين لآخر المجلس الذى يعاون رئيس الزاوية ، وهو يتكون من وكيل الزاوية وشيوخ القبائل المرتبطة بالزاوية ووجهاء المحاورين ، وذلك لفض المنازعات والبت فى الشئون المتعلقة بالزاوية من زراعة أو رعى أو تشغيل العمال[٤] .

هذا وقد كان الإخوان يتعاونون عادة فى العناية بالأرض المحيطة بالزاوية واستثمارها فتقوم كل جماعه بالعمل أياماً معينة[٥] .

---

(١) White, Arthur Silva : From Spinx to Oracle through the libyan Desert. (London—1899) p. 122

(٢) Pritchad, Evans : Op. cit. P. 16

(٣) السنوسى ، محمد بن على : السلسبيل المعين فى الطريق الأربعين (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ ت) .

(٤) الأشهب : السنوسى الكبير ص ٣٠ — ٣٢ .

(٥) نيقولا زيادة : مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

وكانت موارد الزاوية تأتى عن طريق التجارة ، والزراعة ، والرعى ، والهبات الخيرية، والزكاة الشرعية وماترسله الزوايا الأخرى سنوياً من سلع عينية وغيرها ، فقد كان الفائض من كل زاوية يرسل جزء منه إلى مركز السنوسية للصرف منه على شئون الدعوة .

هذا وللسنوسى الكبير عدة مؤلفات شرح فيها المبادىء الرئيسية لمذهبه، لكن فقد الكثير منها بسبب العدوان الإيطالى والفرنسى على المغرب العربى ، ومعظمها تآليف فى الفقه والصوفية . وقد اهتم حفيده السيد ادريس بطبع بعض هذه المؤلفات والبعض مازال مخطوطاً[1] . وكانت وفاة السنوسى الكبير فى ٩ صفر ١٢٧٦ هـ ٧ سبتمبر ١٨٥٩ م ، ودفن فى الجغبوب فى ضريح فخم ،وبذا أصبح هذا الضريح مزاراً ومركزاً للحج والتبرك ، وكان هذا من الأشياء التى فتحت الباب لكثير من النقد الذى وجه للسنوسية[2] .

وكان السنوسى الكبير قبل وفاته قد هيأ الأمر لإبنه المهدى[3] .

فترة السيد محمد المهدى (١٨٥٩ — ١٩٠٢) :

كان السيد محمد المهدى حدثاً فى سن الخامسة عشرة عند وفاة والده ،فأقيم مجلس وصاية عليه من عشرة شيوخ يتولى شئون السنوسية حتى يبلغ المهدى الرشد[4]

(١) مما طبع :

ا — إيقاظ الوسنان بالعمل بالحديث والقرآن (القاهرة ١٩٣٨) .
ب — الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية (القاهرة ١٣٤٣ هـ) .
جـ — المسائل العشر (المسمى بغية المقاصد وخلاصة المراصد) (القاهرة ١٣٠٣هـ) .
د — مقدمة موطأ الإمام مالك (القاهرة ١٣٨٥ هـ) .
هـ — المسلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (القاهرة ١٣٥٧) .

ومن المخطوطات :

ا — السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين (بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ ت) .
ب — المنهل الرايق فى أصول الطرائق (بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٥ — مصطلح حديث تيمور) .

(٢) Adams, C.C. : Op. cit. P. 10
(٣) Rinn, Louis : Op. cit. P. 494
(٤) Pritchard, Evans : Op. cit P. 20

لكن كانت فترة زعامة المهدى للحركة فترة مناسبة وكافية لأن تبلغ الحركة مداها وتحقق الكثير من أهدافها . وفى هذه الفترة انتقل مركز الحركة من الجغبوب إلى (الكفرة) فى ظروف سنشير إليها بإيضاح فيما بعد .

وكان اتجاه السنوسية منذ البداية ـ كما رأينا ـ أن يبتعدوا بحركتهم وأتباعهم عن مجال السياسة ، وذلك ليتاح لهم مجال العمل دون الإصطدام بالسلطات الحاكمة أو بالقوى المتصارعة ، لكن كما سنرى إن السنوسيين لم يستطيعوا الإستمرار فى هذا الخط إلى النهاية .

وقد حاولت أكثر من دولة (المانيا ، وإيطاليا بصفة خاصة) أن تستعين بالسنوسيين ضد أعدائها ـ لكنها لم تنجح فى جرهم للزج بأنفسهم فى ميدان السياسة . ويشير بعض الكتاب فى هذا المجال إلى أن (الأخوان) كانوا ممنوعين من مناقشة المسائل السياسية ، وأنهم كانوا يتحاشون مامن شأنه أن يسىء لعلاقتهم مع الدول الأوروبية أو مع جيرانهم[1] .

هذا على أن البعض يعتقد أنه كان لهم نشاط سياسى فى الخفاء فى معاضدة ومساندة الحركات الوطنية فى الجزائر وتونس وفى غيرها من البلاد العربية[2] .

بل يذهب (دوفريه) إلى القول بأن السنوسيين كان لهم عملاء فى مختلف المدن بل والمصالح الحكومية فى الشمال الإفريقى كله ، وأنهم كانوا وراء الكثير من حركات المقاومة للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين ، بل لقد أشار البعض إلى أنهم كانوا وراء الكثير من أحداث إغتيال وقتل الأوروبيين من مبشرين ومستكشفين وغيرهم فى أنحاء متباعدة من أفريقيا[3] .

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية ـ فقد شعرت بشىء من الإرتياح والهدوء منذ استقر السنوسى الكبير فى برقة تلك الولاية التى كانت تنظر الدولة إليها

---

(١) Pritchard, Evans: Op. cit. P.P. 23—25

(٢) Rinn, Louis : Op. cit. P. 507

(٣) Duveyrier : Op. cit. P.P. 13—14

على أنها ولاية فقيرة، وفى نفس الوقت كانت كثيراً ماتموج بأعمال السلب والنهب والإضطرابات بسبب القحط وبسبب لجوء عصابات الخارجين عن القانون إليها . . . لكن نجح السنوسى فى إستمالة الأهالى إليه ، فاستتب الأمن فى المنطقة وانتظم دفع الجزية السنوية لاستامبول ، حتى أن السلطان عبد المجيد أصدر سنة ١٨٥٦ فرمانا يستثنى ممتلكات السنوسيين من الضرائب ويسمح لهم بجمع العشور الدينية من أتباعهم ،كما أصدر السلطان عبد العزيز فرماناً ثانياً بهذا الخصوص[١] .

لكن لم يستمر الأمر بين السنوسيين والعثمانيين على هذا المنوال . فقد امتنع المهدى فى عام ١٨٧٧ م عن تقديم العون للسلطان فى حربه ضد روسيا ، كما أن الدولة العثمانية كما يبدو أخذت ترتاب فى نوايا السنوسيين وأهدافهم ، فأرسلت من رجالها من يقوم بزيارة المهدى فى الجغبوب وفى نفس الوقت يحاول أن يتكشف جلية الأمر . ولعل زيارة صادق باشا المؤيد سنة ١٨٨٦ ، وزيارة رشيد باشا وإلى بنغازى سنة ١٨٩٠ كانت تهدف لهذا الغرض - خاصة أن هذا الأخير أشار فى حديثه مع المهدى إلى أن السلطان يعتقد بوجود خزائن مملوءة بالأسلحة لدى السنوسيين ، وأن المهدى قام لفوره بفتح خزائن الكتب أمام رشيد باشا وقال له « هذه هى خزائننا»[٢] .

ومما يلفت النظر أن انتقال المهدى إلى (الكفره) جاء عقب هذه الزيارة مباشرة .

وأستمر الشك قائماً - كما يبدو - بين الدولة العثمانية والسنوسيين . لكن استمر السنوسيون أيضاً يخطبون وُد السلطان العثمانى ، ويظهرون أنهم ليست لهم أهداف سياسية ، وكانت الخلافة العثمانية بسبب ماوصلت إليه من ضعف، وبسبب أطماع الاوربيين وإنقضاضهم على أملاك الدولة -مضطرة لأن تتغاضى عما يشاع عن نوايا السنوسيين .

---

(١) شكرى ، محمد فؤاد : مرجع سابق ص ٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٩ .

هذا على أنه فى الوقت الذى توفى فيه السيد المهدى فى عام ١٩٠٢ كانت السنوسية قد بلغت الذروة فى الإنتشار وكان لها وقتئذ العديد من الزوايا فى ليبيا وفى مصر والسودان وبلاد العرب[١] وكانت معظم هذه الزوايا فى أماكن ذات قيمة تجارية وإدارية وحربية ، كما كانت هذه الزوايا محكمة فى إرتباطها بعضها بالبعض الآخر ، وفى اتصالها بالمركز العام للسنوسية . ولذا فقد ذكر البعض أن السنوسية كانت فى الحقيقة تمثل إمبراطورية داخل الامبراطورية العثمانية (٢) .

فترة السيد أحمد الشريف (١٩٠٢ — ١٩١٨) :

لما توفى السيد المهدى ـ كان ابنه السيد محمد إدريس(٣) حدثاً فانتقلت رياسة السنوسية إلى السيد أحمد الشريف .

وبذلك يلاحظ تتابع الوراثة فى الإبن الأكبر . وكان هذا موضع تهكم من المؤرخين الغربيين ومشارشك فى أهداف السنوسية — فمن المعروف أن التصوف والوراثة الدموية أمران متناقضان، لأن المشيخة مفروض إنها نتيجة جهاد وسلوك معينين وليست بالوراثة .

هذا وقد انقضت الفترة الأولى من رئاسة السيد أحمد الشريف — فى كفاح مرير ضد الفرنسيين الذين كانوا قد ثبتوا أقدمهم فى غرب أفريقيا وأخذوا يتوغلون فى الداخل لتوسيع الرقعة الخاصة بهم . وواجه الفرنسيون فى تقدمهم هذا من الغرب صوب نهر النيجر ممالك أسلامية وقف ملوكها فى وجه المستعمرين .

---

(١) يقدرها نيقولا زيادة بـ ١٤٦ زاوية (منها ٤٥ فى برقة ، ٢٨ و طرابلس ، ١٥ فى فزان ، ٦ فى الكفرة ، ٢١ فى مصر ، ١٤ فى السودان ، ١٧ فى بلاد العرب)
نيقولا زيادة : مرجع سابق ص ٧٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣) الذى أصبح ملكاً لليبيا فيما بعد فى عام ١٩١٨ .

لكن تمكن الفرنسيون من مد نفوذهم فى حوض النيجر الأعلى والأوسط وأخذوا منذ عام ١٨٦٨ يعملون لمد نفوذهم شرقا، فأرسلوا ثلاث حملات إحداها من الجزائر، والثانية من الكونغو الفرنسى، والثالثة من السنغال . وأصطدم الفرنسيون فى زحفهم شرقاً صوب سودان وادى النيل بقوات رابح الزبير الذى كان فى الأصل من قواد الزبير باشا رحمت ، لكنه كان قد أنفصل بقواته وإتجه غرباً، وأحتل مقاطعات من دارفور ثم إتجه نحو باجرمى (Bagirmi) وأستطاع إخضاع سلطنة برنو (Bornu) لنفوذه وبذا كون مملكة قوية وإتخذ مدينة (دكوة) جنوب بحيرة تشاد عاصمة له، لكن أستطاع الفرنسيون أن يوقعوا الهزيمة بقوات رابح بالقرب من بحيرة تشاد وظلوا حتى أوائل عام ١٩٠٢ حين أستتب لهم الأمر على حدود برنو (١) .

بعد ذلك أخذ الفرنسيون فى الزحف شرقا تجاه السودان، وفى ذلك الوقت كان السنوسيون مرتبطين بعلاقات مع حاكم واداى ، وكانت لهم زاوية فى (بيوعلالى)، فكان هجوم الفرنسيين فى يناير ١٩٠٢ على هذه الزاوية السنوسية بداية الصدام بينهما ، فأعلن المهدى الجهاد المقدس ضد الفرنسيين . وبعد معركة طاحنة إحتل الفرنسيون الزاوية المذكورة وكان المهدى قد توفى فى ذلك الوقت فأستأنف أحمد الشريف القتال ضد الفرنسيين(٢).

وحدث صدام فى ١٩٠٤ بين قوات واداى تعززها قوات السنوسيين وبين الفرنسيين عند نهر شارى (Shari) الذى يصب فى بحيرة تشاد ، ونجح الفرنسيون بعد ذلك فى احتلال (وادى) وأقاموا على عرشها حاكماً من الموالين لهم، وخسر الفرنسيون فى هذه المعارك الكثير من جنودهم وقوادهم، لكنهم باخضاعهم (باجرمى) ، وواداى أمنوا وجودهم فى كانم .

---

(١) للدراسة التفصيلية لنشاط الفرنسيين الاستعمارى هنا انظر :
شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقيا وأستعمارها (القاهرة ١٩٧٠) ص ٤٩٣ — ٥٠٣ .

(٢) Forbes, Rosita: The Secret of the Sahara Kufara (London 1921) p. 328

واستمر النضال ، والمناوشات بين الفرنسيين والسنوسيين والقوات الوطنية فى هذه الجهات حتى عام ١٩١١ حين أضطر السنوسيون للإنسحاب للشمال تاركين الجنوب للفرنسيين ، فقد كان على السنوسيين أن يواجهوا عدواً أخطر — إذ شغلوا من ذلك الوقت بالكفاح ضد الإيطاليين فى ليبيا ، بينما أضطر الفرنسيون للوقوف عند حدود برقة الجنوبية بسبب ارتباطاتهم الدولية التى عاقت حركتهم أكثر من ذلك[١] .

وقد شغل السيد أحمد الشريف فى السنوات من ١٩١١ إلى ١٩١٨ بالكفاح ضد الإيطاليين الذين غزوا ليبيا .

وستتعرض لهذه الفترة ولكفاح السنوسيين فيها ضد الغزاة الإيطاليين فيما بعد عند الحديث عن الغزو الإيطالى لليبيا ـ مراعاة لوحدة الموضوع .

وفى عام ١٩١٨ اعتزل السيد أحمد الشريف زعامة الحركة واتجه إلى تركيا فالحجاز حيث توفى فى عام ١٩٣٣ م .

---

(١) Pritchard, Evans : Op. cit. p. 102

الباب الثاني

المغرب الأقصى

(منذ بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر)

الفصل السادس : الدولة السعدية

الفصل السابع : الدولة العلوية

الفصل السادس

الدولة السعدية (١٥٠٩ – ١٦٤٠)

يذهب السعديون إلى أنهم من أولاد علي بن أبي طالب ، وقد قال بعض المؤرخين بصحة هذا النسب[1] ، بينما أنكره آخرون وقالوا إنهم عرب من بني سعد بن بكر ولذا سموا بالسعديين (٢) ، ويقول البعض إنهم سموا بهذا الإسم لأن البلاد سعدت بهم ، ولا يرضى السعديون بهذا القول لأنه يبعدهم عن نسبة الشرف التي يحرصون عليها جد الحرص.

وقد بدأ نفوذ السعديين في بلاد (درعه) والسوس الأقصى وكان ظهورهم في وقت كانت الشواطيء المغربية فيه عرضة لأطماع البرتغاليين والأسبان ، بينما كانت الدولة الوطاسية قد وصلت إلى درجة من الضعف بحيث أصبحت عاجزة عن رد الأعداء الذين أخذوا يستولون على الثغور المغربيه الواحد تلو الآخر .

---

(١) حقي ، إحسان : المغرب العربي مرجع سابق ص ١٠٩

والاستقصاء (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٥) جـ ٥ ص ٣ (المؤلف هو الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ـ من مواليد سلا ، وهذه الطبعة في تسعة أجزاء تناول المؤلف فيها تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي حتى وفاته سنة ١٨٦٣م . وللتعريف الكامل بالمؤلف انظر الجزء الأول من كتابه ص : ٩ـ٥٤) .

(٢) ذكر ذلك المقري ، أبي العباس أحمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب (بولاق ١٢٧٩ هـ ـ ١٨٦٢ ، أربعة أجزاء) . .

(٣) أنظر . مؤلف مجهول : تأريخ الدولة السعدية الدرعية التأكامدرتية(نشر جورج كولان ـ ١٩٣٤) ص ٢ ـ ٥ .

(ولهذا الكتاب أهمية خاصة لأن معظم ما كتب عن الدولة السعدية كتب والدولة قائمة ـ فكما يقول الناشر إن هؤلاء الكتاب لم يكشفوا لنا إلا عن شطر واحد من شطري المنظر)

انظر مقدمة الناشر

ملاحظة : استعن بالخرائط رقم ١ ، ٨ ، ١١ بملحق الكتاب .

فالتفت القلوب حول (ابى عبد الله الملقب بالقائم بأمر الله) وبايعوه بالإمارة سنة (٩١٥ ﻫ — ١٥٠٩ م) فأخذ يعد العدة لتصفية الدولة الوطاسية وتثبيت أركان دولته حتى يستطيع التفرغ لمقاومة البرتغال .

وأخذت الوفود ترد إلى أبى عبد الله محمد السعدى — تبايعه وتشكو مما تتعرض له نتيجة هجوم البرتغال على البلاد ونهبها دون أن يجدوا من يقف فى وجههم ، فنهض من سوس إلى بلاد (حاحة) حيث نزل (بأفغال) وظل هناك يعد العدة لمقابلة العدو إلى أن ادركته الوفاة سنة ٩٢٣ ﻫ ١٥١٧ م (١) فتولى الأمر بعده ابنه (أبو العباس أحمد — الذى عرف بالأعرج) وكان قد بويع بولاية العهد فى حياة ابيه فجددت له البيعة بعد وفاته ، واجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وأتوه طاعتهم — كما يقول صاحب الاستقصاء — عن رضا منهم فأستقام أمره ، واستطاع أن يصرف عزمه إلى تمهيد البلاد ، وإقتناء الأجناد وتعبئة الجيوش إلى الثغور وشن الغارات على العـــدو فى الإقبال والبكور (٢) .

ومن وثائق الأرشيف البرتغالى يتضح أن أبا العباس أحمد لجأ فى البداية ، إلى عقد معاهدة سلام مع (جيان الثالث) ملك البرتغال — لكن بعد أن أستتب له الأمر بدأ يناوشهم ويشكو من نقضهم للإتفاق السابق (٣) .

وقد أحرز السلطان أبو العباس الأعرج انتصارات عظيمة على المستعمرين الطامعين فى (تلمست) و (آسفى) وغيرهما من الأماكن التى كانوا

---

(١) الاستقصاء ﺟ ٥ (طبعة الدار البيضاء) ص ١٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) عن العلاقات مع البرتغال هناك مجموعة من المراسلات بينه وبين جيان الثالث وكذلك نص اتفاقية الصلح بينهما أنظر :

Archives Nationales de La Torre do Tombo – Gaveta 20 Maco 4e No. 11 and 24.

قد أستقروا بها [١] فانتشر بذلك ذكره وكاتبه أمراء (هنتاته) ولاة مراكش يخطبون وده ويطلبون الدخول فى طاعته ، فأجاب طلبهم وأنتقل إلى مراكش فدخلها فى عام (٩٣٠ هـ - ١٥٢٣ م) ، وقد أثار هذا النصر حفيظة الوطاسيين فخشوا على ما بقى لهم من نفوذ فى فاس ونواحيها فالتجأوا لمحاربته فكانت لهم معه معارك متعددة .

هذا وقد كان أبو عبد الله محمد الشيخ - الشقيق الأصغر لأبى العباس الأعرج - والياً على سوس فى عهد أبيه وبقى كذلك حين ولى الأمر أخوه أبو العباسى الأعرج ، وكانت القبائل السوسيه تكن له الولاء والاحترام فقد نشأ بين أظهرهم وسبروه وعرفوا نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند إنتقاله إلى أفغال . وكان أخوه السلطان أبو العباس يستشيره فى أمور الدولة ، فكانت كلمتهما واحدة - إلى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأقتضى الحال إلى القتال بينهما ، وأنقسم الجند حزبين انصرفت كل طائفة إلى متبوعها وصاحب أمرها وتفاتلا مدة وأنتهى الأمر بأن غلب أبو عبد الله محمد - الشيخ على أخيه أبى العباس وقبض عليه وأستولى على ما بيده وأودعه هو وأولاده السجن وأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان والياً من قبل أخيه وكان ذلك سنة ٩٤٦ هـ [٢] .

وقد حفلت فترة حكم أبى عبد الله الشيخ (٩٤٦ - ٩٦٤ هـ) - (١٥٣٩ - ١٥٥٦ م) بالنشاط . فمن جهة البرتغال واصل الجهاد ونجح فى طردهم من حصن فونتى (٩٤٧ هـ) بعد أن كانوا قد أقاموا فيه إثنتين وسبعين سنة . وأختط أبو عبد الله الشيخ بالقرب من فونتى حصن (أكادير) . هذا على أن البرتغال إزاء شعورهم بما يهددهم من خطر . أضطروا لإخلاء (أسفى) و (آزمور) و (آصيلا) من غير قتال (٩٤٨ هـ - ١٥٤٢ م) [٣] .

وبعد أن أطمأن أبو عبد الله الشيخ من ناحية البرتغال ، وبعد أن أستقرت

---

(١) أنظر ما ذكرناه فى الباب الثانى عند دراسة الأطماع البرتغالية فى المغرب العربى استناداً لوثائق الأرشيف البرتغالى نفسها .

(٢) الاستقصاء جـ ٥ ص ١٧ ، ١٨ .

(٣) أنظر ما سبق أن ذكرنا عن تصفية الوجود البرتغالى .

له الامور فى مراكش - إتجه إلى مد نفوذه على باقى بلاد المغرب ، فخرج موليأ وجهه صوب الشمال يفتح البلاد ويستولى على القرى والأمصار حتى وصل إلى (فاس) مقر الوطاسيين فحاصرها نحو السنة إلى أن دخلها سنة ٩٥٦ هـ — ١٥٤٩ م ، وقبض على بقايا الوطاسيين وبعث بهم إلى مراكش عدا (أباحسون) فقدفر إلى الجزائر مستجيراً بالأتراك بها . كما اتصل بشارل الخامس (Charles Quint) الإمبراطور الأسبانى يستنجد به لإسترجاع عرشه (١).

كما أن هناك مراسلات بين أبى حسون والأمير فيليب ولى العهد الأسبانى الذى أصبح ملكا على إسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨م) بهذا الشأن (٢) .

وعكف أبو عبد الله الشيخ بعد ذلك على تنظيم شؤون مملكته ، فنظم الضرائب لضمان المساواة والعدالة بين الأهالى، كما تم فى عهده تشييد عدة جسور على الأنهار الرئيسية فى المغرب (جسر سبو ، وجسر وادى أم الربيع) .

وقد كان أبو عبد الله الشيخ رجل دولة بالمعنى الصحيح،كان متمرساً بالحروب قادراً عليها، مهيباً ذا شخصية قوية، طاغية طويل الأناة والصبر، كثير الأمل، متفقها راسخاً فى العلم، عالما بالشريعة - يحفظ القرآن ويفهمه. ولم يكن يعيبه إلا أنه كان قاسياً مسرفا فى القسوة، قتل الفقيه (أبى على حرزوز) خطيب مكناس حين بلغه إنه كان فى خطبه يحذر الناس من الإنقياد إليه، ولما بلغه أن الفقيه (عبد الوهاب الزقاق) كان يميل إلى أبى حسون وينصره ، وأنه كان يرى فى خروج السعديين على الوطاسيين تفريقاً لكلمة المسلمين أمر بالقبض عليه ،وكانت محاكمة قصيرة رائعة .. سأله السلطان أختر بأى شىء تموت .. فأجابه الفقيه .. أختر أنت لنفسك .. فإن المرء مقتول بما قتل به- فأمر السلطان بقطع رأسه (بشاتور)(٣) .

---

(١) أفاض مؤلف تاريخ الدولة السعدية فى ذكر الأحداث المتصلة بحصار السلطان أبى عبد الله الشيخ لفاس وقبضه على الوطاسيين ونقلهم إلى مراكش وتنكيله بالفقهاء الذين ظلوا لآخر لحظة متمسكين ببيعة الوطاسيين .

أنظر الكتاب المذكور (نشر جورج كولان) ص ٥ — ١٥ .

(٢) أما عن الاتصالات بين (أبى حسون) والأسبان فان الأرشيف الأسبانى يزخر بالعديد من المراسلات فى هذا الشأن — أنظر:

Archivo General de Simancas—Estado—Legazo 474 & 477

(٣) تاريخ الدولة السعدية — ص ٢٢ ، ٢٣ .

على أن العلاقات بين المغرب والأتراك العثمانيين الذين كانوا قد وطدوا نفوذهم فى الجزائر ، وتونس ، وطرابلس بالإضافة إلى مصر - إزدادت توتراً بعد أن فر ابوحسون الوطاسى مستجيراً بهم وبدأ الصـــدام بين المغرب والأتراك حين تقدم أبو عبد الله الشيخ إلى (تلمســان) ، وكان الأتراك قد أستولوا عليها فحاصرها تسعة أشهر ودخلها سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م لـكن عاود الأتراك الـكرة وطردوه منها فتركها على أن يعاود غزوها فى فرصة أخرى مناسبة (١) .

وقد بعث الأتراك الفقيه (أبا عبد الله محمد بن على الخروبى) سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م لمفاوضة السلطان أبى عبد الله الشيخ لعقد هدنة بين الدولتين وعقد إتفاق لتحديد مناطق الحدود بينهما - لـكن لم تسفر هذه المفاوضات عن نتيجة - فلجأ الأتراك للحرب ، منتهزين فرصة وجود أبى حسون الوطاسى بالجزائر فأمدوه بقوة لمحاربة أبى عبد الله الشيخ وإثارة الفتن فى بلاده، وكان لأبى حسون أعوان فى فاس وغيرها من مدن المغرب يمدونه بمعلومات عن الأوضاع هناك . (٢) ونجح أبو حسون بعد معارك طاحنة فى دخول فاس عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م وفر أبو عبد الله الشيخ إلى مرا كش حيث استنفر قبائل السوس لمعاونته على قتال عدوه، وخرج بجيش استطاع به أن يستعيد فاس ويقتل أباحسون وبذا صفا له أمر المغرب .

---

(١) ملاحظة :

كان التنافس على السلطة فى تلمسان شديداً بين أفراد الأسرة الزيانية والعثمانيين وحكام فاس — وهناك العديد من الوثائق بهذا الخصوص فى الأرشيف الأسبانى .

أنظر مثلا : خطاب (مولاى الناصر بن مولاى عبد الله) من المطالبين بعرش تلمسان إلى شارل الخامس الإمبراطور الأسبانى طالباً المعونة ضد الأتراك لإسترجاع عرش أبائه (ربيع الأول ٩٦٢هـ — ١٥٥٥م) .

أنظر :

Archivo General de Simancas—Estado Legazo 449, Fol. 123—124.

(٢) أنظر خطاب (Bartolomé Dorader) من مليله بتاريخ ٢٧ يناير ١٥٥٣ للأمير فيليب يفيده أن « أبا حسون لجأ إلى الباب العالى عن طريق باشا الجزائر طالبا النجدة بعد أن يئس من معاونة الأسبان له : Estado Legazo 478. fol. 153

لكن العلاقات بين السلطان العثمانى سليمان القانونى والحاكم المغربى أبى عبد الله الشيخ ظلت بعد هذه الأحداث تتسم بالتوتر .

وقد بدأت الدولة العثمانيه بأن حاولت أن تجس النبض فبعثت رسولا إلى المغرب ، وكان السلطان المغربى فى (تارودانت) فسافر إليه الرسول وسلمه رسالة من السلطان سليمان العثمانى مكتوبة بالتركية يهنىء فيها أبا عبد الله الشيخ بما أحرزه من أنتصارات ويطلب منه أن يدعو له على منابر (المغرب) بصفته صاحب السلطة الشرعية الأولى فى البلاد الإسلامية وأن يكتب أسمه على العملة . ويقال إن أبا عبد الله الشيخ لم يرد على رسالة السلطان العثمانى برسالة مكتوبة لكنه أكتفى بأن قال لرسوله :

« لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب » - كما كان يسمي السلطان العثمانى » [١].

فى هذه الأثناء حل بالمغرب بضعة عشر رجلا من ضباط الجيش التركى بالجزائر إدعوا إنهم ضاقوا ذرعاً بحياتهم فى الجيش العثمانى فأدخلهم رئيس الفرقة التركية بالجيش المغربى - على (أبى عبد الله الشيخ) فافاضوا فى شرح قضيتهم ، فأحسن الحاكم المغربى بهم الظن ، وأصبحوا موضع ثقته يبعث بهم برسائله إلى القواد والأمراء . وحدث أن كان الحاكم المغربى فى إحدى تحركاته بجبل درن فى موضع يقال له (أكلكال) بالقرب من (تارودانت) وكان نائماً فى خبائه ، وأستيقظ الضباط والجنود فى يوم الأربعاء ٢٩ من ذى الحجة عام ٩٦٤ هـ ليسمعوا النبأ .. لقد قتل أبى عبد الله الشيخ ، لقد قطع رأسه بشاتور ، والتفت الجميع بحثاً عن الضباط الأتراك الذين كان الحاكم المغربى قد وضع ثقته فيهم فلم يجدوا لهم أثراً . لقد هربوا بعد أن أدوا المهمة التى كانوا قد جاءوا من أجلها ، وفى القسطنطينية بعد ذلك فتحت مخلاة كان فيها ملح ونخاله ، ورأس أبى عبد الله الشيخ فعلقت على باب القلعة . ويقول اليفرانى

---

(١) الاستقصاء جـ ٥ ص ٣٢ ، ١١٥ وتاريخ الدولة السعدية ص ٢٧ .

عن أبي عبد الله الشيخ «إنه حمل إلى مراكش بغير رأس فدفن قبلة جامع المنصور في قبور الأشراف هناك وقبره مشهور»[1].

وبعد مقتل أبي عبد الله الشيخ بويع ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم واتته بيعة مراكش. وكان على السلطان الجديد أن يواجه أطماع الاتراك العثمانيين بالإضافة إلى قتال المستعمرين البرتغال.

وفي عام (٩٦٥هـ - ١٥٥٧م) تحرك حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف وصل إلى قرب عمالة فاس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب بالله وانجلت المعركة عن هزيمة الاتراك وفرار حسن بن خير الدين إلى (بادس) وكانت في ذلك الوقت بيد الاتراك.[2]

وقد أرسل السلطان الغالب لعماله على الأقاليم وفي الثغور بهذا النصر الذي أحرزه[3].

وحاول السلطان الغالب بالله في عام (٩٦٩هـ / ١٥٦١م) - أنتزاع حصن البريجة (الجديدة) من البرتغال فحاصرها ٦٤ يوماً لكن أضطر المسلمون رغم ما أبدوه من بسالة لفك الحصار[4].

---

(١) اليفراني، أبو عبد الله محمد الصغير: نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي (مطبوع على الحجر بفاس — دون تاريخ وهناك طبعة له أخرى بباريس مع ترجمة فرنسية — لهوداس سنة ١٨٨٨).

وانظر قصة هذه المؤامرة كما يرويها صاحب تاريخ، الدولة السعدية ص ٢٧ — ٣٠.

(٢) أستولى الأسبان بعد ذلك على حجر (بادس) أنظر الاستقصاء ص ٤٩ وانظر تقرير حاكم سبتة عن هذه المعركة في يونيه ١٥٥٧.

Archivo General de Simancas—Estado Legazo 377 fol. 127

(٣) خطابات السلطان الغالب بالله لعبد الله بن احمد قائد (أزمور) وغيره من العمال المغاربة بالاقاليم (مؤرخ ١٧ جمادى الثاني ٩٦٥ — أبريل ١٥٥٦).

Archivo General de Simancas—Estado—Legazo 484. fol. 3

(٤) أشرنا من قبل عند دراسة الأطماع البرتغالية في المغرب — إلى ما أوردته المصادر البرتغالية عن هذه المعركة — ينسب صاحب كتاب «تاريخ الدولة السعدية» للغالب بالله إنه باع (بادس) للنصارى، وأسلم لهم (البريجة) وتخاذل عن نصرة المسلمين بالأندلس — لكن لا يوجد ما يؤيد ذلك.

انظر الكتاب المذكور ص ٣٨ — ٤٠.

ومن مشاريع الغالب بالله العمرانية تشييد جامع الأشراف بمراكش والمارستان الكبير، وتجديد بناء مدرسة أبن يوسف [١].

هذا ونشير إلى أنه كانت للمغرب مع إنجلترا - وغيرها من الدول التجارية علاقات، فقد كانت هذه الدول حريصة على تأمين تجارتها ورعاياها فى الثغور المغربية وإن كانت هذه العلاقات فى الحقيقة وصلت لأقصى حد من الإزدهار فى عهد أحمد المنصور الذهبي بعد الإنتصار المغربى الحاسم فى معركة وادى المخازن كما سنفصل بعد [٢].

وتوفى الغالب بالله فى عام (٩٨١ هـ - ١٥٧٤ م) فبويع إبنه السلطان أبو عبد الله المتوكل على الله، لكن لم تدم مدة حكمه طويلا، فقد نجح عمه أبو مروان عبد الملك — المعتصم بالله — بمعاونة الأتراك فى أن ينتزع منه الحكم فى عام (٩٨٣ هـ — ١٥٧٦ م).

والظروف التى انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه أبى مروان عبد الملك لها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين أو مع المستعمرين البرتغال والأسبان، فقد لجأ عبد الملك، وأخوه أحمد إلى تلمسان، حيث أقاما عند واليها حسن بن خير الدين خشية بطش أبى عبد الله المتوكل بهما، فقد عرف عنه ميله إلى سفك الدماء، وكانا على صلة بأتباعهما بالمغرب

---

(١) تنسب بعض المراجع إلى السلطان الغالب بناء هذه المدرسة بجوار جامع ابن يوسف اللمتونى — وهذا ليس بصحيح فالمدرسة سابقة لعهده، انشأها السلطان (أبو الحسن المرينى) وقد أشار إليها ابن بطوطة فى رحلته.

أنظر اليفرانى — المرجع السابق، والاستقصاء جـ ٥ ص ٣٩.

(٢) أنظر خطاب عبد الله الغالب إلى المملكة إليزابث المؤرخ أول جمادى الأول ٩٧٧ هـ — أكتوبر ١٥٦٩ بالأرشيف البريطانى :

British Museum — Cotton Mss, Nero B. VII. F. 67

وأنظر الجمل، شوقى : العلاقات الإنجليزية المغربية خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر (مجلة المناهل المغربية ـ العدد الثالث).

الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا لهم الجو المناسب . وقصد أبو مروان وأحمد المنصور بعد ذلك الجزائر ، ومنها توجها إلى القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان سليم العثمانى ليعينهما على الإستحواذ على السلطة بالمغرب[1]. وفى سنة ٩٨٣هـ سار عبد الملك وأخوه أحمد المنصور حتى أحواز فاس والتقيا بجيش ابن أخيهم (محمد المتوكل) وانتصرا عليه ولاذ المتوكل بالفرار ملتجئا إلى جبل (درن) . وكان دخول أبو مروان عبد الملك فاس فى السابع من ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة (٣١ مارس سنة ١٥٧٦ م) وبايعه أهلها وأجزل للجيش التركى العطاء ثم صرف الأتراك مكرمين ، ثم دخل مراكش فى عام ٩٨٤هـ/١٥٧٦ وبايعه أهلها أيضاً وبقى هو بمراكش بينما استخلف أخاه أحمد على فاس وأعمالها .

أما عبد الله المتوكل فقد عاود الكرة على مراكش ، لكنه لم يتمكن من اقتحام قصبتها ، وتكاثر عليه أتباع أبى مروان وأتباع أخيه أحمد الذى أسرع من فاس لنجدته ، وانتهى الأمر بفرار المتوكل إلى (طنجه) ومنها قصد ملك الأسبان فاستنجد به ضد عمه أبى مروان فلم ينجده فتوجه إلى بلاد البرتغال ليستنجد بملكها دون سبستيان (D Sebastian) .

موقعة وادى المخازن :

بعد أن خلصت البلاد لمولاى عبد الملك اتجه إلى تجديد القوة البحرية المغربية لحماية الثغور وتعقب الأعداء وتنشيط الحركة التجارية — هذا بالإضافة إلى

---

(١) تعددت الروايات عن الأحداث المرتبطة بهذه النجدة التركية بعد ذلك ضد المتوكل والدور الذى لعبه عبد الملك وأخوه احمد فى فتح تونس ، فقد أشار اليفرانى فى نزهة الحادى إلى أن فتح تونس كان سنة ٩٨٢ هـ بعد وفاة السلطان الغالب ، وهذا يخالف الحقيقة إذ أجمعت المراجع على أن ذلك الفتح تم قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر — أما القول بأن عبد الملك وأخاه كانا أول من بشر السلطان العثمانى بهذا النصر وأنه كافأهما على ذلك بأن بعث لوالى الجزائر ليبعث معهما خمسة الآلاف من عساكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الاقصى فقد يكون صحيحاً .

ملاحظة :

ناقش الاستقصاء هذه الآراء المختلفة — أنظر جـ ٥ ص ٦١ — ٦٤ وكذلك تاريخ الدولة السعدية ص ٤٥ وما بعدها .

الإهتمام بتأسيس قوة عسكرية نظامية قائمة ، وقد اتبع النظام التركى فى أساليبها ولباسها وسلاحها ومراتبها فى القيادة وحقق ذلك فى مدة قصيرة جداً[١] .

ويقول صاحب تاريخ الدوله السعديه « إن مولاى عبد الملك أمر بإنشاء السفن فى (العرائش) ، و (سلا) وضيق على النصارى أشد تضييق وكان يصرف مايغنمه منهم على جيشه »[٢] .

فى هذه الأثناء كان الملك دون سيبستيان (D.Sebastian) ملك البرتغال الشاب — وقد كان سنه آنذاك لايتجاوز أربعا وعشرين عاماً — تداعب أحلامه فكرة متابعة الحرب فى الشمال الأفريقى بهدف توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام. وقد زار الملك (سبته) فى عام ١٥٧٤ ليقف بنفسه على الأوضاع فى الثغور المغربية[٣] .

وكان المتوكل على الله قد التجأ إلى دون سيبستيان — كما ذكرنا — يستغيث به ويصور له الحالة فى المغرب على غير حقيقتها مدعياً أن له أنصاراً كثيرين به، ويلتزم بإعطائه كل الشواطىء ويكتفى هو بداخل البلاد بعد أن يتحقق له الانتصار المزعوم . فكان هذا مشجعاً للملك دون سيبستياه للقيام بالحملة الصليبية على شواطىء المغرب والتى طالما استحوذت على فكره[٤] .وقد حاول

---

(١) الفاسى ، محمد الفاسى : موقعة وادى المخازن الحاسمة ، مجلة البحث العلمى (التى يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط) العدد التاسع — ديسمبر ١٩٦٦ ص٢٢٢ .

(٢) تاريخ الدولة السعدية — لمؤلف مجهول ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) أنظر خطاب سبستيان إلى (D. Durate De Castelbranco) يحلل الاسباب التى تدعو للقيام بالعمليات الحربية ضد المغرب (مؤرخ ١١ أبريل ١٥٧٦) .
British Museum—Additional Mss, 28360 f. 26

(٤) يورد الاستقصاء ردود العلماء ، ورسائل أعيان المغرب للمتوكل حين بعث لهم يبرر ارتماءه فى احضان المستعمرين بشكث محمه ومن معه لبيعته ونقضها من غير موجب شرعى.

الملك البرتغالى إغراء خاله (فيليب الثانى) ملك أسبانيا للمشاركة فى هذه المغامرة دون جدوى ، وإن كان قــد وعد بإعانته بسبعة آلاف جندى من الأسبان والإيطاليين ومن الفاتـكان والألمان دون أن تشارك أسبانيا رسمياً فى هذه الحرب(١) .

وحين بلغت مولاى عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالى لهذه المعركة — أرسل له يثنيه عن هذه المغامرة ويبصره بعواقبها ويدعوه لتحكيم العقل وعدم الإنصياع لآراء المتهورين من رجال حاشيته ، وفى نفس الوقت كان أحمد المنصور يعبىء الجيش المغربى ويعد العدة الـكافية من رجال وعتاد . ووجد الحاكم المغربى فى هذه الآونة الحاسمة معاونة كاملة من أتباع الحركة الدينية الجزولية ورئيسها فى ذلك الوقت (ابى المحاسن يوسف الفاسى) ، فقد تطوع عدة آلاف منهم للدفاع عن البلاد، فتجمع تحت راية أبى مروان عبد الملك نحو ١٠٠٫٠٠٠ من المقاتلين من بينهم ٣٠٫٠٠٠ من الفرسان ، بينما قدر عدد الجنود البرتغاليين بـ ١٢٥٫٠٠٠ ؛ كما اشترك فى المعركة عدد كبير من السفن الحربية(٢) .

---

(١) British Museum—Additional Mss. 28359 F. 311

(٢) اختلفت المراجع اختلافاً بيناً فى عدد جنود كل من الفريقين . وقد أورد الاستقصاء ج ٥ ص ٦٩ الاقوال المتواترة عن أعداد جنود الفريقين .

— وقد قدر صاحب تأريخ الدولة السعدية عدد المسلمين بستة وثلاثين الفا والنصارى بضعفهم أو أكثر .. ص ٦٢.

— وأنظر تقارير المراسلين الأجانب عن الاستعدادات البرتغالية وبياناتهم عن هذه الحملة :

Public Record Office; State Papers. Foreign House Towns vol. 1. No. 44.

Public Record Office; State Papers. Foreign Portugal Vol. 1. No 11 & 11a. Copie Contemporaine.

خرجت السفن البرتغالية من لشبونة فى ٢٤ يونية سنة ١٥٧٨ ، ووصلت قادس فى ٢٩ من هذا الشهر ، ومنها أبحرت إلى طنجه فوصلتها فى ٨ يوليه من هذا العام ، واتجه البرتغاليون إلى أصيلا وكانوا قد وضعوا أيديهم عليها بمعاونة المتوكل على الله . وبقى الجيش البرتغالى فترة فى أصيلا — أتاحت فرصة للجيش المغربى ليكمل استعداداته، فقد أضاع سبستيان الوقت فى المناقشة فى الطريق الذى تسلكه الحملة : هل تحتل العرائش ثم القصر الكبير كما أشار بذلك رجاله وحليفه الخائن لبلاده المتوكل على الله ، أم تتخذ طريق البر ؟ وأخيراً استقر رأى الملك على أن تكون المعركة برية، وترجع بعض المراجع ذلك إلى رغبة الملك فى استعراض فروسته وبطولته .ونجح مولاى عبد الملك فى أن يستدرج الجيش الغازى إلى منطقة ناحية القصر الكبير فى مكان تكثر به الأنهار حيث ينصب وادى لوكس فى العرايش ويتصل به من الضفة اليمنى (وادى ريسانه) و (وادى المخازن) وهذا الأخير يمده من الضفة اليسرى (وادى وارور) .

وتابع جيش سبستيان سيره حتى وصل إلى الضفة اليسرى لوادى المخازن وعسكر فى مثلث تتكون زاويته الغربية من التقاء نهرى (وارور) و (وادى المخازن). ووصل الجيش المغربى قبالة الجيش الغازى فى هذا المكان حيث وقعت الوقعة الحاسمة بين الجيشين فى متم جمادى الثانية ٩٨٦ هـ (٤ أغسطس سنة ١٥٧٨) .

وفى الليلة السابقة للمعركة أمر مولاى عبد الملك أخاه المنصور بنسف قنطرة وادى المخازن تنفيذاً للخطة التى رسم لها — وكان الجيش البرتغالى قد انتظم على شكل مربع فى مقدمته البرتغاليين . وفى اليمين الألمان وفى اليسار المتطوعين الأسبان والطليان ، وفى الجناحين الخيالة وأنصار المتوكل على الله ، وتقدر المراجع عددهم مابين ٣٠٠ ، ٦٠٠ . أما الجيش المغربى فقد رتب على شكل هلال كان فى وسطه مولاى عبد الملك وهو على محفة المن لأرض

كان قد أقعده عن السير ، وكانت الخياله فى الجناحين[١] .

وحمى وطيس المعركة ، وبعد معارك طاحنة وكروفر من الجانبين انتهت المعركه بالإنهزام التام للجيش الغازى وفراره أمام الجيش المغربى المدافع عن بلاده ، ووجدوا جسر الوادى متهدما فلم يبق أمامهم إلا الإستسلام أو الموت فكانوا بين مستسلم وغريق[٢] .

وكان من بين قتلى المعركة وغرقاها (دون سبستيان) والمتوكل .

وقد حدث والمعركة فى أشدها أن توفى (أبو مروان عبد الملك)[٣] لكن كتم خليفته — أحمد المنصور ، وحاجبه (رضوان العلج) خبر وفاته

---

(١) أنظر محمد العامى : البحث المشار إليه سابقاً ص٢٢٤ — ٢٢٧ .

ـ أنظر الرسم التفصيلى للمعركة الذى عمله :

(Fray Luis —1579)

ـ وكذلك تأريخ الدولة السعدية . مرجع سابق ص ٦١ وما بعدها .

(٢) هناك عدة تقارير عن المعركه بالارشيف البريطانى منها :

—British Museum—Additional Mss. 28262—F. 285.

وهو عبارة عن تقرير من دوق مدينا سودنيا مؤرخ (١٣ أغسطس ١٥٧٨)

—Public Record Office—State Papers; Foreign Royal Letters Vol.II no. 77.

وهو تقرير من طبيب يهودى بالمغرب مؤرخ (١٦ أغسطس ١٥٧٨) .

—Hatifield House Mss. Vol. XI. f. 46.

وهو تقرير من طبيب برتغالى فى الجزائر يدعى (Don Hector Hunz).

مؤرخ (١٦ أغسطس ١٥٧٨)

ـــ ومن التقارير الواقعية عن المعركة :

(ا) تقرير الكابتن كبريت (D. Cabrette)

المؤرخ ١٨ نوفمبر ١٥٧٨ موجود فى :

—British Museum—Additional Mss. 2836. ff. 74 & 75

(ب) British Museum; Harkiam Mss. 7035 f. 317

(حـ) British Musenm, Cotton Mss Vesparian C XIII f-f. 240-241

(د) مذكرات بعض الكتاب الإنجليز الذين كانوا فى جيش سبستيان وأسروا وفك إسرهم مثل . (M. Christopher Ly)

(٣) هناك خلاف عن سبب وفاة ابى مروان عبد الملك ـ وماقيل فى ذلك إنه مات بسبب سم دسه له قائد الترك فى جيشه فى كعك تناوله أنظر : الاستقصاء حـ ٥ ص ٨٦ .

حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش المغربي .

وقد بويع أبو العباس أحمد بالخلافة بعد أبي مروان عبد الملك — ولقب بعد هذه المعركة (بالمنصور) ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبناً ، وأمر الملك أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة ولقب من ذلك الوقت (بالمسلوخ) [١] . وهكذا مات في هذه المعركة ثلاثة ملوك هم (ابو مروان بن الشيخ ، ومحمد بن عبد الله المسلوخ ، ودون سبستيان) ولذا تطلق بعض المراجع على هذه المعركة أحياناً (معركة الملوك الثلاثة) .

وهناك خلاف كبير فيما تذكره المراجع عن عدد القتلى من الفريقين ، لكن أسرى البرتغال وصل عدداً ضخماً قدر بنحو أربعة عشر ألفاً افتدوا بمبلغ ضخم من الذهب حتى أن بعض المؤرخين يرجع لهذا السبب في تلقيب المنصور (بالذهبي)إذ كان ماحصل عليه من الذهب من البرتغال - في تقدير بعض المراجع أكثر مما جلبه من السودان بعد فتحه . أما جثه سيستيان فقد أرجعها المنصور إلى البرتغال ورفض أن يقبض المال مقابل ذلك [٢] .

أما نتائج موقعة وادى المخازن فيمكن إجمالها فيما يلي :

أولا : بالنسبة للمغرب :

١ — أعاد انتصار الشعب المغربي — ثقته بنفسه وبقدرته على القضاء على المطامع الإستعمارية والمخططات التوسعية التي تعرضت لها بلاده منذ استولى البرتغال على سبته في عام ١٤١٥ م .

٢ — أتاح هذا النصر فرصة الاستقرار والإزدهار للمغرب والتفرغ للبناء والتعمير .

٣ — ومن الناحية الإقتصادية تدفقت على المغرب الأموال البرتغالية التي دفعت لافتداء الأسرى العديدين — كما ازدهرت تجارة المغرب وتسابقت الدول الاوربية على ذلك [٣] .

(١) تاريخ الدولة السعدية - لمؤلف مجهول ص ٦٦.

(٢) أنظر خطاب (Jacques Rossel) الى Walsingham

State papers. Foreign Holland and Flanders Vol. XII No 6.

(٣) سنشير لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن عهد أحمد المنصور الذهبي وعلاقاته بالدول الأوربية .

٤ — وقد ترتب على الإستقرار ، والاعتزاز بالنصر أن إزدهرت الحركة الفكرية والأدبية فبرز كتاب وشعراء وأدباء من أمثـال (عبد العزيز القشتالى)[1] و (المقرى)[2] و (أبن القاضى)[3] وغيرهم .

٥ — دعم هذا النصر نفوذ السعديين فى المغرب وفرض أحترامهم على الجميع سواء فى العالم الإسلامى أو فى أوربا — فأصبحت للمغرب شخصية بارزة ممتازة فى العالم كله. وقد كان أول ما قام به السلطان أحمد المنصور إثر بيعته أن كتب للملوك الاسلام ينبئهم بهذا الفتح المبين والانتصار العظيم ، وتقاطرت الوفود من كل الجهات تحمل الهدايا وتقدم التهانى للمنصور ، ومن بينها هدية السلطان مراد العثمانى وكانت عبارة عن (سيف محلى) . ولا شك فى أن هذا النصر جعل الأتراك العثمانيين يعدلون عن محاولاتهم المتعددة لغزو المغرب أو على الاقل يترددون فى أن يقوموا بمثل هذا العمل ، وقـد بقى المغرب الأقصى الرقعة العربية الوحيدة التى لم تبتل بالنفوذ العثمانى . كما ازدحمت عاصمة المنصور بوفود الدول الاوربية ومنها وفد من ملك الأسبان ، وملك فرنسا ،

---

(١) هو أبو فارس عبد العزيز القشتالى ، بدأ حياته ككاتب فى ديوان إنشاء المنصور ، وقد أصبح (وزير القلم الأعلا) كما يقول ابن القاضى — وقد قام بتدوين أخبار الدولة السعديه منذ نشأتها فى مطلع القرن السادس عشر وسماه «مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا» — وهو فى عدة مجلدات وقد نشر الاستاذ عبـد الله كنون — ملخصاً لمناهل الصفا ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب ، اعتماداً على النسخة المخطوطه فى خزانة القصر الملكى بالرباط تحت رقم ٢٧٤ بعد أن حققه د . عبد الـكريم كريم .

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى :

صاحب كتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب » فرغ منه ١٦٢٨م بالقاهرة، وطبع فى أربعة أجزاء — بولاق ١٨٦٢م — ١٥٣٨ هـ

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضى : درة الحجال فى أسماء الرجال . (نسخة خطية — بالخزانة البدراويه بفاس — طبعت فى جزءين بفاس) ١٩٣٦ ؛ لـكنها طبعة كثيرة التحريف

وسفراء إنجلترا — يتسابق الكل فى إرضائه ، بل أرسل حاكم البرتغال الجديد إلى المغرب وفداً إلى فاس بهدية فاخرة لكسب ود الملك المغربى[١] .

ثانياً : بالنسبة للبرتغال والدول الأوربية الأخرى :

كانت هذه الهزيمة الساحقة كارثة تاريخية بالنسبة للبرتغال فلم تفقد البرتغال جيشها وملكها فحسب - بل بعد ذلك بقليل - فقدت استقلالها، فقد أدى إنقراض أسرة سبستيان وعدم وجود وريث للعرش البرتغالى لضم البرتغال إلى التاج الأسبانى ، وهكذا انتقلت إلى يد فيليب الثانى بضربة من ضربات الحظ — كما يقول هربرت فيشر — الممتلكات البرتغالية كلها ومنها (سبته) التى وقعت من ذلك العهد تحت النفوذ الأسبانى[٢] .

وقد ترتب على ذلك أن أفتقر الشعب البرتغالى ، ودخلت البرتغال فى طور من أطوار التدهور .

وقد تعرضت البرتغال لصراع طويل من أجل العرش ، فقد طالب الأمير دون انطونيو (D. Antonio) بعرش البرتغال[٣] وأدى ذلك لصراع بينه

---

(١) هناك قوائم بالهدايا المرسلة للسلطان المغربى من ملك أسبانيا ، والكاردينال الحاكم (بعد سبستيان) فى البرتغال ، والسلطان العثمانى ، وملك انجلترا — أنظر :

— Public Record Office, State Papers, Foreign Barbary states Vol XII.
— British Mus. Cotton Mss. 1 Nero B.I 230
— Ibid f. : 239.

(٢) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربى الحديث ترجمة د. زينب عصمت راشد ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى - مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم (١٩٧٠) ص ٢٢٧، ٢٢٨ .

(٣) وهو من أسرة الملك عما نوئيل ملك البرتغال ، وقد أسر فى معركة القصر الكبير ، وفك أسره بعد ذلك ، ووصل البرتغال بعد موت إعمه (Roi Cardinal Henez) الذى أصبح قائماً بأعمال الملك بعد سبستيان .

وبين فيليب الثانى ملك أسبانيا ، ولقى الأمير البرتغالى تأييد الملكة اليزابيث ، والسلطان المغربى أحمد المنصور ، وجرت بين الملكة والسلطان المنصور خطابات متعددة بشأن مساعدة هذا الأمير للرجوع لعرش البرتغال ، ولم يكن بالطبع الهدف مساعدته للرجوع لعرش أبائه لكن الأمر يرجع للصراع الدولى فى ذلك الوقت (١).

والحقيقة إن معركة وادى المخازن انسحبت آثارها على العلاقات الدولية الأوروبية بشكل أكثر مما هو متوقع من معركة محلية ، فقد تغيرت نظرة الدول الأوروبية كلها للمغرب بل جعلت هذه المعركه — الدول الأوروبية التى كانت تندفع إلى للإشتراك فى الحملات الصليبية دون وعى — إلى أن تتردد قبل أن تقدم على مثل هذه الأعمال العشوائية — ولذا فقد فتحت هذه المعركة صفحة

---

(١) انظر :

ا — خطاب مولاى المنصور الى د . أنطونيو (٢٩ مارس ١٥٨٨) .

British Museum. Burney Mss. 367. ff. 198—199

ب — خطاب مولاى المنصور الى الملكة اليزابيث (إبريل ١٥٨٨) .

Public Record office—State papers—Foreign Royal letters Vol. 11. No. 16.

جـ — خطاب مولاى المنصور إلى الملكة اليزابيث (٢ فبراير ١٥٨٩).

Public Record office—State papers—Foreign Portugal Vol. 11

د — خطاب المنصور الى الملكة اليزابيث (٢٣ يونيه ١٥٩٠) .

Public Record Office—State papers—Royal Letters Vol. 11 No. 21.

هـ — خطاب مولاى المنصور إلى الملكة اليزابيث (٢٠ أغسطس ١٥٩٠):

Public Record office—State Papers—Letters Vol. 11 No. 18.

وللمؤلف بحث كامل عن العلاقات الإنجليزية المغربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر تناول فيه هذا الموضوع بالتفصيل .

أنظر : مجلة المناهل المغربية العدد الثالث (يونيو ١٩٧٥) .

جديدة من العلاقات بين المغرب وأوربا ، بل بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى[١] .

العلاقات المغربية العثمانية فى عصر المنصور :

كان الجو بين المغرب وتركيا قد تحسن ، إذ أن السلطان أحمد المنصور لم ينس للسلطان مراد العثمانى نجدته له ولأخيه أبى مروان عبد الملك ضد المتوكل على الله .

ولذا فلم ينس المنصور إثر بيعته بوادى المخازن أن يكتب للسلطان العثمانى بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال ، وقد وفدت له رسل السلطان مراد العثمانى ومعهم الهدايا للتهنئة كما ذكرنا .

لكن لم يلبث أن توترت العلاقات بين الدولتين . ويورد صاحب الاستقصاء سبباً يرجع إليها سبب هذا النفور[٢] فيذكر أنه حين ورد الوفد العثمانى بالهدية إلى السلطان المنصور استقلها وأنف منها — فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته وتأخر عن جواب السلطان مراد — فكان ذلك سبباً للنفور .

ووجد بعض المغرضين من أصحاب المصالح الخاصه فى ذلك فرصة لإيغار قلب السلطان مراد العثمانى فزينوا له فتح المغرب ومنازلة السلطان أحمد المنصور وقالوا له « قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وضيع والدك من قبلك » وكان فى مقدمة هؤلاء المتآمرين وزير البحر (علوج) فساعد السلطان مراد فى إعداد الأسطول التركى ليبحر إلى الجزائر ومنها يمكن الهجوم على المغرب .

---

(١) أنظر البحث الذى نشره المؤلف عن « العلاقات الانجليزية المغربية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر فى مجلة المناهل المغربية العدد الثالث يونيه ١٩٧٥ . السابق الإشارة إليه .

(٢) الاستقصاء — طبعة دار الكتاب (الدار البيضاء ١٩٥٥) جـ ٥ ص ٩٥ وما بعدها .

وحين وصل الخبر إلى المنصور شحن الثغور وجهز الموانيء للدفاع، وحصن الحدود بين المغرب والجزائر وأعد للدفاع عدته . وإلى جانب هذا التدبير العسكرى فى الثغور لجأ المنصور للمسالمة فبعث وفداً مؤلفاً من القائد (أحمد بن وده العمرانى) والكاتب (أبى العباس أحمد بن يحي الهوزانى) ومعها هديه عظيمة للسلطان مراد العثمانى ، وقد التقى الوفد بالوزير (علوج) الذى حاول أن يعترضهم ويقنعهم بالرجوع — لكن رفض الكاتب (أحمد بن يحيى الهوزانى) العودة ، وتابع السير إلى القسطنطينية ، وبعد محادثات طويلة أظهر فيها الهوزانى من المهارة، والدهاء ما أزال كل مادسه الدساسون — صفا الجو بين الدولتين وعاد الهوزانى مصحوباً بوفد السلطان مراد العثمانى إلى السلطان أحمد المنصور ، فقابلهم المنصور بالإكرام ورجعوا لبلادهم مصحوبين أيضاً بوفد من المغرب . . . ومن ثم صارت العلاقات بين الدولتين على أتم مايكون من الصفاء والود — حتى أن السلطان مراد بن سليم كتب إلى المنصور يقول له :

« لك على العهد أن لا أمد يدى إليك إلا للمصافحة ، وأن خاطرى لاينوى لك إلا الخير والمسامحة »[1] .

استيلاء المنصور على بلاد السودان (تيكوارين ، وبرنو ، ومملكة كاغو):

بعد أن أمن المنصور من ناحية الترك وجه أنظاره نحو بلاد السودان فبعث إليهم القائد (أبا عبد الله محمد بركه) والقائد (أبا العباس أحمد بن الحداد العمرى) فى جيش كثيف.فاستوليا على تيكوارين، وتوات سنة ٩٩٠ ه. وأثر ذلك أرسل صاحب مملكة (برنو) إلى السلطان المنصور هدية وطلب أن يمده بالمساعدة العسكرية ضد إمارة (كاغو) ، كما قبل الدخول تحت طاعته والاعتراف ببيعته — وقد ذكر كاتب الدولة فى ذلك الوقت — أبو فارس عبد العزيز الفشتالى نص هذه البيعة[2].

---

(١) الاستقصاء — مرجع سابق ج ٥ ص ٩٧ .

(٢) أنظر الفشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا (تحقيق د . عبد الكريم كريم — مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤن الأسلامية والثقافية بالرباط) ص ٦٩ .

هذا ويبدو أن المنصور حاول أن يستخدم سياسة الترغيب هذه مع كافة ملوك السودان ليدخلوا فى طاعته سلماً ، فبعث رسولا إلى السلطان (اسحاق سكية بن داود) رئيس مملكة كاغو ـ لكن لم تلق الرسالة قبولا حسناً من صاحب مملكة كاغو ـ فاتجه عزم المنصور على توجيه عساكره إلى السودان[١] .

وحين عزم المنصور على غزو السودان ـ لم يرد أن يتحمل وحده مسؤولية مثل هذا القرار الخطير ـ فقد كان يقدر ماسيتحمله الجيش المغربى فى مثل هذه البلاد التى تفصلها عن المغرب مسافات طوال وصحارى شاسعة وفيافى وقفار حيث لاماء ولا كلأ ، فجمع (مجلسه الإستشارى) من قادة الرأى فى دولته وأبلغه عزمه على غزو بلاد السودان ، وشرح لهم رأيه فى ذلك ـ وقد دار نقاش طويل فى هذا المجلس عرض فيه الحاضرون وجهات نظرهم ،وكانت تتلخص فى أن الجيش المغربى سيتكبد فى هذا العمل مشاقاً فى الحل والترحال فى هذه الصحارى الجرداء ، وأن دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمتها ، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمع واحدة منها فى القيام بهذا العمل لما يكتنفه من مخاطر ، لكن همة المنصور لم تفتر فدافع أمام المجلس عن وجهة نظره دفاع الواثق من نفسه المؤمن بنجاح خطته والمتأكد من النصر ، فما كان من المجلس إلا أن أقره على رأيه وقالوا له « قد ألهمت الصواب .. ولم تبق لأحد مايقول فصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول »[٢] .

وإثر قرار المجلس ـ أمر المنصور بتجهيز الجيش وإعداد معدات الحرب

---

(١) أنظر نص الرسالة فى : مناهل الصفا ـ مرجع سابق ص ١٢٣ (كلف بكتابة هذه الرسالة مفتى مراكش ـ المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى ، لكنه تحير فى كتابة صدر الرسالة هل يمدح فيها اسحق سكيه أم لا؟ وهل يتوغل فى المدح أم يتوسط ـ وكتب للمنصور معتذرا عن ذلك وذكر إنه لا يأمن أن يقع فى تفريط أو إفراط ولذا فقد كتب صدر الرسالة كاتب الإنشاء أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى (الذى كان فى ذلك الوقت مريضاً).

أنظر الاستقصاء جـ ٥ ص ١١١ .

(٢) الاستقصاء جـ ٥ ص ١١٤ .

للقيام بهذه المهمة الخطيرة . وقد استغرق إعداد هذه الحملة العظيمه مايقرب من ثلاث سنين . وقد فرض على كل قبيلة من القبائل حصة معينة تلتزم بتقديمها من المقاتلين والإبل والخيل والبغال. وفى اليوم السادس عشر من ذى الحجة عام ٩٩٨ هـ استعرض المنصور هـــذا الجيش العظيم فى (واد تانسيفت) من ناحية مراكش .

وفى فاتح محرم سنة ٩٩٩ هـ تحرك الجيش المغربى بقيادة الباشا (جوذر) ومعه جماعة من أعيان الدولة ـ لإخضاع بلاد السودان ـ وبلغ هذا الجيش عشرين ألفاً بالإضافة إلى ألفين من البحرية والطبجية فيكون المجموع اثنين وعشرين ألفا[1] .

وكتب المنصور إلى (عمر بن محمود بن عمر) قاضى تنبكتو يأمره بحض الناس على الطاعة له[2] .

ووصل الجيش المغربى إلى مدينة (تنبكتو) بعد اختراق الفيافى والقفار ، وبعد أن استراح الجنود بها أيام — قصدوا دار أسحق سكيه وكان قد سمع بقدومهم فخرج من مدينة (كاغو) مع من أحتشد معه من أمم السودان وقبائلها من الملثمين وغيرهم ، بل أضاف إليهم — كما يقول الفشتالى — أشياخ السحرة ، وأرباب العزائم — وكان سلاحهم الرماح والسيوف ، بينماكان الجيش المغربى يستخدم المدافع والبارود ـ وأنتهت المعركة بانهزام السودان فولوا الإدبار ، وطلب أسحق من جوذر باشا الصلح على مال معين يدفعه فوراً على أن يؤدى ضريبة سنوية فأجابه القائد المغربى إلى ذلك ورجع الجيش المغربى إلى تنبكتو للإقامة هناك حتى يأتيه رد المنصور ،خاصة أن عساكره كانت قد أصابتها الحمى نتيجة وخامة الجو ، فلما بلغ المنصور خبر الصلح بعث مملوكه الآخر(محمود باشا) وهو أخو (جوذر) بقوة جديدة وقلده أمر العساكر كلها وكتب إلى أمراء

---

(١) الاستقصاء جـ ٥ ص ١٢١ .

(٢) الفشتالى ـ مرجع سابق ص١٣١ (نص رسالة المنصور إلى قاضى تنبكتو) .

عسكره يؤنبهم على عدم الإستمرار فى قتال (أسحق سكيه) . وألتقت جنود محمود بجيوش أسحق سكيه وألحقت بها هزيمة ساحقة ، ودخل الجيش المغربى مدينة كاغو وترك محمود أخاه ليقيم فى كاغو مع عدد من عساكره - ولحق هو وبقية جنده باسحق وبقية أتباعه وألحق بهم هزيمة أخرى وأنتهى أمر أسحق سكية بهلاكه فى القفر ، وتتبع محمود أخا أسحق - الذى خلفه - وهزمه فتمهدت له البلاد وأستولى عليها أستيلاء كلياً .

وكتب بخبر الفتح والإنتصار إلى المنصور - الذى أحتفل بهذا الإنتصار العظيم فجعل (يوم النصر) عيداً من أعياد الامــة المغربية - أخرجت فيه الصدقات وأعتقت الرقاب ، وأقيمت المهرجانات العظيمة وزينت الأسواق بالعاصمة المغربية وأطلقت المدافع ، وأرسل المنصور رسائل بأخبار هــذا النصر إلى جميع الآفاق ، ونظم الشعراء القصائد بهذا النصر ومنها قصيدة للفشتالى نفسه جاء فيها[1] :

جيش الصباح على الدجى متدفق

فياض ذا لسواد ذاك محق

وكأن رايات عسكرك التى طلعت

على السودان بضيــاً تخفق

لاحت وافتهم ليال كلها كمعود

صبح فى الدجى يتــألق

نشرت لتطوى منه ليلا دامساً

أضحى بسيفك ذى الفقار يمزق

أرسلتهن جوانصاً وجوارحاً

فى كل مخلبها غراب ينعق

---

(١) الفشتالى - مرجع سابق ص ١٣٩ .

وسرت وكان دليلهن البهم
مشحوذ عزمك والسنان الأزرق
ولهى الليالى قد جلا أحلا كها
نور النبوءة بين جبينك يشرق
ضعفت بهن وعود نسارك صفقة
رجت اصيحتهـا العراق وجاق
سحقا لاسحق الغبى وحزبه
فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه
من جيش جؤذرك الغضنفر فياق

وهكذا أصبحت كلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط وأصبح يحمل إليه من التبر مايحير الناظرين ـ ولهذا لقب (بالذهبى) لفيضان الذهب فى أيامه ـ كما يقول صاحب الاستقصاء [١].

الجيش فى عهد المنصور :

أهتم المنصور بتنظيم الجيش المغربى وإعداده أحسن اعداد ليقوم بالمهام الخطيرة التى كان ينتظرها منه ، وقد ألف فى ذلك بين الأنظمة والعوائد التى كانت معروفة عند العرب ، وتلك التى أشتهر بها الترك والعجم .

وقد أصطفى من العجم والترك بعض الموالى رباهم وشملهم باحسانه فأخلصوا فى خدمته،أشتهر منهم(مصطفى باى)قائد الأصباحية وهم الذى عهد إليهم

---

(١) الاستقصاء : جـ ٥ ص ١٢٥ .
— وتأريخ الدولة السعدية ص ٦٤ وما بعدها

حراسة السلطان ، و (الباشا محمود) وهو صاحب خزائن الدار وكانت بيده مفاتيح بيوت الأموال ، والقائد (علوج) قائد جيش العلوج و (الباشا جوذر) فاتح السودان وهو قائد جيش الأندلس ومنهم قائد جيش السوس.

وقد كان الجيش المغربى عموماً مقسماً إلى قسمين :

١ — الحرس الملكى — ومهمته السهر على سلامة السلطان ومرافقته فى حله وترحاله .

٢ — الجيش المحارب — وهو الذى يعهد إليه بمهمة القتال [1].

ويلاحظ أن الدولة فى عصر المنصور أصطبغت فى كثير من النظم التى سادت فى الجيش وفى الإدارة وغيرهما بالصبغة التركية ، فقد اقتبس المنصور الكثير من هذه النظم التى كانت سائدة فى الدولة العثمانية وطبقها فى دولته وأضاف إليها وعدل فيها — لكن ركز اهتمامه قبل كل شىء على سيادة النظام فقد كان صارماً فى ذلك .

أعمال المنصور الإدارية والعمرانية :

تميز عصر المنصور بسيادة النظام والحزم وحسن الضبط فيما يختص بشؤون الدولة والرعية — يرجع ذلك للسياسة التى استنها فى إدارة البلاد .

فقد وجه اهتمامه إلى الاطلاع على ما عليه أحوال رعيته وعماله ، وتفقد جهات ممالكه من (داره) إلى أقصى المغرب، بل وإلى أقصى السودان من ممالكه كما يقول الفشتالى . « فله من رجاله على كل مرقبة رصدة ، وعلى كل ثنية نقباء

---

(١) كان الجيش المحارب الذى أطلق عليه أسم (جيش النار) من فرق متعددة : فرقة السوس ، فرقة الشرق ، الاصباحية ، الاندلسيين — وكانت تتألف كل فرقة من هذه الفرق من فصائل، وكان لكل فرقة قائد ولباس خاص وشارات ، وكان السلطان يستعرض هذه الفرق فى المناسبات المختلفة ويعطى الفشتالى وصفا دقيقا لنظام هذه الفرق .
أنظر الفشتالى : مرجع سابق ص ٢٠١ وما بعدها .

وفى كل خلوة عيون ينقلون له مايحدث من خبر أو قصة أو يدور على ألسنة الناس فلا يخلو له يوم من ورود وارد يخبر على بر أو بحر ، وكان عمال ثغوره وولاة الأطراف من ممالكه وبلاده يجهدون أنفسهم لعلهم يحظون لديه بإنهاء الأخبار إليه وتطييرها لجنابه على أول موردها وانبعاثها[١] .

وقد اشتهر المنصور (بجبر القلوب) وجمعها مع الأخذ بالحذر ومضاء العزيمة ، وقد بلغ به الحزم إنه استن فى مخاطبة عماله فى الأقاليم طريقة تشبه طريقة (الشفرة) اليوم حتى إذا تلف الكتاب أو ضاع أو وقع فى يد عدو أمن غوائل الإطلاع على أسراره[٢] .

وقد كان المنصور يقسم وينظم وقته تنظيماً دقيقاً ـ فهناك أيام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود ـ ليتناول أمور الدولة (خصص لذلك أيام السبت ، والإثنين ، والأربعاء) . فكان يخرج فى هذه الأيام بعد الفراغ من وظيفته إلى إيوانه وقت الضحى غالباً فيؤذن للناس فى الدخول على طبقاتهم فيسمع منهم ويبدى الرأى فيما يعرضون . . فإذا انصرف الناس ـ جلس (أهل الأيوان) وأرباب المناصب وكاتب سره ـ فيناوله ماورد من الكتب من سائر الأقطار فتملى الأجوبة على الكتبة ويسمع ما يرفعه أهل الديوان من مسائل ويستمر على ذلك حتى يؤم الناس فى الصلاة ، ثم يدخل إلى قصره ويتفرق الديوان .

وقد ينيب ولى عهده الأمير (أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله) فى بعض المهام ، أو ولده أبا فارس عند تغيب شقيقه .

وقد ساد العدل فى أيام المنصور . وقد ذكر الفشتالى إنه لم ير من ملوك العصر أعدل منه ، وما فى الأرض مملكة تسير على قوانين الشرع ومناهج السنة أحسن من مملكته ، ولا سلطان أعدل من سلطانه ، ولا وطن أكثر بأبنائه رحمة وأسلم اعتقاداً ، وأوضح مذهباً ، وامتن دينا وأكثر لأصل الخير والصلاح جمعاً ، وأبعد عن البدع والمناكر نزاهة واعتصاما ـ أجمل من وطنه[٣] .

---

(١) الفشتالى ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٩٧ .

ويذكر الفشتالى أن المنصور كان حريصاً على المحافظة على حدود الشريعة . كان فى ذلك صلب العود ، قوى الشكيمة ، أشد الخلفاء انقياداً للشرع ، منصفاً لصاحب الحق حتى من نفسه .

ويذكر أمثلة على ذلك تدل على حرصه الشديد على أن يأخذ العدل مجراه بكل صرامة ودقة(١) .

وترتب على ذلك - كما يقول صاحب كتاب تأريخ الدولة السعدية - « أن كثر البيع والشراء فى أيامه - واستمرت الهدنة والعافية فى أوانه »(٢)

ومن أشهر مشاريع المنصور العمرانية بناء قصر البديع بمراكش وقد بدأ فى تشييده سنة ٩٨٦ هـ وأستمر العمل حتى عام ١٠٠٢ هـ أى استغرق ١٥ عاماً . ولما أراد المنصور أن يشرع فى البناء أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح ليختاروا أنسب الأوقات للشروع فى البناء ، فكان إبتداء الشروع فى تأسيسه فى شوال سنة ست وثمانين وتسعمائة ، وحشد له المنصور أمهر الصناع من مختلف أنحاء العالم - فكان يجتمع كل يوم لهذا العمل من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان يقام لهم ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، فكان يشتريه منهم بالسكر الذى أقام معاصره فى بلاد حاحه و (شوشاره) وغيرهما وزناً بوزن ، وأما الجبس والجير وباقى مستلزماته فإنها جمعت من كل جهات العالم ، وكان المنصور يجزل العطاء للعاملين فى هذا المشروع ، ويقوم بمؤن أولادهم حتى تطمئن نفوسهم وتهدأ أفكارهم .

وقد شيد البناء على شكل مربع - وفى كل جهة منه قبة هائلة تحف بها قباب أخرى ، وقد استخدم فيه من الرخام المجزع ، والمرمر الأبيض والأسود مايحير الفكر ، ويدهش النظر ، وكل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ،

---

(١) الفشتالى ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) تاريخ الدولة السعدية : مرجع سابق ص ٦٦ .

وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة ، هذا بالإضافة إلى الزليج المتفرع التلوين،وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب ، وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجص ، هذا وأجرى بين قبابه ماء غير آسن .

وقد نقشت على قبابه وعلى الخشب والزليج والجبس أبيات تبارى فى إنشائها مختلف الكتاب والأدباء المعاصرين من أمثال أبى فارس عبد العزيز الفشتالى ومما قاله فيه :

كل قصر بعد البديع ندم
فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نميــر
وثرى عاطر وقصر أشم
إن مراكشاً به قد تباهت
مفخراً فهى للعلا الدهر تسمو[1]

ولما أكمل المنصور البديع ـ صنع مهرجاناً عظيماً احتفالا بإتمام هذا العمل العظيم . وقد ظل قصر البديع عامراً شامخاً مائة وسبع عشر سنة ،فقد خرب فى عصر السلطان المولى اسماعيل عام ١١١٩ هـ ولم يبق ـ كما يقول صاحب الإستقصاء ـ بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع[2] على أن بقايا هذا القصر اليوم تدل على ما كان عليه من العظمة والضخامة .

ولم تقتصر جهود المنصور العمرانية على مراكش ، فقد أنشأ فى عام ٩٩٠هـ بفاس (برجين) كبيرين أحدهما خارج باب عجيسه والآخر قبالة باب الفتوح وهما لا يزالان إلى الآن ينطقان بعظمة المنصور ويعرفان عند العامة بإسم

---

(١) أنظر الفشتالى : مرجع سابق ص ٢٢٢ ، ٢٨٩ — ٣٠١ .
(٢) الاستقصاء جـ ٥ ص ١٤٣

(البستيون) ، كذلك بنى حصنين بثغر العرائش ، كما جدد بناء (سد واد فاس) الذى كان السيل قد هدمه سنة ١٠٠٩ هـ .

هذا ويصعب حصر أعماله الإصلاحية الأخرى التى قام بها فى أسفى وأزمور وأصيلا وسائر الأطراف والثغور، فقد إعتنى بتقوية وتعلية أسوارها بالإضافة إلى تقوية الحصون - إلى غير ذلك من الأعمال العمرانية[1].

ومن أشهر المشاريع الإقتصادية فى عصر المنصور معاصر السكر التى أشرنا إلى إنشائها بمراكش وبلاد حاحة وشيشاوة والى وصل إنتاجها من الضخامة والشهرة حتى أنها كانت تصدر السكر إلى إيطاليا وغيرها من البلاد الأوربيه لمبادلته بالرخام وغيره مما تحتاجه من هذه البلاد .

هذا وقد عرف المنصور بتشجيعه للفقهاء والعلماء الذين كان يجمعهم فى جلسات للمذاكرة بمراكش وفاس وفى بعض حركاته ، فكان الحديث يدور حول أمهات الكتب فى التفسير والفقه وعلم المنطق وغير ذلك من العلوم[2].

هذا ويذكر المشتالى أن المنصور نفسه كان علماً فى سائر العلوم، وله منظومات وأشعار رائعة ويورد بعضاً من شعره الذى يذكر إنه يعد من السحر، ويقول إنه كان عالماً فى فنون الشعر المختلفة[3] .

هذه لمحة عن عصر المنصور وهو فى الحقيقة من أبرز عصور الدولة السعدية وأكثرها إزدهاراً - ولذا فقد كانت وفاته فى عام ١٠١٢ هـ - ١٦٠٤ م إيذاناً بإنتهاء دور عظمة الدولة السعدية ونذيراً بظهور بوادر الإنحلال فى هذه الدولة ، وقد دفن أولا بإزاء مقصورة الجامع الأعظم بفاس، ثم نقل إلى مدافن الأشراف السعديين بمراكش[4].

---

(١) الفشتالى : مرجع سابق ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٢٩٤ .

(٤) الاستقصاء: حـ ٥ ص ١٨٦، ١٨٧ .

وكانت مدة حكمه ستة وعشرون سنه وتسعه أشهر وخمسة عشر يوما[١].

طور الانقسام والضعف :

تمثل الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أحمد المنصور فترة الضعف والإنقسام في تاريخ الدولة السعدية بالمغرب، فقد أدى التنافس على الوصول للسلطة بين أفراد الأسرة السعدية إلى سلسلة من الحروب الدموية شغلت الحكام وأضعفت الجبهه الداخلية وأضرت بإقتصاد البلاد، وشجعت الطامعين وأصحاب المصالح على الإقدام على اغتصاب المناطق والثغور الحيوية في البلاد.

فلما توفي المنصور اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعه ولده « زيدان » وكان عاملا في إقليم (تادلا) في حياة أبيه وكتب أهل فاس لأهل مراكش بمبايعتهم لزيدان. لكن أهل مراكش أمتنعوا عن مبايعة زيدان وبايعوا أخاه (أبا فارس) ، على أساس أن المنصور كان قد عينه والياً على مراكش دار الملك ، ولأن الخاصة من حاشيه المنصور كانوا يميلون إلى أبي فارس — لأن زيدان كان بعيداً عنهم ولم يكن لهم به كبير صلة رغم مروءته وعلمه وأدبه.

ولما شق أهل مراكش عصا الطاعة على زيدان — أصدر قاضي فاس ومفتيها فتوى تتضمن التصريح بحديث(إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما). وهكذا بدأت سلسلة من الحروب والمعارك بين الأخوين (٢)خاضها معهما أخوهما (المأمون) الذي كان سجيناً في مكناس، كما خاضها أيضاً ولدا المأمون (محمد

---

(١) تاريخ الدولة السعدية : ص ٧٨ .

(٢) من التقارير الهامة التي كتبها المعاصرون لهذه الأحداث تقرير (هنري روبرت) (Henry Robert) الذي كان قد أمضى ثلاث سنوات ونصف في المغرب كممثل للملكة اليزابيث — أنظر :

—Britsh Museum—Additional Mss 38139 f. 33

—Wilkins, George: Three Miseris of Barbary: Plague, Femine, civil wars; With a relation of the death of Mahamet the late Emperour and a brief report of the new present wars between the three brothers. (1604).

زعودة) و (عبد الله) وقد ذهبت هذه الحروب بكل ما كانت تتمتع به البلاد من نفوذ وصولة ، وفتح هذا الباب لعديد من الثورات والخلافات سواء بين أهل الدين والوطنيين الذين كانوا يرون ماعليه البلاد من فوضى فتأخذهم الغيرة ويثورون ، أو من الأدعياء والمشاغبين ، وكانت هذه الحروب بين أولاد المنصور وأحفاده حروباً طاحنة ليس فيها هواده ، وقد دفع أهل البلاد — وخاصة أهل فاس ومراكش ثمن هذه الخلافات فكان — كلما استولى أحدهم على إحدى المدن التى كانت بيد خصمه أعمل فى رقاب أهلها السيف وتركها سلبا ونهباً ، فإذا خرج وجاء أخوه عمل مثل عمله ، وهكذا ظل الأخوة الثلاثة زيدان ، وأبو فارس والشيخ المأمون يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يستقر الأمر لواحد منهم[1].

وقد أدى هذا الصراع فى النهاية إلى قتل (أبى فارس) عام ١١٠٨هـ - ١٦٠٩م على يد ابن أخيه عبد الله بن المأمون . واستقل هذا الأخير فترة بفاس ،

---

(١) أنظر الكتاب الذى كتبه كاتب مجهول تناول فيه فترة حكم أحمد المنصور ثم الحروب التى تلت وفاته — بعنوان :

A true historicall discourse of Muley Hamets rising
To the tlree kingdoms Marocos, Fes and Sus (London 1609). (Britsh Museum; Printed Books, Press Mark 1046).P.24.

— كذلك ملاحظات وتقارير (Anthony Sherely التى نشرت مع غيرها من الرحلات بعنوان:

The travels and adventures of sir Anthony, Sir Robert & sir Thomas Sherely (Hakluyt : The principal Navigatione. T. 111) p.p. 598—602.

كذلك تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرية : مرجع سابق ص ٧٨ وما بعدها
وقد تناول الكاتب بتفصيل الأحداث التى تتابعت والحروب المتتالية التى اعقبت وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبى ، وما عاناه المواطنون خاصة فى فاس ، ومراكش من جراء ذلك ، وما تبع ذلك من فوضى حتى أن الفلاحين كانوا يطالبون بالاعشار وبعد دفعها يطالبون بها مرة أخرى وهكذا حتى ترك الفلاحون الحراثه . . المرجع المذكور ص ٨٥ .

وكانت بينه وبين ابنه معارك حتى قتل الأب فى عام ١٠٢٢هـ — ١٦١٣ م واستطاع زيدان أن يصبح صاحب الأمر فى مراكش حتى مات عام ١٠٣٧ هـ — ١٦٢٧م وخلفه إبنه عبد الملك بن مروان إلى أن قتل فى عام ١٠٤٠ هـ — ١٦٣١ م ثم الوليد بن زيدان الذى قتل عام ١٠٤٥/١٦٣٦ م ، ثم محمد الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام ١٠٦٣/١٦٥٣م، ثم ابنه العباس أحمد الذى قتل عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨ . فأنقرض بذلك أمر السعديين بالمغرب — واستبد عرب الشبانات بالأمر فى مراكش إلى أن أنتزع الأمر من يدهم السلطان الرشيد العــــلوى عام ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨ م .[1]

وفى أثناء الخلافات التى حدثت بين أبناء المنصور فر الشيخ المأمون إلى العرائش واستطاع أن يمسك بدفة الأمور بها ، ومنها ركب البحر إلى إسبانيا واتفق مع الأسبان على أن يترك لهم العرائش فى مقابل نصرته على أخوته ، وتيسر للأسبان بذلك الأستيلاء على العرائش فى عام ١٠١٩ هـ - ١١٦١ [2] .

وقد كان لسقوط العرائش فى يد الأسبان رنة فرح كبيرة فى اسبانيا فأقيمت الزينات وأضيئت الأنوار فى الكنائس والمنازل والطرقات[3] .

---

(١) أنظر تقرير (Antonio Pereiro) الذى أصبح حاكما لطنجة عن هذه الأحداث إلى فيليب الثالث ملك أسبانيا (1598-1621) فى :

British Museum—Additional Mss. 28425 FF. 206 – 207

وهو يوضح على الخصوص انعكاس هذه الأحداث على الاطماع الأجنبية فى المغرب وثغوره .

(٢) تاريخ الدولة السعدية : لمؤلف مجهول ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦.

(٣) أنظر تقرير (Cottington) الذى كان سفيراً لإنجلترا فى أسبانيا إلى سالسبورى بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٦١٠.

Public Record Office—State Papers—foreign Spain Vol. XV11. f.f. 217—218.

وكذلك تقريره فى ٤ ديسمبر ١٦١٠ .

Public Record Office—State papers Foreign Spain Vol. XV11. F. 234.

— وأنظر الاستقصاء ح ٦ ص ٢٠ ، ٢١ عن الأعذار التى تعلل بها (الشيخ المأمون) لتبرير تيسيره استيلاء الاسبان على العرائش .

على أن أستيلاء الأسبان على العرائش فى هذه الظروف كانت له آثار عميقة فى المغرب ذاته وفى العالم الاسلامى قاطبة وأنتهى الأمر بقتل الشيخ المأمون فى فاس فى رجب سنة ١٠٢٢ هـ، كما شجع هذا العمل الدولة العثمانية لتحقيق أطماعها فى مد نفوذها فى الشمال الأفريقى. وقد تمادت أسبانيا فى إعتداءاتها على الثغور المغربية منتهزة المحنة التى يمر بها المغرب فبسطت نفوذها فى عام ١٦١٤ إلى المعمورة (المهدية). فأصبحت بذلك تبسط نفوذها على المعمورة، والعرائش، وطنجة، وسبتة، ومليلة - كما شجع هذا الوضع البرتغال على الخروج من عزلتهم بالجديدة.

وفتح هذا الصراع المرير بين أولاد المنصور وأحفاده الباب أمام الأطماع الخارجية بالإضافة إلى الثورات الداخلية.

ومن الأحداث الداخلية الهامة التى ظهرت على المسرح بالمغرب فى هذه الفترة ظهور (الدلائيين). وقد ظهرت الزاوية الدلائية فى البداية كمركز دينى وعلمى يرابط فيه أصحابها للعبادة والتفقه فى أمور الدين ثم لإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم، ثم لقتال الكفار. وقد أخذ أمر هذه الزوايا فى المغرب يتطور خلال القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حين تغلب المسيحيون على المسلمين فى الأندلس وساموهم سوء العذاب. ويرجع تأسيس الزاوية الدلائية إلى (أبى بكر بن محمد)، وبعد وفاته فى شعبان (١٠٢١ هـ سبتمبر ١٦١٢ م) خلفه إبنه (محمد بن أبى بكر) الذى أستمر يسوس أمر الزاوية الدلائية حتى وفاته فى عام ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م فخلفه ابنه (محمد الحاج).

على أن الدلائيين لم يهتموا فى بادىء الأمر إلا بالناحيتين الدينية والعلمية وظلوا يعترفون بسلطة السعديين ملوك مراكش - حتى بعد أن مزقت الحوادث شملهم وبدا عجزهم وقلة كفايتهم. لكن فى ظروف الفوضى هذه التى لم يبق فيها لسلطة السعديين خاصة فى جبال الأطلس، وبلاد تادلا إلا الإسم - كان لابد من وجود قوة محلية تعمل لحفظ النظام وتأمين السبل وحماية القوافل، فتكون فى الدلاء جيش قوى من الفرسان بقيادة أبناء الشيخ محمد بن أبى بكر.

وأدت الأحداث بعد ذلك إلى تدخل الدلائيين وتورطهم فى الشئون السياسية والثورات الداخلية، وتطور الأمر إلى أن أصبحت لهم علاقات ومعاهدات مع الدول الاجنبية التى سعت للإرتباط بهم بعد أن ناست نفوذهم، وسنشير فيما بعد للدور السياسى الهام الذى لعبوه فى الأحداث. وقد ظل أمر الدلائيين قائماً حتى قضى السلطان الرشيد بن الشريف العلوى على كل نفوذ لهم وضرب زاويتهم بعد معركة حاسمة فى سهل (بطن الرمان) سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م [1]

ومن الأحداث الداخلية الهامة التى عاصرت فترة الأضطرابات هذه فى المغرب حركة (أبى العباس أحمد بن عبدالله السجلماسى) الذى عرف بلقب (أبو محلى) وقد زعم أنه من نسل العباسيين وسلك طريق التصوف، ولما سلم الشيخ المأمون السعدى العرائش إلى الأسبانيين دعا للجهاد وتقدم إلى (سجلماسه) فملكها، ثم

---

(١) للدراسة التفصيلية للزاوية الدلائية ودورها السياسى انظر :

الحوات، أبو الربيع سليمان : البدور الضاوية فى التعريف بالسادات اهل الزاوية الدلائية (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٦١ /د).

الرباطى، عبد العزيز بن الحسن مهدى : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غماره (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٦٦/ ج).

— اليفرانى، محمد الصغير المراكشى : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى وصفوة من انتشر من أخيار صلحاء القرن الحادى عشر (١٨٨٨م).

نسخة خطية فى وثائق الرباط تحت أرقام ٤ د، ١١٧ د، ١٧٠ د وهناك نسخة على المطبعة الحجرية — وأخرى مترجمة بالفرنسية.

وهو يشمل تاريخ المغرب خلال القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى). والمؤلف عالم من أسرة معروفة بمراكش، ولد حوالى ١٠٣٠هـ وارتحل لفاس حيث أخذ العلم على كثير من علمائها، وله عدة كتب فى التفسير. وقد تناول فى كتابه هذا تاريخ فترة هامة من حكم السعديين والنسخة الفرنسية نشرها (هوارس) مع فهرس للاعلام وفهرس عام تحت عنوان :

Nozhet el Hadi. Histoire de la Dynastie Saadiennc au Maroc— Paris 1889.

— حجى، محمد : الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (الرباط ١٩٦٣).

استولى على (درعه) ، وقصد مراكش ففتحها وطرد منها زيدان بن المنصور ، لكن أنتهى الأمر بقتله وأنتهاء حركته فى عام ١٠٢٢ هـ — ١٦١٤ م.(١) ومن الشخصيات الوطنية التى برزت فى هذه الفترة فى تاريخ المغرب - الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أبى العباس أحمد الزيانى - وقد أشتهر بلقب (العياشى)(٢).

وكان ظهور العياشى فى أواخر الدولة السعدية - فنهض لمدافعة المستعمرين الطامعين فى المغرب وثغوره فى وقت كانت فيه السلطات الحاكمة فى المغرب — كما رأينا — من الضعف والأنقسام بحيث أصبحت عاجزة من أن تتفرغ للجهاد الخارجى .ولعل أحسن تشبيه للأوضاع فى المغرب فى ذلك الوقت إنها كانت أقرب ماتكون للوضع فى الأندلس أيام ملوك الطوائف . هذا فى الوقت الذى كانت فيه ثلاث قوات رئيسية متنازعة هم الأتراك العثمانيون ، والأسبان ،والإنجليز - تطمع فى بسط نفوذها على الثغور الهامةفى المغرب .

ويبدأ العياشى صفحة جهاده برحله إلى (أزمور) حسب أمر شيخه (الشيخ أبى محمد عبد الله بن حسون السلاسى) وكان ذلك حوالى عام ١٦٠٤ م حيث أخذ يضيق على المستعمرين(٣). ولما بلغ خبر تضيقه على المستعمرين وانتصاراته على جيوشهم إلى بلاط السعديين بمراكش عينوه فى عام ١٠٢٠ هـ — ١٦١١م

---

(١) تاريخ الدولة السعدية - لمؤلف مجهول ص ١٠١ - ١٠٢
والاستقصا جـ ٦ ص ٢٦ - ٣٤ .
وانظر تقارير المراسلين البريطانيين عن هذه الثورة .
وكذلك خطاب مولاى زيدان إلى جيمس الأول المؤرخ فى ٢ ديسمبر ١٦١٤ عن انتهاء هذه الفتنة التى اجتاحت البلاد .

(٢) انظر :
الافرانى المراكشى، مرجع سابق(نسخة خطية بوثائق الرباط تحت رقم ٤/د)ص ١٠٤.

(٣) انظر — شوقى الجمل: محمد العياشى وجهاده ضد الأسبان والبرتغال — صفحة من صفحات الكفاح الوطنى ضد المستعمرين فى الوطن العربى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٦) .

على عمالة (أزمور) ليظل شوكة فى جنب البرتغاليين الموجودين فى (الجديده) يقض مضاجعهم ويبعث فى قلوبهم الرعب والهلع [١] .

فنهض العياشى بأعباء ما حمل به على خير وجه ، وكان يبعث للسلطان زيدان بمراكش بخمس الغنائم التى يغنمها ، وكذا الأسرى من الأعداء فزادت شهرته وذاع صيته .

وحين عجز البرتغاليون عن أن يوقعوا به فى ميدان الحرب عمدوا إلى الخديعة فاشتروا ضمائر حاشية السلطان زيدان بالهدايا والتحف الثمينة ليتخلصوا من هذه الشخصية القوية . ونجحت المؤامرة فقد أغروا السلطان عليه وأدخلوا فى روعه إنه لو ترك وشأنه فى هذه المنطقة فإنه سيكون كغيره عن خرجوا على سلطانه . وكان السلطان زيدان قد أمضى خمسا وعشرين سنة حاكما لم تخل سنة منها من حرب مع خارج على حكمه ـ فجهز السلطان السعدى سرية قوية من أربعمائة فارس وجهها إلى مدينة (أزمور) للقبض على العامل وقتله ـ لكن قائد السرية (محمد السنوسى) علم بجلية الأمر ـ فبعث إلى المجاهد العياشى خفية لينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج إلى (سلا) مسقط رأسه ، وكان ذلك فى عام ١٠٢٣ هـ ـ ١٦١٤ م أى أنه ظل عاملا على أزمور من قبل السلطان زيدان بن أحمد المنصور حوالى ثلاث سنوات [٢] .

وصادف عودة العياشى إلى سلا ـ اضطراب الأمور بها بل وفى المغرب كله ، فقد كان المستعمرون الأسبان قد احتلوا ثغر المعمورة(٣). ولم يحرك

---

(١) نزهة الحادى : مرجع سابق — النسخة الخطية ص ١٠٥ والنسخة الحجرية ص ٢٢٥ .

(٢) انظر ماذكره صاحب نزهة الحادى عن هذه الحادثة — النسخة الخطيةص١٠٥ .

(٣) يقع هذا الثغر شمال مدينة (سلا) على مصب نهر سبو : ويطلق عليه أيضاً اسم(المهديه) .

السعديون ساكناً لوضع حد لهذا العبث الإستعماري ـ حتى أن الأهالي خشوا أن تتكرر مأساة العرائش كما يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية[1] .

فلجأ الأهالي إلى العياشي مستجيرين به بعد أن عاد إلى سلا وقد ذاع صيته عند الناس لما قام به ضد الأعداء أثناء إقامته في أزمور ـ فطلب منهم أن يعدوا العدة للجهاد .

وهاجم العياشي ومن تجمع معه من المجاهدين المغاربة المستعمرين في المعمورة وغيرها وأحرزوا عليهم إنتصارات باهرة[2] .

على أن هذه الإنتصارات وإلتفاف الناس حول العياشي وزيادة أتباعه يوماً بعد يوم ـ أزعج السلطان زيدان بمراكش فبعث إلى قائد قصبة سلا وكان يدعى (الزعروري) يأمره بالقبض على العياشي أو اغتيــاله ، لكن الموريسكيين الذين كانوا تحت إمرة هذا القائد رفضوا الخضوع له ووشوا به لدى السلطان فعزله ، وأرسل مكانه مملوكاً من مماليكه يدعى (عجيبا) ، ولكن ثار الموريسكيون على هذا القائد أيضاً ، وأدى هذا لزيادة عوامل الفوضى في (سلا) فكثر النهب والفساد وقطع الطرقات ففزع الناس إلى العياشي طالبين منه أن يمسك بدفة الأمور فقد كان هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع أن تقوم بهذا الأمر في ذلك الوقت ـ فبايعه الناس وتعهدوا إطاعته . وقد لجأ البلاط السعدي بمراكش للتشكيك في تصرفات العياشي ، فأوصى بعض الفقهاء لينشروا

---

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية (نشر جورج كولان) ص١٠٣ إ .

(٢) املاق ، عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو أملاق : الحر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد .

— أخذ الكاتب الكثير عن نزهة الحادي ، وكذلك عن الدور الضاوية مع بعض الإضافة . وقد مات المؤلف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ورقم النسخة في وثائق الرباط ٩١ / د . وقد وجدت نسخة أخرى خطية أيضا في فاس انتهى منها كاتبها في ٥ صفر ١٣٠٦ هـ (١١ أكتوبر ١٨٣٣) .

بين الناس أن جهادهم مع العياشى باطل ، فالجهاد لا يجوز إلا مع الإمام وبإذن منه . واحتضن البلاط السعدى لهذا الغرض بعض المثقفين مثل (أبو مهدى عيسى الكتانى) قاضى الجماعة بمراكش وغيره — بينما انبرى عدد آخر من العلماء يؤيدون العياشى ويردون على هؤلاء مؤكدين أن قتال العدو لا يتوقف على وجود الإمام[1] .

وحين تولى الأمر الوليد بن زيدان (١٠٤٠هـ — ١٠٤٥هـ) بعد موت أخيه أبى مروان عبد الملك — حاول أن يستميل العياشى إلى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال المسلمين وأحوال العدو فى الثغور والمناطق التى يتصل بها وله فيها أعوان - وقد رد عليه العياشى موضحاً الموقف ، وأوضح كيف نزل الاجانب فى الثغور وامتدت أيديهم — كما يقول - إلى أواسط المعمور ولذا فالجهاد واجب على المسلمين ، وتمثل بجمل من خطاب لعمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص[2] .

على أن العياشى استمر فى جهاده ضد الأسبان والبرتغال كما استمر فى حض المواطنين للإستعداد للجهاد ونبذ الخلافات الجانبية والعادات غير المرضية (كاستعمال بعض الأعشاب المخدرة) وذلك ليفرغوا لطرد العدو من بلادهم[3]

هذا وقد تعددت الاشتباكات بين العياشى وأتباعه من جهة وبين الأسبان والبرتغال من جهة أخرى . . فى (البريجة) وقرب (المعمورة)، و(حلق وادى سيوا)، وبالموضع المسمى (عياشه) قرب جبل الحبيب (الحرائش) ، وفى غيرها من المناطق التى تمركز فيها المستعمرون فى الثغور المغربية - وكانت خسائر العدو

---

(١) الجواهر المختارة — النسخة الخطية ورقة ١٢٢ ، ١٢٦ وقد ذكر بعض الفتاوى التى صدرت فى ذلك الموقف .

(٢) إملاق — ص ٢٢ — ٢٦ .

(٣) ذكر إملاق الكثير من رسائل العياشى المرسلة لمختلف الجهات (أهل فاس، وأهل مكناس ، تطوان فى هذا الشأن) .

انظر : إملاق ص ٢٦ — ٣٣ .

فى الأرواح والسلاح فى هذه المواقع فادحة ـ فقد اتبع العياشى فى حربه هذه نظام العصبات ، فهو يتنقل فى حركاته الجهادية هذه بين المناطق المختلفه يتربص بالعدو ، ويأخذه ، على غرة أو يرسل الجواسيس ممن هم موضع ثقة المستعمرين فيقربوهم . . وتعطينا المصادر المعاصرة صورة لبعض الأحداث المرتبطة بهذه المواقع [1] .

وكان العياشى يتلقى إثر هذة المعارك رسائل التهنئة بالنصر من مختلف جهات المغرب وهيئاته [2] .

وكان العياشى يخرج من معركة ضد المستعمرين ليعد جنده لمعركة جديدة ، فقد كان يعتبر الجهاد ضد العدو ـ كما ذكر فى خطابه لسلطان مراكش ـ واجباً طالما العدو يحتل شبراً من أرض الوطن .

وكانت آخر غزواته ضد الأعداء بطنجة سنة ١٠٥١ هـ ـ ١٦٤١ م . ولا شك فى أن ما مكنه من الإستمرار فى الجهاد حتى نهاية حياته هو ما تميز به من قدرة على إلهاب حماس المواطنين ، وإثارة حميتهم ضد المستعمر الغاصب ، وأن ينظم صفوفهم فى حرب مقدسة حتى أصبحت المنطقة من (الجديدة) الى (طنجه) مسرحاً لعملياته ، وأصبح نفوذه فى هذه المناطق قوياً ومعترفاً به من القبائل العربية ـ بل كان أقوى من نفوذ السلطات الرسمية فى (مراكش) ، وأصبح العدو يقبع داخل حصونه يخشى أن يخرج منها بعد أن كان يعربد فى المنطقة كيفما شاء ـ بل إن الدول الأجنبية الكبرى كإنجلترا حاولت أن تخطب وده لتأمين مصالحها الإقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها فى هذه المناطق .

---

(١) انظر إملاق ص ٣ .
ونزهة الحادى ـ (النسخة الخطية) ص ١٠٨ .
(٢) أنظر رسالة محمد بن أبى بكر الدلائى فى هذا الشأن فى :
سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد على الحوات الحسينى : البدور الضاويه فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائيه ـ نسخة خطية بوثائق الرباط برقم ٢٦١ / د .

وقد كانت المنافسة التجارية بين انجلترا وأسبانيا فى هـذه الفترة قوية ، وتطورت هذه المنافسة فى عهد الملكة اليزابيث (١٥٥٣—١٦٠٢ م) فأصبحت حرباً سافرة . ورغم تلونها منذ البداية بشىء من صفة العداء الدينى المذهبى - فإنها كانت فى جوهرها منافسة إقتصادية إذ أن حب المغامرة والمال والتجارة أغرى الشباب الإنجليزى الذى اعتاد ركوب البحار على أن يتحدى الاحتكار التجارى الذى فرضته أسبانيا - خاصة أن انجلترا نظرت بعدم الرضى للوضع الذى آلت اليه الأمور بعدأن انتقلت الى فيليب الثانى (Philippell) الأملاك البرتغالية الغنية والقواعد العسكرية فى جزائر البهار ،وجزائر الآزور ، وجزائر الهند الشرقية بعد موت (دون سبستيان) . ولقد أنتهى هذا الدور من المنافسة بين الأسبان والانجليز بتحطيم قوة أسبانيا البحرية (الارمادا) عام ١٥٣٨ ، لكن هذه الهزيمة لم تكن الفصل الأخير فى الحرب الطويلة بين البلدين - فقد استمرت هذه الحرب بعد وفاة فيليب الثانى واليزابيث .

وقد اضطرت الحكومة الانجليزية تحت ضغط من المغامرين الإنجليز إلى الإسهام بقوة فى النشاط البحرى والإستعمارى ، وأن تعمل كل ما فى وسعها لتكفل الحماية للرعايا البريطانيين وهم يزاولون نشاطهم فى ثغور المغرب (كتطوان) و (الرباط) . وبعض الوثائق والكتب التى نشرت عن رحلات السفن الإنجليزيه والبحارة والمغامرين البريطانيين بهذه الثغور تكشف لنا عن بعض الجوانب من العلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة[1] .

---

(١) أنظر :

Memoire De S. Scot sur la commerce Marocain (1638).

Pere Dan : l'Histoire de Barbarie et ses crossaires (1644).

ولمن يريد التوسع فى دراسة هذه العلاقات الإنجليزية المغربية وتطورها فى خلال القرنين ١٦ و ١٧ ، أنظر:

شوقى الجمل : العلاقات الانجليزية المغربية خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر (مجلة المناهل المغربية العدد الثالث - سنة ١٩٧٥) .

وفيما يتعلق بالعياشي فقد تطورت العلاقات بينه وبين الدلائيين ، فلم تستمر العلاقات الطيبة التي كانت بينه وبين وصديقه محمد بن أبي بكر الدلائي والتي وصلت إلى أن العياشي كان ينبيء صديقه بما يعتزم القيام به من حركات الجهاد بل ويطلعه على خططه الحربية [1] .

بل وكان يهدى للدلائي بعد انتصاره في كل معركه من معاركه جزء من الغنائم يستعين به هو وأنصاره على أداء رسالتهم . فبعد وفاة محمد بن أبي بكر في عام ١٠٤٦ هـ - ١٦٣٦ م وتولى إبنه الأكبر محمد الحاج الأمر بعده - انقلبت الصداقة الى عداوة وانتهت بحرب طاحنة بين الطرفين [2] .

ففي أوائل عام (١٠٥٠ هـ - ١٦٤٠ م) زحف محمد الحاج الدلائي بأعداد كبيرة من أنصاره من عرب وبربر على مدينة مكناس ، ثم اتجه إلى فاس وحاصرها وهب العياشي لمواجهته . واستطاع الدلائيون أن يوقعوا الفرقة بين أنصار العياشي من قبائل الكوارده و التاغي والدخيس والخلط ، وانتهزوا فرصة انشغال العياشي بقتال الاسبان في طنجه فجمعوا حشوداً كبيرة شمال نهر سبو - لتعترض طريقه أثناء عودته من القتال . وحاول العياشي تجنبهم خاصة أنه كان عائداً منهكا من معاركه مع الأسبان - لكن اتباعه أبوا إلا أن يتصدوا لقتال أعدائهم - فوقعت معركه حامية الوطيس بين الطرفين في ضواحي سوق أربعاء الغرب في أواخر ذى القعدة عام ١٠٥٠ هـ - ١٦٤١ م ولجأ العياشي إلى قبيلة الخلط ولم يكن يعلم أنهم انحازوا إلى أعدائه فاغتالوه في عين القصب التي تقع على بعد ٢٠ كيلو متراً غرب سوق أربعاء الغرب وكان ذلك في ١٩ محرم ١٠٥١ هـ - ٢١

---

(١) إملاق : مرجع سابق ص ١٠ ، ونزهة الحادى - ص ١٠٥ .

(٢) للدراسة المستفيضة لمراحل جهاد العياشي ضد المستعمرين انظر :

شوقي الجمل : محمد العياشي وجهاده ضد الأسبان والبرتغال (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد عام ١٩٧٦) .

أبريل ١٦٤١ م — وبموت العياشى تفرق أنصاره وخلا الجو للدلائين فاستولوا على فاس وسلا وتطوان وأصبح لهم النفوذ فى باقى بلاد المغرب التى كانت تدين بالولاء للعياشى[1] .

نهاية الدولة السعدية :

نعتبر الدولة السعدية فى الحقيقة دولة حربية — قامت للجهاد ضد أعداء البلاد والطامعين فى ثغورها فى وقت كانت فيه الحاجة ماسة لمن يتصدى لهؤلاء الغزاة ويوقف تيارهم ويستخلص من براثنهم ما استولوا عليه من الثغور المغربية .

ولقد استطاعت هذه الدولة وهى فى قوتها أن تؤدى واجبها هذا على خير وجه . وكانت موقعة وادى المخازن الحاسمة فى جمادى الثانية سنة ٩٨٦ هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨ م أروع صفحة فى هذا الكفاح المجيد ، كما كان عصر السلطان أحمد المنصور أزهى عصور هذه الدولة .

لكن الإنقسام الذى نشب بعده والتنازع بين أفراد الأسرة السعدية ذاتها أدى الى تدهور أحوال البلاد ونشوب عدة ثورات ، وتجرؤ الأجانب .

ولقد هيأت العناية الآلهية للشعب المغربى فى هذه الفترة الحرجة من تاريخه من ينقذه ويأخذ بيده — ففى سجلماسة كانت الدولة العلوية الشريفة قد أخذت تعمل لتمسك بدفة الأمور لتسيير سفينة المغرب فى فترة هامة من تاريخه .

---

(١) من يريد التوسع فى دراسة الدور الذى لعبته الزاوية الدلائية فى تاريخ المغرب انظر :

ا — الحوات ، ابو الربيع سليمان بن محمد العلمى مرجع سابق .

ب — حجى ، محمد : الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى السياسى (الرباط ١٩٦٣)

الفصل السابع

الدولة العلوية

(١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م)

تأسيس الدولة العلوية الشريفة :

يرجع نسب الأسرة العلوية إلى علي بن أبي طالب ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من جاء من هذه الأسرة إلى المغرب هو المولى حسن بن قاسم ، وكان ذلك في القرن السابع الهجري، فاستوطن (سجلماسه)[1] .

وكانت للمولى (علي الشريف) - جد الأسرة العلوية الشريفة - مواقف مشرفة في الجهاد بالسودان ، وكانت له في النفوس منزلة ، فقد كان أهل سجلماسه وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات ويهرعون إليه فيما جل وقل[2] .

---

(١) يورد الاستقصا أقوال العلامة (أبو سالم العياشي) في رحلته ، وكذلك ماجاء بكتاب (الأنوار السنية فيما بسجلماسه من النسبة الحسينية) • وما ذكره صاحب الأرجوزه - وغيرهم عن سبب مجيء جد الأسرة المولى حسن بن قاسم إلى المغرب

الاستقصا (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٦) جـ ٧ ص ٣ ، ٤ ، ٥

ملاحظة : سجلماسه - مدينة عتيقة أسسها بنو مدرار في القرن الثاني للهجرة ، وكانت عاصمة لإقليم « تافيلالت » إلى ما بعد القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). وما زالت أطلالها ماثلة للعيان حتى اليوم .

انظر حجي ، محمد : الزاوية الدلائية (١٩٦٤) ص ١٥٨ .

(٢) اليفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (المطبعة الحجريـــة بفاس) ص ٢٥١ .

ولم تقتصر مكانة (المولى على الشريف) على المغرب ، فقد وصل صيته وسمعته إلى الأندلس . فكتب إليه علماء (غرناطه) يستغيثون به ويطلبون منه العبور إليهم ، حتى أنهم أرسلوا إليه ـ حين علموا بعزمه على التوجه لأداء فريضة الحج بفتوى صادرة من بعض الأئمة ، بأن العبور للجهاد ـ أفضل من الحج »[1].

على أن إزدياد نفوذ المولى على أوغر صدر أبا حسون السملالى المعروف بأبى دميعة ، وكان قد استولى على القطر السوسى ، ودرعه ، وسجلماسه ، فأوجس خيفة من المولى على الشريف فألقى عليه القبض وأعتقله بسوس[2].

وكان أصحاب أبى حسون قد أساءوا السيرة بسجلماسة ، وضيقوا على الناس حتى إزدرتهم العيون وملتهم النفوس ، فأجمع أهل سجلماسه على بيعة (المولى محمد بن الشريف) ، فبايعوه سنة ١٠٥٠ هـ ، ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسه ، وكان ذلك مبدأ تأسيس الدولة العلوية .

ووقعت بين المولى محمد وأبى حسون حروب انتهت بإستيلاء المولى محمد على (درعة) واعمالها ، وأدت هذه الإنتصارات إلى ازدياد إلتفاف الناس حوله ، وذاع فى بلاد المغرب كله صيته فعمل على بسط نفوذه على باقى أجزاء المغرب حتى تتوحد السلطة كلها فى يد حاكم واحد .

وأدى هذا لإصطدامه (بأبى عبد الله محمد الحاج الدلائى) زعيم الدلائيين ، وكان نفوذهم فى ذلك الوقت قد امتد إلى فاس ، ومكناسه وأعمالها ، وسلا . وزحف محمد الحاج الدلائى إلى (تافيلالت) على رأس جيش جرار من البربر فى أوائل عام ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م ليقضى على منافسه محمد بن الشريف ، وكانت بينهما (وقعة القاعة) المشهورة التى أسفرت عن انتصار الدلائيين ودخول محمد

---

(١) انظر بعض أقوالهم فى هذا السبيل ، وبعض قصائد شعرائهم فى: الاستقصا جـ ٧ ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢) بعد ذلك نجح ولده (المولى محمد) فى فك أسره ، وقضى بقية عمره فى سجلماسة حتى توفى فى ثالث عشر رمضان سنة ١٠٦٩ هـ .

الحاج مدينة سجلماسة وأباح للبربر أن يفعلوا فيها مايشاءون . لكن تم الصلح بين الطرفين على اقتسام مناطق النفوذ فجعلوا مادون جبل العياشي للمولى محمد، وما فوق ذلك من البلاد خاصاً للدلائيين . لكن لم يلبث أن تطورت العلاقات بين الطرفين تطوراً سيئاً انتهى أخيراً بالقضاء على الزاوية الدلائية كما سنوضح فيما بعد[1]

واتجهت أنظار المولى محمد أيضاً إلى الأقاليم الشرقية من المغرب فاستولى على وجده ، كما شن الغارات على (تلمسان) ، وكانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الأتراك الذين كانت لهم السيادة الرسمية فى الجزائر .

على أن المولى الرشيد بن الشريف على لم يلبث — بعد وفاة والده — أن خرج على بيعة أخيه المولى محمد ونزل (وجده) ودعا لنفسه بشرق المغرب وأنتهى الأمر بين الشقيقين بالقتال الذى ذهب ضحيته المولى محمد فى محرم عام ١٠٧٥ هـ (أغسطس ١٦٦٤ م) .

المولى الرشيد (١٠٧٥ - ١٠٨٢هـ/١٦٦٤ - ١٦٧١ م) :

بعد وفاة المولى محمد بن الشريف بويع المولى الرشيد وإنضم إليه جند أخيه المتوفى فتقوى أمره وتقدم إلى (تازا) فملكها وخضع لسلطانه المغرب الشرقى كله ، وقصد (سجلماسه) ، وكان قد تزعم أمرها ابن أخيه محمد الصغير فحاصرها حتى سقطت فى يديه ، ووقف أهل (فاس) فى المبدأ فى وجهه وقضى الرشيد عام ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٥م كله فى حصار فاس دون جدوى ، ولم يستطع دخولها إلا بعد أن عقد اتفاقاً سرياً مع بعض أعيانها الذين مهدوا له السبيل لذلك ـ وكان دخوله فاس فى أوائل ذى الحجة سنة ١٠٧٦ هـ ،فلما تمت له البيعة

---

(١) حجى ، محمد : مرجع سابق ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

فيها ـ أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء فتمكنت محبته من قلوب الخاصه والعامة[١] .

ثم غزا المولى الرشيد أحواز مكناسه . وكان على الرشيد بعد ذلك أن يواجه الدلائيين ، وكانوا قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكان زعيمهم (محمد الحاج الدلائى) قد بلغ الثمانين من عمره ولم يكن حياً من أبنائه فى ذلك الوقت إلا ابنه (عبد الله) .

ودارت المعركة الفاصلة بين السلطان الرشيد وبين الدلائيين فى سهل (بطن الرمان) فى الأيام الأولى من عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م حيث هزمهم الرشيد وتتبعهم إلى أبواب مدينة الدلاء ذاتها ودخلها وبقى فيها شهراً ونصف ، واستولى على ما كان فيها من مال وذخيرة وخيل وسلاح ، وأخذ ما كان فى خزائنها من وثائق ، وألزم من بقى حيا من الدلائيين بالرحيل إلى فاس ، وأمر بهدم المدينة[٢] .

ولما فرغ المولى الرشيد من أمر الدلائيين توجه إلى (مراكش) فاستولى عليها فى سنة ١٠٨١ هـ بعد أن هزم حاكمها (أبا بكر الشبانى)[٣] .

---

(١) انظر الأخبار المفصلة عن هذه الأحداث فى :

— القادرى ، أبو محمد عبد السلام بن عبد الله بن الخياط : التحفة القادرية فى التعريف بشرفاء أهل وزان (جزآن ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٣٢١ / ك) جـ ٢ ص ١٥٠ وما بعدها .

— اليفرانى : النزهه ـ طبعه فاس ص ٢٧٠ .

— الزيانى ، أبو القاسم : البستان الظريف فى دولة أولاد مولاى الشريف (مخطوط بالوثائق بالرباط تحت رقم ١٥٧٧/د) ص ٣٤ .

(٢) المرجح أن سهل (بطن الرومان) المقصود ، يقع بطريق (حميرة) شمال الزاوية الدلائية ، أما عن موقع الزاويه الدلائية ذاتها فقد تعرض لهذا الموضوع بالتفصيل : حجى ، محمد : مرجع سابق ص ٣٤ وما بعدها .

— وانظر اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود : المحاضرات (الطبعة الحجرية بفاس ١٣١٧ هـ) ص ٨٦ ، ٨٧ .

ملاحظة : عفا فيما بعد عن أهل الدلاء وترك لهم حرية الرجوع لبلادهم

(٣) من يريد التوسع فى تفاصيل فتح مراكش ومقتل الأمير (أبى بكر الشبانى) وشقيقه يرجع إلى — اليفرانى : النزهة (مرجع سابق) ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

كذلك غزا المولى الرشيد بلاد السوس وقضى على بقية نفوذ آل أبي حسون السملالي، وهكذا نجح في أن يقضي على كل الأفراد الصغار الذين كانوا منتشرين في بلاد المغرب، وبذا حقق وحدة المغرب السياسية[1].

ومن الأعمال الهامة التي تمت في عهد المولى الرشيد تنظيم الجيش، فكان يتألف من فرق أهمها فرقة (شراقة) التي ألفها من شباب القبائل التي وفدت عليه من العرب ومن البربر من بادية تلمسان وغيرها من جهة الشرق عن المغرب، وبنى لهم قصبة خاصة في المنطقة الواقعة بين نهري سبو، ورغه[2].

على أن أعمال المولى الرشيد لم تقف عند حد نشاطه الحربي فقد تمت في عهده عدة منجزات عمرانية، كما ساد الرخاء البلاد بعد أن استقرت أمورها في يد حاكم واحد، وقد ضرب المولى الرشيد نقوداً مستديرة من النحاس (الأشقوبية) وكانت من قبل مربعة.

واستأنفت الحركة العلمية والأدبية في عهده سيرها، وقد كان له اهتمام بالعلم، يعرف له حق قدره ويشجع أربابه ويجزل لهم العطايا، وكان يحضر بنفسه مجالس العلم بالقرويين[3]، بل ويزور العلماء شخصياً في دورهم. وقد أمر ببناء مدرسة في مراكش بإزاء مسجد (الشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح) وأخرى شرع في بنائها بفاس في عام ١٠٨١ هـ.

ومن أهم الأعمال العمرانية في عهده بناء قنطرة نهر سبو ذات الأقواس الأربعة خارج فاس، وتجديد قنطرة (واد الرصيف) بفاس.

---

(١) حقي، إحسان: المغرب العربي (د. ت) ص ٢٠.

(٢) لعل هذا الموقع في جهة الشرق عن المغرب الأقصى هو السبب في هذه التسمية (شراقة).

الاستقصا جـ ٧ ص ٤١.

(٣) ذكر القادري، محمد بن الطيب: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (مخطوط بالوثائق بالرباط برقم ٢٢٥٣/ك) — أن المولى الرشيد كان يحضر مجالس الشيخ اليوسي بالقرويين.

وتوفى المولى الرشيد بمراكش فى عام ١٠٨٢ هـ، ودفن بالقصبة بها — لكنه نقل بعد ذلك إلى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفاس .

المولى اسماعيل (١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ / ١٦٧١ - ١٧٢٦ م) :

لما توفى المولى الرشيد كان أخوه المولى اسماعيل بمكناسه الزيتون خليفة عن أخيه على بلاد الغرب . فاجتمع الناس هناك واتفقوا على أنه الأهل للبيعة فبايعوه سنة ١٠٨٢ هـ ، وقدم عليه جل أعيان المغرب وعامائه مبايعين وكان سنه يومئذ ٢٦ سنة[١] .

ومع ذلك فقد واجه فى بداية عهده عدة ثورات وتقاسم الثوار البلاد وصاروا كملوك الطوائف بالأندلس ، وثار عليه ابن أخيه (أبى العباس أحمد ابن محرز) ، وسار إلى مراكش داعياً لنفسه، فالتفت حوله بعض القبائل النازحة إليها ، فأضطر المولى اسماعيل للزحف على مراكش ودخلها يوم الجمعة سابع صفر سنة ١٠٨٣ هـ، وفر أحمد بن محرز ودخل الصحراء .

هذا وقد عاد هذا الثائر إلى مراكش مرة أخرى منتهزاً فرصة إنشغال المولى اسماعيل بإقرار الأمن فى أماكن أخرى من مملكته ـ واضطر السلطان لمحاصرة مراكش من جديد ودخلها عنوة ثانية سنة ١٠٨٨ هـ وفر أحمد بن محرز من مراكش إلى إقليم السوس مع قلة من جموعه[٢] .

وقد تجددت المعارك ثانية بالسوس بين ابن محرز والمولى اسماعيل، فقد دخل ابن محرز (تارودانت) وتحصن بها وطال حصار السلطان المولى اسماعيل لإبن أخيه وأنتهى الأمر بتوقيع صلح بينهما فى عام ١٠٩٤ هـ .

---

(١) انظر ماذكره عن بيعته :

اليفرنى ، أبو عبد الله محمد الصغير : روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف (المطبعة الملكية بالرباط ١٣٨٢ هـ/١٩٦٢م) ص ٤٧ .

القادرى : نشر المثانى ـ مرجع سابق ص ٢٧١ .

كما واجه المولى اسماعيل ثورة جديدة قامت فى (فاس) فقد قتل أهلها قائد الجيش المعسكر بمنطقتهم (زيدان بن عبيد العامرى) — فقاتلهم المولى اسماعيل إلى أن أذعنوا من جديد إلى طاعته فعفا عنهم .

كذلك خرج بعض شيعة الدلائيين من البربر والتفوا حول أحمد بن عبد الله الدلائى فأرسل إليهم المولى اسماعيل قواته فهزمتهم هزيمة شنعاء وقتل رؤساء هذه الفتنة وأوقع بهم عقوبات رادعة ليكونوا عبرة لغيرهم[1]

كما اضطر المولى اسماعيل لمواجهة أخواته الثلاث من أولاد المولى الشريف ابن على حين خرجوا عليه وأعلنوا الثورة (بآيت عطاء) واعتصموا بجبل (سرغو) فطاردهم حتى أرغمهم على الفرار وأذعن له من كان معهم - كما كانت له معارك حامية الوطيس مع البربر فى جبال (فزاز) ، وبعد أن انتصر عليهم أمنهم على أن يركنوا للهدوء ويشتغلوا بالرعى والحرث ، وأعطاهم ٢٠٫٠٠٠ رأس من الغنم لتربيتها على أن يدفعوا كل عام صوفها وسمنها .

وقد اتخذ المولى اسماعيل مكناسة الزيتون[2] عاصمة لملكه فهدم القصور القديمة بها وجدد بناءها وبنى بها قصبة عظيمة ، وسوراً للمدينة ، وجلب لذلك الصناع من جميع حواضر المغرب ، وفرض العمل بها مناوبة على القبائل ، واستمر البناء والتشييد والغرس بمكناسة سنين ، وأسس (الجامع الأخضر) بها ، أما قصبتها فجعل لها عشرين باباً ، فوق كل منها برج عظيم عليه المدافع النحاسية ، وجعل بها بركة تسير فيها الزوارق ومخزناً عظيما لإختزان الغلال ، وكذلك إصطبلا لربط الخيل ، ويقال إنه كان يتسع لإثنى عشر ألف فرس ،

---

(١) انظر تفاصيل هذه المعارك فى : نشر المثانى للقادرى ، المخطوط السابق ذكره .

(٢) مدينة (مكناسة الزيتون) من الأمصار القديمة بأرض المغرب ، بناها البربر قبل الإسلام ، وخربت أثناء حصار الموحدين لها ، فبنوا مكناسة الجديدة المسماه (تاكرارت) ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا واتخذوها كرسى الوزارة بينما كانت فاس الجديدة كرسى الإمارة .

وأماكن لوضع سلاح الفرسان ، كذلك بستان غرست به أشجـــار الزيتون وأنواع الفواكه المختلفة ، وكانت داخل هذه القصبة القصور تتخللها الشوارع المتسعة المستطيلة[١] .

وقد كان يشتغل فى عمليات البناء والتشييد هذه الأسرى، وقد قدر عددهم فى سجونه بخمسه وعشرين ألفاً ونيفاً ـ كانوا يعملون فى بناء قصوره ، منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمهندسون والأطباء ، كذلك كان يعمل معهم المسجونون من أهل الجرائم كالقاتل والسارق وكان عددهم يبلغ الثلاثين ألفاً[٢] .

وقد اهتم المولى اسماعيل بعد أن استقر له الأمر بإقرار الأمن الداخلى بالإضافة إلى تأمين حدود المغرب وتطهير الشواطىء والثغور المغربيـة من المستعمرين الأجانب .

ولتحقيق هذه الأهداف لجأ إلى نزع السلاح من الأفراد والقبائل مع إقامة مراكز حصينة وقلاعاً فى جميع المراكز فى جبال الأطلس ، وسهول ملوية ، وفى المدن الهامة لضمان سلامة الطرق . وقدر عدد القلاع التى أقيمت بمختلف ربوع المغرب بست وسبعين قلعة وحصن ، جعل لـكل منها حامية مسلحة يتراوح عدد أفرادها من ١٠٠ إلى ٥٠٠ شخص حدد لهم مرتبات خاصة وحملهم مسئولية حفظ الأمن ، كما بنى إلى جانب كل قلعة نزلا لمبيت القوافل وأبناء السبيل.

(١) وصفها الزيانى ، أبو القاسم : البستان الظريف فى دولة أولاد مولاى الشريف (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٥٧٧/د) .

قال . « لقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك فى دولهم ، ولا شاهدناه فى آثارهم ، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى اسماعيل رحمه الله فى قلعة مكناسة دار ملـكه . . ومن يوم مات المولى اسماعيل ـ والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور قدر وسعهم وبحسب طاقتهم يبنون بانقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن إلى وقتنا هذا ، بنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات . . وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة »

(٢) البستان الظريف ـ المخطوط السابق، ص ٣١ .

ـــ الحسن بن محمد الحسنى الادريسى المنونى : النزع اللطيف فى التلميح بمفاخر مولاى اسماعيل بن الشريف (مخطوط رقم ٥٩٠ ج بوثائق الرباط) ص ٦١ ومابعدها .

وهكذا قضى على قطاع الطرق فساد الأمن والطمأنينة فى أيامه[1] . ولقى الجيش الكثير من عناية المولى إسماعيل ، فقد كان يعد العدة لتطهير شواطىء المغرب وثغوره من الإحتلال الأجنبي . فأعد الجيش المغربى إعداداً كاملا لهذه المهمة[2] . ولجأ المولى إسماعيل إلى عبيد السنغال الذين كانوا قد كثر عددهم من أيام استيلاء المنصور السعدى على السنغال ، فتسربوا إلى المغرب إما بطريق الشراء أو المهاجرة وتناسلوا وكونوا عنصراً قوياً فى البلاد ، وفطن المولى إسماعيل إلى مميزاتهم فأمر بجمعهم ، وكتب لعماله بالأمصار ليشتروا له العبيد فكون منهم جيشا أطلق عليه اسم (جيش عبيد البخارى)[3] .

وهكذا أصبح الجيش المغربى مؤلفاً من :

(أ) جيش الودايا .

(ب) جيش العبيد .

وكان يأخذ أولاد العبيد وبناتهم من سن العاشرة لتربيتهم تربية خاصة ، فيوزع الأولاد على معلمى الصناعات اليدوية من بنائين ونجارين وحدادين وغيرهم ، فإذا أكملوا تدريبهم فى هذه الصناعات ينقلون إلى مراكز التدريب العسكرى فيمرنون على ركوب الخيل والكر والفر والمطاعنة والرماية — بينما

---

(١) الاستقصا حـ ٧ ص ٦١ — ٦٣ ، ٧٣ .

— وكذلك : كناش كاتب الدواين الرشيدية والإسماعيلية — الفقيه أبى الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهونى ، وكان عنده دفتر العسكر الموجودين فى القلاع أو فى المعسكرات .

— وكذلك الزيانى : البستان (المخطوط السابق) ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) النزع اللطيف — مخطوط سابق ، ص ١٣٥ .

(٣) ترجع هذه التسمية الى أن السلطان — ليضمن إخلاصهم وولاءهم — أشعرهم أنهم لايقومون بواجب القتال إلا حسب ما تقتضيه الدين ويفرضه عليهم .

وبقال إنه جمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخارى وقال لهم « أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع فى هذا الكتاب — فكل ما أمر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » — فعاهدوه على ذلك — فكانوا يحملون نسخة من صحيح البخارى حال ركوبهم يقدمونها أمام حروبهم كتابوت بنى اسرائيل . ولذا قيل لهم عبيد البخارى .

— انظر الاستقصا حـ ٧ ص ٥٨ .

يعهد بأمر البنات إلى عريفات لتربيتهن وتدريبهن على الأشغال المنزلية — وبعد ذلك يزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات ثم يلحق كل مجموعة منهم بقائد من قواد جنده — وقد بلغ عدد هذا العسكر (البخارى) فى عهده ما يقرب من مائة وخمسين ألفاً — عهد إلى بعضهم بحراسة الطرق وحماية الأمن عن طريق القلاع التى شادوها . بينما كوّن الباقون جيش القتال المسمى (جيش المحلة) ، وكانت له مراكز خاصة فى فاس ومكناس ومراكش وغيرها من أمهات مدن المغرب[1] .

وحين اكتملت أعداد الجيش واطمأن إليه — هاجم ثغر (المعمورة) وأسر فيه نحو الثلاثمائة من حاميته .

وكان البرتغال قد تنازلوا عن طنجه لانجلترا عام ١٠٧١ هـ / ١٦٦١ م بعد أن حكموها ما ينيف عن قرنين ، فقد احتلوها عام ٩٦٨ هـ / ١٤٦٤ م وذلك كمهر قدمته (كاترين دوبراكانس) شقيقة ملك البرتغال لزوجها (شارل الثانى) ملك انجلترا — فأرسل المولى إسماعيل جيشاً على رأسه أبو الحسن على بن عبد الله الريفى ضيق الحصار على الإنجليز بها — فاضطروا فى عام ١٠٩٥ هـ الى إخلائها وتركوها بعد أن خربوا وهدموا أسوارها فدخلها جيش المولى إسماعيل وجدد بناءها من جديد[2] .

وفى سنة ١١٠٠ هـ أرسل القائد (أبى العباس أحمد بن حدو) لحصار الأسبان فى العرائش ، فضيق عليهم الخناق وظل محاصراً لهم نحو ثلاثة أشهر ونصف حتى سلمت حاميتها وأسرت كلها إلا قائدها الذى أطلق سراحه ، وغنم المسلمون

---

(١) تحدث بإسهاب (صاحب البستان) عن هذا الجيش ، بل علق عليه بقوله « هذا العدد الذى جمعه أمير المؤمنين المولى اسماعيل رحمه الله من العبيد ، لو خاض به البحر الى الأندلس ، وكانت تلك القلاع سفناً ومراكب جهادية لأستولى عليها — والتوفيق من الله » .

(٢) الزيانى : البستان . المخطوط السابق ص٣٢ .
— اليفرنى : روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف ص ٥٨ .
— اليفرنى : نزهة الحادى ص ٢٧٣ .

غنائم كثيرة . وقد كان لإسترجاع العرائش صدى كبير فى نفوس المغاربة فتغنى الشعراء بهذا الحدث العظيم[1] .

وفى سنة ١١٠٢ هـ سقط فى يد جيش المولى إسماعيل ثغر أصيلا بعد حصار دام سنة كاملة – فلم يبق بيد الأسبان إلا (سبته) و (مليله) . فأرسل المولى إسماعيل جيشاً كبيراً لحصار سبته ، كما أمر كل قبيلة بأن ترسل قوة من رجالها للمساهمة فى هذا الحصار حتى قيل إن عدد المرابطين عليها بلغ خمسة وعشرين ألفاً ، وكان على رأس الجيش المحاصر لها (أبو الحسن على بن عبد الله الريفى) ثم خلفه إبنه (أبو العباس أحمد بن على) ، لكن لم يقدر له فتحها[2] .

هذا وقد شهدت علاقات المغرب الخارجية تطوراً واضحاً فى عهد المولى إسماعيل[3] .

فمن جهة العلاقات مع الإتراك – كانت قد شهدت توتراً بسبب الخلاف على الحدود الجزائرية المغربية ، لكن تم الإتفاق بين الطرفين فى عهد (المولى محمد بن الشريف) ، وجدد هذا الإتفاق فى عهد المولى الرشيد – لكن حين استتبت الأمور للمولى إسماعيل فكر فى عام ١٠٨٩ هـ فى مهاجمة الأتراك بالجزائر – لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه فى أن يوقع بهم هزيمة فيهـــا ، ولذا جرت مفاوضات أتفق فيها على العمل بالإتفاقيات السابقة التى حددت فيها الحدود بين الدولتين .

ولكن الأتراك انتهزوا فرصة إنشغال المولى إسماعيل بالإضطرابات التى أثارها أخوته الثلاثة وابن أخيه أحمد بن محرز – فهاجموا الحدود الشرقية للمغرب – لكن لم يستطيعوا الإستمرار فى هجومهم لتعرض مواقعهم فى الجزائر نفسها لهجمات الدول البحرية الأجنبية ، وحين استقرت الأمور الداخلية بالمغرب

---

(١) اليفرنى: روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف ص٥٩ و٦٠ .
— انظر القصائد التى نظمت فى هذه المناسبة .
(٢) النزهة اللطيف (مخطوط سابق) ص ١٤٨ .
(٣) تناول صاحب النزهة اللطيف بالتفصيل هذه العلاقات فى الباب الثامن من مخطوطه ص ١٨٧ وما بعدها ، وكذلك الباب الخامس عشر من المخطوط ص ٢٩٤ وما بعدها .

شن المولى إسماعيل هجوماً على الأتراك فى الجزائر فى عام ١١١٢ هـ . على أن الامور استقرت عند الحدود السابقة بين البلدين عند (واد تافنا) ، حيث أن كلا من القوتين لم تستطع أن توقع هزيمة حاسمة بالقوة الأخرى .

أما عن علاقة المغرب بالدول الاوروبية ـ فقد كانت على العموم ودية خاصة بعد أن استطاع المولى إسماعيل أن يستخلص الثغور المغربية الهامة من بين أيديهم . فبعد جلاء الإنجليز مثلا عن طنجة استؤنفت العلاقات الودية بين الدولتين، وعقدت معاهدة صداقة بينهما . كما كانت العلاقات مع فرنسا ودية أيضاً ، ففى عام ١٦٨٨ م عقدت بين فرنسا (لويس الرابع عشر) والمغرب (المولى اسماعيل) معاهدة صداقة تتعلق بفداء الأسرى الفرنسيين فى المغرب ، وبالتبادل التجارى بين الدولتين ،وجرت محادثات بين المولى اسماعيل ولويس الرابع عشر بخصوص تحالف الدولتين ضد أسبانيا .

وكان للعلم والعلماء منزلة خاصة عند المولى اسماعيل ، فكان يكرم العلماء ويجزل لهم العطاء . ويورد صاحب النزع اللطيف أمثلة عديده على ذلك[1] كما يورد بياناً بما شيد وجدد فى عهده من مساجد ومدارس[2] .

وتوفى المولى اسماعيل فى الثامن والعشرين من رجب سنة ١١٥٩ هـ بعد أن حكم سبعاً وخمسين سنة خلاف المده التى تولى الأمر فيها نائباً عن أخيه المولى الرشيد وهى سبع سنين[3] .

فترة الإضطراب التى تلت وفاة المولى اسماعيل:

إستطاع المولى اسماعيل أن يجعل من الجيش العظيم الذى كونه أداة فعالة لحفظ النظام ، وإقرار الامن فى البلاد ودفع المغير عنها ، وإستخلاص ثغورها من يد الأعداء ، وكان قد اعتنى ـ كما رأينا ـ بجمع العبيد وتربيتهم ، الى أن

---

(١) النزع اللطيف : المخطوط السابق ص ٧٢

(٢) المخطوط السابق ص ٣٦٩ وما بعدها .

(٣) انظر نشر المثانى : المخطوط السابق الإشارة إليه
وكذلك البستان » » » ص ٤٦ ، ٨٢وما بعدها .
— والنزع اللطيف (المخطوط السابق الإشارة إليه) ص ٥٠٣ .

بلغ عددهم ما يقرب من مائة وخمسين ألفاً ، وبلغوا فى أيامه درجة فائقة من العز والرفاهية والتسلح والتدريب على القتال والطاعة والإنضباط ، والكفاية الحربية ، ووزعهم على قلاع المغرب فكانوا عيونه الساهرة على حراسة الطرق وحماية الثغور . وكانت كل قبيلة من قبائل المغرب ملزمة بدفع أعشارها لصالح القلعة المبنية فى جهتها لمؤونة جيشها ، وعلف خيلها ، واستمر ذلك إلى أن توفى المولى اسماعيل فتبدل أمرهم ، وكان مآل هذا العسكر مع أولاده — كما يقول صاحب البستان — مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسى فى كونهم استبدوا بهم وصاروا يولون ويعزلون[1] .

فتدخلوا فى شئون الدولة وأصبح بيدهم الأمر المطلق فى البلاد ، وصار أساس تولية الملك ليس هو العمل لصالح البلاد — لكن إرضاء رجال الجيش وإجابة مطالبهم التى لم تكن تنقطع ،فإنتشرت الفتن والقلاقل وعم الإضطراب والفوضى ، وتعدد تولى الملوك وعزلهم من أبناء المولى اسماعيل — فلا يكاد الواحد منهم يستقر فى الحكم حتى يثور عليه هؤلاء الجنود — الذين كان السلاطين عادة — رغم ما حملوه للأهالى من أعباء — عاجزين عن إجابة طلباتهم المستمرة .

وعانت البلاد من جراء عمليات النهب والسلب والقتل والفتك ما يجل عن الوصف دون رادع يردع المعتدين ويحمى عامة الشعب ، ووصل الأمر إلى أن ترك الجنود قلاعهم التى كانوا مقيمين بها وانتشروا فى القبائل التى كانوا مجاورين لها ، وامتدت أيدى النهب والتخريب للقلاع ذاتها فاقتلعت أبوابها وأخشابها وتركت خاوية لم يبق بها إلا الجدران القائمة . واستمرت حالة الإضطراب هذه طيلة ٣٢ سنة كان الولاة فيها تحت رحمة هذه الطبقة المسلحة حتى عام ١١٧١ هـ حين تولى المولى محمد بعد وفاة أبيه المولى عبد الله — فنجح فى أن يقبض على ناصية الأمور وأن يبعد الجند عن التدخل فى السياسة فرد للدولة سيادتها وللملك هيبته ومكانته .

---

(١) البستان الظريف : مخطوط سابق ص ٤٦ .

المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ هـ - ١٢٠٤ هـ) :

كان المولى محمد بن عبد الله نائباً عن أبيه المولى عبد الله - فى مراكش ، وكانت فى ذلك الوقت فى حالة سيئة بسبب ما أصابها من الإهمال ، فشرع فى تعمير القصبة - لكن عرب الرحامنة وقفوا فى وجهه لأنهم كانوا قد ألفوا حياة الفوضى فأحبوا ألا تكون بها دولة تكبح جماحهم - فلم يقف المولى محمد فى وجههم فى بادىء الأمر بل انتقل من مراكش إلى آسفى حيث تسابق أهلها على إستقباله والترحيب به - ولم تلبث أن عمرت مرسى آسفى وراجت أسواقها مما أثار الغيرة فى نفوس القبائل المراكشية ، فاجتمعت طائفة من أعيانهم وقدموا عليه فى آسفى وقدموا له الهدايا وأقسموا ألا يبرحوا المكان إلا إذا سار معهم إلى مراكش ، فأجابهم المولى محمد إلى طلبهم[1] .

ومن ذلك الوقت شرع المولى محمد بن عبد الله فى تعمير مراكش فأسس بها دارين : الدار الكبرى ، والقصر الأخضر . وغرس بين القصرين بستاناً ، كما أسس بها المساجد وبنى مدرستين لطلبة العلم ، وهكذا قدر للمولى محمد بن عبد الله أن يتمرس على الإدارة والسياسة فى حياة أبيه ، وقد ظهر منه فى هذه الأثناء حسن السياسة وجودة الرأى حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال .

فلما توفى والده فى عام ١١٧١ هـ - أجمع الناس على مبايعته فبايعه أهل مراكش أولا ثم وافته بيعة أهل فاس وسائر جهات المغرب بعد ذلك .

ولما كانت الإضطرابات التى عمت المغرب فى الفترة السابقة قد أدت لإضطراب مالية الدولة — فقد حرص المولى محمد بن عبد الله عقب بيعته على ضبط مخلفات أبيه من أموال - سواء الموجود منه ببيت المال أو المتفرق عند

---

(١) الاستقصاء جـ ٧ ص ١٩٣ — ١٩٥ .

عمال الأقاليم وغيرهم ، وفرض المكوس على سائر أمصار المغرب بعد أن أفتى العلماء بجواز فرضها لإعداد قوة الدفاع عن البلاد ، وللصرف على المشروعات العمرانية[1] .

وعكف بعد ذلك على تنظيم الإدارة الحكومية فلم يعزل أحداً من قواد القبائل وعمال الحواضر الذين كانوا فى دولة أبيه ، ولم ينكب أحداً إلا بعد الاختبار . فأبقى الصالح منهم وثبته ، وتخلص من الطغـــاة والمستبدين والفاسدين .

وبعد أن استقرت الأوضاع للمولى محمد بن عبد الله خرج للثغور المغربية ليتفقد أحوالها وتحصيناتها فزار تطوان ، وفى طريقه لطنجه عاين تحصينات سبته وتحقق له أنها تستلزم إستعداداً خاصاً لإستخلاصها من يد الأسبان وزار العرائش وسلا ، ومنها إلى رباط الفتح حيث أمر ببناء (برجين) بها ، وقفل عائداً الى عاصمة الدولة مراكش .

وبعد ذلك قام بجولة داخلية هائلة زار فيها المناطق الغربية من مملكته ، وقضى فيها على مثيرى الفتن والقلاقل فى بلاد الشاوية ، وجهـــة (تادلا) ، والحيانية ، فاستتب النظام وساد الأمن .

وكان اهتمام المولى محمد بن عبد الله بالجيش والأسطول المغربى عظيماً . فقد أدرك أنه إذا كان يريد أن يؤمن سواحل المغرب وثغوره من أطماع الأجانب وأن يؤمن بلاده وعرشه من العابثين بالأمن والطامعين فى الملك – لا بد أن يكون رهن إشارته جيش وأسطول على أتم الإستعداد لرد أى عدوان وقمع أى ثائر . وقد كان يباشر الحروب بنفسه ، ويعتنى برجال الجيش ويجزل لهم العطاء ويعدهم لأيام الحرب والنزال .

---

(١) انظر فتاوى العلماء فى ذلك – الاستقصا ج ٨ ص ٧ – ٩ .

ولقد كان الجيش أيام المولى اسماعيل أداة قوية للدفاع والحراسة. لكن — كما رأينا — أصبح بعده مصدر شغب واضطراب، فلما تولى المولى محمد استطاع بالترغيب والإغداق حيناً والإرهاب والقمع حيناً آخر أن يقضى على مدبرى الفساد كما فعل مع فرق العبيد بطنجه والعرائش — فقد وزع أفرادها على عدة قبائل فقضى على عصبيتهم واستطاع أن يكون من الموالين له والطائعين والمحترمين للنظام جيشاً عظيما لم يبخل عليه بمال، وقرب قواده ورجاله إليه فتفانوا فى تنفيذ أوامره.

واهتم المولى محمد بن عبدالله بالثغور المغربية فقوى تحصيناتها، وجدد وسائل الدفاع عنها، وجعل فى كل منها حامية خصص لها بيت مال تدفع منه مرتبات الحامية التى كانت تدفع كل ثلاثة أشهر دفعة واحدة. ويورد صاحب البستان بياناً بحامية كل ثغر من ثغور المغرب، وقد قدر جملة عساكر الثغور بستة عشر ألفاً وخمسمائة. (١)

ويرجع الفضل للمولى محمد بن عبد الله فى بناء مرسى (الصويرة) الذى جعله الميناء التجارى الأول للمغرب، وأعفى البضائع الأوربية الواردة إليه من الجمارك، ليشجع الأوروبيين على استخدام هذا الميناء. وقد اختلفت الآراء فى الدافع الذى دفع المولى محمد لبناء هذا الميناء. فقد ذهب البعض إلى أن مراسى العدوتين والعرائش لم تكن صالحة لرسو السفن إلا فى فترة معينة من العام إذ أن الرمل يعلو بأفواه هذه المراسى فى فترة من العام فيتعذر رسو السفن بها — ولذا بنى ثغر الصويرة ليكون صالحاً للملاحة طوال العام. (٢)

لكن ذهب آخرون إلى غير ذلك وذكروا أن حصن (أكادير) كان يتداوله دائماً الثوار من أهل السوس فلجأ المولى محمد بن عبدالله لإحداث مرسى الصويره بالقرب منه وحصنه بالمدافع وشيد لحمايته برجاً على صخرة داخل البحر ليكون هذا الحصن فى مأمن من إعتداء ثوار السوس.

---

(١) الزيانى: البستان الظريف المخطوط السابق ذكره، ص ١٠٢.

(٢) ذكر هذا — أبو العباس أحمد بن المهدى الغزالى فى رحلته — والبستان الظريف، ص ١٠٤.

واهتم المولى محمد بن عبد الله ببناء أسطول بحرى قوى يدافع عن الشواطىء والثغور المغربية ، فاهتم بإحياء دار صناعة السفن ، وطلب من بعض التجار الاجانب المواد اللازمة لبناء السفن بطريق الشراء فجلبوا له من ذلك الشىء الكثير . وقد أرسل السلطان مصطفى العثمانى عام ١١٨١ ﻫ هدية للمولى محمد بن عبد الله عبارة عن مركب موسوق بالمدافع و (المهاريس) النحاسية ، والخطاطيف والقلوع والحبال وغير ذلك من آلات البحر ، وفيها ثلاثون من مهرة الصناع الذين لهم دراية بصناعة المراكب ومنهم من يجيد الرمى بالمهراس ، فلما وصل السلطان إلى مكناسه وأحضروهم أمامه اتفق معهم على المقام بالمغرب ، فأرسل المختصين منهم فى صناعة المراكب والشئون البحرية إلى الموانى المغربية للعمل بها ، وبعث المعلمين فى العتاد الحربى إلى فاس ، وقد اشتغل كل بمهنته عملا وتعليما ، فاستفاد منهم كثيرون من المغاربة [1]

وقد أظهر الأسطول المغربى قدرته وكفايته حين التقى بأساطيل الدول الأوروبية التى كانت ترغب فى أن يخلو لها مجال العمل فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى .

وحدث تصادم بين الأسطول المغربى والأسطول الفرنسى ، وأسر الأسطول المغربى قطعاً من الأسطول الفرنسى ساقها للموانى المغربية ، فثارت ثائرة الفرنسيين وردوا على ذلك بشن هجوم بحرى فى عام ١١٧٨ﻫ على ميناء (سلا). لكن الأسطول المغربى ردهم على أعقابهم ، ولقى أسطولهم نفس المصير حين عاودوا الكرة على ثغر العرائش فى عام ١١٧٩ ﻫ .

وظهرت أهمية الأسطول المغربى بعد ذلك حين اتجهت أنظار المولى محمد

---

(١) الاستقصا ﺣ ٨ ص ٣١ — ٣٣ .

— وقدر عدد المراكب (القرصانية) فى دولته بعشرين مركباً بالإضافة الى ثلاثين من (الفراكط) و (الغلائط) — وبلغ عسكر البحرية ألفاً من المشارقة ، وثلاثة آلاف من المغاربة وألفين من الطبجية .

الموانى المغربية التى كانت لا تزال فى أيدى المستعمرين ، فضيق الأسطول المغربى الحصار على المستعمرين فى هده الموانى .

وفى عام ١١٨٢ هـ هاجم المولى محمد الجديدة[1] بجيش جرار وضيق الخناق على الحامية البرتغالية بها حتى أرغمها على الإستسلام والجلاء عن البلاد .[2]

واتجهت نية المولى محمد إلى تخليص سبتة ومليلة من يد الأسبان فحاصر مليلة فى عام ١١٨٤ هـ ولكنه اضطر لفك الحصار عنها ، ويقال إنه اضطر لذلك وفاء بشروط معاهدة كان كاتبه الغزالى قد أمضاها مع الأسبان.[3]

هذا وقد كانت - خلال ذلك - علاقة المغرب مع الدول الإسلامية والدول الأوروبية الأخرى ودية ، وقد تبودلت السفارات والهدايا بين المولى محمد بن عبدالله والسلطان مصطفى العثمانى ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة فى عهد خليفته السلطان عبد الحميد العثمانى فكانت سفارة (أبى القاسم الزيانى) مصحوباً بهدية فاخرة من السلطان المغربى . وكان ملوك الترك يخاطبون السلطان المغربى بالتبجيل والإحترام ويمدهم هو بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالا ورجالا واشتهر عنه (انه كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر) .

وقد صاهر بإبنته الشريف سرور سلطان مكه ، بعثها المولى محمد مع ركب الحاج المغربى المسافر إلى الحجاز مع هدايا فاخرة بعث بها لأمراء طرابلس ومصر والشام ولأهل الحرمين الشريفين . وكان فى جهاز إبنة السلطان هذه ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلى والياقوت والجواهر .[4]

---

(١) كان ميناء (الجديدة) مازال فى يد البرتغال - بينما (سبته) و (مليله) فى يد الأسبان .

(٢) يذكر لويزماريه (Louis Marié) أن الذين جلوا عن هذه المدينة من البرتغال انتقلوا إلى البرازيل وبنوا هناك مدينه سموها (مازاكان) الثانية .. على اسم الجديدة .

(٣) البستان الظريف (المخطوط السابق) ، ص ١٠٩ .

(٤) الاستقصا جـ ٨ ص ٣٤ .

ومما يذكر للمولى محمد بن عبدالله سعيه لفك أسرى المسلمين فى أوروبا ، وقد كانت للمولى محمد منزلة عند ملوك أوروبا حتى أنهم كانوا جميعاً حريصين على إرسال رسلهم له بالهدايا والتحف ، كما كانوا يوسطونه للتفاهم مع الحكام العثمانيين بالجزائر لإطلاق سراح الأسرى من الأوروبيين فى مقابل إطلاق سراح أسرى الجزائريين الذين بأيدى الأوروبيين ، حتى لم يبق أسير مسلم فى أيدى أعداء المسلمين بينما قدر عدد الأسرى فى سنة ١٢٠٠ ﻫ بثمانية وأربعين ألف أسير.[1]

وعقدت بين المغرب فى أيامه والدول التجارية الأوروبية (فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا) ، والولايات المتحدة الأمريكية — معاهدات التبادل التجارى ، كما عقدت معاهدات مع الدانيمرك والسويد تعهدت فيها الدولتان بدفع التزامات مالية للمغرب لحماية سفنها ورعاياها فى تنقلاتهم البحرية فى البحر المتوسط وبين الثغور المغربية .

ولم يكن المولى محمد بن عبد الله حاكماً سياسياً وقائداً حربياً فحسب لكنه اشتهر أيضاً بحبه للعلم والعلماء . فقد كان يقربهم لمجلسه — وطلب من بلاد الشرق الكثير من كتب الحديث التى لم تكن بالمغرب ، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة فى مقصورة الجامع بمراكش مع الفقهاء والعلماء للمذاكرة فى الحديث الشريف وتفهمه ، وقيل إنه كان يحفظ الكثير من شعر العرب فى الجاهلية والإسلام ، وكان يحذو حذو المنصور السعدى فى تخصيص أوقات مضبوطة لمجالسة العلماء والمذاكرة معهم — وقد نهى عن إشتغال طلبة العلم بقراءة (المختصرات) فى الفقه دون أمهات الكتب الواضحة ، وطالب بأن يرجع فى الأحكام إلى الكتاب والسنة . . أما أوقافه على الحرمين وعلى طلاب العلم وكتبه العلمية المحبسة فلا تحصى ولا تعد .

وما تركه من آثار عمرانية من بناء مساجد وأضرحة ومدارس يقصر عن العد والحصر .

ومن أشهر وزراء المولى محمد بن عبد الله — الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربى قادوس ، كان ركناً قوياً من أركان دولته : اشتهر بالذكاء والفطنة واطمأن إليه السلطان فعهد إليه بتنفيذ سياسته فظل كذلك حتى نهاية عهده .

---

(١) الاستقصا ج ٨ ص : ٧٠ .

المولى يزيد بن محمد (١٢٠٤ هـ - ١٢٠٦ هـ) :

كانت للمولى يزيد مكانة خاصة عند والده فكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار اخوته، كما كانت له مكانة مرموقة عند أهل المغرب الذين عرفوا فيه الكرم والشجاعة ورغبته فى الجهاد ـ لكن جماعة من البربر وغيرهم كانوا ملازمين له حسنوا له الخروج على والده وانتزاع الملك منه فلما وصلت هذه الأخبار للسلطان أرسل أحد قواده للقبض عليه ـ ففر المولى يزيد ، واتصل خبر فراره بالسلطان فعفا عنه . (١)

ولما توفى السلطان المولى محمد بن عبد الله بايعه أهل تطوان حيث كان قريباً منها ، ثم وفدت عليه وفود طنجه والعرائش وأصيلا وأعقبت ذلك بيعة أهل المغرب عامة له .

وبدأ المولى يزيد يعمل بهمة لإتمام ما بدأه أبوه من حماية الثغور والشواطىء المغربية معتمداً على القوة البحرية والبرية التى أصبحت للمغرب ، وصمم على إجلاء الأسبان من باقى الثغور المغربية فحاصر سبتة مدة ، وأرسل لقبائل الحوز يستنفرها للجهاد والمرابطة والمساعدة فى هذا العمل الوطنى ـ لكنهم تقاعدوا عنه بل خلعوا بيعته ، كما سنوضح بعد ، واضطر المولى يزيد أن يفك الحصار عن سبتة بعد أن كاد يستخلصها .

وعاد المولى يزيد ليواجه هذه القبائل التى خرجت على بيعته وأعلنت طاعتها وبيعتها لأخيه المولى هشام بن محمد ، واحتدم القتال بين الأخوين . والتقى الجمعان فى مكان يقال له (تازكورت) ، وانهزم جمع المولى هشام ، وتبعهم المولى يزيد لكنه أصيب برصاصة مات بسببها فى عام ١٢٠٦ هـ .

وقد أدى موت المولى يزيد الى تفريق الكلمة بالمغرب . فبينما تمسك أهل الحوز وأهل مراكش ببيعة المولى هشام ـ بايع أهل الجبل أخاه

(١) البستان الظريف : (المخطوط السابق) ص ١٤٢ ، ص ١٦١ .

مسلمة ، بينما بايع أهل فاس وأعمالها المولى سليمان بن محمد . وغلب نفوذ المولى سليمان ومحبة الجماهير له على أخويه فتمت له البيعة العامة .

المولى سليمان بن محمد (١٢٠٦ — ١٢٣٨ هـ) :

عرف المولى سليمان — حتى قبل توليه الملك — بالتقوى واشتغاله بالعلم ، والعكوف عليه ـ فلم يلتفت إلى شيء مما كان يتعاطاه أخوته الكبار والصغار من أمور اللهو ، ومعاقرة الندمان — وكان يميل إلى جبر القلوب والدفاع بالتي هي أحسن . وكان هذا ما جعله أعلق بقلب أبيه من سائر أخوته . « ولذا فقد بويع كما يقول صاحب الاستقصا — مطلوباً لا طالباً ،ومرغوباً لا راغباً ، ولما بويع كان ثلاثة من أخوته يزاحمونه فى المنصب فلم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن تخلص من مزاحمة الجميع من غير ضرب ولا طعن ، ولا بارز أحداً منهم قط ولا واجهه بسوء »[1] .

ولما تولى الأمر أحبته قلوب الرعية أكثر ، ولهجت به الألسنة — وكانت أيام حكمه ـ فى غالبها ـ أيام سعادة وأمن ورخاء فى الأسعار فأثنى عليها الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته وذهبوا فى إطرائها كل مذهب ، لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التى جرت معها فتناً أخرى .

وبعد ما بويع المولى سليمان ـ أصدر أوامره بإسقاط المكوس التى كانت مفروضة فى حواضر المغرب على الأبواب والأسواق وعلى السلع والغلال ، وكان ما يجمع من هذه يكفى مؤونة العسكر ومصاريف دور السلطان وسائر تعلقاته ـ لكن السلطان زهد فى هذا المال واكتفى بدخل المراسى والأعشار من القبائل . ولقد كان الحلم من أبرز صفات المولى سليمان حتى وصفه البعض بالضعف والتساهل فى معاملة المجرمين والخارجين على سلطانه . فقد كان مذهبه درء الحدود بالشبهات ، والتماس وقبول العذر . والأمثلة على ذلك كثيرة ـ

---

(١) الاستقصا جـ ٨ — ص ٨٦ ، ١١٢ .

— والبستان الظريف (المخطوط السابق) — ص ١٦٢ .

فقيل إنه لما قامت الفتنة فى فاس وأرسل جيشه لقمعها ووصل فاس وظفر برؤوس الفتنة عفا عنهم وقال لهم : « لا تثريب عليكم اليوم — يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » وتعجل الخروج من فاس مخافة أن يغريه بعض بطانته بأحد منهم .

ويذكر صاحب البستان أنه لو تحدثنا بما شاهدناه من عدله وتدينه وتقواه لكان عجباً .. فقد كان يحيى ليالى رمضان .. ويتخير لذلك مشايخ القراء ، وأعيان العلماء لسرد الحديث وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالى والأيام ، يشاركهم بغزارة علمه . ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر ، ويعظم العلماء ، ويرفع مقامهم ويجرى عليهم الأرزاق — حتى لقد تنافس الناس فى أيامه على إقتناء العلم لإعتزاز العلم وأهله وسعة أرزاقهم[1] .

ويذكر الشىء الكثير عن تقشفه فى ملبسه ومأكله حتى أنه فى سفراته لم يكن يصطحب معه إلا طعاماً يسيراً يكفيه ومن معه دون إسراف ، ويعقب صاحب البستان على ذلك بقوله : « إن أهل المغرب لن يدركوا عظمة هذا السلطان وعدله إلا بعد تغيبه وفقده ، ويستشهد بقول الشاعر :

المرء مادام حياً يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

وقد ذكر إن المولى سليمان كان زاهداً فى الحكم وأنه صرح بأن نفسه تحدثه مراراً بأن يترك هذا الأمر (أى الحكم) ويتجرد لعبادة ربه حتى يموت[2] .

أما أعماله العمرانية فهى عديدة ، فهى فاس بنى المسجد الأعظم بالرصيف ، ووسع مسجد الديوان ومسجد الشرابليين ، كما جدد بناء مدرسة الوادى

---

(١) الزيانى . البستان الظريف (المخطوط السابق الإشارة إليه) . ص ١٨٤ .
(٢) المرجع نفسه ونفس الصفحة .

ومدرسة العنانية ، وبنى باب الفتوح ، وباب بنى مسافر ، وبنى قنطرة الوادى بينهما ، وقنطرة وادى الرصيف ، وقنطرة وادى سبو . هذا بالإضافة إلى عدة مساجد وقناطر فى مختلف مدن المغرب حتى لا تكاد تخلو مدينة من أثر من آثاره العمرانية .

وكانت سياسة المولى سليمان الخارجية مع الدول الأخرى نابعة من طبيعته فى الجنوح إلى السلم ومحاولة فض المشكلات بالتفاهم ، فلما استولى الاتراك العثمانيون على مدينة (وجده) كتب إلى الباى محمد باشا باى الجزائر يطلب منه أن يتخلى عن وجده وقبائلها حقناً للدماء بين الطرفين . فامتثل الباى محمد لذلك وكتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها . ودخل جيش السلطان وجده فى عام ١٢١١ ه واستخلف نائبه بها .

وكاد يحدث اصدام جديد مع الاتراك . ففى عام ١٢٢٠ ه ثار أهل تلمسان وخلعوا طاعة الترك وأعلنوا مبايعتهم للسلطان المولى سليمان وخطبوا له على منابرهم وجاءت وفودهم تعلن للمولى سليمان أنهم يرومون الاستظلال بظل عدله . لكن المولى سليمان لم يشأ أن ينتهز هذه الفرصة ليعلن ضم تلمسان للمغرب ، بل أرسل قائده أبا السرور عياد بن أبى شفرة الودنى ـ ليصلح بين الاتراك وأهل تلمسان ، ونجح القائد فى ذلك . ولما جلا كثيرون من أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب هربا من القحط الذى كان قد عم البلاد حتى عدمت الأقوات ـ أضطر المولى اسماعيل أن يعينهم بالعطاء والصدقات المرة بعد المرة حتى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض[1] .

وكانت علاقات المغرب وتونس أيضاً ودية ـ فقد أرسل والى تونس حموده باشا يستنجد بالمولى سليمان ويطلب الإمداد بالميره لحدوث المشقة بالبلاد التونسيه فأمده بما طلبه .

ولما استولى عبد الله بن مسعود الوهابى على الحرمين الشريفين بعث كتبه الى

---

(١) الاستقصا ـ ٨ ص ١٠٩ ـ ١١١ .

الآفاق كالعراق والشام ومصر والمغرب يدعو إلى مذهبه ، فأرسل المولى سليمان رده على الرسالة مع ولده المولى إبراهيم بن سليمان حين سافر للحج . وكان المولى سليمان متفقاً فى الرأى مع وجهة نظر هذه الحركة الإصلاحية .

وقد كانت سياسته تجاه أوربا تتسم بطابع الحذر والخوف والرغبة فى أن تكون علاقاته بالأوربيين فى أضيق نطاق ممكن . ولذا فقد ألزم الأوربيين بعدم تجاوز الموانى المغربية إلى الداخل ، وحدد إقامة قناصل الدول الأجنبية فى (طنجه) — بل وصل الأمر فى عام ١٢٢٣ ﻫ أن حد من تحركات الأسطول المغربى فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى لا يحدث أى اصطدام بأساطيل الدول الاوربية .

هذا وقد كانت الفتنة التى قامت فى عام ١٢٢٦ ﻫ بين قبائل البربر - بداية الإضطرابات التى انتشرت بعد ذلك فى المغرب فى الفترة الأخيرة من حكم المولى سليمان ، خاصة بعد أن توالت هزائم جيش السلطان على يد البربر فساروا ينهبون أموال الناس ومتاعهم . فانتشرت روح العصيان والفوضى بين القبائل فصارت تتغلب القوية على الضعيفة ويتحالف الاقرباء على الأباعد ويضايق أهل البوادى سكان المدن ، فعمت القلاقل المغرب كله ، وكانت نار الفتنة لا تكاد تخبو فى منطقة حتى تظهر وتشتد فى منطقة أخرى .

ولما اشتد المرض على المولى سليمان عهد بالخلافة لإبن اخيه المولى عبد الرحمن بن هشام رغم كثرة أولاده ووجود بعض إخوته . وذلك لما اشتهر به المولى عبد الرحمن من العدل والأمانة ، وكما يقول صاحب البستان « إن هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه »[1] . وتوفى المولى سليمان فى ثالث عشر ربيع الأول عام ١٢٣٧ ﻫ .

---

(١) الزيانى : المخطوط السابق الاشارة إليه .

المولى عبد الرحمن بن هشام (١٢٣٨ — ١٢٧٦ هـ):

عرف المولى عبد الرحمن بن هشام ـ منذ نعومة أظفاره بالتقوى والورع والعفاف مع الحزم ووضع الأمور فى نصابها . وقد عرف له عمه المولى سليمان هذه الصفات فولاه ثغر (الصويره) وأعمالها ، واستخلفه فى آخر عمره على حاضرة المغرب فاس وعهد إليه ـ كما رأينا ـ بالأمر بعده دون سائر أولاده وإخوته .

فلما وصل إلى فاس خبر وفاة السلطان المولى سليمان ـ فى ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ بايع سائر أعيان فاس المولى عبد الرحمن بن هشام ، ثم وفدت بعد ذلك بيعات الأمصار المختلفة بالمغرب ـ حتى البربر الذين كانوا قد أثاروا الإضطرابات فى نهاية حكم المولى سليمان جاءوا مبايعين . وقد استوزر السلطان الجديد الفقيه أبا عبد الله محمد بن إدريس الفاسى .

ولما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن من أمر الوفود التى أتت للبيعة والتهانى بفاس — نهض من فاس متجولا لتفقد أحوال الرعية والمملكة ، فزار رباط الفتح ومكناسه ومراكش وغيرها من البلاد المغربية .

وكان فى جولاته هذه يسوس أمر القبائل ويحل المشكلات الهامة التى كانت تتعلق بأمن الدولة وسيادتها ، وكانت سياسته تتأرجح بين اللين والتغاضى عن الأخطاء السابقة ـ يظهر ذلك فى صفحه عن زعيم البربر محمد بن الغازى الزمورى ـ وبين الشدة التى تتمثل فى توليته ابن عمه أبى محمد بن الطيب أمر مدينة فاس ، ثم على قبائل تامسنا ودكالة ثم جعله والياً على وجدة وقبائل الشرق ـ فأخضع كل هذه الاقاليم للسلطان المولى عبد الرحمن ـ بما اتصف به هذا الوالى من شدة الشكيمة والبطش بالعصاة[1] .

وقد تمت فى عهد المولى عبد الرحمن عدة مشروعات عمرانية نذكر منها :

---

(١) الاستقصا حـ ٩ ص ١٢ .

إعادة بناء مرسى طنجة بعد أن كان قد تهدم وأصابه الدمار ، وتجديد الحرم الإدريسى بفاس ، وبناء مسجده وتوسيعه ، وبناء البرجين العظيمين بمدينتى (سلا) و (وأشبار الكبير) ، والمارستات بطريق الشيخ ابن عاشر ، وبناء قصبة الصخيرات ، وبوزنيقه بين الرباط والدار البيضاء ، وتجديد أبراج الصويرة ، ومن آثاره بمراكش أجدال الشهير ، وتجديد جامع المنصور بالقصبة ، وجامع الكتبيين ، وتجديد بستان آمنة المرينية بفاس ، وكثير غير ذلك من المساجد والمبانى التى أقيمت أو جددت .

أما عن علاقات المغرب الخارجية وسياسته فى عهد المولى عبد الرحمن ، فقد عاصرت فترة حكمه أحداثاً كان لها أثر خطير على تاريخ المغرب العربى كله — فقد استولت فرنسا على الجزائر فى عام (١٢٤١ هـ / ١٨٣٠ م)[١] وكان هذا بمثابة تهديد موجه لكل المغرب العربى .

وقد أراد السلطان المولى عبد الرحمن فى عام ١٢٤٣ هـ أن يعيد للأسطول المغربى مجده بعد فترة الركود التى شهدها فى عهد المولى سليمان — فبدأت حركة لإحياء الأسطول المغربى ليسترجع نشاطه فى البحر وليفرض سلطته فى المياه والثغور المغربية .

وترتب على هذا إحتكاك مع أساطيل بعض الدول البحرية التى اعتادت دخول المياه الإقليمية المغربية دون ترخيص وإذن سابق . ومن ذلك ماحدث حين اعترض الإسطول المغربى بعض القطع البحرية لمملكة (نابولى) الإيطالية وأدى هذا فى عام ١٢٤٥ هـ إلى هجوم القطع البحرية التابعة لنابولى على ثغر العرائش ، ودارت معركة بحرية ونجح الأسطول المغربى فى رد المهاجمين بعد أن قتل عدد منهم وأسر عدداً آخر .

---

(١) سنتناول — بالطبع — هذه الأحداث بالتفصيل فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

لكن للأسف لم تستمر الجهود المبذولة لتقوية الأسطول المغربي وتطويره ليساير التطورات السريعة في أساطيل دول أوربا البحرية ، ولتطبيق القوانين البحرية التي بدأ العمل بها ، فلكي يضع السلطان عبد الرحمن حداً لفرص الإحتكاك مع أساطيل الدول الأوربية — جمد نشاط الأسطول المغربي فعاد لما كان عليه قبل عهده .

لكن استيلاء الفرنسيين على الجزائر في عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م فتح الباب على مصراعيه لإحتكاك جديد بين المغرب والدول الأوروبية التي أصبحت أنظارها مركزة أكثر على المغرب بموقعه الفريد ، وثغوره الممتازة على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي .

فلما استولى الفرنسيون على ميناء الجزائر — إلتجأ أهل تلمسان إلى السلطان عبد الرحمن طالبين الإنضواء تحت لوائه ، وطلبوا من عامله بمدينة وجده القائد (أبي العلاء ادريس الجواري) أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم ، والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحميهم من العدو الأجنبي ، كما عينوا جماعة منهم للسفر إلى مكناسه لتأكيد هذا الطلب . وقد تردد السلطان في هذا الطلب إذ خشي أن يسبب له مشكلات مع الدولة العثمانية ، فقد كانت تلمسان في ذلك الوقت تتبع الجزائر العثمانية . واذا استفتى السلطان علماء فاس فأفتى بعضهم بعدم قبول إنضمام أهل تلمسان ، بينما أفتى البعض بعكس ذلك . لكن رد علماء تلمسان على أصحاب الرأي الأول بأن فتواهم قائمة على غير أساس فهم ليست في أعناقهم بيعة للسلطان العثماني ، وعامل الجزائر . كما يقولون . كان خاضعاً إسماً فقط للسلطان العثماني لكنه لم يكن يمتثل حقيقة لأوامره .

فأعلن المولى عبد الرحمن قبول إنضمام أهل تلمسان للمغرب وإعتبار بلادهم جزء منها وقبل بيعتهم وعين إبن عمه (المولى على بن سليمان) والياً عليهم وأرسله مع كتيبة من جنود الودايا والعبيد والطبجية لحفظ النظام والأمن بهذه البلاد ، وزود السلطان واليه ومن معه بالنصائح للعمل لما فيه خير أهل تلمسان ، وأمرهم

بالزهد فيما فى أيدى الناس ، وأن كل ما يحتاجون إليه مما لابد منه يخبرونه عنه ليصلهم فوراً .[١]

ولما استقر المولى على فى تلمسان قدمت عليه الوفود وأخذ عليهم البيعة للسلطان . لكن لم يلبث أن تمرد عليه بقايا الأتراك من (الكارغلية) بالإضافة إلى بعض القبائل . وزادت الاضطرابات بعد دخول الفرنسيين مدينة (وهران) ، وسرت الفوضى إلى جيش السلطان نفسه المرابط فى تلمسان . فلم يسع المولى عبد الرحمن إلا استرجاع تلك الجيوش للمغرب والجلاء عن تلمسان .

وقعة اسلى :

كانت العلاقات بين فرنسا والمغرب قد تحسنت بعد أن عقدت معاهدة فى عهد السلطان محمد بن عبد الله ، ففتحت عهداً اقتصادياً جديداً بين الدولتين أسوة بسياسة السلطان المغربى مع الدول الأوربية الأخرى .

لكن حدث فى عام ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ أن ازداد ضغط الفرنسيين على الأمير عبدالقادر الجزائرى ، وكان يجد - كلما ضيق عليه الفرنسيون الخناق - فى المغرب منجى ومتسعاً وسنداً يتنقل فى أطرافه ، فتارة بالصحراء ، وتارة ببنى يزناش وتارة بوجدة والريف وغير ذلك - حتى يستجمع قواه ويستأنف كفاحه . فلم يرق ذلك للفرنسيين ، واتخذ الجنرال بيجو (Bugeaud) منه مبرراً لمهاجمة المغرب . فشن الغارة على وجدة وأعادها المرة بعد المرة وتعرضت الدولة المغربية على الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر لمهاجمة الجنود الفرنسيين وعبثهم .

وكتب الجنرال بيجو إلى حاكم وجدة المغربى يبرر هذا العمل ويحدد مطالب

---

(١) أنظر نص خطاب السلطان لواليه ونصائحه له (مؤرخ الثالث عشر ربيع الثانى عام ستة وأربعين ومائتين وألف) .
الاستقصا جـ ٩ ص ص ٢٩ ، ٣٠

الفرنسيين فى طرد الأمير عبد القادر من البلاد المغربية حينما يلتجىء إليها ، وألا يقبل المغرب من ينتقل إليه من رعايا الأمير ، وأن تسرح الجيوش المغربية المرابطة على الحدود والتى تقدم العون للأمير عبد القادر .[١]

ولم يتح الفرنسيون فرصة للتفاوض فى هذه المطالب فقد إقتحموا وجدة واستولوا عليها بدعوى أن فرقه إستطلاعية فرنسية تعرضت فى ٣٠ مايو ١٨٤٤ لهجوم غادر من الجيش المغربى فى وجده .

وأعقب الفرنسيون ذلك بإرســـال أسطولهم بقيادة الأمير جوانفيل (Joinville) فقام فى ٦ أغسطس ١٨٤٤ بإلقاء حممه على ميناء طنجة المغربى ثم أنزل جنوده فيه [٢] .

فلم يكن أمام السلطان المولى عبد الرحمن إلا أن يستنفر القبائل للدفاع عن الوطن ، فأعـد جيشاً كبيراً تحت قيادة ولده وخليفته المولى محمد ، وسار حتى نزل بوادى إسلى من أعمال وجده[٣] حيث دارت معركة حامية الوطيس انهزم فيها الجيش المغربى .

وفى نفس الوقت هاجم الأسطول الفرنسى ميناء الصويره المغربى ، وأنزل جنودة به ويقول أندريه جوليان إن الفرنسيين كانوا فى ذلك الوقت يهدفون للزحف إلى فاس ـ لكن تدخل انجلترا وعـدم رغبة فرنسا فى فتح باب آخر للخلاف معها وقف حائلا دون تحقيق ذلك .[٤]

---

(١) محمد بن الأمير عبد القادر الحسنى : تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الاسكندرية ١٩٠٣) حـ ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

Julien, André : Histoire de L, Afrique du Nord (Paris 1931) p. 604

(٣) تقع (إسلى) على بعد ٣ كيلو مترات شمال غرب وجده .
تفاصيل المعركة أنظرها فى الإستقصا حـ ٩ ص ٤٩ ـ ٥٣
ويقدر صاحب كتاب تحفة الزائر عدد الجيش المغربى بعشرين ألف مقاتل ، ويذكر أنه لأهمية الموقعة فى نظر الفرنسيين لقبوا الجنرال بيجو بعدها بدوق إسلى .

Julien, Andre : op. cit. p. 605

انظر تحفة الزائر حـ ١ ص ٢٩١

فقد كان إستيلاء فرنسا على ميناء طنجه الهام فى المدخل الغربى للبحر المتوسط يعنى تهديداً للسيادة البحرية التى كانت تحرص إنجلترا على أن تحتفظ بها .

ولذا جرت بين المغرب وفرنسا مفاوضات انتهت فى ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ بالتوقيع على معاهدة طنجه — وقد قضت هذه المعاهدة :

١ — بإنسحاب العساكر المغاربة من وجده وما إليها فى الحدود الشرقية .

٢ — تتعهد الحكومة المغربية بإنزال العقاب عن يتعدى الحدود المغربية الجزائرية .

٣ - إخراج الأمير عبد القادر من البلاد المغرب إذا ما التجأ إليها ، وإن بقى فيها فلا يحصل على أيه معونة من حكومة المغرب ، وتحدد إقامته فى بلدة ما فى غرب البلاد .

٤ — عينت الحدود الفاصلة بين البلدين .

وقد حدث صدام آخر بين الفرنسيين والمغاربة فى عام ١٢٦٨ هـ — ١٨٥١ م ، حين رست بمرفأ سلا المغربى سفينة فرنسية تحمل قمحاً ، وكانت البلاد تعانى قحطاً فنهب العامة السفينة ، فأرسلت فرنسا أسطولا هاجم البلد ،

واستندوا على ذلك فى إلزام السلطان بالتوقيع على وثيقة بتصفيـــة بعض الأمور التى كانت معلقة بين البلدين[1] .

نتائج موقعة أسلى :

١ — أثرت هذه الأحداث فى مركز المغرب السياسى والدولى — فلم يقتصر

---

(١) حقى ، إحسان : المغرب العربى (بيروت ، د . ت) ص ١٣٣ .
ملاحظة : توفى بيجو فى مايو عام ١٨٤٩ م عن ٦٥ عاماً .

الأثر على ما نالته فرنسا من إمتيازات بموجب المعاهدة التى عقدتها مع المغرب فقد حصلت إنجلترا هى الأخرى على تسهيلات إقتصادية — كما أعفى عن الدنيمارك والسويد ما كانا يلتزمان به للمغرب سنوياً فى مقابل حمايتهم البحرية[1]

٢ — تأثرت الأحوال الإقتصادية بالمغرب بهذه الأحداث ـ فارتفعت أسعار السلع وعم البلاد الغلاء بشكل أرهق كاهل العامة .

٣ — أظهرت موقعة إسلى حاجة المغرب الماسة لجيش مدرب على الأساليب الحربية الحديثة ، وقد كشفت هذه المعركة نواحى الضعف والخلل فى الجيش المغربى آنذاك[2]

٤ بدأت بعض الدول الطامعة فى المغرب وثغوره ـ كأسبانيا مثلا ـ تخرج من عزلتها وتحاول تحقيق أطماعها . وأدى هذا ـ كما سنرى ـ إلى احتكاك جديد بينها وبين المغرب .

٥ — أما عن موقف الأمير عبد القادر بعد هذه المعركة — فقد أصبح سيئاً ، إذ أدرك أنه لا يمكنه أن يعتمد بعد الآن على المغرب ولا يستطيع ممارسة نشاطه داخل أراضيه فكانت هذه المعركة حاسمة بالنسبة لوضعه .

وتوفى المولى عبد الرحمن فى ٢٩ محرم سنة ١٢٧٦ هـ .

المولى محمد بن عبد الرحمن (١٢٧٦ هـ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٥٩ - ١٨٧٣ م) :

تولى المولى محمد بن عبد الرحمن الكثير من المهام المدنية والعسكرية فى حياة أبيه ، وأظهر فيها كفاءة وقدرة . وكانت العادة أنه إذا كان السلطان المولى عبد الرحمن بمراكش كان إبنه المولى محمد بفاس أو مكناسه وبالعكس . وكان يتصرف فى الناحية المقيم فيها بحرية كأنه ملك مستقل . فلما توفى والده أجمع

(١) الاستقصا حـ ٩ ص ٥٣ .

(٢) أنظر ما ذكره صاحب الاستقصا عن ذلك وقد كان معاصراً لهذه الأحداث ، فقد أجرى مقارنة طويلة بين الجيوش الأوروبية (الفرنسية والأسبانية) النظامية بنظامها العسكرى وانضباطها وبين النظام القديم العشوائى الذى كان مازال يسير عليه الجيش المغربى الاستقصاء : حـ ٩ ص ٩٥ — ٩٧ .

الكل على مبايعته عن يقين بقدرته على قيادة دفة الدولة فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ المغرب حيث كانت أنظار الدول الأجنبية وأطماعهم تتجه من جديد للمغرب وثغوره الهامة .

وقد اشتهر المولى محمد بن عبد الرحمن بالتقوى ، ومراعاة الشرع فى كل تصرف من تصرفاته ، فكان ينتصف للناس حتى من نفسه ، وقد روى صاحب الإستقصا إنه لما عزم على بناء داره برباط الفتح حدث خلاف على أرض البناء مع جماعة من أهل البلد فاختصم هو وهم لدى القاضى الفقية أبى عبد الله محمد العربى فانصفهم [1] . واشتهر المولى محمد أيضا بأنه كان بعيد الغضب ، سريع الرضى .وقد استتب الأمن فى عهده ، وبعد أن استقرت الأمور التى اضطربت لفترة — بسبب الأطماع الاجنبية فى ثغور المغرب وما أعقب ذلك من جهة الغلاء ومن إنتشار بعض الأمراض ـ ازدهرت الحياة الإقتصادية ورخصت الأسعار ، ولاحت على الناس سمة الرخاء واليسر بل أخذ البعض بمظاهر الحضارة الأجنبية لكثرة تردد الأجانب على المغرب .

وكان للسلطان فى كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة ومن دونهم ـ فكانت الرعية ـ كما يقول صاحب الإستقصا ـ كأنها فى كف يده [2] .

ومن الأعمال العمرانية البارزة التى يذكرها له صاحب الاستقصا ـ نقلا عما قاله اكنسوس [3] — ما يتعلق منها بالرى ، فقد أجرى كثيراً من الأنهار وفجر العيون وغرس الحدائق (أجدال مثلا بمراكش) كما اهتم ببناء وتعمير العديد من المساجد (جامع السنة ، وجامع أهل فاس بالرباط ، المسجد الجامع بالسوق بالدار البيضاء) .

---

(١) الاستقصاء حـ ٩ ص ١٢٠ .

(٢) نفس المرجع حـ ٩ ص ١٢٤ .

(٣) أبو عبد الله اكنسوس من الأدباء المعاصرين لهذه الفترة ، وقد ساهم بنفسه فى الكثير من أحداثها . انظر مثلا قصيدته فى تهنئة المولى محمد بن عبد الرحمن بالملك فى (الاستقصا حـ ٩ ص ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣) وينقل عنه صاحب الاستقصا الكثير عن أحداث شاهدها وشارك فيها بنفسه .

وأنشأ بمراكش معملا للسكر — واهتم بإصلاح الموانى والثغور وتفقد أحوالها وبنى قرب ميناء (طنجة) فناراً كان يرى نوره من مسافة كبيرة تهتدى به السفن .

ومن أعماله أيضاً محاولة ضبط السكة على أساس الدرهم الشرعى فقد أصدر عام ١٢٨٥ هـ أمراً بألا يستخدم الناس فى معاملاتهم إلا الدرهم الشرعى . وشدد فى ذلك وكتب لولاة الأمصار بضبط مصالح الرعية ومعاملاتهم على هذا الأساس على أن يكون المثقال مساويا لعشر دراهم .

أظهرت وقعة اسلى أن المغرب كان بحاجة ماسة إلى جيش مدرب على أساليب الحرب الحديثه ونظمها فلم يكن المغاربة يقاتلون بترتيب مخصوص وهيئة منضبطة ، إنما كانوا يقاتلون وهم متفرقون — فإذا جاء المساء تفرقوا إلى محالهم فى غير وقت معلوم وعلى غير تعبئة — ولعل ذلك يذكرنا بما أورده ابن خلدون عن قتال أهل المغرب الذى هو المطاردة بالكر والفر ، وعاب عليهم ذلك إذ أنه لا يجدى أمام الجيوش النظامية الحديثة .

وقد أدرك المولى محمد بن عبد الرحمن هذا الأمر بعد معركة إسلى أثناء حكم أبيه — فصمم على إعداد جيش نظامى قوى . ولما آل إليه الأمر سار فى هذا الأمر خطوات أوسع . ولما كان إعداد جيش بهذا الشكل يحتاج لتدعيم مالى قوى . فقد رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب فى ذلك لأمناء المراسى وغيرهم ليوضحوا للتجار وغيرهم أهمية وجود جيش قوى نظامى يحمى أموالهم وتجارتهم وأرواحهم[١] .

الهجوم الأسبانى على تطوان :

تعرض المغرب فى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن من جديد لمكايد

---

(١) انظر خطابه إلى أمناء مرسى الدار البيضاء فى ذلك — الاستقصا ج ٩ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

ومحاولات الطامعين فى ثغوره ومدنه الهامه - فعندما لمس الأسبان ضعف الجيش المغربى كما بدا فى وقعة إسلى — تاقت نفوسهم لتوسيع مناطق نفوذهم فى (سبته) فإصطدموا فى بداية الأمر بقبيلة (اللانجرة) من المسلمين ولجأ الاسبان إلى نائب السلطان فى طنجه طالبين تسليم إثنى عشر رجلا من زعماء (اللانجرة) لمحاسبتهم عما بدر من قبيلتهم وقد رأى المولى محمد بن عبد الرحمن فى ذلك إهداراً لكرامة المغرب ، فرفض إجابة الاسبان إلى طلبهم فتوترت العلاقات بين البلدين ، وكتب السلطان للثغور المغربية يخبرها بأن تكون على حذر وأن تأخذ أهبتها للجهاد .

وفى أواسط ربيع الأول سنة ١٢٧٦ ﻫ خرج جيش أسبانى قوى من منطقة (سبته) المحتلة وبدأ زحفه على المناطق المجاورة . وأرسل السلطان أخاه (المولى العباس) فى كتيبه من الفرسان لحماية تطوان وطنجة . وتحرك الأسبان من سبته بقيادة قائدهم أردنيل Ardnell قاصدين تطوان يحميهم الأسطول الذى كان يتابع فى البحر حركات الجيش البرى - واستطاع المغاربة أن يصمدوا فى وجه العدو الغازى نحو الشهر - لكنهم أضطروا بعد ذلك للتقهقر . فاستولى الأسبان على تطوان فى الثالث عشر من رجب سنة ١٢٧٦ ﻫ (٦ فبراير ١٨٦٠ م) فاحتلوا مساكنها وهدموا سورها وغيروا معالمها .

ورغم ذلك فقد ظل المغاربة يتابعون الجيوش المحتلة كلمـــا أمكنتهم ذلك ويكبدونها خسائر فادحة فى الرجال والعتاد .

وتدخلت بريطانيا للوصول لإتفاق بين البلدين ، وأخيراً اتفق الطرفان فى أواخر شعبان سنة ١٢٧٦ ﻫ (٢٦ أبريل ١٨٦٠ م) على شروط الصلح - وأهم ما تضمنه الإتفاق :

١ — يجلو الأسبان عن تطوان وعن المناطق الجديدة التى احتلوها من سبته عدا أجزاء بسيطة بحدود (سبته) و (مليله) تبقى فى أيديهم لأنها تلزم للدفاع عن مواقعهم بها .

٢ — يدفع المغرب مائة مليون بزيته[1] (عشرين مليون ريال) كغرامة حربية - وتبقى الجيوش الأسبانية فى تطوان إلى أن يتم سداد هذا المبلغ .

٣ — تعود القنصلية الأسبانية فى فاس إلى مزاولة نشاطها الدبلوماسى .

٤ — تتفاوض الدولتان لعقد معاهدة تجارية يتمتع بمقتضاها الرعايا الأسبان بإمتيازات مماثلة لما يتمتع به الفرنسيون - وقد عقدت هذه المعاهدة الأخيرة فعلا فى نوفمبر عام ١٨٦١ م

واضطرت الحكومة المغربية إلى عقد قرض مع الحكومة الانجليزية بفائدة ٥ ٪ بضمان دخل جمارك الموانى المغربية لدفع الغرامة المفروضة ، وكان هذا بمثابة فرض رقابة أجنبية على هذا المرفق الهام .

وفى ذى القعدة سنة ١٢٧٨ هـ (مايو ١٧٦٠ م) أخلى الأسبان تطوان بعد أن مكثوا بها سنتين وثلاثة أشهر ونصف .

وقد مهدت هذه الأحداث الطريق أمام الدول الأوروبية المختلفة صاحبة المطامع والمصالح فى المغرب للعمل لزيادة نفوذها فيه . فى ١٩ أبريل ١٨٦٣ م نجحت فرنسا فى عقد معاهدة مع المغرب جدد فيها الاعتراف بالإمتيازات التى كانت الرعايا الفرنسيين من قبل والتى كانوا لا يستطيعون التمتع بها فى فترات قوة المغرب ، بل إن ممثل فرنسا فى المغرب أخذوا يتجاوزون الحدود المرسومة فى هذه الإتفاقات — مما أضطر المولى محمد بن عبد الرحمن أن يرسل فى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م إلى الإمبراطور نابليون الثالث[2] بعثة مكونة من قائد جيشه أبى عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقى - وعامل سلا أبا عبد الله محمد ابن سعيد السلاوى - راجياً أن يحسن إختيار ممثليه فى المغرب ، وأن ينبه عليهم بعدم مجاوزة الحدود المتفق عليها فى الإتفاقات والإلتزامات المبرمة بين الدولتين[3] .

(١) عملة أسبانية .

(٢) فترة حكمه كامبراطور (٢ ديسمبر ١٨٥٢ م - ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م)

(٣) انظر نص الخطاب الذى وجهه السلطان للامبراطور نابليون الثالث — وكذلك وصف أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوى لمشاهداتهم فى باريس خلال الشهر الذى قضاه وزميله هناك .

— الاستقصا جـ ٩ ص ١١٦ — ١١٨ .

هذا وقد اشترك المغرب فى المعرض الدولى الذى عقد بباريس عام١٨٦٧م

والحقيقة إن هذه العلاقات فتحت أبواب المغرب لمسايرة التقدم فى الأمم الحديثة ـ لكنها فى نفس الوقت أسالت لعاب الإستعماريين الأوروبيين الطامعين فى الحصول على إمتيازات إقتصادية وسياسية فى المغرب وثغوره الهامة .

المولى حسن بن محمد (١٢٩٠ هـ - ١٣١١ هـ) (١٧٧٣ م - ١٨٩٤ م) :

بويع المولى أبى على حسن بن محمد بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن فى عام ١٢٩٠ هـ وكان والده قد استخلفه فى حياته ،وعهد إليه فى الفترة الأخيرة من حياته بجميع مهماته .

وكان المغرب وقت توليه الحكم فى مرحلة دقيقة ، فقد كانت الأحوال الداخلية والخارجية غير مستقرة ، وكان الجيش المغربى ـ الذى بدأ تنظيمه على أسس جديدة ـ لم يتم إعداده للقيام بمهمته الخطيرة فى إقرار الأمن الداخلى ومواجهة الأطماع الخارجية ، وكان المغرب فى هذه الفترة فى مفترق الطرق تتجاذ به التيارات القديمة والجديدة . أدرك المولى الحسن بن محمد كل هذا ، وكان يعلم ما يتطلبه الموقف من الربان الذى يقود السفينة فى وسط هذه الأمواج .

وكان المولى الحسن كثير الحركة دائم التنقل بين أجزاء مملكته يستطلع بنفسه أحوال الرعية ويدرس المشاكل ويعاين مناطق الضعف ويضع الحلول السريعة — ولذا تعددت (الرحلات الحسنية) لأنحاء المغرب المختلفة شماله وجنوبه ، شواطئه وثغوره . وكان عقب كل رحلة يصدر تقريراً يتضمن مشاهداته وتعليماته وتوجيهاته وأوامره التى أصدرها أثناء الرحله ، وذلك ليبصر المعنيين بالأمر ، ويقضى على الإشاعات المغرضة .

ولعل أهم رحلاته الرحلة التى قام بها عام ١٢٩٣ هـ/١٨٧٦م وزار فيها شواطىء المغرب وثغوره (الجديدة — أزمور — الدار البيضاء — الرباط — سلا) ، وعاين التحصينات الدفاعية بهذه الثغور من أبراج وأسوار وغيرها

وأمر بتلافى النقص فيها - كما زار الحدود المغربية الجزائرية التى إكتسبت أهمية خاصة فى ذلك الوقت بسبب نشاط الفرنسيين فيها بعد استقرار الأوضاع لهم بالجزائر . (١)

وحين أخذت أسبانيا فى تجديد نشاطها فى المناطق الساحلية من المغرب المواجهة لجزر كناريا (٢) قام المولى الحسن برحلة بدأها عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م لتفقد المناطق الجنوبية من بلاده طاف فيها ببلاد السوس والمناطق المجاورة لها . وقد عمدت أسبانيا إلى تقوية نفوذها فى المناطق الساحلية المواجهة لهذه الجزر (جزر كناريا) ورفعت علمها عليها سنة ١٨٨٥ م فى الفترة التى وصل فيها التنافس الإستعمارى الأوروبى ذروته عقب مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ / ١٨٨٥، واتخذت الحكومة الأسبانية من هذه المنطقة نقطة إرتكاز للتوسع فى الداخل وأطلقت على هذه المنطقة اسم ريودى أورو (Rio d'Oro) أى نهر الذهب. وقد أحتج المولى الحسن على هذه الإجراءات بشدة وعمد إلى تحصين الثغور المغربية فى المناطق المجاورة - واختار أحد قواد جيشه وأقامه بقصبة (تزينيت) لمراقبة سائر جهات القطر السوسى .

مؤتمر مدريد ١٨٨٠ :

شهدت فترة حكم المولى الحسن تنافساً دولياً شديداً بين الدول الأجنبية حول النفوذ فى المغرب والحصول على قدر أكبر من الإمتيازات الاقتصادية، وكانت

---

(١) أعطى صاحب الاستقصا تفصيلات وافية عن هذه الزيارات ، وما تم فيها من اصلاحات أو اخضاع لقبائل أو ثورات - عالجها بطريقته الخاصة التى سار عليها فى كتبه وهى تشبه طريقة الحوليات التى اشتهر بها الطبرى وغيره من مؤرخى القرن الثالث الهجرى فهو يسجل الأحداث سنة . فسنة وأهمية ماسجله من أحداث هذه الفترة أنه كان معاصراً لها . انظر حـ ٩ص ١٤٩ ومابعدها.

(٢) وقعت جزر كناريا فى أيدى الأسبان فى وقت مبكر منذ منتصف القرن الخامس عشر . وقد أدت هذه الجزر للاسبان خدمات جليلة فقد كثر عدد المهاجرين الأسبان الى هذه الجزر واختلطوا بالسكان ومنذ ١٨٣١ م أقام الأسبان بهذه الجزر حكومة شبه مستقلة مع اعتبارها جزءا من أسبانيا .

أنظر Johnston, H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913) p. 116

كل دولة تسعى للحصول لرعاياها من الامتيازات أكثر مما حصل عليه رعايا الدول الأخرى . وأدى هذا التنافس إلى العديد من المشاكل بين رعايا الدول الأجنبية وبين الحكومة المغربية .

وكانت الدول الأوروبية (بلجيكا ، ايطاليا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، السويد ، فرنسا) قد فرضت على المغرب فى عام ١٨٦٢ م معاهدة تنص على :

١ — يكون جميع المغاربة الذين يعملون فى المفوضيات أو القنصليات الاجنبية فى حماية هذه الدول ، وكذلك المغاربة الذين ترتبط مصالحهم المادية أو المعنوية بالأجانب .

٢ — تفرض هذه الحماية أيضاً على الوسطاء المغاربة الذين يعملون لدى التجار الاجانب على ألا يزيد عددهم عن شخصين لكل محل تجارى .

٣ — لا يدفع المحمى ضريبة للمغرب ولا يخضع للمحاكم الوطنية .(١)

واتخذت القنصليات الأجنبية من هذه المعاهدة سنداً للإنتقاص من هيبة السلطات المغربية المحلية — ولذا طالب السلطان مولاى الحسن بإلغاء هذه الإمتيازات التى لا مبرر لها .

ولوضع حد لهذه الاوضاع عقد بمدريد فى ٢٥ رجب ١٢٩٧ هـ (٣ يوليو ١٨٨٠ م) مؤتمر دولى حضرة مندوبون عن فرنسا ، وأسبانيا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وبلجيكا ، والدانيمارك ، والنمسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ، وهولندا ، والبرتغال - بالإضافة لمندوب المغرب .

وخرج المؤتمر بعدة قرارات أهما :

١ — أقر المؤتمر نظام المحاكم القنصلية .

٢ — أقر حق الملكية فى المغرب — للأجانب — بترخيص خاص من المخزن .

٣ — حرم على المغاربة التجنس بجنسية أجنبية .

---

(١) حقى ، احسان : المغرب العربى — مرجع سابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٤ — فى حالة مزاولة أجنبي لحرفة الزراعة فى المغرب ، وفى حالة المغاربة متعين بحماية الأجانب فإنهم يؤدون الضريبة الزراعية إلى قناصل الدول جنبية ويقوم القنصل بدفعها للحكومة المغربية .

٥ — يقدم القناصل للحكومة سنوياً لوائح بأسماء رعايا بلادهم فى المغرب سماء المحميين منهم .

وقد حرص المولى الحسن على أن تكون معاملة جميع الدول الأجنبية على م المساواة فى الحقوق والإمتيازات التى منحت لرعاياها وحاول أن يستفيد ، كل دولة منها لمحاولة تحقيق السياسة التقدمية التى رسمها للمغرب .

ورغم الضغوط العجيبة التى تعرض لها المغرب فى أيامه فقد ظل محتفظاً ستقلاله بفضل شخصية المولى الحسن وسياسته الحكيمة ونشـاطه المستمر سرعته فى حسم المشكلات مع الدول الأجنبية .

فلما أخذ الإنجليز يتسللون إلى ساحل (طرفايه) بدعوى الإتجار مع القبائل ناك — قام السلطان بجولة إلى بلاد السوس لتفقد أحوالها وأمر ببناء مرسى آساكا) فى هذه الجهات ورتب حماية لها .

وحين ألح ممثلوا الدول الأجنبية فى (طنجه) على ضرورة إطلاق الحرية للأجانب فى المعاملات التجارية فى مختلف الموانى المغربية وفى كافة البضائع ـ عاد المولى الحسن إلى العلماء وأصحاب الرأى من رجال دولته يستفتيهم فى ذلك ويسترشد برأيهم فى هل يسمح لهم أم لا ؟

وكان رأى الغالبية منهم أن المنع والحذر يجب أن يكون فى حالة ما إذا كان يخشى من أن يؤدى ذلك إلى تدعيم قوتهم العسكرية — وهو لا مجال للبحث فيه الآن بعد أن وصلوا إلى درجة رهيبة من القوة العسكرية ، وأصبح لا مجال للمقارنة بين الآلات الحربية عندهم والآلات التى يستخدمها الجيش المغربى ، أو كما قال صاحب الاستقصا « صارت آلاتنا عندهم هى والحطب سواء » . ولذا فالمتاجرة ينشأ عنها فى الغالب الإمتزاج والأخذ والعطاء — أضرارها أقل من أضرار المخاصمة

التى تدفع للحرب فليس من الرأى أن يدعوك خصمك القوى إلى السلم فتدعوه إلى الحرب . [1]

لكن كان هناك شبه إجماع على ضرورة تنفيذ الشروط المنصوص عليها فى الإتفاقات التجارية المختلفة بين المغرب والدول الأجنبية فيما يختص بحظر بيع الخمور والأعشاب المخدرة إلا فيما بينهم — كذلك كان من رأى فقهاء فاس بالذات وجوب تخلى (المخزن) عن بيع تلك الأعشاب وأمثالها فالقول بأن إحتكار المخزن لبيعها فيه تضييق على مستعمليها حتى لا يتبادلها إلا الميسر القادر — مردود عليه ولا يجب الأخذ به .

وفى السنة الأخيرة من حكم المولى الحسن (١٣١٢ ﻫ / ١٨٨٤ م) حدث خلاف بين قبائل زناته وبين الأسبان فى (مليله) . وسبب الخلاف يرجع إلى أن الأسبان طلبوا من السلطان المولى الحسن أن يزيدهم فى مساحة أرض مليله التى تحت نفوذهم فزادهم من أرض زناته - نحو الغلوة - وأصبحت حدودهم قريبة من مقبرة أحد الأولياء هو (سيدى وارياش) وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر فلما قام الأسبان ببناء مخافر لهم بمحل يشرف على مقبرة الولى المذكور أدى ذلك للإصطدام وقتل بعض الأسبان فحضر وفد منهم إلى مراكش يطلبون الإنصاف من القبائل التى عادتهم وأنزلت بهم الخسائر ، وقبل السلطان دفع عشرين مليون بزيته حسماً لهذا الخلاف [2] .

ويذكر صاحب الإستقصا « إنهم كانوا يستخدمون الحمام لإخطار حكومتهم بمدريد بنتائج هذه المفاوضات بينهم وبين السلطان » . [3]

وفى آخر عام ١٣١٢ ﻫ - ١٨٨٤ م توفى السلطان الحسن وكانت مدة حكمه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر .

---

(١) انظر خطابه لهم فى هذا الشأن ومختلف الأراء التى اثيرت حول هذا الموضوع فى الاستقصا ج ٩ ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) حقى ، احسان : مرجع سابق ص ١٣٤ .

(٣) الاستقصا ج ٩ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦

وبعد وفاة المولى الحسن بويع ابنه المولى عبدالعزيز ولم يكن يتجاوز سنه إذ ذاك ١٣ سنة . وكانت توليته الحكم فى فترة حرجة من تاريخ المغرب وصل الضغط الخارجى فيها إلى ذروته كما سنوضح بعد.

وقبل أن نستمر فى دراسة هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى نقف بعض الوقت لندرس الأوضاع فى باقى بلاد المغرب (الجزائر ، تونس) فلا شك فى أن أحداث المغرب الأقصى فى هذه الفترة كانت وثيقة الصلة بما آلت إليه الأمور فى هذين القطرين المجاورين. وقد إرتبط تاريخهما بتاريخ المغرب الأقصى إرتباطاً وثيقاً منذ أبعد العصور .

الباب الثالث

فرنسا فى المغرب العربى

الفصل الثامن : الإحتلال الفرنسى للجزائر

الفصل التاسع : فرض الحماية الفرنسية على تونس .

الفصل العاشر : الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى .

الفصل الثامن

الإحتلال الفرنسى للجزائر

دوافع الإحتلال الفرنسى للجزائر :

تتصل ظروف ودوافع الإحتلال الفرنسى للجزائر — ذلك الإحتلال الذى استمر مائة وثلاثين عاماً تقريباً — بعوامل متعددة تتعلق بظروف فرنسا الداخلية وبعلاقاتها الدولية ، وبالتنافس الدولى على البحر المتوسط ذلك الشريان الحيوى للملاحة الذى شهدت شواطئه وموانيه صراعات مريرة فى عصور التاريخ المختلفة قديمها ووسيطها وحديثها.

ولذا فعلى الباحث عن الدوافع الحقيقية وراء هذه الحملة الفرنسية أن يبحث عنها فى صفحات العلاقات بين الدول الكبرى المتصلة بهذه المنطقة الحيوية - منطقة البحر المتوسط — والظروف التى كانت تحيط بهذه الدول وفى مقدمتها انجلترا، وفرنسا ، وروسيا ، والنمسا ، وهولنده، والدولة العثمانية، وأسبانيا - بالاضافة إلى البابوية التى كانت تزج بنفسها فى كل نزاع بين دولة مسيحية (كاثوليكية بالذات) ودولة إسلامية .

أما القول بأن الدافع لهذه الحملة هو الإهانة التى لحقت فى ٢٩ أبريل ١٨٢٧ بقنصل فرنسا فى الجزائر بيير ديفال Pierre Deval فهو قول لايمس جوهر الحقيقة ، فليس من المعقول كما يذكر زعيم النمسا مترنيخ Metternich أن تحرك فرنسا مثل هذا الجيش الجرار (٤٠,٠٠٠ جندى) ، وأن تصرف من خزانتها هذه المبالغ الطائلة (١٥٠ مليون فرنك) من أجل ضربة مروحة كما يقال(١) .

---

(١) Julien, Charles—André:Histoire de Algerie Contemporaine (Paris 1964) P. 38

أما عن الجزائر ذاتها - فقد كانت فى ذلك الوقت رسمياً ولاية عثمانية . فكما ذكرنا سابقاً - استطاع الأتراك العثمانيون فى النصف الأول من القرن السادس عشر أن يبسطوا سلطانهم على طرابلس ، والجزائر ، وتونس - ولما أصاب الدولة العثمانية الضعف فى القرن السابع عشر ، وانشغلت بالدفاع عن كيانها — ضعفت سلطتها فى بلاد المغرب ، وصارت السلطة الحقيقية فى أيدى رؤساء القرصان والقوات غير النظامية « الأغوات » ، وبقيت للدولة العثمانية السيادة الإسمية فحسب . ومنذ ١٦٧١ م أصبحت مقاليد الأمور فى الجزائر فى يد الحاكم الملقب بلقب « داى » بينما أطلق على الحاكم فى تونس منذ ١٧٥٠ لقب « الباى » .

وكان الداى فى الجزائر فى البدء يصل لمنصبه عن طريق الإنتخاب ، لكن أصبح الأمر بعد ذلك فى يد رؤساء طوائف القرصان وأصحاب القوة من قادة الفرق العسكرية . ولم تكن الجزائر كلها فى الحقيقة خاضعة تماماً لسلطان الداى فقد كانت قبائل البربر فى الجبال ، والقبائل المتوغلة فى الصحراء شبه مستقلة تخضع لسيطرة رؤسائها هى فقط .

وكانت القرصنة منتشرة فى السواحل وفى حوض البحر المتوسط . والحقيقة إن القرصنة البحرية كانت عامة فى ذلك الوقت يقبل عليها المسيحيون والمسلمون على السواء دون تستر أو إستحياء وكأنها نوع من الجهاد والحرب ضد الاعداء ، فأصبحت مورداً هاماً من أهم موارد حزانة الداى — فقد كانت تفرض على القراصنة نسبة معينة عما يستولون عليه أثناء مهاجمتهم للسفن ، مما جعل الدول الاوروبية تضج بالشكوى من هذه الحالة مطالبة بضرورة تأمين المواصلات البحرية والتجارة فى البحر المتوسط . وكانت هذه المسألة من المسائل التى ناقشها مؤتمر فينا الذى عقد فى سنة ١٨١٥ م لتسوية الأوضاع بعد الحروب النابوليونية .

فقـــد قدم الأميرال سيدنى سميث Sdney Smith قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط مذكرة للمؤتمر يطالب فيها الدول الأوروبية بإتخاذ

إجراءات حازمة ضد أعمال القرصنة التى تقوم بها الدول الإسلامية فى شمال أفريقيا ، وكون سيدنى سميث (جمعية محاربة القراصنة) ، ثم (جمعية الفرسان محررى الرقيق الأبيض فى أفريقيا) أسوة بجمعيات محاربة الرق فى أفريقيا .

وكانت مسألة محاربة القرصنة البحرية هذه من المسائل التى شغلت المؤتمرات الأوروبية التى عقدت منذ ذلك الوقت . فقد بحثها مؤتمر لندن عام ١٨١٦ م ومؤتمر اكس لاشابيل Aix La Chapelle سنة ١٨١٨م — وأرسلت بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية أساطيلها فى محاولة لإرهاب السلطات الحاكمة بالجزائر بالذات لتضع حداً لأعمال القرصنة بسواحلها[1] .

والمهم فى موضوع حديثنا — أن فرنسا تذرعت بهذه المسألة ، مسألة محاربة القرصنة ، ضمن ما تذرعت به ، ووجدت فى مظهرها الإنسانى ما يجعلها وسيلة صالحة للإستناد عليها — لتحقيق أطماعها فى الجزائر .

أما المسألة الأخرى التى تذرعت بها فرنسا وهى مسألة إهانة قنصلها فى الجزائر — فترجع جذورها إلى زمن سابق حين كانت فرنسا أثناء الثورة الفرنسية فى شديد الحاجة إلى القمح ، وقد كان موقف الجزائر من هذه المحنة الفرنسية موقفاً كريماً ، فألغت القيود المفروضة على تصدير الحبوب لفرنسا — وظهر فى هذا الميدان وسيطان يهوديان هما بوشناخ Bushnach وبكرى Bacri فقد قاما ببيع حصة كبيرة من القمح الجزائرى لفرنسا — لكن فرنسا ماطلت فى دفع ثمن هذه الحصة من القمح بسبب ما كانت تعانى منه الخزانة الفرنسية من ضيق مالى ، وتعللت فرنسا بأن الأمر يرجع إلى ضيقها من الوسيطين لتعاملهما مع انجلترا عدوة فرنسا فى ذلك الوقت . وعبثاً حاول الداى أن يحصل على حقه من فرنسا حتى بعد عودة الملكية إليها فى عام ١٨١٥ م ، وكان ينتظر أن تعمل الملكية العائدة على إسترجاع العلاقات الطيبة مع الجزائر .

---

(١) Julien, Ch. A.:Op. cit. p.30

وحين أمسك الداى حسن بدفة الأمور فى الجزائر فى عام ١٨١٨ م طالب الحكومة الفرنسية بتسديد المبالغ المستحقة له دون جدوى. وفى عام ١٨٢٦ م جدد المطالبة بخطاب أرسله إلى وزير خارجية فرنسا يلح فيه على إرسال المبالغ المستحقة على فرنسا أو بيان أسباب إمتناعها عن ذلك، لكن لم يتوصل الداى برد مقنع. ولما أعاد الكرة وطالب فرنسا أيضاً بإستدعاء «ديفال» وإرسال قنصل آخر غيره يكون موضع ثقة الداى — دافع وزير الخارجية الفرنسى عن ديفال وطالب الداى بمعاملة القنصل الفرنسى باحترام، بل وطالب بالتعويض عن الأضرار التى لحقت ببعض السفن الفرنسية والبابوية التى اشتبكت مع بعض السفن الجزائرية.

وزاد من حدة التوتر التصرف الغريب الذى قام به نائب القنصل الفرنسى فى «عنابه» الكسندر ديفال Alexander Deval وهو ابن شقيق القنصل ديفال، فقد أقام منشآت تمهيداً لتدعيمها بالعسكريين والمدافع، ولما وصل ذلك إلى علم الداى أرسل قواته لتدمير هذه التحصينات.

وفى ٢٩ أبريل ١٨٢٧ م — فى مناسبة عيد الأضحى حدث الحوار المثير بين الداى والقنصل الفرنسى ديفال — فقد استفسر الداى من القنصل عن سبب تجاهل الحكومة الفرنسية لرسائله المتعددة، ويبدو أن رد القنصل أثار الداى فوجه إليه ثلاث ضربات من «المروحة» التى كانت بيده وأمره بالإنسحاب.

وكتب القنصل الفرنسى تقريرة عن الحادث لحكومته طالباً إتخاذ الوسائل الفعالة للمحافظة على كرامة فرنسا[1].

وكان رد الفعل من الجهات الرسمية الفرنسية متبايناً — فقد رأى بعض أعضاء الحكومة الفرنسية أن توجه الحكومة قوة بحرية تقوم بفرض حصار على الجزائر حتى يلزم الداى بتقديم ترضية كافية عن هذه الإهانة، بينما

---

(١) Julien : Op. Cit. p. 28

ذهب المتطرفون إلى المناداة بإرسال حملة كاملة تقوم بإحتلال الجزائر ، وعدد هذا الفريق الفوائد التى ستتحقق من جراء حملة الغزو ، فأسرة البربون العائدة للحكم فى حاجة إلى مغامرة عسكرية كهذه تدعم مركزها وتجعلها تبدو وكأنها تبنى عظمة فرنسا من جديد ، خاصة أنها قد عادت إلى الحكم على أكتاف الأجانب — وقد صرح الملك شارل العاشر (Charles x) بإعتزامه إنشاء مستعمرة هامة فى شمال أفريقيا حيث يستطيع الاسطول الفرنسى أن يجد بعض القواعد على الساحل الافريقى المقابل تكفل له حرية التنقل فى البحر المتوسط، كما أن حملة الجزائر ستظهر فرنسا بالحامية الكبرى للبابوية والمدافعة عن مصالحها ، وتعتبر هذه الحملة أيضاً تحطيماً للقيود التى فرضها مؤتمر فينا على فرنسا الذى قرر ألا تقوم فرنسا بإجراء أية تغييرات إقليميه دون موافقة الدول العظمى الاربع .

ومن جهة أخرى فإن هذه الحملة ستجعل أنظار الفرنسيين تتجه إلى الخارج بدلا من تركيز إهتمامهم على المشاكل الداخلية .

ومن الناحية الإقتصادية فإن امتلاك هذا الإقليم الغنى الذى كان فى فترة من الفترات يمون الإمبراطورية الرومانية بحاجتها من الغلال سيبرر مايصرف على عمليات الغزو من مال وجهد .

ولعل تصريح رئيس الوزراء الفرنسى بوليناك (Polignac) فى مجلس الوزراء الفرنسى عندما تقرر فى عام ١٨٣٠ م إرسال حملة لغزو الجزائر يعبر عن كل هذه الافكار فقد ذكر « إن مثل هذه الحملة ستجعل أنظار الشعب الفرنسى متجهة إلى الخارج ، وأن النصر الخارجى يساعد على الوصول إلى نتائج مؤاتية ومؤثرة على جموع الناخبين ، وسيساعد فى تقوية الملكية ، وسيجمع حولها كل هؤلاء الذين اتهموها منذ ١٨١٥ م بإتباع سياسة سلبية فى العالم[1] .

---

(١) يحيى ، جلال : السياسه الفرنسية فى الجزائر (١٩٥٩) ص ٦٤٠ .

على أن الظروف الدولية بالإضافة إلى ظروف فرنسا الداخلية — كانت تفرض عدم الإندفاع فى عمل حربى غير مأمون العواقب .

ولذا وجهت فرنسا فى ١٦ يونيو ١٨٢٧ م أربع سفن حربية على رأسها الكابتن كوليه (Collet) يحمل إنذاراً للداى ويطلب ترضية كاملة عما لحق فرنسا من إهانة وكانت المطالب الفرنسية تتلخص فيما يلى[1]:

١ — تقديم إعتذار رسمى من الداى عن الإهانة التى لحقت بفرنسا .

٢ — دفع تعويض عن الاضرار التى لحقت بالسفن الفرنسية والبابوية من الجزائريين .

٣ — تقديم ضمانات خاصة بالمستقبل تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأية إجراءات تفتيشية أو غيرها من السفن الجزائرية .

٤ — تمنح فرنسا حق تسليح كافة مؤسساتها فى الجزائر دون أى إعتراض من الداى وحكومته .

٥ — تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الأمة الأكثر رعاية .

٦ — يعلن الداى أن الحكومة الفرنسية قد وفت بإلتزاماتها المالية للجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها .

وقد رفض الداى هذه المطالب المجحفة .

وظلت فرنسا مترددة بين الإستمرار فى الحصار على أمل الوصول إلى حل سلمى أو إرسال حملة حربية لإمتلاك الجزائر وإخضاعها لفرنسا . وبقى الحصار الفرنسى لسواحل الجزائرية مدة ثلاث سنوات (من ١٨٢٧/٦/١٦

(١) فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث (١٩٦٩) ص ١٥٨ .

ملاحظة : وصل بوليناك إلى رئاسة الوزارة الفرنسية فى ٨ أغسطس ١٨٢٩ م

إلى ١٨٣٠/٦/١٣ م) تعاقبت فى أثنائها على الحكم فى فرنسا ثلاث وزارات دون أن يتخذ عمل حاسم — فقد كانت الظروف الداخلية فى فرنسا غير مستقرة بعد عودة ملكية البوربون إليها ، وكانت الظروف الخارجية غير ملائمة ، فقد كانت فرنسا حريصة على أن يكون لها دور مع إنجلترا وروسيا فى الأحداث الاوروبية وغيرها ، كما كان أسطولها مشغولا فى المياه اليونانية وفى المحيط الاطلسى — لذلك رجحت فى ذلك الوقت كفة الداعين للضغط على الداى ليقدم إعتذاراً وترضية كافية على الذين كانوا ينادون بعمل برى وبحرى حاسم.

وحين جاءت الوزارة (وزارة بوليناك) إلى الحكم فى فرنسا فى أغسطس ١٨٢٩ م كان الرأى العام الفرنسى قد ضج من هذا الوضع الغريب فكان إستمرار الأوضاع على ماهى عليه — أمراً غير معقول . . وثارت فكرة محاولة الإلتجاء للسلطان العثمانى للضغط على الداى ليقبل مطالب فرنسا ـ لكن السلطان فى الحقيقة لم يكن فى ذلك الوقت يملك قوة الضغط — فقد كان نفوذه فى الجزائر لايتعدى النفوذ الإسمى .

وقفزت فكرة قيام محمد على بحملة على الجزائر تساندها فرنسا وبذلك تتحقق عن هذا الطريق غير المباشر مصلحة فرنسا فى تحطيم حكومة الداى .

وكان من وراء هذا المشروع دروفتى Drovetti قنصل فرنسا فى مصر والصديق الحميم لمحمد على ، وقد كان متحمساً لفكرة قيام محمد على بهذا العمل حتى أنه كتب تقريراً وافياً لبوليناك عدد فيه المزايا التى ستتحقق من قيام محمد على — بدل فرنسا نفسها بأعباء هذه الحملة[1] ، وفوتح محمد على فى المشروع ووافق عليه على شرط أن تقدم له فرنسا قرضاً مالياً ، ودعماً بحرياً[2]

---

(١) Jalin : Op. cit. p. 34

(٢) لمعرفة الشروط الكاملة التى عرضت على محمد على للقيام بهذا المشروع الحربى ـ انظر المرجع السابق p. 35 xx

ملحوظة : استعن بخريطة فرنسا فى شمال أفريقيا بملحق الكتاب .

كما فاتحت فرنسا السلطان العثمانى لأخذ موافقته على قيام محمد على بهذا العمل — لكن إنجلترا إلى تسربت إليها أخبار هذا المشروع عمدت لتحريض السلطان على رفضه كما حذرت محمد على من الإقدام على هذا العمل ، وبصرت طرابلس ، وتونس ، والجزائر بالمشروع الذى يحاك ضدها . كما أثارت الدول الأوروبية الأخرى — غير فرنسا — على هذا الإتجاه الفرنسى . وإزاء كل هذا عدل بولنياك عن هذا المشروع وظل يتحين الفرص لقيام فرنسا بنفسها بحملة ضد الجزائر .

الحملة :

اختير الجنرال بورمونت (Bourmont) لقيادة هذه الحملة ، بينما أختير الاميرال دوبرى (Dupperé) لقيادة الأسطول البحرى . وأعلنت فرنسا أن هدفها من الحملة هو الإنتقام لشرفها ، ثم وضع حد لعمليات القرصنة والإسترقاق التى تزاولها الجزائر وأتباعها .

وأبدت إنجلترا قلقها من هذه الخطوة وحاولت أن تحصل من فرنسا على تعهد كتابى بأنها لا تنوى إحتلال الجزائر إحتلالا عسكرياً — دون جدوى . أما الدول الكبرى الأخرى (روسيا — وبروسيا — والنمسا) فلم تعارض هذا الإتجاه الفرنسى .

أقلع الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى مايو ١٨٣٠ م ، وأضطر — بسبب الأحوال الجوية — للبقاء بعض الوقت فى جزر البليار . وفى ١٤ يونيو بدأ إنزال الجنود فى (سيدى فرج) على مسافة ٢٥ كيلو متراً غرب مدينة الجزائر .

وقد عهد الداى إلى صهره (إبراهيم أغا) بقيادة القوات المدافعة . ويؤخذ على الداى عدم مبادرته بإقامة التحصينات وإتخاذ العدة للدفاع عنها — رغم علمه مسبقاً بأخبار الحملة وبخطة الفرنسيين .

ونجح الفرنسيون فى إحتلال (سيدى فرج) ، كما نجحوا فى الإستيلاء على المعسكر الجزائرى فى اسطا والى (مصطفى والى) . وأصبح الطريق إلى مدينة الجزائر ذاتها مفتوحا ، وكانت تحميها قلعة السلطان و حصن القصبة .

ورغم المقاومة الباسلة من حامية القلعة ـ فقد استطاعت مدافع الفرنسيين أن تنسف جزءاً كبيراً من قلعة السلطان ، وأن تشعل النار فى مخازن الذخيرة فيها . وأرسل الداى أحد رجاله « الباشكاتب مصطفى » إلى بورمونت بالمقترحات للصلح ، كما وسط قنصل انجلترا سانت جون فى ذلك ـ لكن القائد الفرنسى أملى شروطه التى أضطر الداى فى ٥ يوليو إلى قبولها وهى تقضى بما يلى :

١ ــ تسليم حصن « القصبة » وجميع حصون مدينـــة الجزائر وأبوابها للفرنسيين .

٢ ــ يضمن القائد الفرنسى حرية الداى وكل ممتلكاته الشخصية .

٣ ــ تترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل الى أى مكان يريده ، ويتعهد القائد الفرنسى بحمايته هو وأسرته فى حالة تفضيله البقاء .

٤ ــ عدم اتخاذ أية إجراءات انتقامية ضد الجنود الجزائريين .

٥ ــ كفالة حرية الشعب الجزائرى فى إقامة شعائر الدين الإسلامى وصيانة أملاك الأهالى وتجارتهم وصناعاتهم .

هكذا دخل الجنود الفرنسيون مدينة الجزائر وغادرها الداى حسن وأسرته إلى نابلى وقام الفرنسيون بنزع سلاح الجنود الإنكشارية وأبعدهم إلى أزمير وقضوا بذلك على آخر مظهر من مظاهر التبعية للحكم العثمانى ، وتعرضت مدينة الجزائر للنهب والسلب بشكل رهيب[1] .

وقد وصلت أنباء الاستيلاء على مدينـة الجزائر إلى فرنسا فى أواخر أيام

---

(١) انتقل الداى بعد ذلك إلى الإسكندرية وتوفى بها فى عام ١٨٣٨ م .

ملكية شارل العاشر Charles x الذى أطاحت به ثورة يوليو ١٨٣٠ م. وخلفه لويس فيليب Louis Philippe .

وأرسل القائد الفرنسى قوة احتلت بعض موانى الجزائر « المرسى الكبير ، وهران ، وعنابه » . لكن عندما حاولت القوات الفرنسيه التوغل فى الداخل قوبلت بمقاومة عنيفة إضطرتها للتراجع ، بل اضطرتها لإخلاء « عنابه ، وهران» . وقد كشفت الحملة التى أرسلها الفرنسيون إلى بلدة « البليدة » التى تقع عند سفوح جبال أطلس على بعد ٤٨ كيلو متراً جنوبى الجزائر - مدى ما ينتظر المستعمرين من مقاومة إذا حاولوا التوغل للداخل . والحقيقة إن نفوذ الفرنسيين فى هذه الفترة لم يتعد أسوار مدينة الجزائر نفسها .

ولم يؤد تغيير الأوضاع فى فرنسا ذاتها الى تغيير فى سياستها تجاه الجزائر . فرغم التغيير المستمر فى القواد الفرنسيين فى الجزائر - فقد كان الإتجاه العام للحكومة الفرنسية هو الإحتفاظ بالجزائر[1] .

ولا شك فى أن كثرة تغيير القواد دليل على عجز الفرنسيين وحيرتهم ، وقد حاول بعض هؤلاء القواد العسكريين بعد أن أدركوا عجزهم عن التوغل عسكرياً فى الداخل — أن يجربوا محاولات التوغل السلمى والسيطرة غير المباشرة عن طريق حكام غير فرنسيين لكنهم موالون لفرنسا - ومن هذا القبيل محاولة القائد الفرنسى كاوزل Clauzel الذى خلف بورمونت Bourmont فى القيادة - تعيين شقيق باى تونس فى منصب باى قسنطينة ، وتعيين قريب آخر له فى وهران ، وكان باى تونس قد أبدى ترحيبه بالفرنسيين . كما حاول الفرنسيون الاشراف على الأقاليم الداخليـة فى الجزائر عن طريق شيوخ من الأهالى موالين لهم - وبرر القادة الفرنسيون لحكومتهم هذا الاجراء بأنه يحقق هدفين . فهو أولا يضمن ولاء هؤلاء الشيوخ وأتباعهم للفرنسيين دون حاجـة لإستخدام القوات العسكرية لنشر سلطان الفرنسيين ، وثانياً - يوجد الفرقة بين

---

(١) فى الفترة بين ١٨٣٠ م ، ١٨٣٤ م تولى القيادة الفرنسية فى الجزائر ستة قواد.

الجزائريين فيصطدم هؤلاء الشيوخ ـ وهم يقومون بجمع الضرائب وغيرها ـ بالمعادين للإستعمار الفرنسي من الوطنيين الجزائريين. على أن محاولات الفرنسيين هذه للتوغل فى الداخل باءت بالفشل ـ فقد اقتصرت سلطتهم على احتلال النقط الساحلية فى [الجزائر ، وهران ، وعنابه ، وبجايه ، ومستغانم] بينما كان عليهم أن يواجهوا مقاومة عنيفة فى غرب الجزائر وشرقها وفى الأقاليم الداخلية .

ورغم أن انجلترا ظلت تعارض بشدة إستيلاء فرنسا على الجزائر واستمرارها فيه ـ فإن الظروف الدولية ألزمت انجلترا بان تخفف من حدة معارضتها لها ، وإن كانت إنجلترا ـــ على لسان المسئولين فيها ـ حرصت فى كل مناسبة على التصريح بحقوق الباب العالى فى الجزائر وأن موقف فرنسا لا يخرج عن كونه إحتلال عسكرى يجب أن ينتهى[١] .

مقاومة الجزائريين للإحتلال الفرنسى :

وقع عبء مقاومة الإستعمار الفرنسي على الشعب الجزائرى نفسه ـ فقد غادر الداى الجزائر كما رأينا ، وكان كل همه أن يأمن على نفسه وأهله وماله ـ وكما يذكر ابن أبى الضياف إنه لم يكن يربطه بالبلد أكثر من هذا ـ فقد كان غريباً عنها ، ولو كان من أبناء ترابها ماسهل عليه ذلك ولاستهان بطرق المهالك[٢] .

كما غادر البلد الجنود الأتراك بعد أن جردوا من سلاحهم .

أما البايات[٣] فلعل مقاومة أحمد باى فى قسنطينه هى أبرزها ، وإن كانت

(١) تصريح بالمرستون (Palmerston) فى عام ١٨٢٨ م .

(٢) ابن أبى الضياف ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) كانت الجزائر مقسمة إلى أربع ولايات (بيلكيات) على رأس كل منها (باى) يعينه الداى وهى (ا) بيلكية (الجزائر) وتشمل الجزائر وضواحيها وسهل المتيجه وهى ترتبط بالداى مباشرة (ب) بيلكية الغرب وكانت عاصمتها (معسكر) ثم نقلت الى وهران وتمتد حتى حدود الغرب . (جـ) بيلكية الشرق ومقرها قسنطينة وتمتد حتى حدود تونس (د) بيلكية قطرى (ومقرها الميديه) .

مقاومته ترجع لحرصه على السلطة أكثر من وطنيته - ويؤيد وجهة النظر هذه رفضه الإنضمام إلى الأمير عبد القادر فى جهاده ضد أعداء الدين .

على أن المقاومة الحقيقية للغزو الفرنسى للجزائر تتمثل فى الدور الذى قام به الأمير عبد القادر .

والأمير عبد القادر هو ابن الشريف محى الدين ، شيخ الطريقة القادرية ، ويرجع نسبه إلى الهاشميين . وكان عبد القادر قد زار مصر مع والده فى طريقه إلى الحج فى عام ١٨٢٧ م . وأبدى إعجابه بالدور الذى يقوم به محمد على للنهوض بمصر فى هذه الفترة .

ويحاول بعض الكتاب أن يجروا مقارنة بين دور عبد القادر الجزائرى والدور الذى قامت به الزعامات المغربية كالمرابطين والموحدين وهى زعامات قامت حركتها فى الجهاد أصلا على أساس دينى - كما يحاول البعض عقد مقارنة بين دوره فى الجزائر ودور محمد على فى مصر - ويرى بعض هؤلاء أن محمد على كان يعمل فى ظروف أفضل لأنه كان يعمل فى بلد إعتاد الناس فيه على وجود الدولة وتدخلها فى حياتهم وأنه قصر جهده على البناء المادى لهذه الدولة الحديثة التى سعى لبقائها — بينما كان عبد القادر يعمل فى بلد إعتادت منذ القدم على حياة المجموعات المستقلة ،وعلى غياب الدولة - ومن جهة أخرى كانت الظروف الخارجية والداخلية تسهل مهمة محمد على بعكس الوضع بالنسبة لعبد القادر[1] .

ويحدثنا صاحب كتاب (تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)عن الظروف فى غرب الجزائر التى تمت فيها البيعة للأمير عبد القادر[2].

فقد كان الفرنسيون قد احتلوا (وهران) وحاولوا — كما ذكرنا — أن

---

(١) فارس ، محمد خير : تاريخ الجزائر الحديث — ص ٢٣٩ .

(٢) محمد عبد القادر الجزائرى : تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (طبعة الإسكندرية — ١٩٠٣) ـ ١ ص ٩٦ .

يولوا عليها شقيق بأى تونس الموالى لهم — لكن لم يستطع الفرنسيون السيطرة على دفة الأمور ، وعاد الفرنسيون لحكم (وهران) بأنفسهم . أما (تلمسان) على حدود المغرب الأقصى فقد دخلها الجيش المغربى وعلى رأسه (على بن سليمان) الذى عينه المولى عبد الرحمن سلطان المغرب حاكماً لهذه الجهات ، لكن تحت الضغط الفرنسى أضطر السلطان المغربى لإخلاء تلمسان وسحب خليفته منها[1] .

فى وسط هذه الظروف أجتمع أهل الحل والعقد والأشراف والعلماء والأعيان فى غربى الجزائر وقدموا فى عام ١٨٣٢ م على الشريف محى الدين شيخ الطريقة القادر به وطلبوا منه أن يقبل بيعتهم على الإدارة لنفسه أو لولده ، ولما كان هو عاجز عن القيام بأعباء هذا الأمر لكبر سنه ورأى أن ولده قد بلغ أشده وأصبح أهلا لهذا الأمر — فاتحة فى الأمر — فقبله وكان عمره فى ذلك الوقت أربعاً وعشرين سنة فبايعته القبائل للإمارة ، واتخذ مدينة (المعسكر) حاضرة له[2] .

وأخذ الأمير ينظم شؤون إمارته ويخضع القبائل المناوئة له حتى يتفرغ لمحاربة الفرنسيين ، وعين معينين له ومستشارين .

وكان الجنرال دى ميشيل (Desmichels) قد تولى أمر القيادة فى وهران ونجح فى الإستيلاء على (مستغانم وأرزيو) — لكن استطاع الأمير عبد القادر أن يستولى على تلمسان وأن يفرض حصاراً على الفرنسيين فى وهران ومستغانم وأرزيو فأصبحوا يعتمدون على البحر لتموين قواتهم بها فأضطر القائد الفرنسى لمفاوضة الأمير عبد القادر لتوقيع صلح بين الطرفين .[3] وانتهت الإتصالات بتوقيع اتفاق وقعه مندوب عن كل من الطرفين فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤ م .

---

(١) راجع ماذكرناه سابقاً عن هذه الأحداث — عند الحديث عن المغرب الأقصى فى عهد المولى عبد الرحمن العلوى .

(٢) انظر نص البيعة : تحفة الجزائر — المرجع السابق ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) انظر نص رد الأمير عبد القادر على خطاب القائد الفرنسى فى : تحفة الزائر — ص ١١١ .

وفى هذا الاتفاق تقرر مايلى[1] :

١ — وقف الخصومة بين الطرفين .

٢ — يحترم الفرنسيون الدين الإسلامى والمعتقدات الإسلامية .

٣ — رد الأسرى الفرنسيين ، كما يلتزم كل طرف برد الهاربين إليه من أتباع الطرف الآخر .

٤ — حرية التجارة .

٥ — تكون تجارة مرسى ارزيو تحت ولاية الأمير كما كانت من قبل على أن يقتصر مايرسل من بضائـــع إلى وهران ومستغانم على ما يكفى أهلها .

٦ — تترك الحرية للمسلمين الراغبين فى العودة إلى ديارهم فى المناطق التى يسيطر عليها الفرنسيون .

٧ — يعين وكلاء لكل من الطرفين لدى الطرف الآخر للإشراف على تنفيذ هذه الإتفاقية .

وقد عين الأمير (مردخاى بن دران الوسرى) وكيلا عنه بمدينة الجزائر و (محمد بن يخ) فى وهران ، والأغا (خليفه بن محمود) فى أرزيو — وعين سفير فرنسا الكومندان (عبد الله ديسون) — وكان من مماليك الأمراء المصريين لكنه دخل فى خدمة الفرنسيين — وكيلا عنه فى « المعسكر »

---

(١) يذكر صاحب تحفة الزائر أن مندوب الأمير الذى وقع هذا الاتفاق هو (ابن عراش) — وزير خارجية الأمير .

انظر : المرجع المذكور — ص ١١٥ .

ونص الاتفاق ص ١١٦ .

وكما يقول صاحب تحفة الزائر إن هذه المعاهدة كانت مجرد هدنة بين الطرفين خاصة أن الحكومة الفرنسية حين أبلغها الجنرال دى ميشيل خبر هذه المعاهدة لم تبد إرتياحاً لها ـ لكن على كل فقد أتاحت هذه المعاهدة للأمير عبد القادر فرصة مد نفوذه وتوسيع سلطانه فى بلاد المغرب الأوسط ، وكانت المعاهدة بمثابة نداء للقبائل التى لم تدخل فى طاعة الامير بعد للإنضمام إليه بعد أن اعترفت به الدولة الفرنسية ، كما تفرغ الامير لإخضاع القبائل التى استمرت فى معاداته مثل « الدوائر » و « الزماله » وقبائل « شلف » ، ونجح فى أن يهزم هذة القبائل فى غرب الجزائر فى موقعة قرب « تلمسان » فى ١٢ يوليه ١٨٣٤ م واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه على غرب الجزائر ، وأصبح يتطلع إلى مد نفوذه إلى الشرق وإلى المناطق المحيطة بمدينة الجزائر ذاتها .

وكان طبيعياً أن يثير هذا الوضع مخاوف الفرنسيين ، ولذا اتجهت فرنسا إلى إغراء بعض الرؤساء المحليين وزعماء القبائل بالمرتبات والمنح بالإضافة إلى الحماية الفرنسية ، ليعلنوا ولاءهم للفرنسيين ، ويحولوا دون إنضمام مناطقهم وقبائلهم إلى الأمير عبد القادر ، وعقدت معهم معاهدة بذلك عرفت (بمعاهدة التيمنة) فى ١٦ يونيه ١٨٣٥ م ووضعتهم بذلك تحت حمايتها ـــ الأمر الذى اعتبره الامير خرقاً للمعاهدة المعقودة بينه وبين الفرنسيين .

وفى أول يونيه سنة ١٨٣٦ م خرج الجنرال تريزيل (Trezel) الذى كان قد عين حاكماً لوهران بدلا من دى ميشيل ـ فى قوة كبيرة من ٥٠٠٠ من المشاة ، وفرقة من الخياله من وهران يريد أن يوقع بقوات الأمير عبد القادر ـ فعبأ الامير قواته والتقى بقوات تريزيل وألحق بها هزيمة منكرة وأجبرها على التراجع صوب وهران ـ لكن لحقت بها قوات الأمير عبد القادر عند مجاز نهر « هبره » فى المنطقه المعروفة بـ « المقطع » ، حيث أوقعت بها هزيمة منكرة ، فقتل عدد كبير من القوات الفرنسية وغرق الكثيرون فى النهر وغنم الأمير الكثير من العجلات الحربية وغيرها من الذخائر والمدافع واستطاع « تريزيل » والبعض ممن بقى على قيد الحياة من رجاله التسلل إلى ساحل

البحر حيث هربوا إلى « ارزيو » . وكانت لمعركة « المقطع » هذه أصداء قوية فى فرنسا - فأعادت كلوزيل (Clauzel) مرة ثانية كحاكم عام للجزائر ودعمته بقوة كبيرة من الجنود والعتاد ليحاول أن يمحو آثار الهزيمة التى هزت أركان الإستعمار الفرنسى للجزائر[1].

ووصل كلوزيل إلى الجزائر مصحوبا بالدوق دورليان (Duc d'Orleans) وركز جهده للقضاء على كل نفوذ للأمير عبد القادر وإجباره على الإستسلام - فقادقوة كبيرة من ١١٠٠٠ جندى فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٥ م قاصداً عاصمة الامير « المسكر » - لكن الامير تحاشى الإصطدام مع الفرنسيين فى معركة فاصلة - فترك عاصمته بعدأن دمر منشآتها ودخلها الفرنسيون ليجدوها مهجورة واضطروا بعد يومين إلى إخلائها فعاد إليها الأمير .

وأرسل كلوزيل بعد ذلك قوة احتلت تلمسان - لكنه انساق إلى رأى المملوك اليهودى « يوسف » ففرض على الاهالى غرامة حربية لاطاقة لهم بها ، واستخدمت فى جمعها أساليب وحشية مما زاد من نفور الأهالى من السلطات الفرنسية الحاكمة ووصلت أخبار هذه الأعمال إلى البرلمان الفرنسى فأثارت ضجة كبيرة .

وظن كلوزيل بعد هذا النجاح الذى أحرزه أن الأمير عبد القادر أصبح عاجزاً عن القيام بأى تهديد ، ولهذا قرر توجيه جهوده نحو الشرق - نحو قسنطينة التى كانت تحت إدارة الباى أحمد . لكن كما سترى أن الأمير عبد القادر استطاع أن ينزل الهزائم بالفرنسيين وأن يحاصر المعسكر الفرنسى فى « وادى تافنا » ، كما حاصر الحامية الفرنسة بتلمسان .

وأعلن كلوزيل عزل الباى أحمد وتعيين المملوك « يوسف » باياً مكانه ، وأرسل فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٣٦ م حملة من ٧٤٠٠ مقاتل من المشاه ،

---

(١) للدراسة التفصيلية لموقعة المقطع — انظر: تحفة الزائر ص ١٥١ وما بعدها . وكذلك .

Julien : Op. Cit. pp. 125 — 261

١٣٠٠ من الخيالة لاحتلال قسنطينة ـ وكان الفرنسيون قد استولوا على عنابة فاتخذوها قاعدة ومنطلقاً لهذا الهجوم . وعانت القوة الفرنسية الكثير فى الطريق بسبب هطول الأمطار ورداءة الطرق ، وحين وصلت مدينة قسنطينه حاولت فرض حصار عليها ـ لكن موقع قسنطينة الفريد على قمة صخرية ، يحيط بها من الشمال والشرق والجنوب واد ضيق عميق ساعد المدافعين عنها على الصمود ومهاجمة أعدائهم ، فأضطرت القوات الفرنسية للإنسحاب بعد أن تكبدت خسائر فادحة .

ويرجع عنف المقاومة الوطنية واستبسال سكان قسنطينة فى الدفاع عن بلدهم إلى اعتماد الفرنسيين على الخائن المدعو (يوسف) الذى كان قد إرتد عن الإسلام واعتنق الكاثوليكية وكان عينا للفرنسيين فى عنابه وقسنطينه .

وأمام الهزائم المتكررة أضطرت الحكومة الفرنسية لعزل كلوزيل لخلفه الجنرال دامريمون (Damrémont) حاكماً عاماً للجزائر .

كما أرسل الجنرال بيجو (Bugeaud) إلى وهران لمعالجة الموقف فى المناطق القريبة من الجزائر .

ونجح بيجو فى فك الحصار عن « تافنا » و « تلمسان » ، كما انتصر على قوات الأمير عبد القادر فى معركة نهر « سكاك » فى يوليو ١٨٣٦م — لكن لم يلبث أن عاد بيجو إلى فرنسا وعادت قوات الامير لحصار تلمسان .

---

(١) انظر مخطوط محمد الصالح بن العنترى : الأخبار المبينة لإستيلاء الترك على قسنطينة ص ٦٤ وما بعدها .

— وشوقى الجمل . أضواء جديدة على تاريخ قسنطينة فى ضوء ثلاث مخطوطات بدار الوثائق بالرباط (مجلة الدراسات الأفريقية — القاهرة ١٩٧٤ م) .

واتجه الفرنسيون بعد ذلك إلى السيطرة على قسنطينه والقضاء على سلطة الباى أحمد فيها ـ ولتحقيق هذا وحتى لايحارب الفرنسيون فى جبهتين قرروا السعى للإتفاق مع الأمير عبد القادر وعقد صلح معه ، وأرسل (بيجو) لهذا الهدف . وفى ٢٠ مايو ١٨٣٧ م عقد صلح تافنا (Tefna) بين الطرفين .

وبموجب هذا الصلح تقرر [1] :

١ ـــ يعترف الامير بسلطة فرنسا على الجزائر ، وعلى الساحل وأرض متيجة ووهران وأرزيو ومستغانم ومزغران .

٢ ـــ تعترف فرنسا بسلطة الأمير عبد القادر على المناطق التى تحت سلطانه وعلى تافنا ، وتلمسان ، وتيطرى .

٣ ـــ يمارس المسلمون فى المناطق التى يحتلها الفرنسيون شعائر دينهم بحرية تامة .

٤ ـــ للأمير الحق فى أن يشترى من فرنسا البارود وسائر ما يحتاجه من الأسلحة .

٥ ـــ يكون وكلاء لكل طرف من الطرفين فى المدن التى تحت إدارة الطرف الآخر لرعاية شؤون رعاياه القاطنين بمدن هذا الطرف .

وبموجب هذه الإتفاقية أصبح الأمير عبد القادر يسيطر على مايقرب من ثلثى إقليم الجزائر ، كما أتاحت له فرصة تنظيم شؤون إدارته ، وتكوين جيش نظامى .

---

(١) — وتحفة الزائر — ص ١٧١ وما بعدها .

الاستيلاء على قسنطينة :

اتجه الفرنسيون بعد ذلك للسيطرة على قسنطينه وتثبيت نفوذهم فى الاقليم الشرقى من الجزائر . وكان كلوزل - كما رأينا - قد فشل فى عام ١٨٣٦ م فى أن يقضى على نفوذ أحمد باشا حاكم المقاطعة الشرقية معتمداً على شخصية المغامر (يوسف) - فقد تعاونت الطبيعة مع قوة الدفاع عن المدينة فى كسر شوكة الجيش المهاجم وتكبيدة خسائر فادحة - فقد هطلت الأمطار والثلوج وعانى الجيش الفرنسى الكثير من الأهوال قبل أن يصل إلى أبواب قسنطينة التى رد عنها ، وتعقبته قوات الباى أحمد باشا إلى أبواب (عنابه) .

وبعد أن اطمأنت فرنسا من جهة الأمير عبد القادر بتوقيعها معاهدة تافنا معه فى ٢٠ مايو ١٨٣٧ م - اتجهت إلى غسل آثار الهزيمة التى منيت بها فى قسنطينة ، فأعدت فى أكتوبر ١٨٣٧ م حملة من ١٢,٠٠٠ جندى مزودة بالمدفعية القوية ونجحت هذه القوة بقيادة الجنرال فالى(Valeé)فى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٧ م فى اقتحام أسوار المدينة بعد ان فتحت المدفعية ثغرات فيها - وبعد معارك دامية استطاعت القوات الفرنسية الإستيلاء عليها بعد أن قتل عدد كبير من قواد الفرنسيين وجنودهم .

على أن الأمر لم يستتب للفرنسيين فى جنوب قسنطينة — فقد لجأ أحمد باشا إلى منطقة القبائل ، وأخذ ينظم المقاومة المسلحة واضطر الفرنسيون فى عام ١٧٤٨ بعد أن نجحوا فى القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر - أن يوجهوا حملة عسكرية إلى (منطقة الأوراس) واستسلم أحمد باشا وقبض عليه ونقل إلى الجزائر حيث سجن وبقى فى سجنه حتى توفى عام ١٨٥٠ م .

وبعد أن استتب الأمر للفرنسيين بالإقليم الشرقى من الجزائر قسموه إلى إدارتين إحداهما فى (عنابة) والأخرى فى (قسنطينة) .

ولجأ الجنرال فالى إلى سياسة إستمالة الرؤساء الوطنيين - وتأليب أحدهم على الآخر حتى لاتتاح الفرصة للعناصر الوطنية للتكتل من جديد ضد الفرنسيين ،

ووضع سياسة لادارة هذه المنطقة الشرقية من الجزائر تكفل للفرنسيين تثبيت أقدامهم فيها دون أن تتكلف فرنسا نفقات باهظة .

النظام الإدارى فى الأقاليم التى خضعت للأمير عبد القادر :

لم يكن الأمير عبد القادر قائداً حربياً قاد الشعب الجزائرى فى مقاومته للمستعمر الفرنسى فحسب ـ لكن لاشك فى أن مايستحق الدراسة أيضاً النظام الإدارى الذى وضعه للاقاليم التى خضعت له . وقد أتاحت له فترة الهدنة من ٣٠ مايو ١٨٣٧ م إلى ٢ نوفمبر ١٨٣٩ م فرصة ذهبية لتنظيم إدراته ومحاولة إعداد جيشه وتدريبه .

ويعطينا صاحب تحفه الزائر ـ صورة عن هذا النظام الإدارى[1].

فقد قسم الأمير المناطق التى خضعت له إلى مقاطعات وصل عددها إلى ثمان (معسكر ، وتلمسان ، ومليانه ، تيطرى ، بجاية ، بسكره ، برج حمزة ، الصحراء الغربية) ووضع على كل منها عامل (خليفة) ، وقسم المقاطعات إلى دوائر ووضع على كل منها (أغا) والدوائر إلى قبائل على كل منها (قائد) ، وتنقسم إلى بطون وعشائر على كل منها (شيخ) .

وكان عمال الأقاليم أو الخلفاء ـ يفصلون فى المسائل العادية ، أما المسائل الخطيرة فترفع إلى الأمير . وفى وقت الحرب يكون كل خليفة على رأس جماعته . وقد حرص على إختيار عمال الأقاليم من المشهود لهم بالحزم والعزم والعفة ، وكان العامل عند توليته (يقسم على صحيح البخارى) أن يسير فى إدارة إقليمه بالعدل ـ وكان منادى الأمير ينادى فى الأسواق أن « من له شكوى على خليفة أو أغا أو قائد أو شيخ ـ فليرفعها إلى الديوان الأميرى من غير وساطة ، فإن الأمير ينصفه من ظالمه ، وإن ظلم أحد ولم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه » .

---

(١) تحفة الزائر : مرجع سابق ص ١٩٩ وما بعدها .

وعند تعيين أمير جديد يتحرر له ـ مرسوم خاص بتعيينه ـ يحرره كاتب الديوان الخاص ، ويختم بخاتم الإمارة .

ولا يغفل الأمير عبد القادر عن السؤال عن عماله بالأقاليم وتصرفاتهم مع الرعية . وإلى جانب الأمير توجد النظارات (الوزارات) المختلفة (الداخلية ـ الخارجية ـ المالية ـ الأوقاف ـ الأعشار ـ وصنوف الزكاة ـ وضرب السكة والأسلحة ومعاملها ـ وما يتعلق بأدوات الحرب) هذا بالإضافة إلى كتابة الديوان الأميرى .

وقد نظم الأمير الجباية بحيث لايثقل كاهل الناس فكانت تجبى الزكاة فى الربيع ، والأعشار فى الصيف ، وفرض الأمير إعانة خاصة لظروف الحرب ليتيسر القيام بأمر الجهاد[1] .

واتخذ الأمير علماً ـ أعلاه وأسفله أخضر ووسطه أبيض منقوش عليه فى صورة دائرية تامة عبارة (نصر من الله وفتح قريب ـ ناصر الدين عبد القادر بن محيى الدين) وفى وسطه صورة يد مبسوطة .

واهتم الأمير عبد القادر بتطبيق الشريعة الإسلامية إلى حد كبير ، فعين فى كل عمالة وكل دائرة قاضياً على المذهب المالكى ، وعين (قاضياً للقضاة) وقاضياً خاصاً للمعسكر ومع كل قاض كاتبين .

ولم يغفل عن شئون التعليم فقد عين فى مختلف المدن والقرى الخاضعة له علماء لتدريس فنون العلوم المختلفة ، وعين لهم مرتبات ، وكان يحترم أهل العلم والقائمين بشئونه ، فأستثناهم من جميع الضرائب ـ واجتهدفى جمع الكتب من كل جهة ، وشرع فى تنظيم مكتبة فى (تاكدمت) ، وقد تلفت كلها فى موقعة طاكين (Toguin) التى شنت فيها القوات الفرنسية بقيادة دوق دومال (Duc d'Aumale) ابن ملك فرنسا فى ١٤ مايو ١٨٤٣ هجوماً على

---

(١) ملحوظة : لما عقد الأمير هدنة مع فرنسا امتنعت بعض القبائل عن دفعها بحجة أن الفرض ، من دفعها امتنع بعقد الهدنة .

قوات الأمير وأضطر بعدها الأمير إلى اللجوء إلى المغرب بعد مقاومة عنيفة استمرت سبعة شهور — كما ستفصل ذلك بعد .

وأنشأ الامير المارستانات (المستشفيات) لمرضى العساكر ، وجعل بكل مستشفى منها أربعة أطباء - وكان طبيبه الخاص (أبو عبد الله المزروالى) هو الرئيس الاعلى لهم ، كما شيد فى حاضرة إمارته داراً للمسافرين وللوفود أقام عليها ناظراً - كان ينزل فيها الضيوف ويقدم لهم المأكل .

وأهتم بنشر الفضائل بين الناس - فمنع استعمال الذهب والفضة للزينة ، كما منع التدخين وأمر بأن تكون الصلوات الخمس بالجوامع ، ومن وجد فى حانوته وقت الصلاة يجلد .

وإتخذ داراً للشورى لإصدار الفتوى حسب الشرع ، وكان الإمير يترأس مجالس الشورى إذا كان الآمر يتعلق بأمر خطير هام ، وكانت نفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال كباقى الوظائف .

وكان الآمير عبد القادر يحتفل بالمولد النبرى الشريف وبالعيدين احتفالا عظيما يقوم فيه الجيش بالمناورات العسكرية ويشترك فى هذه الإحتفالات عادة مع الآمير خاصته وأمراء جيشه .

وسك الامير عملة خاصة لتكون أساساً للمعاملات ، كما وضع حدوداً للمكاييل والموازين وأوجب . أن تختم آلة الوزن والكيل بختم الإمارة .

هذا وقد بعث الأمير بعدة أسئلة واستفسارات إلى العلماء والفقهاء يستوضح رأيهم فى الشرع فى مختلف المسائل والمشكلات الرئيسية التى عرضت له فى إمارته — ولهذا الهدف ايضاً ارسل [السيد ابن عبد الله سقاط] إلى المغرب الأقصى مع كتاب للمولى عبد الرحمن بن هشام يوضح فيه ماأجراه فى إمارته من تنظيمات ويلتمس معرفة راى علماء فاس فى الأسئلة التى ارسلها صحبة رسوله - وقد جاءته الإجابات والفتاوى عن هذه الأسئله ، وهى تعتبر

فى الحقيقة بمثابة مواد قانونية تناولت العديد من أمور الحكم والعلاقات بين الحاكم والمحكومين وبين الناس بعضهم والبعض الآخر .

تنظيم الجيش ووسائل الدفاع :

كان الأمير عبد القادر يدرك أن الحرب لابدأن تتجدد بينه وبين الفرنسيين وأن الهدنة أمر مؤقت استلزمته ظروف الطرفين ، لذا عكف على إعداد الجيش وتدريبه وتنظيمه على النظم والأساليب الحربية الحديثة بقدر الإمكان — فأعد الدفاتر الأميرية لقيد الراغبين فى التجنيد ، وأذاع ذلك بين القبائل ، وجعل الجيش من ثلاث فرق : فرقة مشاه ، وفرقة خيالة ، وفرقة مدفعية ، ووضع للجيش قوانين وضوابط .

وقد احتوت قوانين الجيش هذه التى أصدرها الأمير عبد القادر على مقدمة وأربعة وعشرين قانوناً ، وخاتمة[1] .

وأوضحت هذه القوانين المراحل المختلفة للجندية فى كل قسم من الأقسام السالفة الذكر فهناك (الأغا ، والسياف . ورئيس الصف ، والجاويش) كذلك (الطوبجى ، والباش طوبجى) .

وحدد كسوة الجنود حسب رتبهم ، كما حدد مايخص كل من مأكل (من خبز أو بقسماط وزيت وسمن . .) ووضع نظاماً لتدريب الجند فكان النفير (البورى) يجمعهم ويفرقهم ، ولهم أوقات خاصة للتدريب . وأوجد (نياشين) وشارات لمكافأة المحسن الذى يقوم بأعمال بطولية ، كما حدد نوع الجزاء لكل مخالفة يرتكبها الجندى . وقرر أن يمنح الجندى الذى يخرج فى الحرب ويصبح عاجزاً عن القتال راتبه - كما نظم رواتب لأسر المتوفين منهم .

---

(١) سمى بعض كتاب الجند هذه القوانين فيما أطلق عليه « وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدى الغالب . » وتوجد منها نسخة خطية بدار الوثائق بالرباط تحت رقم ١٥٤٢/د وقد قارنا ماجاء بهذه النسخة الخطية بما أورده صاحب تحفة الزائر حـ ١ ص ١٢٥ — ١٣٢ ، فوجدنا بعض الإختلافات اللفظية فقط .

وكان للجيش ـ كما ذكرنا ـ أطباؤه ومستشفياته ، كما كانت له موسيقاه العسكرية ، وكانت هناك معامل لصناعة الأسلحة بأنواعها فى مدن معسكر ومليانه و المديه ، لكن الأمير كان أيضاً يشترى السلاح من تونس والمغرب وفرنسا ذاتها ، وكان هناك مختصون لإصلاح السلاح يدعون (قرداجيه) ، وكانوا يرافقون الجيش فى الحل والترحال . كما كان هناك عدد من الخياطين والسروجية لإعـــداد وإصلاح مايلزم إصلاحه من ملابس الجنود وسروج الخيل .

وقد وصل عدد جنود الأمير إلى مايقرب من خمسة عشر ألفاً ، منهم إثنا عشر ألفاً مشاة ، وألفان وخمسمائة من الخيالة ، ومائتان وخمسون مدفعياً ، وخمسمائة عبد كانوا يمثلون حرس الأمير الخاص تحت رئاسة (سالم أغا) وهو فارس زنجى اشتهر بالشهامة ، وكان الحراس يتناوبون حراسة الأمير ليل نهار .

وكان للأمير عبد القادر أركان حرب وكتبة أسراره ، وحينما يستقر الأمير بجيشه فى مكان معين ينصب الخيام بنظام دقيق محدد ، وللمعسكر قوانينه وضوابطه .

وهكذا لم يكن الأمير عبد القادر مكافحاً باسلا فحسب بل كانت له إدارته أيضاً للإمارة ، وقد حاول أن يدخل عليها عدة تجديدات ونظم ـ ولعل الناحية الإدارية عنده من الأمور التى لم تحظ بالدراسة الكافية كالناحية العسكرية الحربيـــة .

وكما اهتم الأمير عبد القادر بإعداد جيشه للقتال كذلك وجه همه إلى تحصين الثغور والمدن الهامة من إمارته ، وبنى عدة حصون خاصة فى الحد الفاصل بين التل والصحراء . ولعل حصن « تاكدمت » العظيم يعتبر أعظم هذه الحصون ، لموقعه الممتاز بمنطقة تتحكم فى الطريق التجارى بين الصحراء والتل ، وقد أنشأ الأمير فى هذا الحصن داراً للسلاح وداراً لضرب السكة .

ولاشك فى أنه لو وجد الأمير عبد القادر فسحة أكبر من الوقت لكانت

إنجازاته فى مختلف الميادين أوسع وأضخم - لكنه كان يعمل فى ظروف غير ملائمة وكانت فرنسا تتحين الفرص لنقض الهدنة والإنقضاص عليه .

تطور العلاقات بين فرنسا والأمير عبد القادر (١٨٣٨ - ١٨٤٧) :

بعد أن تغلب الفرنسيون على المقاومة فى شرق الجزائر « قسنطينة » اتجهوا لعدوهم العنيد الأمير عبد القادر ، وكان فى ذلك الوقت مسيداً على كل ولاية « وهران » وجزء كبير من ولاية « الجزائر » ، كما كان له أتباع يدينون له بالولاء فى ولاية « قسنطينة » وبين القبائل الأخرى المنتشرة فى الداخل ، وكانت خزانته عامرة وتحت إمرته جيش نظامى من المشاة والفرسان يتألف من ٨٫٠٠٠ من المشاة و ٢٫٠٠٠ من الفرسان وقوة من المدفعية ، وكانت القبائل ترسل إليه المتطوعين والمجاهدين بإستمرار وبانتظام .

واستند الفرنسيون إلى اختلاف بين النصين العربى والفرنسى فى « معاهدة تافنا » التى عقدوها مع الأمير - فأخذوا يشجعون الهجرة إلى إقليم « المتيجة » المحيط بمدينة الجزائر ، وينتزعون الأراضى من أصحابها ليوزعوها على المهاجرين الجدد الذين بلغ عددهم سنة ١٨٣٩ « ٢٥ ألفاً » ، وكان الفرنسيون يرون أن توسعهم وراء « وادى خضرة » ضرورياً لتأمين الاتصال بين مواقعهم فى الجزائر ، وقسنطينة .

ولذا طلب الماريشال « فالى » من الأمير إعادة النظر فى معاهدة « تافنا » لتعديل النصوص موضع الخلاف . ولما لم يصل الطرفان إلى إتفاق - قرر الأمير عبد القادر إرسال ناظر خارجيته « أبى محمد الحاج المولود بن عراش » إلى باريس لعرض موضوع الخلاف على الملك والحكومة الفرنسية . كما أرسل الأمير أخاه « السيد محمد السعيد » إلى سلطان المغرب الأقصى ، يخبره بتطور العلاقات مع الفرنسيين . وقد رد سلطان المغرب عليه بخطاب ينبهه فيه أن يكون على حذر من مكايد العدو ، وغدره وإحتياله ويتمنى له التوفيق والسداد[1] .

---

(١) أنظر نص خطاب الأمير — ورد السلطان المغربى فى :
تحفة الزائر — مرجع سابق — جـ ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

وأستقبل وفد الأمير فى باريس بالترحاب لكن الحكومة الفرنسية أفهمته أن أمر هذه المفاوضات من إختصاص حاكم الجزائر ، فعاد الوفد وحاول الجنرال فالى الضغط حتى يقبل الأمير التعديل الذى يطلبه الفرنسيون للمعاهدة . ولإثبات إصرارهم على مد نفوذهم للمنطقة المتنازع عليها — قام الجنرال فالى و « الدوق دورليان » بجولة استعراضية فى هذه المنطقة ، وأعتبر الأمير عبد القادر هذا بمثابة خرق صريح لمعاهدة تافنا — فهاجم بجيوشه سهل « المتيجة » وطهره من المستوطنين الفرنسيين . فأسرعت فرنسا بإرسال نجدات لقواتها فى الجزائر ، كما أصدرت أوامرها للحاكم العام الفرنسى بإحتلال « مديه » و « مليانه » و « شرشال » وتطهير هذه المنطقة كلها المحيطه بمدينة الجزائر . ونجح القائد الفرنسى فى صيف عام ١٨٤٠ م فى أن يضع يديه على هذه المراكز لكن لم تلبث قوات الأمير عبد القادر أن طوقت هذه الحاميات الفرنسية ، ولم تستطع فرنسا أن ترسل المزيد من العتاد والجنود إلى الجزائر ، فقد كانت الظروف الدولية تشير إلى احتمال وقوع صدام دولى بسبب الأزمة التى ترتبت على الحروب بين محمد على والسلطان العثمانى — لكن هذه الأزمة انتهت بأتفاق لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ م والتسويات التى تلته .

وقد كان عزل الماريشال فالى Valeé وتعيين الجنرال بيجو Bugeaud مكانه فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٤٠ م بداية مرحلة حاسمه فى الكفاح بين الأمير عبد القادر والفرنسيين .

فقد وضع بيجو « تكتيكاً » جديداً لحربه ضد الأمير عبد القادر والقبائل الموالية له ، وأقرته الوزارة الفرنسية التى تولت الأمر فى فرنسا فى نفس الوقت وأمدته بما طلبه من جنود وعتاد لتنفيذ سياسته ، وظل بيجو فى منصبه كحاكم عام للجزائر حتى عام ١٨٤٧ م فمكنه ذلك من تنفيذ سياسته كاملة .

وكان بيجو قد شارك فى حروب « بونابرت » وتدرب على حروب العصابات فى أسبانيا ، فرسم خطته الجديدة على أن يجهد عدوه بالمعارك المتعددة وأن يستنزف قوته المادية والإقتصادية بشن حرب إرهابية سريعة تقوم على أساس سرعة الحركة والتنفيذ وعدم التقيد بأى مبادىء أخلاقية أو إنسانية — والتنفيذ

ذلك حول جيشه إلى طوابير صغيرة سريعة الحركة ، وتخلص من كل ما كان يعوق حركة الجندى من معدات أو ملابس ثقيلة أو مدفعية الميدان .

وتعقب بذلك طوابير الامير عبد القادر ، وكانت جيوشه فى تقدمها تحصد المحاصيل وتحرق الحقول وتخطف قطعان الاغنام، ولم يتورع عن إحراق القرى بأكملها وسد المنافذ والملاجىء الجبلية التى لجأ إليها السكان وإشعال النار فيها فيقضى على من فيها جملة . لقد كانت تعليماته لجنوده تقضى بأن يدمروا ويحرقوا ويبيدوا كل شىء للعدو[1].

ونجح بيجو فى ١٨٤١ م فى الإستيلاء على مدينة « معسكر » عاصمة الامير عبد القادر القديمة ، فخربها كما خرب الجنود الفرنسيون القرى والمدن المحيطة التى مروا بها .

وفى عام ١٨٤٢ م استولى على تلمسان ، ومستغانم وعلى أهم مراكز إقليم وهران . وفى عام ١٨٤٣ م ضيق الفرنسيون الخناق على الأمير فأضطر إلى الإنتقال إلى الصحراء حيث أصبح يتخذ له عاصمة متنقلة من الخيام «الزمالة» بعيدة عن متناول جنود الأعداء . لكن استطاعت قوة فرنسية بقيادة الدوق دومال « Duc d'Aumale » أن تهاجم الزمالة وتأسر عدداً كبيراً من رجال القبائل الموالية للأمير وتضم كميات ضخمة من العتاد. وفى نفس العام «١٨٤٣م» سقط القائد الجزائرى « مبارك » قتيلا فى معركة عند « سيدى يحيى » وكان هذا القائد من أمهر قواد الأمير عبد القادر فكان مقتـــله ضربة قوية لحركة المقـاومة .

وأضطر الأمير إلى الفرار إلى المغرب حيث كان المولى عبد الرحمن سلطان المغرب يؤيد الأمير عبد القادر فى جهاده وييسر وصول الإمدادات إليه من المغرب .

---

(١) Julien: op. cit, p. 167.

وفتح لجوء الأمير عبد القادر إلى المغرب ـ صفحة جديدة فى تاريخ فرنسا الإستعمارى، فقد اتخذت من ذلك ذريعة لتحقيق أطماعها فى المغرب الاقصى ـ فأسرع بيجو بالزحف بقواته غرباً فأستولى على «لالا مغنيه» «Lalla Maghnia» على بعد ٢٥ كيلو متراً شرق وجده وبدأت قواته تخترق الحدود المغربيه ، كما أرسلت فرنسا قوة بحرية بقيادة الامير « دوجوانفيل » « De Joinville » لمياه طنجه للضغط على المغرب . فأسرع المولى عبد الرحمن بإرسال قوة عسكرية إلى « وجده » . وبالرغم من أن المفاوضات كانت جارية بين الفرنسيين والسلطات المغربية فى طنجه ، فقد أخذت البحرية الفرنسية فى قصف «طنجه» ثم « الصوير » ، وفى نفس الوقت كانت القوات الفرنسية تزحف على الحدود المغربية الشرقية . وفى ١٤ أغسطس التقى الجيش المغربى بقيادة المولى محمد بن السلطان المولى عبد الرحمن مع الجيش الفرنسى بقيادة بيجو عند وادى إسلى « Isly » ، وتغلب الجيش الفرنسى بأسلحته الحديثة ونظامه وخططه على القوات المغربية المدافعة عن أرضها .

وكان فى ذهن بيجو أن يشن حرباً كاملة يبسط بها نفوذ فرنسا على بقية بلاد المغرب وقد عبر هو عن خصائص هذه الحرب فى مجلس النواب الفرنسى بقوله « يلزم أن نقوم بحملة أكتساح كبرى فى شمال أفريقية تشبه حملات القوط »[١] . ولم تستطع القوات الفرنسية التقدم فى الأراضى المغربية إزاء تحذير إنجلترا لفرنسا من عواقب التوغل فى الأراضى المغربية .

وفى سبتمبر ١٨٤٤ م وقع الطرفان (فرنسا والمغرب) معاهدة طنجة وفيها تعهد السلطان المغربى بعدم تقديم أية مساعدة للأمير عبد القادر وبسجنه فى إحدى الموانى المغربية إذا ماوقع فى أيدى السلطات المغربية .

أما تحديد الحدود بين الجزائر والمغرب فقد أتفق عليه فى معاهدة أخرى

---

(١) كلود ، هنرى ـ واندريه ، لاكوست : الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى ـ ترجمة محمد عتانى (د . ت) ص ١٣٦ .

— وارجع لما ذكرناه عن معركة إسلى عند حديثنا عن فترة حكم (المولى عبد الرحمن بن هشام) فى المغرب الأقصى .

وقعت فيما بعد فى باريس فى عام ١٨٤٥ (١). ويلاحظ إنه فى هذه الإتفاقية الجديدة لم تحدد الحدود الفاصلة فى المناطق الصحراوية بين البلدين تحديداً دقيقاً وكان هذا سبباً فى المشكلات التى نشبت بين البلدين فى المستقبل .

وباتفاقية طنجة أصبح الأمير عبد القادر لا يستطيع أن ينتظر أية مساعدة من المغرب فى حربه ضد الفرنسيين ، بل إن الدول الإستعمارية نجحت فى أن تصور الأمير على أنه يسعى لإستغلال شعبيته لبسط نفوذه على أجزاء من المغرب ، وبالطبع أدت كل هذه الأحداث إلى تخلى المغرب نهائياً عن تقديم أى مساعدة منتظرة للامير عبد القادر ، بل جعلته يقف منه موقفاً عدائياً .

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن إينصرف عن عبد القادر الكثير من أعوانه ، فإنخفضت قواته إنخفاضاً محسوساً ، ومع ذلك فقد ظل يكافح مع من صمد من المجاهدين الجزائريين معه ، وقد أدت القسوة والوحشية التى اتبعها الفرنسيون ضد الجزائريين فى المناطق التى احتلوها ـ إلى إزدياد السخط والتأهب للمقاومة والثورة وكان من أشهر من برز من أعوان عبد القادر فى هذه الآونة محمد بن عبد الله الشهير بأسم (بو معزه) .

واستطاع الأمير عبد القادر — رغم الظروف غير المواتية المحيطة به ، ورغم حصار الفرنسيين للسواحل الجزائرية بحراً وللحدود الشرقية والغربية براً ـ أن يحرز فى عامى ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ م عدة انتصارات على الفرنسيين فى مناطق متفرقة من الجزائر وأن ينهك قوات (بيجو) الذى نعى على حكومته عدم إمداده بالجنود والمعدات الكافية وعدم إطلاق يده حرة فى الجزائر والمغرب .

وقد اضطر (بو معزه) إلى التسليم للفرنسيين بعد أن ضيقوا عليه الخناق وأصبح من المتعذر وصول أية أسلحة أو إمدادات إليـــه . وفى سبتمبر

---

(١) Julien : Op. cit. p.p. 198—199.

— وراجع ماسبق ذكره عن معاهدة طنجه المشار اليها هنا .

عام ١٨٤٧م استقال المارشال بيجو وترك أمر الجزائر للدوق دومال نجل ملك فرنسا ، وكانت الحكومة الفرنسية تشعر أن مقاومة الأمير عبد القادر توشك أن تنتهى ، فقد كان فى ذلك الوقت محاصراً من القوات الفرنسية بحيث كان من الصعب عليه الحصول على إمدادات جديدة من السلاح، كما كانت السلطات المغربية فى ذلك الوقت تقف منه موقف العداء وتطالبه بتسليم نفسه فى فاس للقوات المغربية - فلم يكن أمام الأمير عبد القادر مفر من التسليم لإحدى القوتين - الفرنسيه أو المغربية .

وفى ديسمبر ١٨٤٧م قبل عبد القاد أن يستسلم للفرنسيين بعد جهاد مرير استمر خمسه عشر عاماً ، وكان قد اشترط السماح له بالسفر إلى الإسكندرية أو عكا ، وجاء دوق دومال بنفسه لقبول إستسلام الأمير .

على أن الحكومة الفرنسية حنثت بوعدها للأمير، فقد سجن فى حصن فرنسى فلم يسمح له بالسفر إلى دمشق إلا فى عام ١٨٥٢م فى عـــهد إمبراطورية نابليون الثالث[١] .

وباستسلام الأمير عبد القادر طويت هذه الصفحة من صفحات المقاومة الجزائرية للمستعمر وتمهد الطريق لإتمام عمليات الغزو الفرنسى للجزائر ، وظل الشعب الجزائرى يترقب الفرصة المؤاتية للوثوب فى وجه مستعمريه تشهد بذلك الثورات التى قامت فى وجه الفرنسيين فى غربى الجزائر وفى منطقة القبائل وفى قسنطينه ، وثورات عام ١٨٨١ ، ١٩١٦ ، ١٩٤٥م — كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد[٢] .

انتهت مرحلة من مراحل المقاومة المنظمة بتسليم الأمير عبد القادر لكن نفوذ الفرنسيين فى الجزائر لم يكن - حتى ذلك الوقت - يخرج عن حدود المدن الرئيسية التى احتلوها بينما مساحات واسعة من المناطق المحيطة بهذه المدن ، بالإضافة إلى الأقاليم الداخلية لم تكن تحت سيطرتهم .

---

(١) امتدت من ٢ ديسمبر ١٨٥٢ إلى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م

(٢) كلود مع آخرين - مرجع سابق ص ١٣٦ .

وكانت الأحوال فى فرنسا ذاتها غير مستقرة ، فقد نشبت ثورة ١٨٤٨ م فيها وأسفرت عن قيام الجمهورية الثانية ١٨٤٨ — ١٨٥١ م وإن كانت هذه التغيرات فى فرنسا قد صحبتها تغيرات فى نظام الإدارة الفرنسية بالجزائر . فأنشئت لجنة خاصة لشئون الجزائر ملحقة بمكتب وزير الحربية ، ثم أنشئت فى عام ١٨٥٨ م وزارة الجزائر . لكن النظرة كلها للجزائر كانت على أنها أرض فرنسية فكانت كل الجهود الفرنسية موجهة إلى إدماج الجزائر والجزائريين فى بلادهم .

وتعاقب على الجزائر عدد من الحكام الفرنسيين وكان هدفهم الأول قمع الإضطرابات وحركات المقاومة للنفوذ الفرنسى التى أخذت تبرز فى مناطق متعدده فى غرب الجزائر وجنوبها ، وفى منطقة القبائل ، بل وفى المدن الرئيسية مثل (الجزائر ، وهران ، وعنابة ، وقسنطينة) . وقد ظهر بين صفوف المقاومة الجزائريه أبطال جدد تقدموا الصفوف فى الوقوف فى وجه المستعمرين .

ففى الاقليم الشرقى تزعم بوزيان Bouztan حركة المقاومة والتفت حوله قبائل الزعاطشه Zaatcha ، وتحصنوا فى قريتهم الحصينة الواقعة غرب (مسكره) ، ولم يستطع الفرنسيون إقتحام الواحة إلا بعد قتال مرير ، ووجدوا مقاومة فى كل شارع وكل منزل من منازلها . وقد عبر الفرنسيون عن معاناتهم وحقدهم بعد أن استقرت لهم الأمور بإزاله الواحة كلها من الوجود وبإعدام الزعيم بوزيان ، وكان لهذة الأعمال الوحشية أثرها فى إزدياد ثورة الجزائريين وفى الرأى العام الفرنسى نفسه [1] .

وفى منطقة القبائل ظهر الزعيم بوبغله Bou Bagla والتفت حوله قبائل الزواوا Zouaoua — واستخدم الفرنسيون نفس الأساليب الوحشية لإخضاع هذه القبائل الثائرة ، لكن لم تكن تهدأ فترة إلا لتعاود الثورة بعد ذلك [2] .

---

(١) Julien : Op. cit. p.p. 383—384

(٢) Ibid : P. & 86

وفى عهد حكومة الإمبراطورية الثانية فى فرنسا (١٨٥٢ — ١٨٧٠ م) عمد الفرنسيون إلى تأمين وجودهم فى الجزائر بالتوغل فى الظهير الصحراوى الذى تتخذه القبائل والثوار الجزائريين ملجأ لها يهددون منه الوجود الفرنسى فى الثغور الساحلية . واتجهت أنظار الفرنسيين إلى مدينة (الأغواط) Laghouat التى تمثل العمق الداخلى لمدينة الجزائر ، وقد كتب الجنرال راندون Randon [1] إلى حكومته موضحاً أهمية إستيلاء الفرنسيين على هذه المنطقة الداخلية وإقامة تحصينات فيها فهى تعتبر رأس حربة للمناطق الصحراوية الداخلية ، كما تعتبر حامية للأقاليم الساحلية[2] .

وكان على الفرنسيين أن يواجهوا زعيماً وطنيا آخر هو (محمد بن عبد الله)[3] وكانت القبائل فى المناطق الصحراوية الداخلية ورجال الطرق الصوفية قد بايعوه ولم يتم للفرنسيين تثبيت أقدامهم فى منطقة الأغواط الداخلية هذه إلا بعد إنتهاج سياسة — كما شهد بذلك الكولونيل تريميلية Trumelet لا تقل وحشية عما إرتكبوه مع الزعاطشة[4] .

ولجأت فرنسا إلى سياسة ضرب القبائل بعضها بالبعض الآخر فكانت تقدم تأييدها لقبيلة منها وتستخدمها لضرب قبيلة أخرى ، وإذا ما أدت الدور المرسوم لها وجدت فرنسا الفرصة سانحة للإيقاع بالقبيلة الأولى .

وحاول الفرنسيون الإتفاق مع بعض شيوخ قبائل الطوارق القوية فى الصحراء وذلك لضمان سلامة تنقلاتهم ورفقائهم من الساحل إلى الداخل — لكن رغم ذلك فقد ظل الفرنسيون يشعرون دائماً بالقلق وبإستعداد القبائل للإنقضاض عليهم والإيقاع بجنودهم كلما سنحت الفرصة — وكانت الأسلحة تتسرب إلى

---

(١) ظل حاكما عاما للجزائر لمدة سبع سنوات (١٨٥١ — ١٨٥٨ م) .

(٣) كان قد خدم فترة فى ظل الإدارة الفرنسية وعينه بيجو خليفة فى تلمسان ليضرب به نفوذ الأمير عبد القادر . لكنه بعد ذلك اتجه لقيادة الحركة الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين .

الجزائر عبر الحدود المغربية - رغم المعاهدة المعقودة بين الفرنسيين والمغرب - وعبر الحدود الشرقية مع ليبيا .

وقد كانت قبيلة « أولاد سيدى الشيخ » فى غرب الجزائر وجنوب وهران من أقوى القبائل التى قاومت نفوذ الفرنسيين وصمدت لحملاتهم .

على أن هزيمة فرنسا فى (سيدان) فى سبتمبر ١٨٧٠ وسقوط الإمبراطورية الثانية ، وإعلان الجمهورية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م وزحف الجيش الألمانى على باريس ومحاصرتها فى ٩ سبتمبر ١٨٧٠ م واضطرار فرنسا لعقد صلح فرانكفورت مع ألمانيا فى ١٠ مايو ١٨٧١ م بشروط مهينة للفرنسيين - كانت لكل هذه الأحداث أصداؤها فى الجزائر . فعمت الثورة فى كل مكان ، وظهر فى هذه الثورة أيضاً زعماء منهم محمد المقرانى M. Mekrani وأخوه بومزراق Bou Mezrag .

فأسرعت فرنسا لإرسال التعزيزات لقواتها فى الجزائر ، واستطاعت هذه القوات أن تخمد الثورة بعد أن ظلت مندلعة أكثر من تسعة أشهر واستخدم الفرنسيون القسوة مع الثوار . وبعد أن أخمدت الثورة فرضوا على الجزائريين غرامة فادحة وحكموا بالإعدام على قادة الثورة . وقد تركت هذه الثورة والأسلوب الذى اتبعه الفرنسيون فى الإنتقام من الثـــوار فى الوقت الذى لم يستطيعوا هم أن يدافعوا عن بلادهم فى وجه الألمان - تركت آثاراً عميقة فى نفوس الشعب الجزائرى الذى ظل يتحين فرصة أخرى ليعبر عن حقده على المستعمر [١] .

على أن فرنسا أخذت بعد أن أسكتت حركات المقاومة ضدها - تعمل لتوسيع نفوذها تجاه الجنوب الغربى صوب الحدود المغربية . ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من إحتلال الواحات والمراكز الهامة فى هذه الجهات مثل (عين الصفراء) و « فجيج » وما أطلق عليها اسم « كولمبشار » . وعمدت إلى ربط هذه الجهات بالساحل بخط حديدى ، وسيؤدى هذا إلى الاصطدام بالمغرب الأقصى وإلى اتجاه الفرنسيين إلى مد نفوذهم إليه . هذا فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون

---

(١) Julien : Op. cit. p. 487

يوسعون نفوذهم فى القارة بتوغلهم فى السنغال ، فقد رأى الفرنسيون فى ذلك تعويضاً لخسارتهم فى الألزاس واللورين بعد هزيمتهم من ألمانيا فى عام ١٨٧٠م[١].

وكانت فرنسا تتطلع بالطبع ـ بعد أن إستولت على الجزائر ـ أن تمد نفوذها على تونس فظلت تتحين الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك .

أما من جهة الجنوب الشرقى فكانت أنظار الفرنسيين متجهة إلى غدامس وغات على حدود فزان ـ لكن إستيلاء الفرنسيين على هذين الموقعين كان يعنى اصطدامهم بالسلطات العثمانية فى طرابلس فى وقت كانت فرنسا فيه حريصة على تسوية مشاكلها مع الدول الأوروبية الأخرى لتؤمن توسعها الإستعمارى .

وبالطبع ستكون هذه الإتفاقات بين الدول الاستعمارية الكبرى على حساب مصالح وحقوق الشعوب التى أستعمرت كما سنرى بالتفصيل فيما بعد .

وفى الفصل التالى سنرى جولة أخرى من جولات فرنسا الاستعمارية فى الشمال الافريقى .

---

(١) Lueas, Sir Charles : The partition and colonisation of Afriea (Oxford 1932) p. & 3

الفصل التاسع

فرض الحماية الفرنسية على تونس

منذ أن فتح سنان باشا تونس ظل يتناوب على الحكم عدد من البايات حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولاشك فى أن الأوضاع الداخلية فى تونس كانت لها آثارها العميقة وارتباطاتها بعلاقات تونس بالدول الأجنبية . وتعتبر مبايعه حسن بن على فى ١٣ يولية ١٧٠٥ م فاتحة عهد جديد فى تاريخ تونس . فقد نجح فى جعل الولاية وراثية فى بيته يتداولها الأكبر فالأكبر من ذريته وهكذا قامت الدولة الحسينية التى أمدت تونس بعدد كبير من الحكام لفترة تزيد عن قرنين من الزمان(١).

وقد درج المؤرخون الذين يتعرضون لهذه الفترة من تاريخ تونس إلى تقسيمها إلى فترتين رئيسيتين :

الفترة الأولى من ١١٧ هـ وتنتهى بعام ١٢٥٣ هـ [١٧٠٥ م - ١٨٣٧ م] بإنتهاء حكم مصطفى باى .

الفترة الثانية تبدأ بحكم المشير أحمد باشا عام ١٢٥٣ هـ وتنتهى فى ١٢٩٩ هـ [١٨٣٧ - ١٨٨١ م] . وتعاقب على الحكم فى هذه الفترة ثلاث بابات هم :

---

(١) احمد ابن أبى الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ١٩٦٣) جـ ٤ ص ٢٥ .

ملحوظة : ولد أحمد بن أبى الضياف بتونس فى عام ١٢١٩ هـ فى بيت علم . فقد كان أبوه كاتباً للوزير التونسى يوسف صاحب الطابع ، وبعد بلوغه درجة مرموقة من الثقافة - تولى خطة العدالة ، ثم خطة الكتابة بديوان الحكومة ، وفى عهد المشير أحمد باشا قربه إليه فاصبح مبعوثه فى السفارات الهامة ، وفى عهد المشير محمد الصادق أصبح وزيراً للتعليم ومن أعضاء مجلس الشورى الخاص ، وساهم فى طبع وشرح القانون الأساسى (عهد الأمان) ، وتوفى فى عام ١٢٩١ هـ ، وكتابه له أهمية خاصة إذ أنه كان على علم ومعرفة وشارك فى أحداث هذه الفترة الحاسمة من تاريخ تونس .

المشير أحمد باشا (١٨٣٧ — ١٨٥٥م) ، ومحمد باى الثانى (١٨٥٥ — ١٨٥٩م)، ومحمد الصادق باى (١٥٨٩ — ١٨٨١ م) .

والحقيقة إن ولاية المشير أحمد باشا ومدة حكمه التى استمرت تسعة عشر عاماً (١٨٣٧ — ١٨٥٥ م) تعد بداية عهد جديد فى تاريخ تونس وعلاقاتها بالدول الأجنبية .

وقد ابتدأ أحمد باشا عهده بعزيمة ثابتة على الإصلاح وهمة فائقة فى الأخذ بوسائل التقدم ، وساعدته على ذلك تربيته العسكرية . فقـــد نشأ فى فترة الإصلاحات العسكرية النظامية التى كانت قد أخذت بها تونس ، وكان قد بدأ فى ولاية أبيه تنظيم العسكر النظامى فاعتنى هو بهم[1].

وأنشأ أحمد باشا مدرسة عسكرية لتخريج الضباط (مدرسة باردو العسكرية) جاب لها أساتذة أجانب من إيطاليا وانجلترا وفرنسا . [2]

وتميزت فترة أحمد باشا بالتفتح على التيارات الثقافية فى أوروبا. فقد تتابعت رحلات رجال الدولة إلى فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية فشاهدوا ما كانت عليه هذه البلاد من نهضة ، وقد سافر أحمد باشا بنفسه إلى فرنسا . ويعطينا الوزير أحمد بن أبى الضياف صورة حية عن الإنطباعات التى تركتها هذه الزيارة وما شاهده فى باريس — فى نفسه . [3]

وكان لهذه الزيارة أثرها فى توطيد العلاقات التونسية الفرنسية . ومن المآثر الثقافية المرتبطة بهذه الفترة تأسيس المكتبة (الأحمدية) ، كذلك حاول أحمد باشا النهوض بجامع (الزيتونة) وعمر خزائنه بالعديد من الكتب .

---

(١) محمد بيرم التونسى : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (القاهرة ١٨٩٠) حـ ٢ ص ٦

(٢) الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية — والفكرية فى تونس — (١٩٥٦) ص ١٢ .

(٣) الإتحاف: (مرجع سابق) حـ ٤ ص ٩٦ وما بعدها .

لكن رغم مظاهر النهضة التى تميز بها عهد المشير أحمد باشا ـ فإن سوء الحالة الإقتصادية فى البلاد وعجز ميزانيتها عن تحمل أعباء مشروعاته الضخمة هذه ـ أجبر الباى على أن يضاعف الضرائب على الشعب، ثم أضطر فى النهاية لأن يوقف الكثير من مشروعاته فأغلقت مدرسه باردو أبوابها .[1]

وقد عانى الشعب التونسى فى الفترة الأخيرة من حكم أحمد باشا الكثير من المظالم على يد (مصطفى خزنة دار)ـ وزير العمالة والداخلية ـ الذى ظل مسيطراً على الوزارة فى تونس ما يقرب من ٣٥ سنة ، ووزيره فى الشئون المالية (محمود بن عياد) . وزاد الوضع سوءاً ـ أن أضطرت الدولة رغم ظروفها هذه إلى المساهمة فى إعانة الدولة العثمانية فى حرب القرم .

على كل رغم كل هذه الظروف فلم تقع تونس فى عهد أحمد باشا فى الإستدانة والإقتراض من الدول الأوروبية .

وتميز عهد المشير محمد باى الثانى الذى خلف ابن عمه أحمد باشا فى ، ولاية تونس (١٨٥٥ — ١٨٥٩) بالإصلاحات الدستورية الإقتصادية التى قام بها .

ففى الناحية الإقتصادية — اتجه إلى تخفيف المصروفات الحكومية فى محاولة لموازنة واردات الحكومة بمصروفاتها . وللتخفيف عن كاهل الأهالى وتنظيم جبايه الضرائب — وحد الضريبة وسماها (المجبى) أو (الإعانة) وحددها بستة وثلاثين ريالا يدفعها القادرون من الرجال ، ولجأ إلى خفض عدد الجنود تخفيفاً للمصروفات وحتى لا تضطر البلاد إلى الاستدانة ، وبذا أنقذ البلاد من الإنزلاق إلى هذه الهاوية ـ كما يقول إبن أبى الضياف[2] .

أما فى المجال الدستورى فقد أصدر فى ١٠ سبتمبر (١٨٥٧ م) ما عرف باسم (قانون عهد الأمان) وهو قانون مبنى على إحدى عشر قاعدة أساسية[3]،

---

(١) صفوة الاعتبار — مرجع سابق جـ ٢ ص ٦ وما بعدها .

(٢) الاتحاف — جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(٣) أورد ابن أبى ضياف نص العهد .

انظر ـ الإتحاف جـ ٤ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٤ .

يسوى بين سائر سكان البلاد على أختلاف مذاهبهم فى الحقوق والواجبات . وقد أشترك فى صياغته الوزير الشيخ ابن أبى الضياف مستهلماً الكثير من إتجاهاته من التنظيمات الخيرية العثمانية التى أصدرتها الدولة فى عام ١٨٣٩ م[1].

ويعتبر الكثيرون من المؤرخين صدور عهد الأمان بما منحه للأجانب من حقوق الملكية والتقاضى وإقامة الصناعات وغير ذلك ـ كالمواطنين بالضبط ـ دليلا على إزدياد ضغط الدول الأوروبية أو تدخلها فى السياسة الداخلية لتونس . فصدور هذا القانون من وجهة نظرهم جاء تحت ضغط كل من قنصل فرنسا فى تونس ليون روش (Leon Rotbes) ، والقنصل الإنجليزى بها ريتشارد وود (Richard Wood)[2].

ويدلل هؤلاء على مدى ما كان يتعرض له الباى من ضغوط — بمشروع توصيل مياه (زغوان)[3] فى قنوات حديدية إلى العاصمة ، وما تكلفه من مصاريف باهظة فى وقت كانت ميزانية البلد تئن فيه من العجز . ورغم ذلك فقد نفذ المشروع تحت ضغط القنصل الفرنسى الذى ظل يلح على الباى ليوقع عقداً بالمشروع — والذى كان تردده على الباى — كما يقول ابن أبى الضياف « تردد السمسار الملح . . . مما يدعو للشك فى الغرض الحقيقى من هذا المشروع وهذا الإلحاح »[4] .

ويذكر صاحب صفوة الإعتبار أن البعض أعتبروا هذا المشروع الذى أضطر الباى إلى إقتراض مليون فرنك لتنفيذه ـ بداية المحن التى حلت بتونس[5]

---

(١) للمقارنة ـ أنظر فرمان التنظيمات الخيريه فى .
— صفوة الاعتبار (مرجع سابق) حـ ٥ ص ٥٥ ومابعدها .

(٢) Safwat, M. : Tunis and The Powers (Alex. 1943) pP. 20

(٣) تقع زغوان فى جنوب شرقى (تونس) العاصمة ويربطها بها حالياً خط حديدى (انظر الخريطة) .

(٤) الإتحاف ـ مرجع سابق حـ ٤ ص ٢٦ .

(٥) صفوة الإعتبار — مرجع سابق ص ١٥ .

وحين تولى محمد الصادق باى (١٨٥٩ — ١٨٨١ م) — كان واضحاً أن تونس تمر بمرحلة دقيقة من تاريخها وتحتاج لربان ماهر يسوس أمرها .

وقد بدأ محمد الصادق عهده بإتخاذ الإجراءات لوضع الأسس التى قام عليها (عهد الأمان) موضع التنفيذ . فأنشئت فى عام ١٨٦١ م المجالس الأهلية للفصل فى القضايا بمقتضى القوانين التى أعلنت للسكان ، كما أنتخب (مجلس أعلى) من ستين عضواً للنظر فى مصالح البلاد ولإبداء الرأى فى المسائل السياسية والإقتصادية .

والحقيقة إن هذا التطور يعتبر طفرة فى الإصلاح الدستورى أكثر تقدماً من (عهد الأمان) الذى يمكن أن نعتبره مجرد إعلان عن النوايا الطيبة ، بينما تعتبر المرحلة الجديدة — مرحلة التطبيق الفعلى .

والعجيب أن هذه الخطوة الدستورية التى منحت الأجانب حقوقاً مساوية لحقوق المواطنين — لم تقابل بما تستحقه من الترحيب من بعض قناصل الدول وخاصة فرنسا .

فقد أعترض هؤلاء على مثول رعاياهم أمام المحاكم الوطنية للفصل فى منازعاتهم مع أهل البلاد ، وطالبوا بأن يكون الفصل فى القضايا التى يكون أحد الأطراف فيها من الأجانب من إختصاص قنصليته .

وقد تدفق على تونس عدد كبير من الأجانب لممارسة نشاطهم فى ظل ما كفله القانون الجديد لهم من حقوق ، ومع ذلك رفض هؤلاء دفع الضرائب أسوة بالمواطنين العاديين .

وفى الوقت الذى مارست فيه فرنسا وإنجلترا ضغوطاً عنيفة على تونس وأخذت تتدخل فى الشؤون الداخلية لها — أسهم الرعايا الأجانب فى تدهور إقتصاد تونس بعد أن أستفادوا من ثروتها واستنزفوا أموالها .

الظروف الداخلية فى عهد محمد الصادق بأى تمهد للتدخل الأجنبى :

١ — الثورة الشعبية بزعامة على بن غذاهم :

كان من سوء حظ تونس أن وجد إلى جانب الحاكم محمد الصادق بأى شخصية قوية طغت على شخصية الباى — هى شخصية (مصطفى خزنة دار) الوزير الأكبر الذى أصبح كما يقول صاحب صفوة الأعتبار — كأنه هو الوالى أو الحاكم الحقيقى للبلاد .[1]

وكان هذا الوزير جشعاً — لم يكن يهمه إلا جمع المال بأية وسيلة ، ويصفه صاحب صفوة الإعتبار بأنه (أستأصل الأموال من أربابها ورماهم بالذل والإفلاس)[2] .

وقد أستطاع هذا الوزير أن ينفرد بالأمر بعد أن نجح فى إبعاد خصم مثل (خير الدين باشا) .

ويعطى ابن أبى الضياف صورة حية لما آلت إليه الأوضاع الإقتصادية فى تونس فى ذلك الوقت ، وما آل إليه حال الصناع والتجار والزراع وغيرهم من طوائف الشعب الذين أثقل كاهلهم بالضرائب .

فقد ضعف الإنتاج الزراعى وأصبحت الصناعات التقليدية تعانى من المزاحمة الاوروبية ، وتدهورت التجارة الخارجية ، وأصبح الفلاحون مرغمين على بيع مواشيهم حتى يمكنهم دفع الأداء — وأرتفعت أثمان الحبوب والمحاصيل الغذائية حتى أصبح من المألوف أن يساق المئات من المدنيين المفلسين إلى السجن كل يوم .[3]

---

(١) صفوة الاعتبار ﺟ٢ ص ١٨

— وانظر الأمثلة التى يضربها للدلالة على مدى ما وصل إليه نفوذه

(٢) صفوة الاعتبار ﺟ٢ ص ٢٣ .

(٣) الإتحاف ﺟ ٤ ص ١٢٤ .

ووصل الأمر إلى أن نهبت الحكومة دخول الأوقاف وتضاعف الدين العمومى ، وكان أرباب الأموال من الأوربيين يشجعون الحكومة على إبرام القروض من بنوك لندن وباريس، ونجح « مصطفى خزنه دار » فى عام ١٨٦٤ م فى أن يجر الباى إلى عقد قرض جديد بفائدة ٧ ٪ بحجة إستهلاك القرض المحلى الذى تبلغ فائدته ١٢ ٪ بهذا القرض الجديد .

وتم عقد الإتفاق المنحوس كما يسميه إبن أبى الضياف - فى ٧ مايو ١٨٦٤م، ولم يدخل خزانة الحكومة منه إلا النذر اليسير . [١] وتكررت بعد ذلك صفقات عقد القروض، وفى كل مرة يحتال الوزير الأكبر فيختلس لنفسه بطرق ملتوية مبالغ يضمها لثروته الخاصة ــ وهكذا اضطربت الأحوال الماليـــة فى تونس ولجأت الدولة إلى آخر سهم فى جعبتها ، فعمدت فى ١١ ديسمبر ١٨٦٣م إلى مضاعفة مال الإعانة (المجبى) ورفعت مقداره من ٣٦ إلى ٦٢ ريالاً وفرضته على كافة الرعية[٢] .

وكانت عوامل السخط على الأوضاع التى آلت إليها البلاد قد تجمعت ، فقد كان الناس يعانون من تعسف رجال الحكومة ، ومن بطء سير العدالة بالإضافة الى العسر الشديد فى الحالة الإقتصادية وتأخر دفع مرتبات الموظفين والجند، هذا فى الوقت الذى كانت مظاهر الثراء الفاحش لبعض العناصر الممسكة بدفة الأمور واضحة للعيان فجاء خبر ارتفاع الضريبة بمثابة الشرارة التى ألهبت النار فى الهشيم — فجاهر العامة بالعصيان ، وتحركت كافة القبائل تعلن نقمتها على الدولة — وتزعم الحركة (على بن غذاهم) من قبيلة ماجر .

---

(١) الأتحاف جـ ٥ ص ٩٦ .

(٢) من الذين اعترضوا على زيادة مال (الإعانة) — خير الدين - الذى سيمسك بمنصب رئاسة الوزراء فيما بعد . وقد كان رأيه « إن هذه الزيادة فى مال الإعانة ستؤدى الى زوالها بالمرة، أو تلجىء الى مال أكثر منها لتجهيز الجيوش لمواجهة غضب الناس. ولا نجد فى السنة التى بعدها ما يقارب الإعانة الأولى - هذا باعتبار القدرة على مواجهة الغضب » لكن لم يؤخذ بنصيحته . ويعلق أبن أبى الضياف على رأى خير الدين هذا بقوله « لعمرى أنها مقالة دين ونصح يجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير حاضراً» .

— انظر الاتحاف جـ ٥ ص ١١٤ .

وقد عبر (على بن غذاهم) عن دوافع الثورة فى رسائله التى أرسلها للباى يقول فيها « إن الناس يطالبون برفع المظالم ونهى البغاة والعمال الذين ـ طالت أيديهم . وإنه سوف يستمر إلى أن تخفف الدولة من الضرائب التى أثقلت كواهلهم »[1] .

وتلخص الرسالة التى بعث بها كمبينون (Campenon) — مدير مدرسة باردو الحربية — إلى وزير الحربية الفرنسى فى ١٨٦٢ م مطالب الجماهير الثائرة — فقد ذكر : « إن الإعرابى يطلب من سادته ألا يثقلوا كاهله بفادح الضرائب، وأن يسوسه أقل عدد ممكن من المأمورين ، وأن تكون العدالة التى تطبق على مقربة منه ، وذات إجراءات سريعة وخالية من التشعب »[2] :

وقد تحولت الثورة إلى ثورة مسلحة حين استطاع الثوار فى القرى والمدن الساحلية وغيرها شراء السلاح والتدرب عليه والإستعداد للمعركة المرتقبة .

وإن كانت الحكومة قد أضطرت لإرجاع المجبى الى أصلهـا الأول واستطاعت أن تبث الفرقة بين صفوف الثوار ، وأن توقع بهم الهزيمة ، وتضطر زعيمهم (على بن غذاهم) إلى الاستسلام ، وزجت به فى السجن رغم منحه الأمان ،وبقى به إلى أن وافاه أجله فى زنزانته بحلق الوادى فى ١١ أكتوبر ١٨٦٧ م — فإن هذه الثورة تركت أثاراً عميقة فى تاريخ تونس .

فمن جهة فتحت الثورة الباب لكل من الدولة العثمانية ، وفرنسا وانجلترا وإيطاليا — للتدخل فى شؤون تونس ولتلعب كل منها دوراً يتناسب مع مصالحها واتجاهاتها .

---

(١) انظر رسالته المؤرخة ١٧ صفر ١٢٨١ هـ (٢٢ يوليو ١٨٦٤ م) ، والرسالة المؤرخة أول ديسمبر ١٨٦٥م .

ـ سلامة ، ب : ثورة على بن غذاهم ـ ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) ص ٨٣ .

وكذلك عبد الجليل التميمى : بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى (١٨٢٦ — ١٨٧١ م) (تونس ١٩٧٢) ص ٨١ — ٨٢ .

(٢) جانباج ، جان : أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية ـ ثورة ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٥ م) ص ١٣ — ١٤ .

فمن جهة الدولة العثمانية فقد أهتمت بإقرار تبعية تونس للباب العالى ، ولتحقيق ذلك أرسلت مبعوثاً تركيا (حيدر أفندى) للمراقبة والتصرف فى حدود سلطة الباب العالى .

ومن جهة فرنسا وجد قنصلها دى بوفال De Beauval فى الثورة ذريعة للتدخل ، فضغط على الباى طالباً إبعاد خصوم النفوذ الفرنسى — فى تقديره — عن الحكم ، بل طالب بإلغاء بعض المجالس ، وكان يؤيد الثوار على إعتبار أن إضعاف السلطة الحاكمة فى هذا القطر الملاصق للوجود الفرنسى فى الجزائر من شأنه أن يفتح الباب للتدخل الفرنسى وتحقيق أطماع فرنسا[١] .

هذا بينما على النقيض من ذلك كان موقف انجلترا وقنصلها ريتشارد وود (Richard Wood)، فقد كانت فى ذلك الوقت قائمة على الحفاظ بقدر الإمكان على الأوضاع كما هى فى هذه الولاية العثمانية[٢] .

أما موقف إيطاليا فقد كان نابعاً من أطماعها فى تونس فقد كانت إيطاليا لها جالية كبيرة فى تونس ، وكان لهم بها العديد من المدارس والمؤسسات المختلفة وكانت لغتهم أكثر اللغات الأجنبية إستخداماً — ولذا كانوا يخشون أن تمد فرنسا نفوذها إلى تونس كما فعلت فى الجزائر فوقفوا لها بالمرصاد .

هذا على أن الثورة أثارت الشعور الشعبى وجمعت المواطنين التونسيين حول غرض واحد لتخليص البلاد من طغيان الولاة — وكذلك من التدخل الأجنبى الذى يجر البلاد للإنزلاق فى مهاوى الإستدانة، والذى حاول الإستفادة من الإنتفاضة الوطنية للتدخل فى الشؤون الداخليه للبلاد .

فهذه الثورة فى الحقيقة رغم أنها لم تنجح لأنها كانت تفتقر للتنظيم — فإنها دلت على النضج الإجتماعى للجماهير الشعبية التونسية ، وعلى حيوية هذا الشعب

---

(١) وثائق تونسية — ثورة على بن غذاهم (تونس ١٩٦٧) جـ ٢ ص ١٠ . وثيقة رقم ٣٢٥ .

(٢) الانتحاف جـ ٥ ص ١٧٠ .

وعمق إحساسه الوطنى . ولا شك فى أنه كانت لها انعكاساتها فيما بعد فى مواجهة الإحتلال والحماية الفرنسية للبلاد[1].

٢ — السيطرة المالية الاوروبية :

دهمت تونس — بعد أن خمدت الثورة الداخلية — مصائب متعاقبة ساهمت فى إفلاس الخزانة وإضطراب الأحوال الإقتصادية — فقد انتشر مرض الهواء الأصفر (الكوليرا) فى البلاد ، ومات بسببه عدد كبير من السكان ، ثم تلاه وباء التيفوس — وانتشرت أثر ذلك المجاعات والقحط ، وهكذا تكاثفت على البلاد عدة مصائب فى وقت واحد[2].

وترتب على هذه الأحداث أن أصابت حاصلات البلاد نكسة ، وأصبح الإيراد السنوى لتونس لايكفى لسد حاجة الإدارة ودفع فوائد الديون . فأضطرت الحكومة إلى الإستدانة مراراً ، وأضطرت فى النهاية إلى إعلان عجزها عن دفع فوائد القروض — وكان هذا دافعاً لتحرك الدائنين وحكوماتهم للمطالبة بوضع حل يحفظ حقوق الدائنين ، وانتهت المفاوضات التى جرت فى باريس لهذا الغرض إلى الإتفاق فى عام (١٢٨٦ هـ — ١٨٦٩ م) على إنشاء (لجنة مالية مشتركة) تقوم بإستلام نصف إيرادات الإيالة لدفع فوائد القروض المستحقة كل عام ، بينما يخصص النصف الثانى للخزانة ونجحت اللجنة فى توحيد الديون المتعددة فى دين واحد قدر بـ ١٢٥ مليون فرنك بفائدة سنوية ٥ ٪ .

وقد تطلب عمل اللجنة بهذا الوضع — التدخل فى كل فروع الإدارة بالبلاد . وكان طبيعياً أن ينظر الوطنيون إلى هذا التدخل الأجنبى فى شؤون

(١) عبد الجليل التميمى — مرجع سابق ص٣٩ .

(٢) يعطى محمد بيرم التونسى وصفاً مؤثراً لما وصلت إليه الأحوال من سوء . محمد بيرم التونسى : مرجع سابق جـ ٢ ص ٣٥ وما بعدها .

بلادهم نظرة السخط والتذمر ، فقد كانت اللجنة المالية رمزاً لسيطرة الغرب ، وأداة لإستغلاله وإذلاله للشعب التونسى[1].

وفى عام (١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م) تولى خير الدين رئاسة الوزارة بعد سقوط مصطفى خزنه دار[2] فتصدى لإصلاح الموقف ومحاولة علاج الحالة التى وصلت إليها البلاد فى مختلف المجالات الإقتصادية والإدارية والثقافية والسياسية.

ولم يكن الإصلاح الذى تصدى له خير الدين عشوائياً ، لكنه كان قائماً على الفهم والدراسة وتحديد الهدف المنشود، ورسم السياسة للوصول إلى هذا الهدف ولعل كتابه (أقوم المسالك فى معرفه أحوال الممالك) الذى وضعه فى عام (١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م) والذى طبع بعد ذلك فى الإسكندرية عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢ م) يعطى فكرة عن مبادئه التى كان يؤمن بها ويعتنقها والتى حاول أن يطبقها مدة رئاسته القصيرة للوزارة التى لم تتعد الفترة من عام ١٨٧٤ حتى عام ١٨٧٧ حين أعفى من منصبه بسبب الوشايات لدى الباى التى أشاعها خصومه ضده والذين وقف فى وجه أطماعهم وجشعهم . فى وقت لم تكن تتحمل تونس وشعبها فيه أساليب النهب والتخريب بالإضافة إلى الأطماع الأجنبية

---

(١) يصف محمد بيرم التونسى الافراح التى عمت البلاد بعزل مصطفى حزنه دار

ــ محمد بيرم التونسى : مرجع سابق حـ ٢ ص ٤٤ وما بعدها .

ملاحظة : خير الدين أصله من الشراكسة ، اختطف وهو طفل ونقل الى الاستانة ، واختاره مبعوث من طرف باى تونس فى عام ١٨٣٩ م ، فانخرط فى سلك مماليك المشير أحمد باشا وتربى فى قصر (باردو) ، والتحق بحاشية الأمير حيث بدأت تظهر نجابته ونبوغه ــ أنظر :

ــ أحمد امين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٤٨ م) ص ١٥٢ وما بعدهــا .

ملاحظة : لعلنا نلاحظ أوجه الشبه بين هذه الأوضاع والوضع الذى آلت إليه مصر فى عهد الخديو اسماعيل . وسنرى أن النتائج كانت متشابهة أيضا فى الحالتين .

والتى وجدت الجو المناسب لها بعـــد عزله وتعيين (مصطفى بن اسماعيل) خلفاً له [١] .

ففى المجال الإقتصادى ، ألغى خير الدين الضرائب المرهقة التى كانت تثقل كاهل السكان ووحدها فى ضريبة واحدة ، وحرص على أن تكون العناصر التى يوكل إليها بجبايتها من العناصر النظيفة ، وعمد فى نفس الوقت لتنظيم جباية الجمارك ، وقسم الأراضى الزراعية إلى مناطق ، ونظم العلاقات بين المزارعين والملاك وبينهم وبين الحكومة ، وأبطل الحملات العسكرية الإرهابية التى كانت تجند لتحصيل الضرائب بالقوة [٢] .

ونظم خير الدين القضاء . والأوقاف ، كما نظم السجون والبلديات .

ولعل أبرز مجهوداته كانت فى الناحية الثقافية ـ فقد اهتم بوضع أسس التعليم العصرى بهدف خلق نخبة قادرة على المساهمة فى حركة الاصلاح ، وعلى تسيير شؤون الدولة الحديثة ـ ولهذا أنشأ فى يناير ١٨٧٥ م (المدرسة الصادقية) بقصد التوفيق بين العلوم العصرية والتقاليد الإسلامية ، واختار لجنة مع برامج الدراسة فى هذه المدرسة وأشار إلى أن الدولة سترسل الممتازين طلبة المدرسة لإتمام دراستهم فى الجامعات الأوروبية [٣] .

وكذلك أتجه خير الدين للنهوض بجامعة الزيتونة ، وأصدر فى مايو

---

(١) يعقد خير الدين فى مقدمة كتابه هذا مقارنة بين ما آلت إليه أحوال الأمم الإسلامية من ، وما حققته الدول الأوروبية من تقدم ـ ويرجع ذلك لأخذ هذه الأخيرة بمبادىء ، والحرية والتنظيمات السياسية المتقدمة القائمة على مبدأ الشورى وتقييد سلطة الحاكم ـ مسئولية الوزراء . وبعد ذلك يعرض فى كتابه صورة لتطور أوروبا وتدرجها منذ العصور الوسطى بما فيها من مظاهر التأخر إلى عصر النهضة والحضارة معطياً أمثلة من مظاهرها فى مختلف البلدان الأوروبية ، ويخلص من هذا أن الحرية ـ حرية القول وحرية النشر (المطبعة كما يسميها) ، والعدالة هى أساس التقدم والإزدهار والتمدن .

(٢) أحمد أمين عصر المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٣) الحبيب الجنحانى : مرجع سابق ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

١٨٧٥ م قانون تأسيس المكتبة الصادقية لتشجع الثقافة العامة ، وزودها بالكتب وجمع بها الكثير من الكتب المبعثرة فى المدارس والجوامع[1].

وفى عام ١٨٦٠ صدرت فى تونس صحيفة (الرائد) أول صحيفة عربية فى ذلك القطر — وقد أسند الإشراف عليها وعلى المطبعة الرسمية إلى الشيخ (محمد بيرم الخامس) وكان واسع الأفق والأطلاع — ولقيت هذه الصحيفة من خير الدين وأتباعه تشجيعاً أدبياً ومادياً .

وأثمرت هذه الجهود المبذولة فى ميدان الثقافة فيما بعد حين نكبت الدولة بالمجاعة وفقدت إستقلالها ، فكان قادة الحركة القومية ـ من الذين تربوا فى هذا الجو الثقافى العلمى المتقدم .

ومن سوء حظ تونس أن توارى خير الدين من الميدان فى وقت كانت البلاد فيه فى أمس الحاجة لرجل مخلص مثله على دراية وخبرة وله فلسفته الخاصة فى الحكم والإدارة، فقد أضطر ـ كما قلنا ـ فى عام ١٨٧٧م أن يعتزل بعد أن أحاطت به المؤامرات من كل جانب .

على أن خير الدين لعب دوراً سياسياً آخر حين اختاره السلطان العثمانى عبد الحميد صدراً أعظم ـ وقد شعرت فرنسا أن هذا يعنى ازدياد الاهتمام من قبل الدولة العثمانية بشؤون تونس مما يهدد الأطماع الفرنسية فيها[2] .

موقف الدول الأجنبيه من تونس فى الفترة السابقة للإحتلال الفرنسى :

لكى تكتمل الصورة ـ بعد أن ألممنا بالأحوال الداخلية فى تونس يجدر

---

(١) الحبيب الجنحانى : مرجع سابق ص ١٢٢ .

(٢) عن تاريخ خير الدين والدور السياسى الذى لعبه . انظر :

— المنجى الشملى : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢ م) .

وكذلك :

— أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسى (تونس ١٩٧٣ م) .

بنا أن نلقى نظرة على علاقة تونس فى هذه الفترة بالدول الأجنبية المختلفة ، وموقف هذه الدول منها .

فمن جهة الدولة العثمانية – كانت العلاقات قد استقرت إلى حد ما منذ تولت الأمر فى تونس الدولة الحسينية . وقد سارت الدولة العثمانية على إطلاق حرية التصرف للباى وتفويضه تفويضاً مطلقاً فى الشؤون الداخلية على شرط حفظ الحقوق المقررة للباب العالى وفى مقدمتها إعانة الدولة العثمانية فى حالة الحرب وذكر اسم السلطان فى الخطبة وعلى السكة المستخدمة ، ورفع علم الدولة العثمانية ، بالاضافة إلى ماجرت العادة على تقديمه من هدايا ومجاملات فى المناسبات المختلفة[1] .

ويدلنا تتبعنا لعلاقات البايات بالدولة العثمانية منذ عهد أحمد باشا إلى عهد الصادق باى – على أنه فى الوقت الذى كان فيه البايات حريصين على استقلالهم السياسى كانوا أيضاً يراعون علاقتهم بالدولة العثمانية ومظاهر التبعية التى جرت العادة عليها .

وقد رأينا كيف أن أحمد باشا أرسل قوة حربية لإعانة الدولة العثمانية فى حرب القرم .

كما أن محمد باى الثانى حين ألحت الدولة العثمانية على تنفيذ (التنظيمات الخيرية) التى أصدرتها الدولة فى عام ١٨٣٨ م — أصدر عهد الأمان ، وهو يطابق إلى حد كبير فى روحه ومضمونه (التنظيمات الخيرية) .

وحين قامت ثورة ١٨٦٤ م أوفد السلطان العثمانى مبعوثه (حيدر أفندى) لتونس كرمز لتبعيتها للدولة العثمانية .

---

(١) لمن يريد التوسع فى دراسة علاقة تونس بالدول العثمانية فى ذلك الصدد ، انظر – مزالى ، محمد الصالح : الوراثة على العرش الحسينى ومدى احترام نظامها (تونس ١٩٦١م)

وقد سعى محمد الصادق باى للحصول على فرمان من الباب العالى يؤكد وضع تونس بالنسبة للدولة العثمانية والإمتيازات التى حصلت عليها ، ومما حفز الباى لذلك وضوح الأطماع الإستعمارية خاصة الإيطالية والفرنسيه فى تونس، فرأى الباى أن فى تأكيد هذه العلاقات بالدولة العثمانية مايوقف هذه الدول عند حدها ، وفعلا صدر فرمان فى ١٨٧١ م موكداً هذه العلاقات(١).

هذا وقد كانت الدولة العثمانية فى هذا الوقت تهب عليها تيارات الحركة الإصلاحية التى تدعو لتوحيد الجهود لمكافحة الاستعمار . ونشأت فكرة الجامعة الإسلامية التى تدعو المسلمين للتكتل لمواجهة موجات الاستعمار الأوروبى . وكان جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧ م) أشهر الدعاة لهذه الفكرة . ولاشك فى ان الدول الاستعمارية كان عليها أن تعمل حساب هذه الحركة التى تهدد وجودها فى كل العالم العربى خاصة بعدأن احتضنها السلطان عبد الحميد لأنه وجد فيها المحور الذى يمكن أن يجتمع حوله المسلمون فى كافة الأقطار التابعة للسلطنه العثمانية أو التى يمكن أن يجتمع حوله المسلمون فى كافة الأقطار التابعة للعثمانيين أو التى يمكن أن تدخل فى ظلها .

ومن جهة إنجلترا كانت سياستها التى سهر قنصلها ريتشارد وود على تنفيذها قائمة على المحافظة على الوضع الراهن . وهو الاتجاه الذى اتسمت به السياسة الإنجليزية تجاه الدولة العثمانيه وولاياتها فى ذلك الوقت . وكان الانجليز لايريدون أن يحيدوا عن هذه السياسة حتى لايفتح المجال لغيرهم من الدول المنافسة (فرنسا) و (إيطاليا) على وجه الخصوص للحصول على أية مزايا فى تونس ، كما لايسمح لباى تونس بأن يتخطى السيادة العثمانية . وظهرت هذه السياسة الإنجليزية بأجلى مظاهرها ـ حين قام أحمد باى برحلته إلى لندن عام ١٨٤٦ م فقد أصرت الحكومة الانجليزية على أن تكون إستقبالات الباى الرسمية فى البلاد فى حضور السفير العثمانى رمزاً للتبعية(٢) .

---

(١) انظر نص هذا الفرمان فى :
مزالى ، محمد صالح : مرجع سابق ص ١٩ وما بعدها .
(٢) العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٨٥ .

ومن جهة إيطاليا — فقد كانت ترى فى تونس المنفـــذ الطبيعى لنشاط الإيطاليين والبعث للإمبراطورية الرومانية القديمة — وحتى قبل أن تتم الوحدة الإيطالية كانت أنظار الإيطاليين قد اتجهت إلى تونس ، وكانت الجالية الإيطالية بها تعتبر أكبر الجاليات الأجنبية ، وكانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأجنبية الأولى ، وكانت هى اللغة التى يستخدمها حتى المستوطنون الإنجليز إذ كان معظمهم من المالطيين ، وقد تميز نشاط القنصل الإيطالى بينا (Pinna) فاستطاع أن يحصل للايطاليين على عدة إمتيازات فى تونس ، منها امتياز استخراج الرصاص ، وكذلك اشترى من الإنجليز إمتياز مد الخط الحديدى بين تونس وحلق الوادى[1] .

وكانت هزيمة فرنسا فى سيدان عام ١٨٧٠ أمام ألمانيا ، وقص أجنحتها بعد إقتطاع إقليمى الألزاس واللورين منها وسقوط الإمبراطور العثمانية — فرصة حاولت إيطاليا انتهازها خاصة أنها كانت — بعد تحقيق وحدتها — فى مركز يسمح لها بذلك[2] .

وقد بذلت إيطاليا فى عام ١٨٧١ م جهوداً مستميتة للضغط على تونس للظفر بإمتيازات خاصة للإيطاليين ، وتعطى مناقشات مجلس النواب الإيطالى فى هذه الفترة صورة عن أطماع إيطاليا فى تونس — لكن وقفت انجلترا وفرنسا وتركيا فى وجه تحقيق إيطاليا لأطماعها فى تونس فى ذلك الوقت — كما لم يكن موقف البابا مشجعاً لأن تتخذ ايطاليا خطوة حاسمة[3] .

اما من جهة فرنسا — فلا شك فى أن المسألة التونسية بدأت تدخل فى إطار السياسة الفرنسية منذ احتلال الفرنسيين للجزائر فى عام ١٨٣٠ م ، وأخذت الأوضاع فى تونس — هذا الجار الملاصق للجزائر — تثير إهتمام

---

(١) Ziadeh, Nicola : Origins of Tunisian Nationalism(Beirut 1969) p. 22

(٢) ملاحظة : سقطت الإمبراطورية الثانية وأعلنت الجمهورية الثالثة فى فرنسا فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م ، وكان دخول جنود الملك (فكتور عما نويئل الثانى) روما محققاً وحدة ايطاليا فى ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠ م .

(٣) Safwat : Op. cit p. 126

الفرنسيين - فأصبح إبعاد أى نفوذ آخر تحاول أن تمارسه أية قوة أجنبية اخرى - من أهم أسس السياسة الفرنسية[1] .

ورغم أن هزيمة فرنسا فى ١٨٧٠ م هزت نفوذها فى تونس - لكن استطاعت فرنسا ان تستعيد هذا النفوذ بفضل جهود قنصلها فى تونس فى عام ١٨٧٤ م روستان (Roustan) . فقد نجح فى ان يحصل لشركة فرنسية على امتياز مد الخط الحديدى من تونس الى الحدود الجزائرية .

ولم تقتصر اهمية هذا الخط على الناحية الاقتصادية - لكن تنفيذه كان يخدم النواحى العسكرية فييسر نقل الجنود والمؤن الى تونس العاصمة ، بالإضافة الى ان هذا الخط الحديدى يخترق أخصب وأغنى جزء من تونس ، ويضع هذه المنطقه تحت سيطرة فرنسا .

وهكذا كان نفوذ فرنسا فى تونس فى عام ١٨٧٨ م فى ذروته — فقد كان يمثلها مندوب قوى نشط ، وكانت الديون الفرنسية تمثل نسبة كبيرة من الدين التونسى ، وكانت فرنسا تتحكم فى مالية البلاد عن طريق نائب رئيس اللجنة المالية ، هذا إلى جانب إحتكارها البرق ، وسيطرتها على الخطوط الحديدية وحظوة رئيس الوزراء (مصطفى بن إسماعيل) لديها[2] .

وكانت تونس فى ذلك الوقت تمثل بالنسبة للسلطات الحاكمة الفرنسية مورداً جديداً للثروة وللنشاط الفرنسيين ، ولتوجيه أنظار الفرنسيين بعيداً عن مشاكل بلادهم الداخلية ولتضميد جراحهم بسبب هزائمهم فى أوروبا — كما أن الموانى الفرنسية يمكن أن تكفل أماكن صالحة لسفن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط .

أما عن موقف الدول الأخرى صاحبة المصلحة فى تونس من النفوذ الفرنسى

---

(١) Cambon, Henri : Histoire de la Regence de Tanis (Paris 948) P(1.103.

(٢) Safwat : Op. cit p- 101

فيها — فقد استطاعت فرنسا أن تتخلص من منافسيها الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح الجو مهيأ لها للعمل بمفردها .

فمن جهة ألمانيا — رأى بسمارك بثاقب نظره أن من مصلحة ألمانيا أن تنشغل فرنسا بمحاولة تحقيق أطماعها فى تونس فتجد فى ذلك ما يشغلها عن التفكير فى الثأر لهزيمتها فى سنة ١٨٧٠ م .

أما انجلترا — فقد كان موقفها يهم فرنسا أكثر من غيرها ، فقد كانت تدرك أنها لا تستطيع إتخاذ حركة ايجابيه حاسمة فى تونس إلا إذا ضمنت عدم وقوف انجلترا فى طريقها — وانتهزت فرنسا فرصة ضم بريطانيا لجزيرة قبرص ، وكانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية ، وكان ضم بريطانيا لها إخلالا بالإتفاقات الدولية الخاصة بالمحافظة على سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها . لكن بريطانيا كانت ترى أن مصالحها البحرية فى البحر المتوسط تستلزم أن تحتل (قبرص). ودارت المفاوضات بين الحكومة البريطانية والدولة العثمانية حول ذلك سراً . ونجح دزرائيلى فى أن يعقد فى ٤ يونية (١٨٧٨ م) مع الباب العالى معاهدة سرية تقرر بموجبها أن تحتل بريطانيا (قبرص) وتقيم فيها ميناء حربياً وحامية بريطانية على أن تظل ولاية عثمانية — وتتعهد بريطانيا فى مقابل ذلك بضمان مصالح تركيا فى آسيا . لكن أفشيت بنود هذه الإتفاقية . وفى أثناء انعقاد مؤتمر برلين — الذى إفتتح أعماله فى ١٣ يونية ١٨٧٨ م برئاسة المستشار الألمانى بسمارك ، بهدف بحث المسألة الشرقية عقب أن أشهرت روسيا الحرب على السلطان العثمانى ودخل جيشها (ادرنه) وأصبح يهدد القسطنطينية ذاتها وأضطر الباب العالى لقبول الصلح وتوقيع معاهدة سان استفانو فى مارس ١٨٧٨ م — نجحت فرنسا بمساندة ألمانيا فى أن تصل إلى اتفاق مع بريطانيا فى عدم معارضة أى تدخل فرنسى فى تونس فى مقابل عدم إثارة فرنسا لمشكلة قبرص والإحتلال البريطانى لها . وهكذا ضمنت فرنسا تأييد انجلترا أو على الأقل عدم معارضتها لخططها فى تونس[1] ،

---

[1] للدراسة التفصيلية لنتائج مؤتمر برلين أنظر : صفوت ، محمد مصطفى . مؤتمر برلين (١٨٧٨) وأثره على البلاد العربية (١٩٥٧) — ص ٥٦ .

ولم تبق من عقبة فى وجه فرنسا لتحقيق أطماعها فى تونس سوى إيطاليا التى رفضت أن تخضع للأمر الواقع ، بل أسرعت بتدعيم تمثيلها القنصلى فى تونس فعينت ماتشيو Maccio الخبير فى أمور الشرق والعالم الإسلامى — قنصلا لها فى تونس .

وكانت الفترة من مطالع سنة ١٨٧٩ م حتى صيف ١٧٨٠ م فترة صراع دبلوماسى بين السفيرين الإيطالى ماتشيو — والفرنسى روستان Roustan استخدم فيه كل منهما كافه الوسائل والحيل كالتقرب لرجال البلاط ودفع الرشاوى ، واستغلال المقربين إلى الباى ، ومحاولة اقتناص الفرص التى تلوح ليظفر كل لدولته بنصيب يقوى نفوذها فى تونس — فمثلا حين عرضت الشركة البريطانية إستعدادها لبيع حق الإمتياز الذى كانت حصلت عليه لإنشاء الخط الحديدى بين تونس وحلق الوادى — أسرعت شركة روباتينو الإيطاليـــة Rubatino فى أبريل سنة ١٨٨٠ م بشرائه ودفعت فيه أربعة أضعاف ثمنه الأصلى ، لكن فرنسا استطاعت أن تحصل على امتياز إقامة ميناء (تونس) ، كما حصلت فى أغسطس (١٨٨٠ م) على وعد من الباى بألا يمنح مستقبلا إمتيازاً لبناء أى سكه حديدية لأى شركة إلا بعد عرضه على الشركات الفرنسية ورفضها القيام بهذا العمل [١] .

وفى يناير (١٨٨١ م) زار الملك أمبرتو ملك إيطاليا جزيرة صقلية . وسافر اليه هناك وفد من المستوطنين الإيطاليين فى تونس على رأسه القنصل الإيطالى « ماتشيو » وصرح الملك فى حديثه للوفد بإهتمام ايطاليا البالغ بالمسائل التونسية ، واتخذت هذه الزيارة فرصة لتأكيد إهتمام إيطاليا بتونس — فأشارت الصحف الإيطالية فى تلك المناسبة إلى « قرطاج » الولاية الرومانية القديمة [٢] .

---

(١) زيادة ، نقولا : مرجع سابق ص ١٢١ — ١٢٥ .

(٢) Safwat : Op. cit. p. p. 282—294

وقد حاولت فرنسا أن تحول درن معارضة إيطاليا لهـا فى تونس — فأشارت إلى أنه فى وسع إيطاليا أن تحتل طرابلس فتجد فيها خير العوض عن أطماعها فى تونس ، وأن فرنسا لن تعترض عليها إذا أقدمت على هذا العمل .

والحقيقة إن موقف إيطاليا لم يكن مستقراً ، ففى الوقت الذى كانت بريطانيا فيه تحجم عود إيطاليا ، فى محاولة لتنضم الدولتان فى حلف يرعى مصالحهما فى البحر المتوسط — لم تشأ الحكومة الايطالية أن ترتبط مع بريطانيا بعقود قد تؤدى بها للحرب — كما أن العلاقات بين ايطاليا والنمسا فى ذلك الوقت لم تكن طيبة بسبب الخلاف على الحدود الإقليمية .

وهكذا كان جو العلاقات الدولية فى صالح فرنسا أكثر منه فى صالح غريمتها إيطاليا لتحقق أطماعها فى تونس.

الحملة الفرنسية وفرض الحماية :

مهدت فرنسا لحملتها على تونس بإثارة مشكلة القبائل على الحدود التونسية الجزائريه وتضخيم هذه المشكله بحيث أظهرت أن أمر هذه القبائل قد أفلت من يد حكومه الباى وأنها من زمن طويل تشق عصا الطاعة على حكومته ولا تخضع لسلطانها ، وأنها تشن غارات بأستمرار على القرى والمدن الجزائرية القريبة ثم تفر إلى أوكارها فى الجبال التونسية مما يكبد الفرنسيين خسائر جسيمة .

وفى نفس الوقت أصدرت الحكومة الفرنسية الاوامر إلى حاكم عام الجزائر بحث الخطا للإنتهاء من مد الخط الحديدى الذى يصل الجزائر بتونس ليسهل نقل الجنود والمؤن .

وأخذت فرنسا تعد الرأى العام سواء فى فرنسا ذاتها أو فى الخارج لإستقبال ماتنوى القيام به من أعمال ضد تونس حتى لايكون الامر مفاجأة لأحد .

وكانت فرنسا قد عرضت فى فبراير (١٨٧٩) على الباى محمد الصادق عن طريق قنصلها فى تونس (روستان) مسودة لمعاهدة الحماية التى تقترح أن يوقع عليها الباى بطريقة ودية - لكن الباى رفض توقيعها مما دفع (روستان) إلى أن يطلب من حكومته إرسال بعض قطع أسطولها إلى المياه التونسية وإتباع أسلوب التهديد لعل هذا يقنع الباى بالعدول عن معارضته[1].

وعرضت الحكومة الفرنسية الأمر على الجمعية الوطنية وعلى مجلس الشيوخ الفرنسى وحصلت منهما على الإعتمادات اللازمة للقيام بحملة عسكرية .

وأنتهزت فرنسا حدوث بعض الحوادث العادية على الحدود الجزائرية التونسية فأستندت عليها لتنفيذ مخططها - فقد حدث أن عبرت قبيلة (بنوخمير) التونسية الحدود الفاصلة بين تونس والجزائر واقترفت بعض أعمال السرقة البسيطة المعتادة بين الرعاة - فادعت فرنسا إرسال حملة لتأديب هذه القبائل التى لا يملك الباى عليها أى سلطان . وقام (روستان) فى ١٦ أبريل ١٨٨١ م بإبلاغ الباى أن الجنود الفرنسيين سيعبرون الحدود التونسية لتأديب هذه القبائل، وطلب منه أن تتعاون حكومته مع الفرنسيين فى العمل على إقرار الأمن والنظام . وقد حاول الباى أن يتدخل هو بنفسه لحسم الموقف - فأرسل أخاه على رأس قوة أعدها بسرعة ووجهها إلى بلاد خمير .

وفى ٢٤ أبريل ١٨٨١ م اجتاز الجنود الفرنسيون حدود تونس واحتلوا (الكاف) و (طبرقه) بدون مقاومة ، كما أنزلت فرنسا بعض قواتها — التى أبحرت من ميناء طولون - فى بنزرت Bizerta ، وبعد إحتلالهم لها تقدموا صوب العاصمة. وفى ١٢ مايو كانوا يعسكرون على مقربة من قصر (باردو) الواقع على بعد ٢٠ كيلو متراً من تونس . وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر

---

(١) Documents Diplomatiques Francaises 1871—1914 lere Serie, Tome III (Janvier 1880 —Mai 1881). Minstre des Affaires Etrangères (Paris 1928). Document No. III

ذلك اليوم قدم القنصل العام الفرنسى (روستان) إلى الباى نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها والتى كان قد وضعها جول فيرى (Jules Ferry) وأرسلت مع القائد الفرنسى بريار Bréart وأعطى الباى مهلة حتى الساعة التاسعة لقبول المعاهدة أو رفضها .

وأجتمع الباى بمجلس الدولة التونسى لعرض الأمر عليه ، وأرتفعت أصوات المعارضة من أعضاء المجلس وطلبوا المقاومة ودعوة الشعب للجهاد ، وهدد الفرنسيون بخلع الباى محمد الصادق عن العرش وتنصيب أخيه (الطيب باى) مكانه إذا رفض التوقيع على المعاهدة وفى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم (١٢ مايو ١٨٨١ م) وقع محمد الصادق باى على المعاهدة وسط هذا الجو العجيب من الإرهاب[1]

ومعاهدة (باردو)[2] فى مظهرها لاتشعر بحقيقة الأهداف الإستعمارية التى كانت تهدف إليها فرنسا فقد صيغت موادها بطريقة توحى كأنها لاتمس صميم إستقلال تونس وحقوقها كدولة ذات سيادة ـ لكن التحليل الدقيق لموادها يوضح كيف أنها سلبت تونس كل مقومات الدولة المستقلة ، فهى تعطى القوات الفرنسية حق إحتلال المراكز التى تراها صالحة لإستتباب الأمن ويبقى احتلالها سارياً إلى أن تتفق السلطات الفرنسية والتونسية معاً على ألا ضرورة لهذا الاحتلال (المادة الثانية) ـ وتضع الباى تحت حماية فرنسا التى تتعهد بحمايته هو وعائلته من أى خطر (المادة الثالثة) ، ويتكفل ممثلو فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون فى البلاد الأجنبية برعاية مصالح الممالك التونسية .

---

(١) انظر وصف روستان لحظه التوقيع :
الوثائق الدبلوماسية الفرنسية — المجلد الثالث ص ٥١١ — ٥١٢ .
وانظر موقف المعارضة من التوقيع على المعاهدة ، خاصة موقف العربى زروق الذى كان رئيساً لبلدية تونس وعضواً بمجلس الشورى والذى يعتبر أول المقاومين للاحتلال الفرنسى .
محمد المرزوقى : صراع على الحماية (تونس ١٩٧٣) ص ٧٦ ومابعدها .

(٢) انظر نص المعاهدة فى ملحق الكتاب مقدمة ، ١٠ مواد) .

وكأن هذا فضل من فرنسا ، فنى مقابل ذلك نص على ألا يعقد الباى أية إتفاقية دولية مع دولة أجنبية دون علم فرنسا و بموافقتها مقدماً. وفرضت فرنسا غرامة حربية على القبائل التى وصفت بأنها (عاصية) على الحدو . والسواحل، وجعلت مسئولية جبايتها على حكومة للباى (المادة الثامنة) . ولكى تضمن فرنسا عدم وصول الأسلحة لأيدى الوطنيين نص على منع إرسال الأسلحة للموانى التونسية وحمل الباى مسئولية تنفيذ ذلك (المادة التاسعة) .

هذا وقـــد جاءت معاهدة المرسى التى وقعها فى يونيه ١٨٨٣ م على باى الذى خلف محمد الصادق بعد وفاته فى أكتوبر ١٨٨٢ م - مؤكدة لسلطات فرنسا[١] .

فقد تكفل الباى بإدخال الإصلاحات الإدارية والقضائية التى ترى الحكومة الفرنسية إدخالها (المادة الأولى) - وتعطى المادة الثانية الحكومة الفرنسية حق الاشراف على الشؤون المالية لتونس . فقد نص على أن يعقد الباى قرضاً لسداد الديون بضمان الحكومة الفرنسية التى يكون من حقها وضع الشروط المناسبة لهذا القرض ، وتحديد أوقات السداد ، كما نص على أن الباى ليس له مستقبلا حق عقد أى قرض لحساب المملكة التونسية دون إذن من الحكومة الفرنسية - أما (المادة الثالثة) فتقضى بتحديد ما يخص الباى وما يخصص لمصاريف الحكومة من الدخل العام .

وهكذا أصبح لفرنسا الأشراف الكامل على الديون وعلى ميزانية الدولة. وقد نص فى النهاية فى المادة الرابعة على أن هذه المعاهدة مكملة لمعاهدة ١٢ مايو ١٨٨١ ولا تنقض أى شىء مما نصت عليه المعاهدة السالفة .

وقد وقع هـذه المعاهدة عن فرنسا وزيرها المقيم بتونس بول كامبيل (P.Campbell).

---

(١) انظر نص هذه المعاهدة فى نهاية الكتاب .

ولم تـكتف فرنسا بما منحتها المعاهدتان المعقودتان من حقوق ـ فقد إستندت على تفسيرها لما تخوله مواد المعاهدتين لها من حقوق ـ فوسعت من اختصاص المقيم العام الفرنسي وخولته سلطات كاملة تشريعية وتنفيذية . فألغت معظم الوزارات التونسية وأخذ المقيم الفرنسي حق وضع التشريعات والمراسيم التى تخدم مصالح الاستعمار الفرنسي، وبالتدريج نجح فى القضاء حتى على الامتيازات التى كان يتمتع بها رعايا بعض الدول الأجنبية الأخرى عا أثار هذه الدول ، كما تمـكن من توجيه الاقتصاد التونسى لخدمة مصالح الدولة المستعمرة .

حركات المقاومة الوطنية :

لم يرضخ الشعب التونسى بيسر لاحتلال فرنسا لبلاده وفرضها هذه القيود على سيادته وسلبها حقوقه ، وموافقة حكامه البايات على ذلك سواء أكانوا قد أرغموا عليه أو قبلوا ذلك طواعية ، وأخذت روح التمرد والثورة والدعوة للكفاح المسلح ولمقاومة الحماية والباى تنتشر فى البلاد وتحركت القبائل للدفاع عن وطنها ودينها وأظهر الشعب علانية عداءه للباى الذى استسلم لمطالب المستعمرين ـ وأنتشرت الإشاعات بقرب وصول نجدات تركية لطرد الفرنسيين من البلاد فزادت من حماس الأهالى ـ ووضحت حركة التمرد هذه على الخصوص فى جنوب البلاد ثم فى (صفاقس) و (القيروان) اللتين أصبحتا مركزاً للمقاومة[1].

وقد تزعم حركة المقاومة قواد فى مقدمتهم (على بن خليفة)[2] الذى كان على رأس الحركة فى قابس — وقد ظل يقاوم قوات الاحتلال مدة تقرب من أربع سنوات حتى أنهكت قواه واضطر للإنسحاب إلى طرابلس مع عدد كبير من أتباعه ، وظل هناك حتى توفى فى عام (١٨٨٥ م) .

---

(١) Cambon, Henri : Op. cit. P. 155

(٢) لمعرفة تاريخ حياته كاملا انظر :

المرزوقى ، محمد : صراع مع الحماية (تونس ١٩٧٣) ص ١٨٥ — ٢٠٠ .

وقد اشتدت الثورة فى (صفاقس) وأصبحت ملاذاً للخارجين على سلطة الباى ، على الفرنسيين ، وأرسلت فرنسا أسطولها الذى أخذ يقذف حممه على المدينة .

واندلعت الثورة فى (القيروان) واضطرت فرنسا لإرسال الجنرال سوسييه Saussier من الجزائر لقمع هذه الحركة التى أصبحت تهدد الوجود الفرنسى كله فى تونس ، فزحف على القيروان وداخلها فى منتصف أكتوبر ١٨٨١م.[1]

واضطرت قوات المقاومة للإنسحاب إلى طرابلس . ورغم عنف الثورة ووطنية الثوار فلم يستطيعوا الوقوف فى وجه القوات الفرنسية .

ويرجع فشل الثورة المسلحة فى مقاومة الإحتلال لأسباب يمكن أن نجملها فيما يلى :

١ — عدم وجود خطة موحدة للمقاومة نتيجة تفتيت القيادات . وقد حاول (على بن خليفة) أن يوحد القيادة فى شخصه واجتمع لهذا الغرض مع مجاهدى صفاقس والقيروان لكن أبى زعيم كل قبيلة إلا أن يتولى الأمر بنفسه فاستطاعت فرنسا أن توقع بهم الواحد بعد الآخر .

٢ — حاجة رجال المقاومة للسلاح — فقد كانت تعوزهم الأسلحة الحديثة ولم تستطع أسلحتهم القديمة أن تحقق النصر أمام المدفعية الفرنسية وقوة الأسلحة الحديثة ، والتخطيط والتكتيك الحربى الفرنسى المنظم .

٣ — خضوع الباى للمستعمر ووقوفه إلى جانبه ضد المقاومة الوطنية ، ومده الفرنسيين بالمعلومات والأدلاء العارفين بمخابىء البلاد وطرقاتها .

٤ — عجز الأتراك عن تقديم العون للثوار الذين كانوا يتطلعون للدولة العثمانية لممارسة واجبها فى هذه البلاد الإسلامية التى كانت تابعة للسلطان — لكن العثمانيين كانوا قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف ، وكانوا يواجهون ضغوطاً ومشكلات جعلتهم يتخلون عن واجبهم المقدس ويتركون الشعب التونسى يلاقى بمفرده قوات الفرنسيين .

---

(١) Cambon : Op. Cit. p. 157

وهكذا انتهى هذا الدور من الكفاح ضد المستعمر الفرنسى . وظل التونسيون يتحينون الفرص المناسبة ليستأنفوا كفاحهم .

ويحتاج هذا الكفاح البطولى لدراسة متعمقة خاصة ، فقد مر فى أدوار ومراحل عديدة أظهر فيها الشعب التونسى بطولات عدة حتى أضطرت فرنسا فى عام ١٩٥٥ م للاعتراف بالحكم الذاتى لتونس ، واستمر نضال الشعب التونسى حتى تم الإتفاق على الاستقلال مع الحكومة الفرنسية فى ٢٠ مارس عام ١٩٥٦ .[1]

---

(١) نرجو — كما ذكرنا — أن نقدم دراسة خاصة لمراحل كفاح شعوب المغرب الكبير حتى حصلت على استقلالها ، وسارت قدماً فى طريق تعويض مافاتها نتيجة فترة الاستعمار الطويلة .

الفصل العاشر

فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى

أصبحت لفرنسا مصالح حيوية فى المغرب مرتبطة بوجودها فى الجزائر وتونس، إذ أصبحت لها حدود مشتركة مع المغرب، وهذا بالإضافة إلى مصالحها المتصلة بالصراع الإستعمارى بينها وبين غريمتها فى ذلك الوقت — انجلترا.

ويعبر عن ذلك (أوجين اتيين) الذى كان يتزعم — فى مطلع القرن العشرين الفريق الاستعمارى الفرنسى فى البرلمان الفرنسى بقوله : « إن لفرنسا فى المغرب حقوقا وواجبات تفوق مالغيرها من الدول الأخرى — وإن الأساس الأول لحقوقنا هو (الجزائر) ، إن الجزائر قادتنا إلى تونس ، وينبغى أن تقودنا إلى المغرب »[1] .

وقد رأينا — فيما سبق — أن الصدام بين الفرنسيين والمغرب وصل إلى درجة نشوب الحرب بينهما بسبب مساعدة المولى عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩م) للأمير عبد القادر الجزائرى فى كفاحه ضد الفرنسيين فى الجزائر — ولكن بعد هزيمة الجيش المغربى الذى كان تحت قيادة المولى محمد ولى العهد فى معركة ايسلى (Isly) فى أغسطس (١٨٤٤ م) — عقدت اتفاقية طنجة (سبتمبر ١٨٤٤ م) التى تعهد فيها السلطان المغربى بعدم تقديم أية مساعدة للأمير عبد القادر ، وبسجنه فى إحدى الموانى المغربية إذا ماوقع فى أيدى السلطات المغربية .

ولم يمنع فرنسا — فى هذا الظرف — من الاستمرار فى توغلها فى الأراضى المغربية إلا تحذيرات انجلترا لها .[2]

---

(١) نارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب (١٩٧٢ م) ص ٣ ، ٤ .

(٢) Cambon, Henri : Histoire du Maroc (Paris 1952) p. 79

على أن أطماع فرنسا فى المغرب فى ذلك الوقت تتضح من أقوال الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعبرون عن سياسة بلادهم — فقد كتب فكتور بيرارد فى عام ١٩٠٦ م يقول : « إن المغرب لابد وأن يصبح لنا — وإنه لابد من توحيد إمبراطوريتنا الأفريقية » [١] وهو هنا يعبر عن أطماع الفرنسيين فى أن تكون لهم امبراطورية تمتد من البحر المتوسط شمالا إلى الكونغو جنوباً ، ومن المحيط الأطلنطى غربا إلى البحر الأحمر شرقاً . وقد أطلق هؤلاء الكتاب على شمال أفريقيا (تونس ، الجزائر ، المغرب) اسم فرنسا الجديدة .[٢]

ومع أن فرنسا أضطرت ، إزاء موقف الدول الاستعمارية الأخرى فى شمال أفريقيا وفى المغرب بالذات ، حيث كانت تواجه أطماع ومصالح دول أخرى (انجلترا — ايطاليا ـ أسبانيا ـ ألمانيا) أن تتبع مؤقتاً سياسة (الاحتفاظ بالوضع الراهن) لكن كما ذكر هاردى الذى أرخ للإستعمار والتوسع الفرنسى فإن هذه السياسة ـ سياسة الوضع الراهن ـ أصبح منذ مستهل القرن العشرين من المتعذر تنفيذها بسبب الوضع السيء الذى آلت إليه الأمور فى المغرب ذاته .[٣]

فقد وصلت الأحوال الداخلية فى المغرب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى حالة من الضعف لم يسبق لها مثيل كما يقول (ابن جلون) فقد انتشرت المجاعات فى البلاد ، وتدهورت قيمة النقد ، وغلت الأسعار وانتشرت الأوبئة تحصد السكان بالمئات ، وضربت الفوضى أطنابها فى الإدارة . فكانت الوظائف تباع وتشترى بالمزايدة ، ووصلت الحالة إلى أن الموظفين حتى القضاة كانوا يعتمدون على ما يأخذونه من المتخاصمين وليس على مرتب ثابت يتقاضونه من الدولة . وإزدادت الحالة سوءاً بسبب الخصومات القبلية والثورات الداخلية المتعددة .

---

(١) Berard, Victor : Affaire du Maroc (Paris 1906) P. 45

(٢) صبحى ، حسن : التنافس الاستعمارى الأوروبى فى المغرب (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢ .

(٣) Hardi, G. : Histoire des colonies Francaises et de l'expansion de La France [dans Le monde (1941) p. 153

وقد كانت الآمال معقودة على السلطان مولاى الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤ م) ليتدارك الحالة - لما اتصف به من صفات شخصية - وقد ذكر عنه كامبون Cambon إنه كان نموذجاً للأشراف العظام محبا للتقاليد السلطانية ، بالإضافة إلى أنه كان قائداً حربيا عظيماً وزعيماً دينياً كبيراً وهو معاد لكل تسلط أجنبي [1]

لكن وفاة السلطان المولى الحسن فى (١٨٩٤ م) فتحت الباب لمشكلات داخلية جديدة فى المغرب فى وقت كانت فيه القوى الأجنبية تتربص للإنقضاض عليه .

فقد سيطر الحاجب (أبو أحمد بن موسى) على الموقف - وأخذ البيعة للمولى عبد العزيز الذى لم يبلغ إذ ذاك سنه الرابعة عشرة - واستولى الوزير أحمد على مقاليد الأمور وأبعد المناوئين له ، وقرب إليه أخوته ومن يناصرونه - وكان الوزير أحمد خبيراً بشئون الدولة منذ كان حاجباً لأمير المؤمنين المولى الحسن ، وكانت له عنده حظوة فقربه إليه فأصبح (حارس العرش وصاحب الأمر والنهى) .

فاستطاع بشخصيته ودرايته أن يمسك بدفة الأمور وأن يقف فى وجه الأطماع الأجنبية - بل إنه تذكر له جهوده التى بذلها لإسترجاع سلطان المغرب على أراضيه ومنع ما ينتقص من سيادته ، ومن ذلك محاولته استخلاص مرسى (طرفايه) من يد الإنجليز ، وقد أرسلت بعثة فى عام (١٨٩٥ م) لانجلترا لهذا الغرض - كما أنه وقف موقفاً صلباً من فرنسا حين عزمت على مد خط حديدى بين السودان والجزائر فاضطرت فرنسا لأن تعلن رسميا أنها لا تنوى أن تغتصب أى شىء من أرض المغرب .

ولذا فقد أتاحت وفاة الوزير أحمد فى عام ١٨٩٨ الفرصة للعناصر السيئة المستغلة ، وكان المولى عبد العزيز عاجزاً عن الوقوف فى وجه هذه التيارات الداخلية بالإضافة إلى القيادات الخارجية .

---

(١) Cambon, H. : Op. cit. p. 69

فقد انتهزت الدول الاستعمارية حالة الإرتباك المالى الذى كانت تعانى منه البلاد فشجعت السلطان على الاستدانة بضمان إيرادات الجمارك وغيرها من المصالح الهامة فى البلاد .

والحقيقة إن فرنسا كانت تعمل فى ذلك الوقت - منتهزة ظروف المغرب الاقتصادية - على أن تحصل من المغرب على الفوائد التى تريدها فى المجال السياسى مقابل ما يحصل عليه المغرب فى المجال الإقتصادى [١].

وأدى إنزلاق السلطان فى هذا (الفخ) بالإضافة إلى إضطراره لفرض المزيد من الضرائب - إلى زيادة غضب الشعب ونفوره من حكامه .

واجتاحت الثورات معظم بلاد المغرب ، ومن أهم هذه الثورات ثورة الجيلالى بن إدريس الزرهونى الذى اشتهر باسم (بوحماره) والتى استمرت سبع سنين (من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٨) وأنهكت قوة الدولة وخربت ميزانيتها وثورة أحمد بن محمد الريسولى .[٢]

وزادت الحالة إرتباكا — الامتيازات التى منحت للأجانب الذين أساءوا إستغلالها حتى أصبحوا يستندون عليها فى تهريب المجرمين حتى من الوطنيين ، وفى التهرب من دفع الضرائب بمختلف أنواعها ، و بالإجمال للتهرب من سلطة القانون [٣] .

الاتفاقات التى مهدت للحماية الفرنسية على المغرب

اتجهت فرنسا لعقد سلسلة من الاتفاقات الدولية مع الدول صاحبة المصلحة

---

(١) انظر ماقاله فى هذا الشأن أحد رجال فرنسا الذين لعبوا دوراً هاماً فى هذا المجال وهو د . سانت أولير (De Saint-Aulaire)

— فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب ص ١٣ .

(٢) انظر لاندو ، روم : تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة نيقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٣) ص ٦٣ وما بعدها .

(٣) ابن عبود ، محمد بن عبد السلام : مركز الأجانب فى مراكش ص ٥٨ وما بعدها .

المغرب قبل أن تتخذ خطوة حاسمة تحقق بها أهدافها التوسعية فى هذه البلاد .

وأهم هذه الاتفاقات :

١ — الإتفاق الفرنسى الإيطالى :

كانت لايطاليا أطماع فى دول المغرب الثلاث التى كانت فى وقت من الأوقات جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، ولذا رأينا كيف وقفت إيطاليا موقف عدم الرضى لامتداد النفوذ الفرنسى إلى الجزائر وتونس . وحاولت فرنسا الاتفاق مع ايطاليا لتقلع عن سياستها فى مضايقة فرنسا (السياسة التى رسمها فرانشيسكو كريسى Francesco Crispi) ، وفعلا عقدت فى عام (١٩٠٢ م) إتفاقاً إيطاليا أتفق فيه على أن تترك فرنسا لايطاليا الحرية المطلقة فى طرابلس مقابل أن تترك لفرنسا حرية التصرف فى المغرب [١] .

٢ — الاتفاق الودى مع انجلترا (١٩٠٤ م) : [٢]

كانت المنافسة بين انجلترا وفرنسا شديدة ، وشهد القرن التاسع عشر صراعاً مريراً بين القوتين — لكن لم تلبث أن ظهرت (ألمانيا) كقوة بحرية خطيرة تهدد مركز إنجلترا الحربى . فبدأت انجلترا تشعر منذ أوائل القرن الحالى بأهمية إصلاح علاقاتها مع فرنسا لتأمين مركزها فى البحر المتوسط ومصر على وجه الخصوص ، فقد كانت بريطانيا تدرك أن وجودها فيها تحدياً صارخاً للإتفاقات والقوانين الدولية ، وكانت فرنسا لاتتوانى عن مضايقة بريطانيا وتذكيرها بعدم شرعية وجودها فى مصر ومطالبتها بتحديد موعد انسحابها منها .

وقد ساعد على تهيئة الجو المناسب للتقارب بين انجلترا وفرنسا أن تولى عرش انجلترا عام ١٩٠١ م الملك إدوارد السابع Edward VII وكانت له ميول معروفة نحو فرنسا .

---

(١) صبحى ، حسن : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢) ملاحظة : ارجع لنصوص الإتفاق بملحق الكتاب .

وهكذا تهيأت الظروف للتقارب بين الدولتين ، وقامت مفاوضات بين الأطراف المعنية فى البلدين — اشترك فيها كل من اللورد كرومر Cromer وكان خير من يدرك دقة موقف بلاده فى مصر، واللورد لانسدون Lansdowen وزير الخارجية البريطانية فى وزارة بلفور Balfour من الجانب البريطانى ، ودلكاسى Delcassé وزير المستعمرات الفرنسى، وبول كامبو P. Cambon السفير الفرنسى فى انجلترا — من الجانب الفرنسى .

وكان كرومو يستحث حكومته للوصول إلى إتفاق مع فرنسا بشأن مطالبها فى شمال أفريقيا بعد موافقة الفرنسيين على أن تقع مصر فى دائرة النفوذ البريطانى وكان يرى الذهاب إلى أبعد حد لإرضاء فرنسا — حتى إنه اقترح تغيير اسم فاشوده التى أصبحت رمزاً لإذلال فرنسا وللعداوة بين الدولتين [١] .

لكن فرنسا — رغم اهتمامها بالوصول إلى اعتراف من انجلترا بترك حرية العمل لها فى المغرب — فإنها ترددت فى قبول الثمن المطلوب للوصول لذلك — فكما ذكر كامبون السفير الفرنسى فى لندن « إن إنجلترا إذا سمحت لفرنسا بحرية العمل فى المغرب فهى تعطى مالا تملك — بينما تريد إنجلترا أن تتنازل لها فرنسا عن حقوق فى مصر تملكها إمتلاكا حقيقيا » [٢] .

والاشارة هنا إلى أن انجلترا لم يكن لها فى ذلك الوقت نفوذ حقيقى فى المغرب بينما كانت لفرنسا مصالح فى مصر ، وكانت لها أطماع واضحة ، وكان لها نفوذ فيها .

ولقد تعثرت المفاوضات بين الدولتين أكثر من مرة، ولكن وصل الطرفان أخيراً لاتفاق — وأبرم فى ٨ أبريل عام ١٩٠٤ م بين الدولتين ماعرف بالاتفاق الودى ، وقد وقعه عن فرنسا سفيرها فى لندن كامبون ، وعن انجلترا وزير خارجتها لانسدون .

---

(١) صفوت ، محمد مصطفى : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه (١٩٥٢) ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) Documents Diplomatiques Francaises (1871—1914), 2 eme Serie Tome IV. (Document No. 36)

وقد عمل الطرفان - فى هذه الإتفاقية - على الحصول على تنازلات متقابلة ومتعادلة وتدريجية فى كلا البلدين ، بمعنى أن وضع فرنسا فى المغرب سيكون مثل وضع بريطانيا فى مصر . ولما كان وجود بريطانيا فى مصر وجوداً واقعياً لكنه لم يكن محدداً بشكل رسمى من أشكال السيطرة - لذا فإن هذا الاتفاق الذى وقع فى سنه ١٩٠٤ م لم يحدد الشكل الذى سيأخذه عمل فرنسا ووجودها فى المغرب - لكن بالرغم من غموض الفقرات الخاصة بعمل فرنسا فى المغرب - فإن هذا الغموض يتكشف فى ضوء الوضع القائم فى مصر[1] .

وقد صيغت الإتفاقية فى تسع مواد وألحق بها إتفاق سرى من خمس مواد.

وفى هذه الإتفاقية - أعلنت بريطانيا أنها لن تعمل على تغيير مركز مصر السياسى ، بينما أعلنت فرنسا من جانبها أنها لن تعرقل عمل بريطانيا فى مصر - فلا تطالب تحديد أجل الإحتلال الإنجليزى ، ولا تحرج إنجلترا بأية صورة أخرى (المادة الأولى) .

ونظير هذا تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لن تعمل على تغيير مركز المغرب السياسى - على أن تعترف الحكومة البريطانية بأن لفرنسا مصالح فى المغرب ، وأنها لن تعرقل عمل فرنسا فى هذه البلاد ، وفى نفس الوقت تحافظ فرنسا على ما تتمتع به بريطانيا فى المغرب من حقوق تبعاً للمعاهدات السابقة (المادة الثانية) .

وفى مقابل ذلك تعهدت إنجلترا بدورها بإحترام الحقوق التى تتمتع بها فعلا فرنسا فى مصر (المادة الثالثه) . أما (المادة الرابعة) فتتعلق بحرية التجارة فى كل من القطرين ، وأن تعامل كل واحدة منها الأخرى على قدم المساواة فيما يختص بالضرائب المفروضة على التجارة وأجور النقل - وهذه المادة كما نرى فيها اعتراف من بريطانيا بسلطة فرنسا فى المسائل المتعلقة بالتجارة

---

(١) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب (١٩٧٢ م) ص ٧

والضرائب والنقل وغيرها فى المغرب ، وبالطبع وجه الغرابة فى ذلك أنه فى ذلك الوقت لم تكن الحماية قد فرضت على المغرب بعد .

وتتعلق المادة الخامسة برعاية حقوق الموظفين الفرنسيين والإنجليز فى كل من مصر والمغرب .

بينما تتعلق المادة السادسة باحترام إنجلترا لحرية الملاحة فى قناة السويس عملا باتفاقية القسطنطينية (٢٩ أكتوبر ١٨٨٨) .

وفى المادة السابعة تتعهد فرنسا بعدم إقامة تحصينات على ساحل المغرب الشمالى المواجه لجبل طارق - وفى هذا أيضاً إقرار من بريطانيا بأن فرنسا صاحبة الأمر فى المغرب .

أما المادة التاسعة والأخيرة - فتتعهد فيها كل من الحكومتين بمساندة الأخرى حتى يتم تنفيذ هذه الإتفاقية فيما يختص بمصر والمغرب .

أما الملحق السرى - فهو من خمس مواد - نص فى الأولى منها على إنه حتى فى حالة إضطرار الحكومتين لتعديل سياستهما الخاصة بمصر والمغرب - فإن الدولتين تلتزمان بما جاء فى المواد ٤ ، ٦ ، ٧ من الاتفاق الودى .

وتختص المادة الثانية — بنظام القضاء والامتيازات الممنوحه للأجانب فى مصر فنص على بقاء هذا النظام دون تغيير إلا إذا رأت انجلترا ذلك وبالمثل فى حالة المغرب .

أما المادة الثالثة من هذا الاتفاق السرى فتقضى بترك منطقة من أراضى المغرب المحيطة (بمليله) و (سبتة) لاسبانيا . وهكذا تتصرف الدولتان فى أراضى المغرب كأنهما أصحاب الأمر والنهى .

وتقضى المادة الرابعة - بسريان هذه الإتفاقية الفرنسية الانجليزية حتى فى

حالة رفض أسبانيا لها (أى فى حالة ما إذا رأت أن نصيبها من الغنيمة أقل مما ترجو) .

وتتعلق المادة الخامسة ـ بتسديد الديون الأجنبية .

وهكذا انتهت المساومة بين انجلترا وفرنسا على الاتفاق بشأن مصر والمغرب دون أن يكون لأصحاب السلطة الشرعية فى البلدين أو لشعبيهما رأى أو كلمة .

٣ ـ الاتفاق الفرنسى الأسبانى (أكتوبر ١٩٠٤) :

كان على فرنسا بعد إتفاقها مع إنجلترا أن تسعى لعقد إتفاق مع أسبانيا فى ضوء الإتفاق الانجليزى ـ الفرنسى لتحديد وضع أسبانيا فى المغرب بصفة أدق بأتفاق الدولتين[1] وكانت قد جرت مفاوضات سابقة بين فرنسا وأسبانيا (فى عام ١٩٠٢ م) بهذا الهدف ـ لكن لم تنتهِ هذه المحادثات بين الدولتين بتوقيع اتفاق بينهما ، وقد كانت الدولتان تدركان أن أى اتفاق بينهما لايحظى برضى انجلترا عديم الجدوى ـ ولذا كان الجو مهيئاً أكثر بعد الاتفاق الانجليزى الفرنسى فى أبريل ١٩٠٤م للإتفاق بين فرنسا وأسبانيا .

وأنتهت المفاوضات بين الدولتين بعقد اتفاق بينهما وقع فى باريس فى ٣ أكتوبر ١٩٠٤ . وبالرغم من أن هذا الاتفاق لم يعط أسبانيا السلطة الكاملة فى المنطقة التى حددت لها فى الشمال ـــ فقد ألحق بهذا الأتفاق اتفاق سرى آخر حددت بموجبه منطقة نفوذ أسبانية فى شمال المغرب ، وأخرى فى الجنوب وأطلقت فرنسا بموجب هذا الاتفاق السرى يد أسبانيا للعمل فى المنطقتين بحرية.

---

(١) ملاحظه : الأطماع الأسبانية فى المغرب قديمة . وقد احتل الأسبان مليله عام ١٥٤٦ ، واستولوا على جزيرة باديس عام ١٥٠٨م ، وانتزعوا سبتة من البرتغال" — وهكذا كانوا قد وضعوا أقدامهم على عتبة المغرب وأصبحوا يتطلعون للدخول للداخل .وقد تناولنا ذلك بالتفصيل فى فصل سابق .

ويمكن القول بأن اتفاقيتى أبريل وأكتوبر (١٩٠٤ م) كانتا بمثابة إستهلال للحماية الثنائية على السلطنة المغربية[١] .

والحقيقة فإن الجانب السرى من الاتفاقيتين المذكورتين يفسح المجال أمام كل من فرنسا وأسبانيا لاحتمالات تتناقض مع التأكيدات العلنية فى الاتفاقيات المعقودة بين هذه الدول[٢] .

ولم تبق من عقبة فى وجه فرنسا لتحقيق أطماعها فى المغرب سوى (ألمانيا) التى أثارها إتفاق (إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا) وتجاهلها هى ومصالحها فى المغرب .

وقد كانت لألمانيا مصالح إقتصادية فى المغرب، كما كانت تطمع فى أن يكون لها مركز على المحيط الأطلسى — يخدم أغراضها التجارية والحربية — ولذا فقد رأت ألمانيا فى الاتفاقات الثنائية التى عقدت بشـــأن المسألة المغربية تجاهلا لمصالحها .

وتعبيراً عن موقف ألمانيا من هذه الإتفـاقات — قام الإمبراطور غليوم الثانى Guillaume II بزيارة لطنجة فى ٣١ مارس (١٩٠٥ م) وأعلن فى خطاب ألقاه هناك بأن ألمانيا لا تسمح لأى دولة أجنبية بأن تمس سلطة الحاكم الشرعى للمغرب ، وأنه يأمل أن تفتح المغرب — فى ظل السيادة الكاملة لسلطانه — للمنافسة التجارية السليمه الحرة لجميع الأمم دون إحتكار أو استثناء[٣] .

---

(١) انظر نصوص الاتفاق :

Documents Diplomatiques Francais 2 eme Serie. Tome v (Document No. 348)

— وكذلك .

Lazrak, Rachid: Le Contentieux Territorial Entre Le Maroc et l'Espagne (Casa blanca 1974) p.p. 410—415

(٢) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب(١٩٧٢) ص ١٢

— وانظر الاتفاقيات أيضاً بملحق هذا الـكتاب .

(٣) العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٤٩ .

٤ — إتفاقيه الجزيرة (١٩٠٦ م):

انتهوت الحكومة المغربية فرصة مساندة ألمانيا ، وإعلانها عن أنها ستدافع عن سيادة السلطان واستقلاله وعن الحرية الإقتصادية فى المغرب وستقف فى وجه إستئثار أية دولة بنفوذ خاص فيها — فوجهت فى ٣٠ مايو ١٩٠٣ م — الدعوة للدول الموقعة على اتفاق مدريد عام (١٨٨٠م) إلى عقد مؤتمر دولى للنظر فى شئون المغرب[1] .

وقبلت ألمانيا الدعوة فوراً ، وضغطت على فرنسا لقبولها وحضور هذا المؤتمر — وقد أضطرت فرنسا لحضور المؤتمر بعد أن بذلت جهوداً لدى المؤتمرين وضمنت تأييد الأكثرية لآرائها .

وعقد المؤتمر فى ١٤ يناير ١٩٥٦ م فى مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras الأسبانية — واستمرت أعماله حتى أبريل من نفس العام .

وكان طبيعياً أن يحتدم الصراع فى المؤتمر بسبب الخلاف بين أطماع الدول المجتمعة فيه خاصة فرنسا وألمانيا ، بالإضافة إلى ما كان يأمله السلطان (سلطان المغرب عبد العزيز) من أن يتمخض المؤتمر - بجهود ألمانيا ومساندتها للمغرب — عن إقرار سيادة المغرب واستقلاله ، وهذا لا يمنع من الاستعانة بالخبرة والمال الأجنبى - وكان المغرب فى أمس الحاجة إليهما .

ولكن تمكنت الدول المشتركة فى النهاية من الوصول إلى قرارات بشأن المسائل الرئيسية التى نوقشت وأهمها :

١ — سيادة السلطان واستقلاله ووحدة مملكته والحرية التجارية فى موانيه .

٢ — حفظ الأمن فى الموانى والمدن المغربية ومكافحة تهريب الأسلحة للبلاد .

---

(١) هذه الدول هى: فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وايطاليا ، وروسيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبلجيكا ، وهولندا ، والسويد .

٣ — المسائل المالية وبحث تأسيس مصرف دولى بالمغرب ، ومسائل الضرائب والجمارك .

٤ — المشروعات الإنشائية التى تريد الحكومة المغربية القيام بها .

وإذا كانت مقدمة القرارات التى إتخذها المؤتمر أكدت احترام الدول لسيادة السلطان واستقلاله ، ووحدة مملكته ، والحرية التجارية فى موانيه دون تفرقة — فإن القرارات الأخرى التى أتخذت بدعوى حفظ الأمن وتنظيم شؤون المغرب المالية — كانت بمثابة فرض رقابة أجنبية عليه — فكانت الضمانات التى أعطيت للمغرب بموجب هذه الاتفاقية عديمة القيمة .

ولا شك فى أن النتيجة التى وصل إليها المؤتمر كانت نصراً لفرنسا وحلفائها فقد جاءت قراراته مدعمة للنفوذ الفرنسى والأسبانى فى المغرب .

فقد تقرر أن يتولى فرنسيون الإشراف على قوات البوليس المغربى فى المدن الواقعة على ساحل الأطلنطى (الرباط ، والجديدة ، وأسفى ، والصويره ، وأكادير) ويشرف الأسبان على بوليس (تطوان ، والعرائش) بينما يوضع بوليس طنجة والدار البيضاء تحت إشراف الدولتين (فرنسا ، وأسبانيا)[1] .

أما فيما يتعلق بالمسائل الإقتصادية والمالية فقد أخذ بفكرة التدويل فتكون هناك رقابة دولية تضمن للأجانب أموالهم وممتلكاتهم ، وتقرر فى الناحية الإقتصاديه مبدأ تكافؤ الفرص للجميع (سياسة الباب المفتوح) مع ضمان الإمتيازات السابقة التى حصلت عليها الدول . .

وقرر المؤتمر منع دخول السلاح إلى المغرب . وكانت الحجة وراء هذا القرار هى منع القبائل من التسلح حتى لا تحدث الشغب وتعبث بالأمن فى البلاد ولكن النتيجة الحقيقية لهذا المنع كانت عجز البلاد عن الدفاع عن نفسها أمام الأجانب .

---

(١) انظر قرارات المؤتمر (١٣٢ مادة) فى :
دارس ، محمد خير : المسألة المغربية ، (القاهرة ١٩٦١) ص ٤٠١ — ٤٠٥ .
— وأنظر ملحق هذا الكتاب .

وبالطبع أخذت فرنسا من إشرافها على البوليس المغربى فى الموانى الهامة على المحيط الأطلنطى فرصة لتقوية نفوذها فى هذه الموانى فى الوقت الذى أصبحت فيه الحكومة المغربية عاجزة عن تقوية وتسليح جيشها بموجب قرار منع شراء الأسلحة إلا بموافقة الدول الموقعة على الإتفاقية .

تطور الأحداث بعد مؤتمر الجزيرة :

كانت فرنسا تترقب الفرص لتحقيق أطماعها كاملة فى المغرب — وقد طبق الفرنسيون كما يقول (روبرت فورنو) الخطة المجربة منذ القدم — هذه الخطة التى بموجبها تستولى الدول الكبرى على الدول الهمجية كما يسميها - فأرسلت المستشارين من أجل تقديم المساعدة إلى السلطان فى تعضيد حكومته ، وأقرضوه مبالغ ضخمة من المال شجعوه على تبذيرها فى تراهات تافهة - وحين أغتيل بعض رجال أعمالهم ، ولم تدفع القروض المستحقة فى مواعيدها - دخل الفرنسيون البلاد كى يعيدوا النظام ويحموا السلطان[1] .

وقد حدث فى ٢٢ مارس (١٩٠٧) أن قتل أحد المبشرين الفرنسيين فى مراكش هو الدكتور موشان Mauchamp فأحتلت الحكومة الفرنسية وجده فى ٣١ مايو (١٩٠٧م) ، وأعلنت الحكومة الفرنسية أن هذا الإحتلال مؤقت — وأنه سينتهى بمجرد إجابة مطالب فرنسا التى تتلخص فى عزل وسجن باشا (مراكش) لمسئوليته عن حماية أرواح الأجانب ، وللتحقيق فى حادث القتل بمعرفة القنصل الفرنسى ، وعقاب المذنبين ، ودفع تعويض مناسب لأسرة الفقيد ، وتنظيم البوليس المغربى كما نص عليه ميثاق الجزيرة .[2] وبالطبع لم تكن فرنسا جادة فى إدعاء أنها ستجلو عن (وجده) .

وفى ٣٠ يوليو من نفس العام (١٩٠٧ م) وقعت إصطدامات فى الدار البيضاء قتل فيها بضعة عمال من الفرنسيين والأسبان الذين كانوا يعملون فى الميناء

(١) فورنو ، روبرت : عبد الكريم أمير الريف (ترجمة د . فؤاد أيوب (د . ت) ص ٧ .

(٢) Julien, Ch. André: Histoire de L'Afrique du Nord, p. 733

فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت بوارجها التى ظلت تقذف الميناء طيلة يومى ٥ ، ٦ أغسطس ـ وأعقب ذلك إنزال الجنود إلى البر واحتلال الجيوش الفرنسية للدار البيضاء[1] .

وقد أدت هذه الأحداث المتوالية إلى ثورة المغاربة واتهامهم للسلطان عبد العزيز بالتهاون مع الأجانب ، فنهض المولى عبد الحفيظ أخو السلطان وواليه فى ذلك الوقت على مراكش ـ فقزع طاعة أخيه وأعلن نفسه فى عام « ١٩٠٧م » سلطاناً على المغرب وتصدى للدفاع عن البلاد . فبويع له بمراكش فى رجب ١٣٢٥ هـ « ١٩٠٧م » ، وخرج المولى عبد العزيز من فاس قاصداً مراكش ، لكن حين بلغه أن أهل فاس أيضاً خلعوه وبايعوا أخاه المولى عبد الحفيظ لم يجد أمامه إلا الإستسلام للجيوش الفرنسية التى كانت تعسكر فى الدار البيضاء فنقلوه إلى طنجة حيث أقام معتزلا الحياة السياسية حتى وفاته فى عام ١٩٤٣ م .

ونص فى البيعة التى بويع على أساسها المولى عبد الحفيظ على أن الشعب المغربى كان متفتحا لمجريات الآحداث فى بلاده وأنه بايعه سلطانا للجهاد لتحرير البلاد . فقد بايع الشعب المولى عبد الحفيظ « على أن يسعى بجهوده فى رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة فى الجزيرة ، حيث لم توافق الأمة عليها . . وعلى أن يسعى فى استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية ، وأن يستخير الله فى تطهير رعيته من دنس الحمايات ، والتنزيه من إتباع اشارة الأجانب فى أمور الأمة . . وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فى أمور سلمية أو تجارية فلا يبرم أمراً منها إلا بعد الرجوع به للأمة»[2].

وقد تسلم المولى عبد الحفيظ مقاليد الأمور فى ظروف قاسية . فقد كانت الجيوش الفرنسية تحتل رقعة واسعة من البلاد فى شرق المغرب وغربه ، بينما كانت الجيوش الأسبانية تحتل « مليله » و « سبته » .

---

(١) Julien, Ch. André : Histoire de L'Afrique du Nord p. 734

(٢) حرر هذه البيعة الكاتب (ابو العباس أحمد بن المواز) .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه ميزانية الدولة ومصادر الدخل الهامة بها تحت المراقبة الأجنبية ، والديون متراكمة — بينما كانت القلاقل والثورات مندلعة فى كل مكان .

وقد نجح المولى عبد الحفيظ فى القضاء على الثورات الداخلية وقبض على (أبى حماره) فى شعبان سنة ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٩ م) .

وقد أتاح هذا فرصة للتفرغ لمواجهة الجيوش الأجنبية . لكن الوقت كان قد فات — إذ أن الفرنسيين كانوا قد انتهزوا فرصة الفوضى التى كانت تشكو منها البلاد فأخذوا يتسللون إلى فاس .

وفى سنة ١٩١١ م جاءت بعض القبائل إلى فاس تطلب إلى السلطان تنظيم حركة المقاومة ضد أعداء الوطن . فادعى الفرنسيون أنها جاءت للعدوان — وتحركت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال موانيى Moinier واحتلت فاس فى ٣١ مايو ثم مكناس فى ٨ يونيه والرباط فى ٩ يونية ذلك بدعوى حماية السلطان عبد الحفيظ من القبائل الثائرة ضده[١] .

وفى نفس الوقت تحركت الجيوش الأسبانية بحراً فاحتلت العرائش فى ٨ يونية سنة ١٩١١ م ، ثم احتلت القصر .

٥ — الإتفاق الألمانى الفرنسى — ٤ نوفمبر ١٩١١ م :

فزعت ألمانيا لدخول الفرنسيين فاس ، ورأوا أن هذا يعنى إنهاء المسألة المغربية لصالح فرنسا ، دون أن تنال ألمانيا ما كانت تطمع فيه . وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت لا تمانع فى ترك الفرنسيين أحراراً يعملون ما يريدون فى المغرب

---

(١) Cambon : Op. Cit. pp. 211—214

على شرط أن تحصل هى (أى ألمانيا) على تعويض مناسب فى المغرب أو خارجه .

لذلك تحركت ألمانيا ، فأوفدت فى يوليو سنة ١٩١١ م طراداً إلى (أكادير) الميناء المغربى على المحيط الأطلنطى ، وذلك بحجة حماية مصالح الرعايا الألمان ، وقام السفير الألمانى فى باريس بإبلاغ وزير الخارجية الفرنسية بأن السفينة الحربية الألمانية ستغادر الميناء عندما تعود الحالة فى المغرب إلى هدوئها السابق[١]

ومما هو جدير بالملاحظة — إنه لم يكن لألمانيا رعايا فى (أكادير) أو ضواحيها ، لكن يرجع اختيار ألمانيا لها الى أنها كانت أصلح موانى المغرب على الأطلنطى — وكذلك لقربها من مناجم منطقة السوس التى كانت ألمانيا تطمع فى وضع يدها عليها .

واستمرت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا عدة أشهر وانتهت بتوقيع الإتفاق بينهما فى ٤ نوفمبر ١٩١١ م .

وفى هذه الصفقة تنازلت فرنسا عن قطعة من مستعمرتها فى الكونغو الفرنسى « ٣٠٠٠ كيلو متراً تقريباً » — فى مقابل أن تطلق ألمانيا يدها فى المغرب ، فلا تعرقل قيام حماية فرنسية على المغرب ، ولا تعترض على ممارسة فرنسا لشؤون المغرب الخارجية[٢] .

---

(١) كانت ألمانيا تطمع فى الحصول على ميناء (أكادير) أو (موغادور) ولكن فرنسا رفضت ذلك واخطرت ألمانيا أن من مصلحة البلدين ألا تكثر مناطق الجوار ، وانه يمكن البحث فى مكان آخر خارج المغرب كتعويض لالمانيا .

— انظر فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) لاندو روم : أزمة المغرب الأقصى (ترجمة إسماعيل على ، وحسين الحوت — القاهرة ١٩٦١ م) ص ١٧ .

وقد نص الاتفاق على ألا تعرقل ألمانيـا عمل فرنسا فى إدخال كل الاصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية العسكرية والقضائية — وكل النظم التى يتطلبها ذلك مع المحافظة على المساواة الإقتصادية ، وألا تعرقل ألمانيـا احتلال فرنسا لأى جزء من المغرب .

وهكذا كان هذا الإتفاق الفرنسى الالمانى أخطر إتفاق عقد فيما يتعلق بالمسألة المغربية وأكثرها تأثيراً فى مصير المغرب . وفى ١٢ يناير ١٩١٢ م أقر البرلمان الفرنسى هذا الاتفاق .

وقد اعتبرت فرنسا توقيعها على هذه الاتفاقية مع ألمانيا — بمثابة تخطيها لأكبر عقبة تعترض إعلان حمايتها الصريحة على المغرب — فأسرعت لإتخاذ الخطوة التالية — رغم عدم اقرار الدول الاخرى لما جاء فى هذه الإتفاقيـة الالمانية الفرنسية .

٦ — معاهدة[1] الحماية الفرنسية (٣٠ مارس ١٩١٢ م):

كانت فرنسا قد عهدت إلى لجنة شكلت من أحدى عشر عضواً بقرار من مجلس الوزراء الفرنسى برئاسة مسيو رينو Regnault بوضع صيغة معاهدة الحماية التى تعتزم فرنسا فرضها على السلطان المغربى وإلزامه بتوقيعها[2] .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه لأول وهلة علينا هو :

لماذا اختارت فرنسا للمغرب نظام الحماية ؟

ويحاول الدكتور محمد خير فارس ، تحليل الأسباب التى دعت فرنسا لهذا الإتجاه فى المغرب[3] فقد كانت أمام فرنسا فى شمال أفريقيا تجربتان - تجربة الإدارة المباشرة (الضم) كما تمثلت فى الجزائر ، وتجربة الإدارة غير المباشرة

---

(١) هذه التسمية فيها تجاوز ، فالمعاهدة مفروض أنها بموافقة الطرفين .

(٢) Cambon : Op. cit. pp. 219—221

— وانظر ملحق هذا الكتاب .

(٣) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب (١٩٧٢) — ص ٤٦

والحماية كما تمثلت فى تونس - وقد خرجت فرنسا من هذه التجارب بأن نظام الحماية هو الأنسب فيما يتعلق بالمغرب لأسباب :

١ — أيقن الاستعمار أن أسلوب الضم والدمج القديم أصبح لا يجدى خاصة إذا كان يتعامل مع دول لها حضارتها وتاريخها ، كما أن الأسلوب المتبق - أسلوب الضم والدمج - مكاف وكثير النفقات .

٢ — كان للمغرب حتى عام ١٩١٢ م تاريخه وعلاقاته الدوليه فى المجالات السياسية والإقتصادية ، ومرت عليه - كما رأينا - فترات كانت الدول الأوربية ذاتها تخطب وده - فلم يكن يسيراً أن يغيب بين يوم وليلة من خارطة السياسة ، كما أن فرنسا كانت تدرك أن سلطان المغرب (السلطان عبد الحفيظ) قد بويع بعد خلع أخيه السلطان عبد العزيز كسلطان للجهاد للدفاع عن حوزة الوطن واستقلاله[١] . - وقد أظهر فعلا منذ أمسك بدفة الأمور إنه يعمل لهذا الهدف - فلا يستبعد إذا ضغت عليه فرنسا - أن يفضل التنازل عن العرش عن أن يبقى سلطاناً فى ظل المستعمر - وهذا ما كان يخشاه الفرنسيون ، فقد كانوا يشعرون بضرورة وجود سلطان وحكومة وطنية ، فإن ذلك على الأقل يخفف من حدة الثورة الوطنية .

٣ — كان للمغرب وضعه الخاص ، وإرتباطاته مع العــديد من الدول الأوروبية بموجب إتفاقات ومعاهدات دولية ، ولم يكن فى وسع فرنسا تجاهل ذلك . وقد أشارت فرنسا فى مرسوم تعيين أول مقيم لها فى المغرب إلى ذلك وإلى احترام المعاهدات الدولية السابقة[٢] .

٤ — ظروف فرنسا الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية كانت تحتم عليها عدم التورط فى عمليات إستعمارية كبيرة ، كما كانت تملى عليها عدم إثارة مشكلات

(١) انظر ماذكرناه عن بيعة السلطان عبد الحفيظ .

(٢) فارس ، محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب ص ٤٨ .

— ونص المرسوم موجود فى :

Lautey L'Africain—Tome I P. 49

مع الدول الأوروبية الأخرى . ولا شك فى أن فرنسا لو أقدمت على فرض سيطرتها الإستعمارية الكاملة على المغرب لاصطدمت بأكثر من دولة أوروبية كانت لها فى المغرب رعايا وامتيازات وعلاقات .

٥ — كذلك لعل التجربة التونسية بالمقارنة بالتجربة الجزائرية جعلت فرنسا تدرك أن إتباع أسلوب مع المغرب شبيه بما اتبعته فى تونس أفضل بكثير من سياسة شبيهة بسياستها فى الجزائر .

هذا إلى أننا نشير إلى أن هذا لايعنى أن السياسة التى أتبعت فى المغرب هى نفس السياسة التى أتبعت سابقاً فى تونس . فرغم أن تعبير (تونسة المغرب)[1] كان يتردد فى كتابات الكتاب الفرنسيين قبل أن تعرض فرنسا حمايتها على المغرب ـ فإن اختلاف ظروف البلدين فرضت بالطبع اختلاف نظام الحماية فيهما . فالمغرب لم يكن كتونس يدين بالتبعية ـ ولو الإسمية ـ للدولة العثمانية ، كما أنه كانت له ارتباطاته الرسمية المختلفة مع العديد من الدول الأوروبية ، وكان على فرنسا أن تحترم هذه الإرتباطات إلى حد كبير وإلا اصطدمت بالدول الأوروبية الأخرى كما سبقت الإشارة .

هذا على أن مفهوم الحماية كما يقدمه الأستاذ محمد شفيق غربال يحتمل بين طرفيه السياسات المتباينة للدولة أو الدول التى تفرض حمايتها ـ فهو نظام مرن تتفاوت معانيه ، ففى أقصى طرفيه سيطرة قوية ، وفى طرفه الآخر لايختلف كثيراً عن منطقة النفوذ السياسى ، ولكنه يتضمن فى حالاته جميعاً ـ فيما بين الطرفين ـ الدفاع عن البلاد المحمية ، ومراقبة سياستها الخارجية ، وأما مقدار تعرضه لشئون البلاد المحمية الداخلية فأمر قابل للمد والجزر ، حسب مقتضيات الظروف وملابسات الأحوال[1] .

---

(١) Durand, B. : Traité de droit publie au Maroc (Paris 1949) P. 50

(٢) غربال ، محمد شفيق : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ـ ١ (١٩٥٢) ، ص ٣٧ .

والحماية فى الواقع — كما يقـــول الأستاذ عياش — لاتختلف كثيراً عن الإستعمار فى الهدف ، وإن اختلفت فى الشكل — حتى تترك للشعب الموضوع تحت الحماية وهم الإستقلال فى الوقت الذى تعمل لإستغلاله تجارياً وصناعيا . وهذه هى غاية كل نظام استعمارى[1].

وقدفرضت فرنسامعاهدةالحماية —التى صيغت بنودها من قبل— على السلطان المغربى المولى عبد الحفيظ فى ظروف تجعل الأمر لايخرج عن إنه إنتزاع لتوقيعه عليها بالقوة وفى ظل التهديد والعنف .

فقد وصل رينو Regnault إلى فاس فى ٤ مارس وكانت الجيوش الفرنسية قد احتلت فاس كما ذكرنا منذ ١١ مايو ١٩١١ م — وهو يحمل فى جعبته مواد الإتفاقية المزمع عقدها ، ويبدو أن السلطان عبد الحفيظ أبدى منذ البداية معارضته للمعاهدة ، وأعلن أنه يفضل التنازل عن الحكم عن تخليه عن سيادة بلاده — لكن فرنسا لم تعدم الوسائل الأرهابية لإنتزاع توقيع السلطان على هذه المعاهدة — وقد تم ذلك فى ٣٠ مارس ١٩١٢ م .

وكان لإعلان الحماية رد فعل بين مختلف طبقات الشعب المغربى — فلم يكد خبر التوقيع على المعاهدة يذاع حتى اشتدت المقاومة واشتعلت نيرانها فى كل مكان .

أما المولى عبد الحفيظ نفسه فلم يستطع أن يجابه الموقف — وأصر على التنازل عن العرش وغادر العاصمة فاس فى ٦ يوليه سنة ١٩١٢ م متوجهاً إلى الرباط. وفى الرباط أنهى إجراءات تنازله رسمياً فى ٢ أغسطس ١٩١٢ م وغادر الرباط فى نفس اليوم على بارجة فرنسية متوجهاً إلى فرنسا حيث قضى بقية حياته حتى وفاته فى ١٩٣٨ م .

وتولى المولى يوسف الأمر فى هذه الظروف — وهكذا ظفر الفرنسيون

---

(١) Ayach, A. : Le Maroc (Paris 1956) p. 82

بتوقيع السلطان المغربى على وثيقة الحماية واستبقوه مكرهاً هذه الفترة إلى أن تهدأ النفوس بعض الشىء ويأخذ الوضع الجديد فى الاستقرار .

وقد صيغت شروط هذه المعاهدة فى تسع مواد[1].

أشير فى المادة الأولى منها إلى أن فرنسا والسلطان المغربى اتفقا على إجراء اصلاحات إدارية وقضائية وإقتصادية ومالية وعسكرية شاملة ترى الحكومة الفرنسية من المفيد إدخالها بالقطر المغربى .

لكن التزمت فرنسا بالمحافظة على الحالة الدينية فى البلاد وعلى المؤسسات الدينية وخاصة الأوقاف ، وكذلك تعهدت بإحترام السلطان .

وأشير أيضاً فى هذه المادة إلى أن فرنسا ستتفاوض مع أسبانيا بخصوص المصالح الأسبانية فى الشاطىء المغربى المواجه لأسبانيا ـ كما نص على أن تحتفظ (طنجة) بوضعها الخاص .

أما المادة الثانية . فقد أقرت قيام فرنسا بإحتلال الأماكن التى تراها ضرورية فى المغرب للمحافظة على النظام والأمن ولسلامة التجارة ، هذا بالإضافه إلى أعمال الشرطة فى البر وفى المياه المغربية .

وفى المادة الثالثة تتعهد فرنسا بتعضيد السلطان ومساندته ضد أى خطر يهدد شخصه أو عرشه أو بلاده ، وينسحب نفس الشىء على خلفائه .

وتختص المادة الرابعة بالتدابير والتشريعات الجديدة التى يقتضيها نظام الحماية الجديدة ـ فقد تقرر أن يصدر السلطان هذه التشريعات بناء على إقتراح الحكومة الفرنسيه .

والمادة الخامسة ـ.. تتعلق بممثل فرنسا فى المغرب (المقيم العام) وهو

---

(١) انظر نص المعاهدة فى:

Lazrak, Rachid : Op. cit. p. p. 418—420

ـ وكذلك ملحق هذا الكتاب .

المكلف بتنفيذ هذه المعاهدة، وقد منحته بلاده كل السلطات فيما يتعلق بالمغرب ومنها سلطة المصادقة على مايصدره السلطان من مراسيم - كما أن المقيم العام الفرنسي سيكون الوسيط الوحيد للسلطان لدى الممثلين الأجانب .

وبمقتضى المادة السادسة يكلف موظفو فرنسا الدبلوماسيون وقناصلها بتمثيل وحماية رعايا المغرب ومصالحهم في الخارج .

وتشير المادة السابعة إلى أن الحكومتين الفرنسية والمغربية ستتفقان على أسس تنظيم الشؤون المالية بحيث تحترم حقوق أصحاب سندات القروض ، بينما تمنع المادة الثامنة السلطان المغربي من إبرام أي قرض مستقبلا بدون إذن الحكومة الفرنسية .

أما المادة التاسعة والأخيرة فهي خاصة بتقديم هذه المعاهدة للمصادقه من طرف الحكومة الفرنسية .

وقد وقع على هذه المعاهدة في فاس كل من المولى عبد الحفيظ - ورينو وذلك في يوم ٣٠ مارس ١٩١٢ (١١ ربيع ١٣٣٠ ﻫ) .

ومن نظرة سريعة على مواد هذه المعاهدة يتضح لنا الملاحظات التالية :

١ — أن الحكومة الفرنسية قد سلبت الحكومة المغربية كافة سلطاتها فهي التي تقترح الاصلاحات اللازمة في المجالات الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية .

٢ — وتمنح المعاهدة الحكومة الفرنسية حق إحتلال المناطق التي تراها ضرورية للمحافظة على النظام والأمن في المغرب .

٣ — منح المقيم العام الفرنسي سلطات كاملة بحيث أصبح الوسيط الوحيد بين السلطان المغربي والممثلين الأجانب .

٤ — كما حرمت المغرب من المظهر الرسمي الأساسي للدولة المستقلة الذي

يتمثل فى أن يكون لها ممثلوها الدبلوماسيون والقنصليون ، فقد تكفلت فرنسا وممثلوها عنها بهذا العمل .

٥ — ومن الناحية المالية لم تترك للسلطان حرية تصريف شؤون دولته فى فى هذا المجال بل نص على أن الدولتين ستتفقان على تنظيم مالى جديد ، كما حرم على السلطان المغربى عقد أى قرض فى المستقبل دون إذن الحكومة الفرنسية .

وهكذا جردت هذه المعاهدة السلطان المغربى وحكومته من كل سلطات الدولة المستقلة — والحقيقة فهى لاتخرج عن كونها صورة من الصور التى اتبعتها الدول الإستعمارية لبسط سلطانها على الدول والشعوب التى رأت مصلحتها فى مد نفوذها إليها .

٧ — الاتفاق الفرنسى الأسبانى (٢٧ نوفمبر ١٩١٢ م) :

كانت فرنسا تعلم أنها بموجب اتفاقاتها السابقة سواء مع بريطانيا (أبريل ١٩٠٤ م) أو مع أسبانيا ذاتها (أكتوبر ١٩٠٤ م) - أو بموجب إتفاق الجزيرة عام (١٩٠٦) ، وحتى بموجب معاهدة الحماية الفرنسية (٣٠ مارس ١٩١٢ م) يلزم أن تتفاهم مع أسبانيا قبل أن تباشر تنظيم حمايتها على المغرب .

وكانت الإتصالات بين أسبانيا وفرنسا بشأن مصالح أو بالأحرى مطامع كل من الدولتين فى المغرب جارية قبل أن توقع فرنسا عقد الحماية مع المغرب .

وبالطبع شجع الإتفاق الألمانى الفرنسى (٤ نوفمبر ١٩١١ م) فرنسا على أن تحاول الوصول لإتفاق مع أسبانيا يحدد بموجبه وضع كل من الدولتين فى المغرب - لكن اختلاف وجهات نظر الدولتين وشعور فرنسا بأن موقفها فى المغرب أصبح قوياً بعد إتفاقها مع معظم خصومها ، وبعد دخول جيشها (فاس) العاصمة المغربية - جعل شقة الخلاف بين وجهتى نظر الدولتين تزداد بعداً . ففى الوقت الذى كانت ترغب أسبانيا فيه أن يكون لها فى منطقة نفوذها

فى المغرب حقوق مشابهة لحقوق فرنسا ـ كانت فرنسا تصر على وحدة السلطنة المغربية بحيث تستمر كافة حقوق السلطان فى المنطقة الاسبانية لكنه يفوض خليفه عنه فى هذه البقعة فى مزاولة هذه الحقوق .

وبتوسط انجلترا بين فرنسا وأسبانيا وصلت الدولتان فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ إلى توقيع إتفاق فى مدريد من ٣٠ مادة ألحق به بيروتوكول خاص بسكة حديد (فاس ـ طنجة) نص فيه على تسليم الخط إلى شركه موحدة تقوم بدراسة وإقامة الخط وإستغلاله ، ورأسمال هذه الشركة الموحدة يكون بنسبة ٦٠ ٪ فرنسى ، ٤٠ ٪ أسبانى[1].

وأهم ماتضمنته بنود هذا الإتفاق :

١ ــ تعترف الحكومة الفرنسية بنفوذ أسبانيا فى المنطقة الشمالية من المغرب التى عرفت بأسم (المنطقة الخليفية) كما تعترف بأن من شأن أسبانيا فى منطقة نفوذها أن تسهر على طمأنينة البلاد وراحة سكانها . وأن تساعد الحكومة المغربية على إدخال كل الإصلاحات الضروريه فى مجالات الإقتصاد والإدارة، والمالية ، والتشريع ، والعسكرية .

٢ ــ تعتبر منطقة النفوذ الأسبانى هذه بجميع مرافقها تحت السيادة المدنية والدينية لسلطان المغرب ـ لكن ينوب عنه مندوب يسمى (الخليفة) يتمتع بجميع إمتيازات السلطان ويحافظ على جميع حقوقه .

٣ ــ يقيم الخليفة فى مدينة (تطوان) عاصمة المنطقة الأسبانية ويشكل حكومة خليفية على غرار حكومة السلطان ، كل وزرائها مغاربة إلا وزارة الخارجية فيمارس أعمالها المندوب السامى الأسبانى .

٤ ــ تعين الحكومة الأسبانية (مندوباً سامياً) يمثلها لدى سمو الخليفة

---

(١) انظر نص الاتفاق فى :

Lazrak, Rachid . Op. Cit.

ـ وملحق هذا الكتاب

ويسهر على تنفيذ هذه الإتفاقية ، ويكون الواسطة بين الحكومة الخليفية والسلك الأجنبي ، وله الحق فى مراقبة أعمال الحكومة الخليفية والمصادقة عليها .

ويلاحظ على الاتفاق الفرنسى الأسبانى وعلى الأسلوب الذى اتبعته أسبانيا فى تنفيذه مايلى :

١ — فصلت الاتفاقية بين المنطقتين الفرنسية والأسبانية من حيث الضرائب والأمور المالية ، وجعلت لأسبانيا حق تمثيل سكان المنطقة الشمالية فى الخارج هذا فى الوقت الذى حرصت فيه فرنسا على وحدة السلطنة ، فنص على أن منطقة النفوذ الأسبانية تعتبر تحت السيادة المدنية والدينية لجلالة السلطان ، وينوب عن جلالته فيها مندوب مفوض يسمى (خليفة) .

٢ — ميزت الاتفاقية من حيث الوضع القانونى بين قسمين فى منطقة النفوذ الأسبانية :

(ا) القسم الذى يشمل (سبته ، ومليله ، وإفنى) وهى المناطق التى كانت تحتلها أسبانيا من زمن طويل — وكانت تنظر إليها على أنها أرض أسبانية تتبع حكومة مدريد مباشرة .

(ب) القسم الثانى — وهو يشمل المناطق التى تستمد أسبانيا وجودها فيها من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان — فوضعها فيها يشبه وضع (المستأجر من الباطن) — إذ لم يعقد معاهدة بين أسبانيا والسلطان بشأنها ، وتبلغ مساحتها عشر مساحة المغرب كله[١] .

٣ — بموجب هذه الاتفاقيات أصبح المغرب مقسماً إلى ثلاث مناطق :

(ا) منطقة الحماية الفرنسية «المنطقة السلطانية» ، وتقدر مساحتها بـ ٤٤٢٫٠٠٠ كيلو متراً مربعاً تقريباً .

---

(١) العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٩٧ .

(ب) منطقة الحمايه الأسبانية « المنطقة الخليفية » وتقدر مساحتها بـ ٢٢٠٠٠ كيلو متراً مربعاً تقريباً .

(جـ) منطقة طنجة الدولية ـ وتقدر مساحتها بـ ٣٥ كيلو متراً مربعاً .

وكان قد نص فى معاهدة الحماية على أنها ستحتفظ بصبغتها الخاصة ، لكن تقرر فى إتفاقيات تالية نظامها الدولى مع الاعتراف بسيادة سلطان المغرب عليها « محادثات واتفاقات باريس ١٩٢٣ م ، ١٩٢٥ م ، ١٩٣٨ م بين إنجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا » .

تطور الأحداث فى المغرب بعد توقيع عقد الحماية والاتفاق الفرنسى الأسبانى

كان السلطان عبد الحفيظ ـ كما ذكرنا ـ قد تعرض لضغوط عنيفة من الفرنسيين ، وكان كلما ضاق بمطالبهم هدد بالتنازل عن عرشه ـ وقد عبر السلطان للمقيم الفرنسى عن ضيقه بهذه الضغوط من فرنسا بقوله « لقد أخطأت فرنسا فى تشددها فى إتفاقية الحماية ـ فإن إنجلترا تتمتع بكل امتيازاتها فى مصر ولم تنطق بهذه الكلمة » [1] .

ولما استتب الأمر للفرنسيين وحصلوا على توقيع السلطان عبد الحفيظ وبدأت الأمور فى المغرب تنتظم حسب الوضع الجديد ـ قبلوا إستقالة السلطان عبد الحفيظ فتولى الأمر « المولى يوسف » ، بينما ولى الخلافة عنه فى المنطقة الخليفة المولى « المهدى بن اسماعيل »

وكان عهد المولى يوسف عهد العمل من قبل الدولتين المستعمرتين « فرنسا وأسبانيا » لتثبيت أركان النظام الجديد . لكن لم يتم ذلك بيسر فقد جابهت الدولتان مقاومة عنيفة من المغاربة فى السهول والجبال ـ سواء فى منطقة الحماية الفرنسية أو فى منطقة الحماية الاسبانية .

---

(١) Maurois, A. : Lyautey (paris 1935) p. 203

وقد عينت فرنسا الجنرال ليوتى Lautey[١] أول مقيم عام لها فى المغرب — وقد أظهر كفاءة عسكرية وإدارية خاصة فى معالجه الأمور فى منطقـــة الحدود الجزائرية المغربية ، لكنه واجه موجات عنيفة من المقاومة حتى أنه وصل فى بعض الأحيان لدرجة اليأس ،فكما ذكر « إنه فى بعض الأحيان نتيجة عنف المقاومة كاد يحرق جميع الوثائق التى يحملها معه ويدبر أمر الانسحاب مع من معه من القوات »[٢] .

فقد غشى البلاد طوفان من الإضطرابات ضد الفرنسيين والذين يتعاونون معهم ، وقد أجهد الجنود الفرنسيون إلى درجة كبيرة ، فقد كانوا يرابطون فى أرض معادية . وتجددت البواعث القديمة للثورة ، فزادت الموقف اشتعالاً ، وأصبحت الوسائل السياسية عديمة الجدوى مع القبائل التى حملت لواء المقاومة ضد المحتلين وأعوانهم فى البلاد[٣] .

وقد صب الثائرون من الجنود والأهالى نار غضبهم على الضباط الفرنسيين، بالإضافة إلى المغاربة الذين أتهموا بالتعاون مع جيوش الإحتلال ، والذين قبلوا

---

(١) اختير (ليوتى) كمقيم عام — لأنه يتميز بأنه عسكرى ودبلوماسى ، وكان قد سبق أن خدم فى الهند الصينية ، ومدغشقر (مالاجاش حالياً) ، وفى الجزائر كقائد لمنطقة (عين الصفراء) ثم لمنطقة وهران — وكان من مبادئه أن يلوح بالقوة لكن لا يستخدمها إلا عند الضرورة . وقد بقى فى المغرب حتى عام ١٩٢٥ ولذا إقترن اسمه بأسوأ مظاهر الاستعمار ، وهو الذى رسم سياسة فرنسا الاستعمارية فى المغرب ، وواجه ثورات الشعب المغربى ضد المستعمرين الفرنسيين، ورسم الخطط لإخضاعها، وإلى دهائه ومكره وحنكته يرجع ما حققته فرنسا فى هذا المجال. وقد أوصى بأن يدفن فى المغرب بعد وفاته، وهو البلد الذى خدم وطنه فيه زهرة سنى حياته . وفعلا بعد وفاته فى عام ١٩٣٤ م نقل الى المغرب ودفن فى الرباط — لكن حين استقل المغرب (١٩٥٦ م) لم تر حكومة المغرب مايبرر وجود قبره فى البلاد لأنه يعيد للاذهان ذكرى هذه الفترة الأليمة من تاريخه فطلبت من الحكومة الفرنسية نقل رفاته فنقل إليها عام ١٩٦١ م

— الدراسة التفصيلية لتاريخ حياه ليوتى انظر :

Hardi, Cr. : Portrait de Lautey (Paris 1934)

(٢) ابن سلون ، عبد المجيد : هذه مراكش (القاهرة ١٩٤٩) ص ١٧٢ .

(٣) Catroux, G. : Lautey. Le Marocain (Paris 1952,) p. 132

حمل النياشين والرتب التى منحتها لهم فرنسا — ففى ١٧ أبريل (١٩١٢ م) ثار الجنود المغاربة فى (فاس) وقتلوا قائدهم الفرنسى بالإضافة إلى ثمانية وستين ضابطاً مغربيـاً كانوا يحملون أعلى الرتب فى الجيش الفرنسى ، وترك الجيش ما يقرب من ٢٠٠٠ جندى مغربى انتشروا فى صفوف القبائل الثائرة مزودين بأسلحتهم الجيدة وأصبحوا فى كل مجموعة من مجموعات الثوار بمثابة نواة لقوة نظامية مدربة ومسلحة . ونجح الثوار فى عزل فاس عن بقية المغرب عزلا تاماً . ولم تهدأ الثورة إلا بعد أن جاءت نجدة من القوات الفرنسية المرابطة على بعد خمسة كيلومترات من مدينة فاس — وقد خاضت هذه القوات معارك حامية مع الثوار وانتهى الأمر باستسلام ثوار مدينة فاس[1] .

ولم يلبث الفرنسيون أن واجهوا ثورة قبائل (الشرارة) المرابطة على الأطراف الشرقية لمدينة فاس ، هذا بالإضافة إلى القبائل القاطنة فى جنوبى (مكناس) .

وفى الجنوب فى سوس — هب البربر وعلى رأسهم الهيبة إبن الشيخ ماء العينين ، وزحف هو ورجاله صوب (مراكش) واستولوا عليها فى ١٨ أغسطس (١٩١٢م) وبدأوا يستعدون للزحف صوب منطقة الشاوية ، كما تمكن أحد أتباع الهيبه من إحتلال (أكادير) — وشعر الفرنسيون أن عليهم أن يحاربوا فى أكثر من جبهة وهو الأمر الذى حاول ليوتى تجنبه .

وقد تفاقمت حركة الهيبة خاصة بعد تنازل المولى عبد الحفيظ — حيث إتجهت إليه الأنظار وتكتلت حوله النفوس الوطنية — ولجأ الفرنسيون لسلاح خطير لإضعاف قوة الهيبة ولفض القبائل من حوله ، فأشاعوا الشكوك حول نواياه وأهدافه واستغلوا فى ذلك بعض الموالين لهم من المغاربة فنشروا بين

---

(١) بن جلون ، عبد المجيد : مرجع سابق — ص ١٧٢ .

ملاحظة : كان الفرنسيون قد وضعوا مخططاً يقوم على تأليف جيش مغربى يقوده ضباط فرنسيون يستخدمونه فى السيطرة على المغرب وهو ماعبر عنه قوادهم بـ (احتلال المغرب بواسطة المغاربة) .

أتباعه إنه يدعو لنفسه بدلا من السلطان الشرعى ، وأدت هذه البلبلة لإيجاد ثغرة فى صفوف أتباعه ونجح الفرنسيون فى ٧ سبتمبر ١٩١٢ م فى إحراز إنتصار حاسم على قوات الهيبة وتابعوا سيرهم حتى دخلوا مراكش وأحتلوها ، ونجح الفرنسيون فى تأمين خطوط مواصلاتهم بين فاس ومكناس والرباط .

لكن كان على الفرنسيين أيضاً أن يواجهوا ثوار قبائل غياثة ومن إنضم إليها فى (تازا) بزعامة (عبد الملك الجزائرى) حفيد الأمير عبد القادر[1] ، وكذا قبائل زيان بزعامة (مح وحمو) وكان هذا الزعيم قوى المراس استطاع أن يوجه للفرنسيين ضربات قوية وأن يهدد خطوط مواصلاتهم بين مكناس والرباط ، وبين فاس ومراكش ، وكان يتخذ مدينة (خنيفره) مركزاً لعملياته ، وقد وجه إليه الفرنسيون الحملة تلو الأخرى فكان يهزمها ، وإن كانوا قد نجحوا فى يونيو (١٩١٤م) فى أن يحتلوا خنيفرة — لكن استطاع الزعيم الزيانى (مح وحمو) أن ينسحب إلى الجبال وأن يوقع هزائم بقوات الفرنسيين منتهزاً فرصة سحب فرنسا لجزء كبير من قواتها لحاجتها إليهم فى الميدان الأوروبى بعد إعلان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) .

وقد كانت خطة ليوتى التى رسمها لمواجهة الموقف أثناء الحرب هى المحافظة على المناطق المحتلة ومهادنة الثوار ومجابهة الدعاية الألمانية القوية فى المغرب خاصة بعد أن دخلت تركيا — الدولة الإسلامية — فى صف ألمانيا ، وسعت ألمانيا للإتصال بالثوار وتهريب الأسلحة لهم لإثارة المتاعب للفرنسيين[2] .

هكذا دافع المغاربة عن كل شبر من أرض بلادهم ، ورغم الفارق الكبير فى نوعية السلاح وإمكانيات كل طرف من الطرفين — فقد كبد الثوار

---

(١) ولد عبد الملك فى سورية أثناء إقامة جده فى المنفى، وقد جاء المغرب عام ١٩٠٢م ويقال إنه كان يعمل فى عام ١٩١٤ م لحساب ألمانيا — وقد هرب بعد ذلك إلى جبل الريف حيث أعلن الحرب ضد الفرنسيين .

(٢) Catroux : Op. cit. p. 166

المستعمر خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، وإعترف القواد الفرنسيون بذلك فذكر الجنرال جيروم Jerome الذى لعب دوراً كبيراً فى حملات قمع الثورة المغربية :

« إن أى قبيلة لم تستسلم دون مقاومة ، بل إن بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفذ كل وسائل المقاومة ، ولم تقدم أى قبيله ولاءها لنا إلا بعد أن هزمناها بأسلحتنا ، فاقتسمت كل مراحل تقدمنا بالقتال ، وكلما توقفنا أنشأ المغاربة جبهة جديدة ، واحتفظوا بها بواسطة سلسلة من التحصينات أرغمت قواتنا سنوات طويلة على أن تقف موقف اليقظة والحذر ، فقد كانت معرضة للأخطار فى كل وقت »[1] .

ولم تقم مقاومة المغاربة على المناوشات العشوائية دون تخطيط ، فقد عثر الفرنسيون بعد معاركهم ضد قوات الثوار فى (فاس) على خريطة عسكرية حددت فيها بدقة تامة مواقع الجيش الفرنسى ، ووضعت بها علامات تدل على أن هناك خططاً عسكرية دقيقة مرسومة للكفاح ضد جيش الإحتلال[2] .

وفى القسم الأسبانى من المغرب[3] لقى الأسبان مقاومة عنيفة من الوطنيين المغاربة ، ونشبت عدة معارك ظهرت فيها بطولات وطنية . ومن الشخصيات التى برزت فى مجال الكفاح ضد الأسبان (أحمد بن محمد ريسولى) . وقد ظهر

---

(١) لاندو ، روم : أزمة المغرب الاقصى ـ ترجمة اسماعيل على ، وحسين الحوت (القاهرة ١٩٦١ م) ص ١٠٠ .

(٢) الفاسى ، علال : الحركات الإستقلالية فى المغرب العربى (القاهره ١٩٤٨ م) ص ١١٩ .

(٣) يطلق بعض المؤرخين على هذه الجهات من المغرب اسم (الريف) . والريف كلمة تعنى الحافة أو الجرف أو الأرض المزروعة الخصبة ، فهى تعنى الساحل البحرى الشمالى ، وقد استعملت لأول مرة فى القرن العاشر ، ثم شاع إستخدامها منذ القرن الرابع حيث عرف (عبد الحق الباديسى) نقلا عن (داود القرطبى) الريف بأنه يمتد من المنطقة المحيطة (بسبتة) غرباً حتى حدود الجزائر شرقاً .

— انظر — مورنو ، روبرت : مرجع سابق ص ٨ .

فى منطقة (جبالا) بشمال المغرب واجتمعت حوله جماعة قوية من أنصاره وأصبح يمثل القوة الحقيقية فى هذه المنطقه[1] .

وحين أخذ الأسبان ينزلون جيوشهم فى (العرائش) عقب إتفاقهم مع الفرنسيين فى عام ١٩١٢ م على مناطق نفوذ الدولتين فى المغرب — كان طبيعياً أن يصطدموا بقوة ريسولى الذى يصفه قائد حملة الغزو الأسبانى — فيرناندو سيلفستر Fernandus Silvister بزعيم عصابة اللصوص ، وحين تقدمت القوات الأسبانية فى فبراير (١٩١٣ م) من سبتة إلى تطوان واحتلتها هب ريسولى ورجاله لمواجهتهم . فأضطرت أسبانيا لإرسال تعزيزات قوية لقواتها من أسبانيا حتى وصلت القوات الموجودة فى المنطقة إلى ٤٠٫٠٠٠ رجل لكن أضطرت الحكومة الأسبانية إلى مهادنة ريسولى فأرسلت إلى المفوض السامى الأسبانى الذى عينته لمنطقة نفوذها فى المغرب (المركيزدى فالنزويلا) بتعليمات لمحاولة عقد صلح مع ريسولى . وتم ذلك وأعترفت أسبانيا بحكمه لاقليم جبالا[2] .

وقد شنت أسبانيا فى عام ١٩١٩م . حرباً ضد ريسولى بقصد القضاء على سطوته ، واستطاعت القوات الأسبانية تطويق منطقة جبالا . لكن

---

(١) يعطينا والتر هاريس (Harris, W.) الصحفى الإنجليزى ومراسل التايمس فى المغرب — وكان قد بدأ نشاطه بالمغرب منذ ١٨٨٧ م — فى عام ١٩٢٦ م معلومات تفصيلية عن تاريخ حياة ريسولى قبل أن يصطدم بالأسبان — فيذكر إنه درس فى شبابه القانون لكنه انحرف واستسلم لحياة المغامرة والتبذير فكان هو وأتباعه يسرقون الماشية ثم يردونها لأصحابها مقابل دية تدفع لهم ، وقد قبض عليه مراراً وسجن وعذب ، وقام هو وأتباعه فى عام ١٩٠٧ باختطاف بعض رجال الأعمال الأجانب فى طنجة ولم يفرج عنهم إلا بعد دفع فدية كبيرة — وقد قويت شوكته ونفوذه بين قبائل (جبالا) حتى أن السلطان عبد الحفيظ عينه باشا على قبائل جبالا .

حين ظهر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى [1] كقوة خطيرة تهدد وجود الأسبان فى البلاد ـ رأت الحكومة الأسبانية أن من الحكمة أن تتفاوض مع ريسولى لإستمالته إليها للتعاون معاً على مقاتلة عبد الكريم الخطابى ـ وفعلا بدأت المفاوضات بين الطرفين وجلا الاسبان عن منطقة نفوذ ريسولى ، وقبلوا دفع تعويض له عما أتلفته جيوشهم أثناء عملياتها الحربية .

ويستحق محمد عبد الكريم الخطابى اللقب الذى أطلق عليه (بطل الريف) أو (أمير الريف) ـ فقد تزعم حركة المقاومة المسلحة ضد المستعمرين الأسبان وسيطر لفترة غير قصيرة على الأقاليم الشمالية من المغرب ، بل إن حركته تجاوزت الحدود القبلية والإقليمية فنادى بالجهاد ضد الاستعمار عامة حتى شعرت فرنسا بخطورته على وجودها الإستعمارى فى المغرب كله .

وينتهى محمد عبد الكريم لأسرة الخطابى من قبائل (بنى ورياغل) . ولد فى (أجدير) عام ١٨٨٢ م ، وكان أبوه عبد الكريم القاضى المحلى لها ، ونهل محمد عبد الكريم من مناهل العلم فى مدينة تطوان ثم فى فاس فى جامعة القرويين ، وتخرج فى عام ١٩٠٩م ، كما أتيحت له فرصة التعليم فى أسبانيه وأتاح له ذلك فرصة التعرف على اتجاهات الإستعمار الأسبانى .

وكانت بلاد المغرب حينئذ تمر بمرحلة حاسمة فى تاريخها فقد كانت المؤامرات تحاك حوله ، والدول الإستعمارية تعقد الاتفاقات فيما بينها لضمان عدم اصطدام مصالحها وأطماعها .

وقد اندفع محمد عبد الكريم الخطابى فى التيار الوطنى واستنكر التعاهل مع الأجانب ومنحهم حقوق التنقيب عن المناجم فى جبل (ويكش) وكانت هذه المشكلة مثـــار تنافس بين الدول الإستعمارية فى ذلك الوقت . وحين أحست

---

(١) عبد الكريم هو اسم والد الزعيم ، وكان قاضياً فى (أجدير)، وقد أعطى الابن لقب عبد الكريم الذى اشتهر به كعادة أهل الريف فى ذلك الوقت فى أن يعطى الابن البكر اسم أبيه . أما لقب العائلة فهو (الخطابى) .

— انظر — فورنو ، روبرت : مرجع سابق ص ٣٥ .

السلطات الأسبانية بخطره حاولت إرهابه بالقوة فأحرق دار الأسرة فى أجدير، ثم سعى الأسبان لإغرائه بالمناصب فعين فى عام ١٩١٣ م مستشاراً لدى محكمة الجنايات ثم رفع بعد سنتين إلى منصب رئيس العدل[١] .

وأتاحت له هذه الظروف والمناصب فرص الإحتكاك مع الرسميين الأسبان من جهة ومع مهندسى المناجم من جهة أخرى ، وكان بعضهم من الألمان من ممثلى (مانيسان أخوان) المؤسسة الالمانية التى تعاقدت على حفر المناجم فى ويكش، كما كان بعض هؤلاء من عملاء المخابرات الألمانية التى نشطت بعد ذلك خاصة فى أثناء الحرب العظمى الاولى لخلق المتاعب للفرنسيين فى شمال أفريقيا .

وبرز الاب (عبد الكريم الخطابى) فى الكفاح ضد الأسبان الذين كانوا يحتلون (مليله) من زمن طويل، ويحاولون التقدم منها غرباً ، بينما كان الجنرال (دامسكو بيرنجر) المفوض السامى الاسبانى يعمل جاهداً لتثبيت دعائم النفوذ الاسبانى وتوسيعه عن طريق التغلغل السلمى — بجذب القبائل القوية إلى جانبهم وبالتخلص من العناصر المعاندة — ويقال إنه فى نهاية عام ١٩١٩ م حين كان الاب (عبد الكريم الخطابى) يتجول فى الريف ويعقد الإجتماعات منبهاً قومه إلى أهداف الاسبان ومراميهم — أستضيف من قبل أحد زعماء القبائل (عبد السلام التفرسيتى) الذى قدم له طعاماً مسموماً تنفيذاً لأوامر تلقاها من الأسبان وقضى الرجل نحبه فى سبتمبر ١٩٢٠م ،فخلفه ابنه (محمد عبد الكريم) فى زعامة القبيلة ، وفى قيادة حركة الكفاح ضد المستعمرين الاسبان . وكان فى ذلك الوقت يشغل وظيفة قاضى مدينة مليلة[٢] . وظهرت بطولات محمد

---

(١) نورلو ، روبرت : مرجع سابق ص ٣٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤ — ٤٦ .

عبد الكريم الخطابى لأول مرة فى معركة أنوال فى يوليو ١٩٢١[1]. وقصة هذه المعركة الحاسمة تستحق وقفة فهى من معارك التاريخ الحاسمة.

وكان الجنرال سيلفستر (F. Silvister) قائد حامية (مليلة) متحمساً لغزو الريف والقضاء على كل مقاومة فيه للنفوذ الأسبانى، وكان يزدرى بقوة أهل الريف، ويزعم أنه سيسحقهم قبل أن يتمكنوا من تعبئة أنفسهم ـ وكان يلقى تأييداً خفياً من الملك الأسبانى الفونس، بعكس الجنرال (بيرنجر) المفوض السامى الأسبانى الذى كانت حركاته تتسم بالبطء والحذر.

وشهد شهر مايو ١٩٢١م تقدم الجنرال سيلفستر فى الدروب الجبلية بجبال الريف كما شهدت قمم (إبران) و (أغريبين) التى تشرف على الوادى صراعاً مريراً بين قوة الريفيين الصغيرة المدعمة بحماس المدافعين عن بلادهم وقوة الأسبان الضخمة المدعمة بأسلحتها الحديثة.

وكان إستيلاء الريفيين على قمة إبران أول صدمة ومنى بها الجيش الأسبانى، كما نجح الريفيون فى قطع الطريق بين (أغريبين) و (أنوال) فأصبحت القوة الأسبانية فى (اغريبين) الواقعة على بعد خمسة أميال جنوبى أنوال ـ عاجزة عن الوصول لمجارى المياه فى الأخدود.

وفى ٣١ يوليو ١٩٢١م تقدم الأسبان من (أنوال) بقوات هائلة اختلفت المراجع اختلافاً بيناً فى تقدير عددها ـ بهدف سحق قوات الريفيين ـ وأخذت مدافعهم تلقى بقذائفها على الخنادق التى كان يختبىء فيها الريفيون، ولم يرد

---

(١) ملاحظة: تعددت المراجع التى عالجت كفاح عبد الكريم ضد المستعمرين نذكر منها:

ا — روبرت، فورنو: عبد الكريم أمير الريف (ترجمة فؤاد أيوب (دمشق د. ت).

ب — محمود كامل فريد: انتصار عبد الكريم (مطبعة التقدم — القاهرة ١٩٢٥)

حـ — محمود كامل فريد: حوادث الأمير محمد عبد الكريم الزعيم الريفى المشهور بالمغرب الأقصى (مطبعة التقدم — د. ت)

د — عمر أبو النصر: بطل الريف، الأمير محمد بن عبد الكريم (دمشق ١٩٣٤)

الريفيون حتى أصبح الأسبان على مقربة وعندئذ أطلقوا خلال دقائق قليلة كل الذخيرة التى كانت معهم ، وانجلى القتال عن معركة (أم درمان مقلوبه) على حد تعبير شقيق عبد الكريم[1] .

وحاول الأسبان التراجع نحو أنوال بعد أن ألقوا بنادقهم وذخيرتهم فانقض عليهم الريفيون بما غنموه من ذخيرة ، أما الجنرال سيلفستر فقد وجدت جثته عند الجسر القريب من ميدان المعركة . وتزعم المراجع الأسبانية أنه انتحر - وتولى الجنرال (نافارو) الأمر وأخذ على عاتقه مهمة الإنسحاب وأعمل رجال قبيلة (بنى سعيد) القتل فى الهاربين واستولوا على الحصون التى كان الأسبان قد أقاموها أثناء تقدمهم بعد أن قضوا على رجالها - وحين استسلم الجنرال نافارو (Pedro Navarro) فى ٢ أغسطس ١٩٢١ لم يكن قد بقى على قيد الحياة من القوة الأسبانية سوى ٤٠٠ رجل ، بينما تقدر خسائرهم بحوالى ١٨,٠٠٠ رجل ، واستولى الريفيون على كميات ضخمة من الأسلحة المختلفة[2] .

وفى تقييم السير تشارلز بتزى لنتائج كارثة أنوال بالنسبة لأسبانيا ذكر : (إن هذه الكارثة قيض لها أن تؤثر فى تاريخ أسبانيا الحديث تأثيراً بالغ العمق فلو أن هـــذه الكارثة لم تقع لما قامت الدكتاتورية فى أسبانيا ، ولو أن الدكتاتورية لم تقم لما قامت الجمهورية الثانية ، وبالتالى ماوقعت بها الحرب الأهلية)[3] .

---

(١) فورنو ، روبرت : مرجع سابق ص ٦٤ .

(٢) Julien, Ch. André : Histoire de L'Afrique du Nord p p. 514—515

(٣) انظر فورنو ص ٦٧

ملاحظة : هزت أخبار هذه الهزائم الشعب الأسبانى وافضح دور الملك فى هذه المأساة وعينت لجنة تحقيق برئاسة (بيكاسو) لمعرفة أسباب الكارثة — ومرت أسبانيا بأزمة شديدة بعد نشر تقرير اللجنة ، ووقع انقلاب تولى على إثره الجنرال (بريمودى ريفيرا) السلطة فى ١٣ سبتمبر ١٩٢٣ — لكن أنهارت دكتاتورية (بريمو دى ريفيرا) عام ١٩٢٩ م فهرب الى باريس حيث قضى نحبه فى ١٩٣٠ م ولحق به الملك الفونسو المنفى - وتشكلت حكومة دستورية فى أسبانيا واستمرت حتى ١٩٣٩ حين قلبها (فرنكو) بعد أربع سنوات من الحرب الأهلية ، وكان جيشه يتألف الى درجة كبيرة من القوات المغربية التى كان فى عدادها كثيرون من أهل الريف — وظل فرنكو يحكم أسبانيا حتى وفاته فى نهاية عام ١٩٧٥ فعادت الملكية الى أسبانيا بحكم الملك (خوان كارلوس) ملك أسبانيا الحالى .

وقد كتبت الصحف الأسبانية وغيرها من الصحف الاوروبية عن معركة أنوال مشبهة إياها بمعركة عدوه سنة ١٨٩٦ بين الاحباش والإيطاليين .

لقد أصبح الطريق فى إتجاه (مليلة) مفتوحاً أمام الريفيين ، وأصبحت حامية المدينة التى كان الأسبان قد استولوا عليها من زمن بعيد تنتظر بقلق مصيرها المحتوم ، بينما ركب آلاف من سكانها المراكب التى كانت بمرفأ المدينه فى إنتظار الفرار — وحاصر الريفيون فعلا المدينة من جهة البر ، وكانت تقارير المسئولين الأسبان فى (تطوان) و (مليلة) كلها تشير إلى أن المدينة على وشك السقوط .

وأنعقد مجلس خارج مليله لتقرير الخطوة التالية حضره عبد الكريم بعد أن انتهى من تدبير موقف الاسرى وجمع الذخائر بعد الإنتصار الذى أحرزه أتباعه ، وكان قرار عبد الكريم الذى أعلنه لأنصاره يقضى بعدم الإقدام على إقتحام المدينة المحاصرة .

ولقد اختلفت التبريرات التى ذكرت فيما بعد لهذا القرار العجيب الذى اعترف عبد الكريم نفسه فى السنوات التالية بأنه ربما كان هذا القرار هو السبب فى خسرانه الحرب كلها[1].

ومما قيل فى تبرير هذا التقصير عن إحتلال هذا الميناء الهام مباشرة بعد النصر الساحق الذى حققه الريفيون :

١ — إن عبد الكريم كان يدرك أن رجاله كانوا فى ذاك الوقت مفتقرين إلى الإنضباط ، تغلب عليهم صفاتهم القبلية من حيث الثأر والإنتقام وأنهم سوف يقضون لا محالة على المدنيين الاسبان فى مليله ، وأن العالم كله سوف يصدم بهذه الاعمال فى وقت كانوا هم فيه يحتاجون — لكسب إستقلالهم — إلى تأييد إنجلترا ، والولايات المتحدة وغيرهما من دول العالم المتحضر .

---

(١) دورتو ، روبرت : مرجع سابق — ص ٧١ .

٢ — كان عبد الكريم يتوقع بعد انتصاره الساحق فى أنوال أن يقبل الأسبان بلا تردد شروط الصلح التى سيعرضها ، وكان يفضل أن يعترفوا بإستقلال الريف فى مقابل ضمان إمتيازات اقتصادية لهم دون إراقة مزيد من الدماء ، وسنرى أن محاولاته فى هذا الشأن باءت بالفشل .

٣ — كان يرى إنه فى حاجة لتنظيم جيشه وإقامة أسس جديدة لإدارته قبل أن يقدم على خطوة أخرى .

على كل مهما تكن الأسباب التى أدت لعدم إستغلال الريفيين لهذا النصر فإن الأحداث التالية قد تعطى فرصة أفضل لتقييم الموقف كله .

فبعد عودته إلى (أجدير) اجتمع عبد الكريم مع ممثلى القبائل الريفية ، وقرروا فى سبتمبر ١٩٢١ م تأليف حكومة وطنية تدير شؤون البلاد و (جمعية وطنية) لوضع ميثاق قومى وتنظيم الكفاح المسلح . وأعلنت الجمعية الوطنية الميثاق وهو يقضى بما يلى[1] :

١ — الإعتراف بالإستقلال التام للدولة الريفيه الممتدة من خط الحدود مع مراكش حتى البحر المتوسط .

٢ — إعلان قيام حكومة جمهورية فى الريف .

٣ — إنشاء علاقات ودية مع جميع الدول بلا تمييز ، والإستعداد لعقد معاهدات تجارية معها .

٤ — دعوة جميع الدول إلى إقامة خدمات قنصلية ودبلوماسية لها فى مركز حكومة الريف الحالى فى (أجدير) .

---

(١) ثابت ، كريم خليل . عبد الكريم والحرب الريفية (القاهرة ١٩٢٥) ص ٣٠
وانظر البيان الذى أصدره عبد الكريم باسم (حكومة جمهورية الريف) إلى جميع الأمم .

واتخذ عبد الكريم علماً أحمر قان طرزت عليه نجمة بيضاء وهلال أخضر رمزاً للدولة الريفية .

ولقب عبد الكريم نفسه (بأمير الريف) ورفض لقب (سلطان) .

وقد احتفظ عبد الكريم ببساطته فرفض أن ينشىء (بلاطاً) ، وظل يقطن فى منازل ريفية — لكنه أحاط نفسه بأقربائه وأصدقائه لأنهم هم الذين كانوا موضع ثقته .

فقد جعل أخاه قائداً للجيش النظامى فوضع نظاماً لتوفير جيش دائم مدرب مجهز بأسلحة مما أستولى عليه الريفيون من الأسبان . وتلك الأسلحة التى استطاعوا شراءها من الفرنسيين قبل دخولهم فى الحرب معهم .

وعهد عبد الكريم للمقربين اليه — وموضع ثقته — بالشؤون الخارجية ، والداخلية ، والمالية .

ووضع نظاماً لجباية الضرائب ، كما وضع قوانين جديدة متعلقة بملكية الأرض ، وتوزيع المياه وغير ذلك .

ولعل القانون الجديد - الذى حل محل العرف والذى وضع السلطة فى يد الدولة وأبطل عادات كانت سائدة كالثأر يعتبر من أمجد انجازاته[1].

وبعد تردد قبلت الحكومة الأسبانية إفتداء الباقين على قيد الحياة من الأسبان بمبلغ كبير ، وقد أثار هذا العمل الضوضاء فى أسبانيا . لأن الجيش الأسبانى زعم أن الحكومة بهذا التصرف تكون قد مولت عبد الكريم ليتمكن من مواصلة المقاومة[2].

---

(١) مورنو : مرجع سابق ص ٦٩ — ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ .

واستخدم عبد الكريم هذه الإعتمادات بالعملة الأجنبية فعلا فى شراء أسلحة وأجهزة حديثة للإتصال .

ولم تقع خلال الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ م حروب حاسمة بين الطرفين فقد كانت القوات الأسبانية حبيسة فى (تطوان) و (مليلة) ، وإتخذ الأسبان خطة الدفاع .

وجرت اتصالات فى هذه الأثناء بين الطرفين المتنازعين. فقد إقترح الأسبان نوعاً من (الحكم الذاتى) فى الريف ـ لكن رفض عبد الكريم ذلك رفضاً باتاً معلناً أن عرب الريف الذين اختاروه أميراً عليهم لن يرضوا بإستقلال بلادهم بديلا .

وحين علم عبد الكريم بنية الأسبان أن ينسحبوا من داخل منطقتهم فى سبتمبر ١٩٢٤ م وأن يتجمعوا حول تطوان ومليله ـ أسرع بإعداد جيشه ووضع تخطيطه ليحول هذا الإنسحاب إلى هزيمة ساحقة . ولما كان يقدر أن الصدام بينه وبين الأسبان سيكون فى جبهتين ـ جبهة مليله ، وجبهة شفشاون تطوان ـ فقد نظم قواته على هـذا الأساس وعين قائداً عن يثق بهم لكل جبهة . وقد أتت الخطة المحكمة ثمارها فتحولت عملية الإنسحاب الأسبانية إلى هزيمة لاتقل عن هزيمة أنوال .

هذا وقد ترك الأسبان بإنسحابهم من جبالا حليفهم (ريسولى) تحت رحمة الريفيين ، وكانوا قد عرضوا عليه أن ينسحب إلى مواقع أكثر أماناً ـ لكنه أصر على البقاء فى (تازروت) فى قلب جبالا ـ ظاناً أنه فى موضع حصين يصعب على الريفين إقتحامه ـ ورفض (ريسولى) ماعرضه عليه الريفيون من الإنضمام إلى عبد الكريم ـ وأنتهى الأمر بقصف الريفيين للقلعة التى كان يتحصن بها فإستسلم وكان فى ذلك الوقت يبلغ من العمر تقريباً سبعين عاماً ، وكان لا يستطيع الحركة بيسر ـ فحمل أسيراً إلى الريف حتى قضى نحبه بعد بضعة أشهر من أسره .

وهكذا أصبح عبد الكريم الحاكم غير المنازع للريف من أبواب (مليله) حتى حدود (تطوان) .

لكن هذه الإنتصارات المتتالية ونجاحه فى خلق دولة ريفية مستقلة على حدود مناطق الحماية الفرنسية فى المغرب ـ أقلق الفرنسيين أيما قلق ـ وقد عبر عن ذلك الماريشال ليوتى (Lautey) المقيم العام الفرنسى فى المغرب فى رسالة بعث بها من الرباط لحكومته فى باريس يقول فيها :

« لا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ بالنسبة إلى نظامنا من إقامة دولة إسلامية مستقلة على هذا القرب من فاس ـ دولة تجعل من كريم مركز جذب ليس بالنسبة إلى المنشقين فحسب ـ بل بالنسبة إلى جميع تلك العناصر المغربية، أو على الأخص الشبان منهم الذين أخذت تهزهم الأحداث الجديدة فى الشرق ، والذين نشأت فى أذهانهم مطامح قائمة على بغض الأجنبى »[١] .

وكان هذا بمثابة حفز لهمم الفرنسيين وتوجيه الحكومة الفرنسية للتدخل لمساندة الأسبان المنهزمين فى صراعهم ضد حركة المقاومة فى شمال المغرب .

على أن الأمر الذى يدعو إلى التساؤل هو لماذا تورط عبد الكريم فى الحرب مع الفرنسيين ، وقد كان يدرك أنه من الصعب عليه أن يحارب فى ميدانين ، وكان دائماً يعلن إنه لا يضمر عداءاً للفرنسيين ؟

يرجع تورطه فى هذه الحرب مع فرنسا إلى تمسكه بالتقاليد الريفية ، وبما يمليه عليه الشرف من احترام هذه التقاليد . فقد استنجدت قبيلة بنى زروال الذين يقطنون إحدى المقاطعات الواقعة جنوب الريف عند الضفة الشمالية لنهر (ورغا) به ضد الفرنسيين الذين اجتازوا النهر وصاروا يبنون القلاع على سفوح التلال الواقعة على الحدود، وكانت هذه القبيلة فى تحالف مع عبدالكريم

---

(١) لاندو روم : تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة نيقولا زياده ـ بيروت ١٩٦٣) ص ١٥٠ .

وسبق أن قدمت له العون ، ولذا فقـــد وجد عبد الـكريم إنه ملزم بمساندة هذه القبيلة رغم تقديره لعواقب هذا الأمر . ويقال إنه حين طلب منه مندوبو القبيلة هذا الأمر التفت إلى مستشاريه وقال لهم « سوف أرتكب حماقة لكن لابد لى من إرتـكابها» [1].

لقد أعطى عبد الـكريم بإقدامه على مساندة هذه القبيلة للمتهورين من القادة الفرنسيين ـ الفرصة لمهاجمته مدعين إنه بدأ ينفذ مخططه ضد الفرنسيين بعد أن فرغ من حربه ضد الأسبان ـ والحقيقة مهما كان الدافع لعبد الـكريم فإن المرء لايستطيع أن يدرك كيف سمح لنفسه بالوقوع فى هذا الشرك الذى لم يخف عليه إنه يعرض كل إنتصاراته السابقة للخطر .

لقد كان الفرنسيون فى نهاية عام ١٩٢٤ م يستعدون على الحدود بإقامة التحصينات ودفع المزيد من قواتهم إلى هذه الجهات ـ لـكن كان عبد الـكريم يعلم أن هناك ما يمنع فرنسا من التقدم لبسط سلطانها على المنطقة الشمالية المحددة فى اتفاقاتها السابقة مع انجلترا ومع أسبانيا بأنها منطقة نفوذ أسبانى ـ فـكانت الحـكمة تقتضى ألا يعطى العسكريين الفرنسيين المتهورين الفرصة للإيقاع به .

ويبدو أن أهداف عبد الـكريم من إقدامه على محاربة الفرنسيين كانت محدودة ، اذ أن غرضه الوحيد كان مساعدة القبائل المحلية المستنجدة به على طرد الفرنسيين الى ما وراء نهر ورغلا حيث مكانهم المشروع فى اعتقاده . لـكن فيما بعد وحين أحرز بعض الانتصارات الأولية بدا له إنه فى الإمكان تحقيق أغراض أكثر اتساعاً .

---

(١) فورنو ـ مرجع سابق ص ١٤٣ .

ملاحظة : ترجع أهمية هذا المرجع الى أن المؤلف حصل على معلوماته ـ بالإضافة الى المراجع المنشورة ـ من أخى الأمير عبد الكريم وأبنائه وأقربائه الاخرين، ومن الباقين أحياء من حرب الاستقلال الريفية . وقد ترجم له (سعيد الخطابى) ـ الذى كان دليله لزياراته لمسرح الأحداث بشمال أفريقيا ـ كتاب والدم غير المنشور (قصة حربنا) .

فحين تمكنت قوات عبد الكريم فى شهرى مايو و يونيو عام ١٩٢٠ من مهاجمة المراكز الفرنسية المتناثرة على مدى قوس عريض بين الشرق الى الغرب على طول الحدود الريفية ـ وحين نجح فى أن يستولى على الأقل على خمسين مركزاً من هذه المراكز ـ بدل خطته وأمر بهجوم عام ـ لكن الخطا الثانى الجسيم الذى ارتكبه عبد الكريم هو عدم انتهازه فرصة الإضطراب الذى ساد خطوط الفرنسيين وقبل أن تصلهم التعزيرات التى ينتظرونها — فيحاول الإستيلاء على فاس و تازه وبذا كان يقطع الطريق الموصلة الى الجزائر والتى تصل بها النجدات الى الفرنسيين .

وقد أشار إدريس بن عبد الكريم الى ذلك فى حديثه مع فورنو فقال له إن والده كان يؤمن انه لو أمر قواته فى شهر مايو بالهجوم على فاس وتازه فقد كان فى مقدوره احتلالها ومن بعد المغرب بأسره وهو يعتقد أن تقصيره عن اتخاذ مثل هذا الأمر هو احدى كبريات أخطائه[1].

على أن هذا لا يعنى أن عبد الكريم كان يطمع فى أن يحكم المغرب كله أو أن ذلك كان فى استطاعته — لكن تحقيقه هذا النصر كان يعنى أنه سيكون فى مركز قوى فى مجال المساومة للوصول الى استقلال الريف وطرد الأسبان من شمال المغرب وهو هدفه الأول والأخير . ولو كانت لعبد الكريم حنكة سياسية أكثر لأدرك أن الفرنسيين لابد ـ بعد أن يعودوا الى رشدهم من الصدمة الأولى التى أصابتهم — أن يعملوا على غسل العار الذى أصابهم بطارده على الأقل من الأماكن التى كانت تحتلها قواتهم — ان لم يكن تصفية الخطار الدى أصبح وجوده يمثله نهائياً .

وإدراكه لهذه الحقيقة كان كفيلا بأن يجعله يتردد أكثر من مرة فى الإقدام على محاربة الفرنسيين مهما كان الدافع .

---

(١) فورنو : المرجع السابق ص ١٧٥ .

وفى يونيو ١٩٢٥ م أعلنت هدنة مؤقتة بين الطرفين وقابل مبعوث فرنسى هو غابريلى (Gabrielli) [1] عبد الكريم للتفاوض فى شروط الوصول الى اتفاق مع فرنسا — لكن فى هذه الأثناء كان الدبلوماسيون الفرنسيون والأسبانيون يجتمعون فى مدريد لوضع أساس تعاون الدولتين للوقوف فى وجه قوات عبد الكريم . وقد رفض عبد الكريم طوال عام ١٩٢٥ م والشهور الأولى من عام ١٩٢٦ م جميع الشروط التى عرضتها عليه الحكومتان الفرنسية والأسبانية لأنها كانت لا تتفق وهدفه فى ضمان استقلال الريف . ولأنه كان يعتقد — كما يبدو — أنه ما زال قادراً على ربح الحرب ضد الأسبانين والفرنسيين — الأمر الذى سيمكنه من إملاء شروطه الخاصة .

لكن إخفاق الريفيين فى خط الوسط ، وزوال الخطر الموجه إلى فاس وتازا — وإرسال الحكومة الفرنسية الجنرال (بيتان) ليتولى القيادة فى المغرب وإمداده بقوات وصلت إلى ضعف ما كان يطالب به سلفه — ليوتى دون طائل . هذا بالإضافة إلى العامل الرئيسى وهو التعاون الفرنسى الأسبانى بشكل حاسم ضد قوات الريف — كل هذه حسمت الموقف .

وكانت أسبانيا قد وضعت خطه لانزال جنودها فى خليج الحسيمة والزحف صوب (أجدير) عاصمة عبد الكريم — ولم تكن هذه الخطة خافية عن عبد الكريم ، ولم تخط أسبانيا هذه الخطوة إلا بعد موافقة الأركان العامة الفرنسيه على الخطة .

وكان عبد الكريم يحتفظ بجزء كبير من قواته فى الشرق لمنع الأسبان من الإندفاع من مليلة ، كما كان لابد من الاحتفاظ بجيش آخر فى المغرب لمحاصرة (تطوان)، وكانت القلعة الأسبانية فى الجزيرة تمثل خنجراً موجها لقلب الريف .

---

(١) انظر كتابه الهام عن أحداث حرب الريف :

Gabrielli, L. : Abd el—Krim, et Les événements du Rif (Casablanca 1953).

قد علل عبد الكريم فيما بعد — سر عدم استيلائه على هـذه القلعة لعوامل انية تتعلق بوجود أعداد غفيرة من النساء والأطفال الأسبان فيها[1] .

وقد ظهر الأسطول الأسبانى عند خليج الحسيمة فى السابع من سبتمبر ١٩٢٥ م وكان من ١١١ مركباً — وقد أخفق عبد الكريم فى تعيين الموقع الحقيق للإنزال والذى سيبدأ منه العدو عملية الغزو الجديدة . ولم يكن يملك ما يكفى من القوات لحماية ساحل الخليج الطويل كله — كما أنه أخطأ حين أتاح فرصة للأسبان الإستيلاء على المرتفعات التى تشرف على الأقاليم الداخلية .

ونجحت القوات الأسبانية بمعاونة البحرية الفرنسية والقوة الجوية التى لم تكف عن إلقاء قنابل الغاز السام — فى أن تستولى على الجبال التى تشرف على (أجدير) ، وأضطر الريفيون إلى الجلاء عن المدينة وتقهقروا نحو الجنوب — واستولت القوات الأسبانية على (أجدير) وانتشرت أنباء سقوط عاصمة الجمهورية الريفية فى أرجاء الريف ، وأصدر الأسبان بياناً باللغة العربية وزع على نطاق واسع بواسطة الطيران يمنح الريفيين ثلاثة أيام للإستسلام ويعدون العفو عن جميع الذين يلقون السلاح .

وقد جرت عدة إتصالات بهدف عقد الصلح عن طريق المفاوضات . وفى ابريل ١٩٢٦ م أعلنت هدنة والتقى مندوبو الطرفين فى (وجده) للتباحث فى شروط الصلح ، ورفض عبد الكريم طلب الجانب الأسبانى الفرنسى القاضى بإطلاق سراح الأسرى قبل المفاوضة فى الصلح لرغبته فى الإحتفاظ بسلاح قوى للمساومة — وقد انتهى المؤتمر إلى دروب مسدودة بشأن الإختلاف فى معنى عبارة (الحكم الذاتى) ومضمونها — التى وعد بها الريفيون . ويعتقد عبد الكريم أن أعداءه قد دعوا إلى هذا المؤتمر لمجرد كسب الوقت إنتظاراً لنهاية فصل

---

(١) ملاحظة : وصف Water B.Hartrs مراسل جريدة التيمس Times البريطانية والذى قضى فى المغرب فى هذه الأثناء فترة طويلة من حياته — الأمير عبد الكريم بالقسوة والفظاظة . ولعل هذا الموقف من عبد الكريم بالإضافة إلى مواقف أخرى سجلها له مراسلون آخرون ينفى عنه هذه التهمة

الامطار . ولذلك فقد فضل الريفيون أن يقاتلوا بالأحرى من أن يفقدوا أرضهم وشرفهم على حد سواء . وأن الاسبانيين إذا ما نزعوا سلاح القبائل كما كانوا يطالبون فى شروطهم ـ سيخنقون بكلمتهم . . ولذا فيفضل أن يسقط هو والريفيون والسلاح فى أيديهم ـ قد يخسرون الحرب . . لكنهم سيحتفظون بشرفهم[1] .

وهكذا إنفرط (مؤتمر وجده) فى ٦ مايو واستؤنفت الحرب — وكان الأمير قد اتخذ (تارجيست) مقراً لقيادته بعد سقوط « أجدير » .

وضيقت القوات الأسبانية والفرنسية الخناق على الأمير والقلة المخلصة الباقية معه من رجاله . فبينما انطلق الأسبانيون جنوباً من الحسيمة ـ اندفع الفرنسيون شمالا . وفى ٢٣ مايو (١٩٢٦ م) أحتلت الطلائع الفرنسية الهضاب المجاورة للحصن ـ وانطلق عبد الكريم على صهوة جواده يرافقه إثنا وعشرون فارساً هم الباقون أحياء من جماعته ، إلى قرية (سنادا) حيث طلبوا الحماية من شريفها (سيدى حميدو) الذى نصحهم بالإستسلام للفرنسيين .

وفى يوم ٢٧ مايو ١٩٢٦م استسلم الأمير عبد الكريم وأخوه للقائد الفرنسى (كوراب)[2] وباستسلام عبد الكريم إنهارت المقاومة فى الريف ـ فكما يقول ولتر هاريس[3] « إن القبائل تشتت بعد إختفاء زعيمها » .

وفى مؤتمر عقد فى باريس فى ١٤ يونيو ١٩٢٦م ـ تقرر نفى عبد الكريم وأخيه وأمهما وخالهما عبد السلام مع عائلاتهم (يبلغون خمساً وعشرين نسمة) إلى جزيرة ريونيون فى المحيط الهندى ـ ونقلوا أولا إلى مارسيليا ثم إلى المنفى . وقد قضت والدته نحبها فى عام ١٩٢٦م ، وفى عام ١٩٤٧م سمح لعبد الكريم

---

(١) مورنو — مرجع سابق ص ٢٢٦ (نقلا عن مذكرات عبد الكريم)

(٢) اشتهر فيما بعد فى الحرب العظمى الثانية فقد كان قائداً للجيش الفرنسى التاسع الذى هزمه الألمان فى عام (١٩٤٠ م) فى موقعة سيدان الشهيرة .

(٣) الصحفى البريطانى السابق الإشارة إليه والذى كان شاهداً لهذه الأحداث .

وأسرته بالإقامة فى فرنسا ، وفى ٣١ مايو ١٩٤٧ م كانت الباخرة التى تقل الريفيين (كان عددهم قد وصل الى إثنين وأربعين) ترسو فى ميناء بور سعيد وهبط منها الأمير وأتباعه ولم يعودا ، فقد طلبوا اللجوء السياسى فى مصر ، وقد رحبت بهم مصر وجعلت للأمير ولأخيه مرتباً لميشتهما - وظل الأمير بمصر حتى وفاته فى ٦ فبراير ١٩٦٣ م وهو فى الواحدة والثمانين من العمر .

على أن المغاربة لم يلبثوا أن هبوا للكفاح فى سبيل إستقلال بلادهم — وشهدت هذه الفترة ألواناً جديدة من الكفاح ، فبدأت تظهر الأحزاب التى تطالب بالإصلاحات الإجتماعية ، والأحزاب السياسية التى تتزعم حركة مقاومة الإستعمار . وهذه الصفحة الرائعة من تاريخ المغرب المعاصر تحتاج لدراسة منفصلة ، ولكننا نشير هنا لبعض المعالم الهامة فيها .

فقد تألفت فى عام ١٩٢٦ كتلة العمل الوطنى ، وأصدرت بعض الصحف والنشرات للمطالبة بالإصلاح ولتوجيه الرأى العام المغربى فى طريق الكفاح الجديد .

ولما نشبت الحرب الأهلية فى أسبانيا — وعد (الجنرال فرانكو) المغاربة بالنظر بعين العطف لمطالبهم إذا تعاونت قواتهم مع قواته فى القتال ضد قوات حكومة الجمهورية فى برشلونه — لكن الوطنيين المغاربة كانوا يريدون تصريحاً واضحاً وصريحاً بالإستقلال[1] .

وقد حاول الفرنسيون ممارسة السياسة الإستعمارية المعروفة (فرق تسد) فأصدروا فى ١٦ مايو ١٩٣٠ ما عرف (بالظهير البربرى) بهدف إيجاد التفرقة بين سكان جبال الأطلس وسكان السهول فى الإدارة والتشريع وغير ذلك بدعوى أن الأولين بربر والآخرين عرب ، ولما ضيقوا الخناق على كتلة العمل الوطنى ، اتجه الوطنيون إلى تكوين (الحزب الوطنى) الذى أصبح يمثل شوكة حقيقية فى جنب الإستعمار — خاصة بعد أن تعددت فروعه فى أقاليم المغرب

---

(١) العقاد صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٦) ص ٣٩١ .

المختلفة وأصبح يهاجم الإستعمار علناً — حتى أن فرنسا أضطرت سنة ١٩٣٧م إلى القبض على رئيس الحزب الأستاذ علال الفاسى وأبعدته إلى الجابون ، بينما قبض على البارزين من أعضائه وأودعوا السجون والمعتقلات .

وأثناء الحرب العظمى الثانيـــة (١٩٣٦ — ١٩٤٥ م) أضطرت فرنسا لإطلاق سراح المعتقلين ، وكانت وعود الدول المتحاربة أثناء الحرب والخاصة بحقوق أبناء المستعمرات فى تقرير مصيرهم بأنفسهم ـ وذلك بهدف جذبهم للعمل فى صفوف القوات المتحاربة ـ مشجعة للمطالبة بالإستقلال .

وبعد الحرب لجأت أسبانيا لمهادنة العناصر الوطنيـة فى الريف للتقرب من الدول العربية . ويبدو أن أسبانيا وجدت نفسها بعد هذه الحرب فى عزلة سياسية بسبب موقفها أثناء الحرب ، ونظامها فى الحكم المطلق، فأرادت أن تثبت للدول الغربية وللولايات المتحدة الأمريكية أنها تستطيع أن تخدم مصالحهم فى البلاد العربية بنفوذها وثقة العرب فيها .

وانتهز الوطنيون المغاربة الفرصة فأعلنوا عن تأليف (حزب الإستقلال) وتقدموا بعريضة بمطالب الأمة لجلالة الملك محمد الخامس[1] . وكانت هـذه المطالب تتلخص فى إستقلال المغرب ووحدة ترابه وذلك فى ظل ملكية دستورية .

ولعب الملك محمد الخامس دوراً سياسياً هاما فى صف الحركة الوطنية ـ فأعلن مساندته وتأييده للمطالب العادلة التى يطالب بها الشعب .

وقد هال الفرنسيين ما لمسوه من إجمـــاع الشعب والملك على المطالبة بالإستقلال الكامل ـ فألقوا التبعة على الأمين العام لحزب الإستقلال والبارزين منه واتهموهم بإتصالهم بدول المحور ، وزادت أعمال القمع هذه من إشتعال نار

---

(١) بويع فى ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ/ ١٨ نوفمبر ١٩٢٧ (بعد وفاة المولى يوسف بن الحسن).

الثورة ، وظهر تخبط فرنسا فى كثرة تغيير وتبديل ممثليها فى المغرب (المقيم الفرنسى) .

وزاد غضب فرنسا إثر زيارة الملك محمد الخامس لطنجه فى عام (١٩٤٧م) ، والخطاب الذى ألقاه بها مؤكداً التمسك بوحدة المغرب الجغرافية وبحقه فى الحرية والاستقلال ، ومشيداً بجامعة الدول العربية ، وإعلانه أن بلاده جزء من الوطن العربى الكبير - فسحبت المقيم الفرنسى بالمغرب وعينت الجنرال جوان Joan لينفذ السياسة الصارمة التى اختطتها لمواجهة هذا الموقف .

وسافر الملك محمد الخامس إلى باريس وعرض القضية المغربية على حكومة فرنسا موضحاً حقوق بلاده العادلة لكن لم يجد إستعدادا لدى الفرنسيين لتقبل وجهة النظر المغربية فعاد لبلاده ليستمر فى مساندته للحركة الوطنية .

وعبثاً حاول المقيم الفرنسى (الجنرال جوان) حمل الملك على التخلى عن مساندته (لحزب الاستقلال) والوطنيين المطالبين بالاستقلال ، وإعلان أنهم مثيرو شغب ، ومرة أخرى عزلت فرنسا مقيمها بالمغرب الجنرال (جوان) بعد أن فشلت سياسته فى قمع الحركة الوطنية .

ولما أقدمت فرنسا فى ٢٠ أغسطس ١٩٥٢ م على خلع الملك محمد الخامس من عرشه وأحلت (محمد بن عرفه) مكانه - ثارت ثائرة المغاربة ، واتجهت المقاومة اتجاهاً جديداً - فقد بدأت تظهر حركة المقاومة المسلحة بواسطة (جيش التحرير المغربى) وأدركت فرنسا أنها ستتورط فى حرب يخشى أن تندلع نارها فى كل شمال أفريقيا الخاضع لسلطانها - فأسرعت فى عام ١٩٥٦ م بإعادة الملك محمد الخامس إلى بلده لكنه اشترط أن تعترف فرنسا بحق المغرب فى الاستقلال وأن يشكل حكومة تدخل مع فرنسا فى مفاوضات لتحقيق هذا الهدف ولتحديد العلاقات الجديدة بين فرنسا والمغرب . وفعلا تشكلت حكومة مغربية جديدة فى ١٢ فبراير ١٩٥٦ وسافر وفد مغربى إلى باريس للتفاوض مع الفرنسيين . وسافر الملك بنفسه إلى باريس ليفتتح هذه المفاوضات التى انتهت بالتصريح

المشترك الذى أعلن فى ٣ مارس ١٩٥٦ متضمناً الاعتراف الكامل باستقلال المغرب وحريته ووحدة ترابه وحقه فى التمتع بسيادته الكاملة ، وأن عقد الحماية المبرم فى ٣٠ مارس ١٩١٢ لم يعد يتلاءم ومقتضيات الحياة العصرية ، وأنه لا يمكن من الآن فصاعداً للعلاقات الفرنسية المغربية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنوده[1] .

وأعلن الملك للشعب المغربى وضع هذا الإتفاق موضع التنفيذ بتحرير السلطة التشريعية مما كانت مقيدة به ، وتكوين جيش مغربى وطنى ، وتخليص التمثيل الدبلوماسى المغربى من سيطرة المستعمر الأجنبى .

وبعد التسليم الفرنسى للمغرب أصبح مركز أسبانيا حرجاً — فقد كان وضعها فى المغرب مرتبطاً بمعاهدات وإتفاقات مع فرنسا فأضطرت للخضوع للأمر الواقع . وأستدعت الملك المغربى للسفر لمدريد لنفس الغاية . وفى ٤ أبريل ١٩٥٦ سافر الملك محمد الخامس على رأس وفد لمدريد ، وفى ٧ أبريل صدر تصريح مغربى أسبانى مشترك متضمناً نفس المبادىء التى تضمنها التصريح المغربى الفرنسى . وعاد الملك إلى (تطوان) ليعلن من قاعدة المملكة فى الشمال — كما سبق أن أعلن من (الرباط) — وحدة التراب المغربى ، وأن العلاقات بين المغرب وأسبانيا تقوم على أساس المساواة الكاملة واحتفاظ كل من الدولتين بسيادتها على أن يقوم التعاون بينهما فى نطاق المصالح المشتركة مع ضمان حقوق الأسبان المقيمين بالمغرب .

وأعلن الملك محمد الخامس فى ١٧ أبريل ١٩٥٦ م عن تأسيس وزارة الخارجية المغربية ، كما أعلن عن تأسيس جيش مغربى وطنى لحماية الوطن وصيانة حدوده وشهد المواطنون فى ١٥ مايو من نفس العام أول إستعراض لهذا الجيش الوطنى .

---

(١) انظر التصريح بملحق الكتاب .

وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ م أعلنت الدول التى كانت تتولى إدارة منطقة طنجه — وهى (بلجيكا ، وإسبانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وهولنده ، والبرتغال ، والمملكة المتحدة) إلغاء نظامها الدولى ووضعها تحت سيادة المغرب على أن يمارس هذه السيادة إبتداء من أول يناير ١٩٥٧ م[1].

وانضم المغرب بعد استقلاله مباشرة لعضويه هيئة الأمم المتحدة .

وهكذا طويت هذه الصفحة من الإستعمار الفرنسى الأسبانى للمغرب العربى .

---

(٣) عودة ، عبد الملك : السيادة والحكم فى أفريقيا (القاهره ١٩٥٩) ص ٣٧٥ .

الباب الرابع

ليبيا والأطماع الاستعمارية

أنواع التعليم الحديث شيئاً ، وكانت خالية من أسباب الثروة إلا قليلا من الزراعة على المطر ، وبعض الحيوانات ، وشجر النخل ، والزيتون مع خصب أرضها واستعدادها للإنبات وتربية الحيوانات، وكانت خالية من الجنود وآلات الحرب وجميع وسائل الدفاع[1] .

ويشارك د . خدورى فى إعطاء صورة دقيقة عن الأوضاع فى ليبيا قبيل الاستعمار الإيطالى لها فيذكر « إن الحكم العثمانى فى ليبيا لم يكن محبوباً ، وما أكثر ما تحدث الناس عن ظلامات سوء الإدارة العثمانية . . وبسبب تأثر الليبيين بالدعوة الإسلامية الإصلاحية التى دعا اليها جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده من جهة ، والدعوة القومية التى حمل لواءها مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى فى مصر ، والصحافة المصرية من جهة ثانية ـ ظل الليبيون على ولائهم للوحدة العثمانية ـ لكنهم مثل غيرهم من رعايا الإمبراطورية المخلصين ـ كانوا يشعرون شعوراً عميقا بالحاجة الماسة الى إصلاح الإدارة الحكومية وتحسينها ـ ولذا فإنهم رضوا بالانقلاب العثمانى الذى قامت به تركيا الفتاه سنة ١٩٠٨ ، وأقاموا حكماً برلمانياً مثلت فيه منطقتا طرابلس ، وبرقة اللتان قاومتا أولئك الذين دعوا إلى الانفصال عن الوحدة العثمانية ، وترتب على هذا أن الحركة القومية فى ليبيا وغيرها من أقطار شمال أفريقيا لم تكن رد فعل ضد السيادة العثمانية على نحو ما تم فى العالم العربى إلى الشرق من مصر ـ بل كانت متسقة تماماً مع السلطة العثمانية ومتعاونة معها[2] » .

وبعد أن أصبحت الجزائر وتونس ومصر تسيطر عليها دول أوروبية مسيحية ـ فإن دعاة الجامعة الإسلامية والقوميين على السواء لم يروا فى الباب العالى خصماً ـ بل بالعكس رأوا فيه نصيراً للحركات القومية فى شمال أفريقية ـ وهكذا كان الدين من أقوى الدعائم فى ظهور القومية وتطورها فى هذه المنطقة من العالم العربى . وكثيراً ما كان دعاة القومية فى شمال أفريقية يستنجدون بسلطة السلطان الخليفة المقدسة لدعم القومية ومقاومة المناهضين والمعتدين عليها .

---

(١) الزاوى ، الطاهر أحمد — مرجع سابق ص ص ٢٩ — ٣٠

(٢) مجيد، خدورى: ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زياده، مراجعة ناصر الدين الأسد — ١٩٦٦) ص ١٩ — ٢٠ .

أما من الناحية العسكرية فقد كانت القوة الدفاعية فى ليبيا قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف - وإذا كانت الدولة العثمانية قد سارعت بعد إحتلال الفرنسيين لتونس بإرسال ١٠٫٠٠٠ جندى إلى ليبيا لحمايتها مما أصاب تونس - مما أضطر الإيطاليين فعلا لأن يؤجلوا إتخاذ الخطوة الحاسمة التى كانوا يرسمون لها - فإن الدولة العثمانية عادت فسحبت معظم قواتها من ليبيا للقضاء على ثورة اليمن . حدث هذا قبيل الغزو الإيطالى لليبيا بفترة قصيرة .

ويذكر الأمير شكيب أن الباب العالى حين فكر فى سحب قواته من ليبيا لإرسالها إلى اليمن سأل حقى باشا الذى كان فى ذلك الوقت سفيراً للدولة العثمانية فى روما - هل هناك خوف من إيطاليا على طرابلس ؟ - فأجاب بالنفى ، وأنه يمكن للدولة أن تأخذ ما تشاء من حامية طرابلس لنجدة اليمن دون أن تخاف من الطليان أى ضرر .

وكان فى ذلك الوقت فى طرابلس ٤٠٫٠٠٠ (بندقية) من نوع قديم فاسترجعتها الحكومة العثمانية على وعد بأن ترسل بدلا منها من النوع الحديث (موزر) لكنها لم ترسل شيئاً ، كما أخلت القلاع من المدافع والحرس فلم يبق فى كل قلعة سوى ثلاثة من الجنود من غير ضباط بعد أن كان فى كل قلعة ١٥ جندياً وضابطاً - ولم يبق فى القطر الليبى كله إلا ألفاً جندى بعد أن كان فيه نحو عشرين ألفاً [١] .

هكذا تخلى الأتراك العثمانيون عن واجبهم الأول فى أن يكملوا الثورة والقدرة على المقاومة فى هذه الولاية التابعة لهم خاصة أن الخطر الذى تتعرض له لم يكن خافياً على أحد . فرجل الشارع فى طرابلس كان يدرك أن التيارات الإستعمارية التى هبت على منطقة الشمال الأفريقى فأقتلعت أسباب الإطمئنان والحرية فى الجزائر وتونس فى طريقها إلى ليبيا أيضاً .

---

(١) الزاوى : مرجع سابق ص ٤٨ — ٤٩ .

وكان على السنوسية ـ الحركة الدينية الفتية التى كانت ـ كما شرحنا فى فصل سابق ـ قد أخذت تنتشر فى برقة وغيرها من أنحاء ليبيا بل وخارج حدودها ـ أن تواجه هذا الخطر الأوروبى الإستعمارى ـ باعتبار أن مواجهة هذا الخطر والتصدى له فى هذه الظروف كان دوراً من أدوار الجهاد المفروضة على المسلم .

إيطاليا تمهد لإستعمارها فى ليبيا :

أما من جهة إيطاليا فقد كانت على العكس — تمهد منذ زمن لتثبيت أقدامها فى ليبيا .

وعلاقة إيطاليا بشمال أفريقيا لم تكن جديدة : فهى ترجع إلى العصور القديمة حين مد الرومان نفوذهم إلى أفريقيا الشمالية حتى أن البحر المتوسط كان ينظر إليه على أنه بحيرة رومانية .

لكن منذ ظهور العرب كقوة فى القرن السابع الميلادى — نجحوا فى مد نفوذهم إلى الشمال الأفريقى ، ورأينا فى الفصول السابقة أن الأمر لم يقتصر على النفوذ السياسى فحسب بل حدث تغيير جذرى ترتب عليه صبغ الشمال الأفريقى كله بالصبغة العربية .

ولم تنقطع صلة إيطاليا بشمال أفريقيا خلال تلك الفترة ـ فقد قامت خلال العصور الوسطى ، وأوائل العصور الحديثة ـ علاقات قوية بين بيزا ، وجنوه ، والبندقية ،وغيرها من الولايات الإيطالية التى نشطت فى تلك العصور فى ميدان الملاحة التجارية ـ وبين المدن الساحلية بالشمال الأفريقى ، وكان لجزر البحر المتوسط القريبة لصقلية وسردينيا أيضاً خلال تلك العصور والعصور التالية نشاط واضح مع البلدان المطلة على البحر المتوسط .

وكان طبيعياً بحكم موقع إيطاليا وباعتبارها دولة من دول البحر المتوسط أن تتأثر بالتيارات المختلفة التى اجتاحت هذا البحر عبر العصور ، وأن تكون للأحداث الهامة التى تعرضت لها دول الشمال الأفريقى فى تاريخها الحديث والتى تعرضنا لها فى دراساتنا السابقة فى هذا الكتاب ـ صداها فى إيطاليا ـ ومشاركتها الفعلية فى هذه الأحداث .

وحين اتجهت أنظار الدول الإستعمارية للشمال الأفريقى منذ بداية العصور الحديثة كانت إيطاليا بالطبع تتطلع لأن تلعب هى الاخرى دوراً فى هذا الميدان بحكم موقعها الجغرافى وبحكم صلتها القديمة التى أشرنا إليها بالمنطقة .

لكن ظروف إيطاليا تركت المجال لغيرها من الدول المنافسة لها فى شمال أفريقيا لتسبقها فى تحقيق أطماعها ـ فقد شغلت إيطاليا بتحقيق وحدتها[1] .

وكان إحتلال الفرنسيين لتونس فى عام ١٨٨١ م عميق الأثر فى إيطاليا — فقد أعتبر ضربة قوية لمصالح الإيطاليين فى البحر المتوسط ، وأدى لشعور بخيبة الأمل فى إيطاليا[2] .

ولعل هذا الشعور كان من أقوى العوامل التى دفعت الإيطاليين للعمل على بسط نفوذهم فى منطقة البحر المتوسط وشرق أفريقيا، مما ترتب عليه قيام مستعمرة (إرتريا) و (الصومال الإيطالى) واتجاه الأطماع الإيطالية إلى إثيوبيا ، ولم يوقفها عند حدها إلا هزيمتها العنيفة فى موقعة عدوه فى مارس ١٨٩٦[3] .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو ـ لماذا لم تتخذ إيطاليا خطوة حاسمة فى ذلك الوقت لإحتلال ليبيا بعد إحتلال الفرنسيين لتونس مباشرة واتجه الإيطاليون لشرق أفريقيا لممارسة نشاطهم الإستعمارى وأجلوا ـ إلى حين ـ إتخاذ الخطوة النهائية فى ليبيا .

لعل عدة أسباب هى التى دعت إيطاليا لأن تتجه هذا الإتجاه. منها ما ذكرناه

---

(١) نودى بالملك فكتور عمانوئيل (Victor Emmanuel) ملكا على ايطاليا الموحدة فى فبراير عام ١٨٦١ م ، ولم تضم البندقية وروما إلى هذه المملكة إلا فيما بعد — فلم تكتمل الوحدة الايطالية الا عام ١٨٧١ م .

(٢) Safwat, M. : Tunis and the Great powers (1943) P. 124.

(٣) لمن يريد التوسع فى دراسة دور إيطاليا فى شرق أفريقيا واثيوبيا يرجع إلى : شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهره ١٩٧٠) — ص ص : ٣٤٣ — ٣٦٨ .

سابقاً من أن الدولة العثمانية بادرت بعد اعتداء فرنسا على تونس بإرسال تعزيزات إلى ليبيا - فرأت إيطاليا أن تتمهل إلى أن يحين الوقت المناسب حتى لا تصطدم مع الدولة العثمانية - خاصة أن هذا كان رأى حليفتها إنجلترا فى ذلك الوقت .

والدليل على صحة هذا الرأى أن كريسبى Francesco Crispi رئيس وزراء إيطاليا أرسل بعد إحتلال فرنسا لتونس- عدة رسائل إلى دول أوروبا- ومنها رسالة إلى اللورد سالسبورى Salisbury فى إنجلترا . ويقال إن اللورد سالسبورى — رد عليه مقراً بأن طرابلس الغرب ستكون بلا شك من نصيب إيطاليا ، لكن يجب أن يتمثل بذلك الصياد الماهر الذى يتحين الفرص ليتمكن من إصابة فريسته ولا تفلت منه ولو كانت مجروحة[1].

ومن الأسباب الأخرى أن ظروف مصر وأملاكها فى السودان وعلى سواحل البحر الأحمر ، وتطور العلاقات بين الدول الإستعمارية التى كانت لها أطماع فى هذه المناطق فى أفريقيا وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا — شجعت إيطاليا على الإتجاه لشرق أفريقيا ، فقد كان نشاطها هناك يلقى تأييداً من إنجلترا التى رأت مصلحتها فى أن تساند إيطاليا وتؤيد نشاطها فى هذه الجهات وبذلك يمكن أن تتخذها حليفاً لها فى المسألة المصرية. فقد كان الفرنسيون يضغطون على إنجلترا منذ احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ م ويحرجونها للجلاء أو لتحدد تاريخاً معيناً لذلك — وظل الأمر كذلك حتى عقد الأتفاق الودى بين الدولتين (Entente Cordiale) عام (١٩٠٤ م). وقد أشرنا إليه فيما مضى ، كما أوردنا نصوصه فى ملحق هذا الكتاب . هذا بالإضافة إلى أن وجود إيطاليا فى هذه المناطق بشرق القارة يمكن أن يكون درعاً لمقاومة توسع حكومة الدراويش بالسودان ، بالإضافة إلى تحقيق هدف آخر هو وقوف إيطاليا فى وجه الأطماع الفرنسية فى شرق أفريقيا[2] .

على أن اتجاه إيطاليا هذا كان مجرد تأجيل للخطوة المترقبة فى ليبيا . إذ أن إيطاليا

---

(١) الزاوى : مرجع سابق ص ٢٧ .

(٢) Hollis, Christopher : Italy in Africa (London 1941) P. 21

كانت ترى فى شمال أفريقيا - وليس فى شرقها - المجال المناسب لتوسعها، ورأت فى التقارب بين سياستى إنجلترا وفرنسا واتفاقهما على تغاضى كل منهما عن الأخرى فيما يتعلق بمصر والمغرب الأقصى - مايضمن عدم معارضة أى من الدولتين لنشاط إيطاليا فى ليبيا - ووصلت إيطاليا إلى اتفاق مع روسيا (١٩٠٩م) تعهدت فيه إيطاليا بمساندة طلب روسيا الإعتراف بحق سفنها فى المرور من البوسفور والدردنيل دون أى قيد فى مقابل مساندة روسيا للأطماع الإيطالية فى طرابلس - أما ألمانيا فلم تكن لها أطماع فى ليبيا وكانت ترحب بتحقيق إيطاليا لأهدافها هناك . وهكذا كانت إيطاليا قد مهدت المناخ الدولى لقيامها بعمل حاسم فى ليبيا .

أما فى ليبيا ذاتها فقد كان الإيطاليون يعملون بنشاط للتمهيد لبسط نفوذهم بتغلغلهم فى الحياة الإقتصادية والعمرانية فيها .

ففى عام ١٩٠٥ م أسس فى طرابلس فرع لـ (بنك روما) وقد حاول رجب باشا والى طرابلس (تولى الولاية ١٩٠٤م وبقى فى منصبه نحو ست سنوات) معارضة تأسيسه لأنه أدرك أن مثل هذه المشروعات الإقتصادية ماهى إلا وسيلة لتحقيق أهداف سياسية أخرى - لكن حكومة الاستانة أوعزت إليه بعدم التشدد خوفاً من القلاقل السياسية فأنشىء البنك رغم أنفه وبدون إستصدار مرسوم من حكومة الاستانة أو موافقة الحكومة المحلية — واتخذ الايطاليون منه مركزاً للدعاية ، وأسندوا إدارته إلى (براشيانى) أحد دهاة السياسة . وكان رئيس البنك كثير التجول فى ليبيا لبث الدعاية المغرضة والإطلاع على أحوال البلاد ، وكان يبذل المال عن سعة ، وفى كل مناسبة . ويتصل بالأعيان يتخذ منهم أصدقاء وسماراً .

كذلك أذنت الحكومة العثمانية للطليان فى إنشاء مكاتب للبريد الايطالى وكانت هذه المكاتب منتديات يجتمع فيها سياسيو بنك روما لتدبير الحيل للتعجيل بإحتلال طرابلس .

وفى عام ١٩٠٦ سمحت الحكومة العثمانية لإيطاليا بإرسال بعثة عسكرية من عدة ضباط تحت شعار إنها بعثة علمية للبحث عن الآثار ، وكانت المهمة

الحقيقية لهذه البعثة أن تضع الخرائط الحربية لجميع المناطق الهامة التى تمر بها .

هذا وقد وجد عدد كبير من أصحاب النفوذ فى طرابلس ـ وظائف فى بنك روما وأصبحوا يأخذون مرتبات منه حسبما يقدمونه من خدمات ضد وطنهم ـ وهكذا أصبحت لايطاليا شبكة من الأنصار فى جميع مصالح الحكومة الحيوية كالتلغراف والتليفون والبريد ، وكان إذا استغنت حكومة طرابلس عن بعض الموظفين لخطأ جسيم ارتكبوه فى حق بلدهم أو لتصرف يتنافى مع الأمانة فى العمل وما يجب أن يلتزم به الموظف من الدقة والحرص على عدم إفشاء أى أسرار تتعلق بعمله تمس سلامة وطنه ـ يسرع بنك روما بتوظيفهم حتى أصبح كثير من الموظفين الليبيين يتصفون بعدم المبالاة إتكالا على حماية القنصلية الايطالية[1] .

وأنشأ البنك مطبعة وجريدتين تتحدثان باسمه (ايكودى تريبلى) و(استيلا) (Echo de Tripoli) و (Stela) .

وأنشأت الحكومة الإيطالية المدارس فى طرابلس ، وكانت تقبل التلاميذ بالمجان ، وكانت المدارس التركية تطرد بعض التلاميذ ، إما لقلة الأمكنة أو لعجزهم عن دفع المصاريف فكانت المدارس الايطالية تتلقاهم بالترحيب ـ ولم يكن هذا بالطبع غيرة على أبناء ليبيا بل مخططا محكماً لتحقيق أطماع إيطاليا التى أصبح نفوذها ولغتها يتغلغلان فى ليبيا بشكل ملفت الأنظار[2] .

وكان نشاط إيطاليا كبيراً فى المشروعات الإقتصادية المعدنية وغيرها ، فقد أنشئت شركة إيطاليا لاستغلال الفوسفات والتنقيب عن المعادن فى ليبيا ،

ونبهت الجرائد المحلية التركية والعربية مراراً مثل (تعميم جريت) التركية ،

---

(١) الزاوى : مرجع سابق ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) عارض الوالى احمد راسم باشا معارضة شديدة فى إنشاء المدارس الايطالية ، ومع ذلك فقد تخرج عدد كبير من هذه المدارس منهم اليهود وغيرهم ، وصار عدد منهم تجاراً يربطون معاملاتهم التجارية مع ايطاليا ، ومنهم الموظفون — وأصبح تعلم اللغة الإيطالية يفتح المجال للعمل والثراء ، وقدر عدد المتكلمين بالإيطالية فى طرابلس قبل الاحتلال الايطالى بـ ٣٠ ٪ من سكانها بينما لم يرد عدد المتكلمين بالتركية عن ٥ ٪ .

و « الترقى » و « المرصاد » و « أبوقشه » العربية ـ إلى الأخطار المترتبة على ترك النفوذ الايطالى يتغلغل وينتشر فى البلاد بهذا الشكل ـ دون جدوى .

ووصل الأمر إلى ان الحكومة الايطالية كانت تتدخل لعزل الولاة الذين حاولوا الوقوف فى وجه الأطماع الإيطالية .

فحين أظهر إبراهيم أدهم باشا « الذى تولى أمر الولاية فى عام ١٩٠٩ م » ـ اتجاهاً إلى اصلاح الأحوال وطالب تركيا بإرسال كميات من السلاح ليدعم قوة ليبيا الدفاعية ، ووقف فى وجه نفوذ بنك روما فى طرابلس وتشعب نشاطه ـ طلبت إيطاليا عزله فعزل فى سبتمبر ١٩١١ م .

وأرسلت إيطاليا فى هذا العام بالذات « ١٩١١ م » بعثة عسكرية ـ من بين أعضائها ضباط من هيئة أركان حرب الجيش الايطالى كانوا يرتدون الملابس المدنية وذلك لعمل الخرائط والصور اللازمة ـ وقد قيل إن البعثة مجرد بعثة جغرافية، وعال تجوالها فى مختلف أنحاء البلاد بهذا الستار العلمى ـ وظلت هذه البعثة تتجول فى ليبيا حتى قامت الحرب ، وكان من بين أعضائها الكونت « سفورزا Count Sforza الذى اشترك فيما بعد فى عام ١٩١٣ م فى المفاوضات مع الزعماء الطرابلسيين ـ وقد قبض على بعض أعضاء هذه البعثة فى أوائل الحرب فى مارس ١٩١٤ م .

هكذا مهدت ايطاليا دولياً باتفاقها مع الدول التى يهمها الأمر وداخلياً بدراسة الأوضاع فى ليبيا ، والانتشار فى مختلف الميادين والإرتباط بالعديد من الشخصيات الليبية الهامـــة ، فلم يكن أمام ايطاليا إلا أن تختار الوقت لتضرب ضربتها .

الحرب الليبية الإيطاليـــة
والمقاومة الوطنية

تسلم حقى باشا رئيس الوزارة فى سبتمبر ١٩١١ م من سفير ايطاليا « دى مارتينو » عدة مطالب تقدمت بها ايطاليا منها مايلى :

١ ـــ خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، وبنى غازى ، ودرنه .

٢ — تشكيل «جندرمة» فى هذه البلاد تحت قيادة ضباط من الطليان .

٣ — أن تكون إدارة الجمارك بأيدى موظفين من الطليان .

٤ — لا يتعين وال لطرابلس إلا برضا ايطاليا وموافقتها .

وبعد ذلك تقدم السفير الإيطالى فى ٢٧ سبتمبر ١٩١١ م بإنذار موقع عليه من (سان جوليانو) وزير الخارجية الإيطالية موجه إلى رئيس الوزارة العثمانية يعلن فيه أن إيطاليا قررت إحتلال طرابلس وبنى غازى إحتلالا عسكرياً ، وأنه ينتظر ألا تصادف إيطاليا فى احتلالها هذا أية معارضة من الحكومة العثمانية - وبنى هذا الإجراء على أن الحكومة العثمانية أهملت إتخاذ الإجراءات لوضع حد لسوء النظام فى طرابلس ، مما أضر بمصالح إيطاليا الواقعة على مسافة قصيرة من الشواطىء الليبية ، ولأن إيطاليا طالبت مراراً بمنحها إمتيازات اقتصادية فلم تستجب الحكومة العثمانية بل بالعكس وردت أخبار إلى الحكومة الإيطالية من قنصليتها فى طرابلس وبنى غازى تفيد بسوء وضع الرعايا الإيطاليين وسائر الأجانب ،حتى أن عدداً كبيراً منهم هجر ليبيا .أضف إلى ذلك الوضع الذى ترتب على عمل تركيا على إرسال تعزيزات عسكرية إلى ليبيا - رغم أن الحكومة الإيطالية - نبهت الحكومة العثمانية إلى النتائج السيئة لذلك .

وطالب وزير الخارجية الإيطاليـــة رداً على الإنذار فى أربع وعشرين ساعة[1] .

والنظرة السريعة للإنذار الايطالى تثير الدهشة ولا يكاد الإنسان يجد سبباً واحداً معقولا مما ذكر فى الإنذار يدعو لهذا العمل العدائى من قبل إيطاليا - وحتى الأسباب الشكلية التى قد تبدو لأول وهلة مبرراً لعمل عسكرى من هذا القبيل لم تجهد إيطاليا نفسها لتضمنها إنذارها .

فهى تعتمد على أسانيد غريبه . فمن الذى يستسيغ أن من حق إيطاليا أن

---

(١) أنظر نص الإنذار فى ملحق الكتاب .

تحتل عسكرياً المدن الليبية لأن الدولة المسئولة عنها لم تعمل للنهوض بهذه البلاد ، أو لأنها لم تمنح إيطاليا إمتيازات إقتصادية أو غيرها ، أو لأن الحكومة المسئولة عن حماية البلاد وحفظ النظام بها أرسلت تعزيزات عسكرية لهذا الهدف. والعجيب أن الإعتراض على إرسال تعزيزات عسكرية عثمانية يتعارض مع الإدعاء الإيطالى الوحيد المتصل بحماية رعاياها وحفظ النظام . وعلى كل فلسنا فى حاجة لأن نجهد أنفسنا فى تحليل هذا الإنذار ومدى جديته ، فهو ولا شك من قبيل الأعمال التعسفية التى تقوم بها القوى الإستعمارية دون مراعاة لأية قوانين دولية أو عرف أو ما شابه ذلك . فهى شريعة الغاب يفرض فيها القوى نفوذه وسيطرته على الضعيف .

ولم تجد استغاثة تركيا بالدول الكبرى للتوسط بينها وبين إيطاليا لتوافق على قبول حل وسط يصون كرامة تركيا وتمنح إيطاليا بموجبة إمتيازات هامة فى الولاية التركية ، فأخذت إيطاليا توجه ضرباتها للأراضى الليبية منذ ٢٩ سبتمبر ١٩١١ م بينما بدأ الأسطول الإيطالى فى ٣ أكتوبر ١٩١١ م — يطلق مدافعه على ميناء (طرابلس إيذاناً ببدء الحرب الليبية الإيطالية .

ويمكن إجمالا تقسيم الحرب إلى دورين رئيسيين :

الأول — من عام ١٩١١ م الى عام ١٩١٧ م .

الثانى — من عام ١٩٢٣ م الى ١٩٣٢ م .

أما الفترة بينهما (١٩١٧ — ١٩٢٣ م) فقد كانت فترة هدنة واتفاقات ومعاهدات — فرضتها الظروف الدولية .

أولا — الفترة من ١٩١١ الى عام ١٩١٧ م

كانت الحملة الإيطالية على ليبيا تتألف من ٣٤٫٠٠٠ جندى من المشاة ، ٦٫٣٠٠ من الفرسان ، ٤٨ مدفع ميدان ، ٢٤ مدفع جبلى ، ولم يكن يتجاوز

عدد القوات الليبية ٥٠٠ر٥ رجل فى طرابلس ، ٢٠٠ فى برقة[1].

ومن هذا يتضح أن عبء الدفاع عن البلاد قد وقع منذ البداية على كاهل السكان الذين حولوا الحرب من حرب مع دولة استعمارية تريد التوسع على حساب امبراطورية هرمة - الى حرب عصابات لقى فيها الجيش الغازى مقاومة عنيفة لم يكن يتوقعها[2].

وقد استطاعت القوات الإيطالية إحتلال طرابلس ، وطبرق ، ودرنه ، وبنى غازى . والخمس ، ولم يكن هذا الإحتلال سهلا فقد كلف الإيطاليين الكثير من التضحيات.

ويبدو أن الإيطاليين كانوا يعتقدون أن السنوسيين ليسوا على وفاق مع الدولة العثمانيه ، ولذا فسوف يكونون بعيدين عن المعارك — لكنهم دهشوا حين وجدوهم يندفعون لقتالهم غير مبالين بالموت فى سبيل الدفاع عن البلاد .

وقد انتظم أمر الدفاع عن برقة فى أربعة معسكرات ، فتولى قيادة المعسكر الغربى « عزيز بك المصرى » ومعسكر طبرق « أدهم باشا الحلبى » ، ومعسكر درنة مصطفى كمال « أتاتورك » ، ومعسكر الجبل « عبد القادر الغناى » .

وقد خاض المجاهدون معارك طاحنة ضد الإيطاليين نذكر منها على سبيل المثال « معركة الضبط » قرب درنة ، و « معركة الكويفية » قرب بنى غازى و « معركة الفويهات » قرب بنى غازى أيضاً .

وفى طرابلس أضطر الايطاليون لأن يخوضوا معارك حامية عند « بير طبراس » و « قرقارش » وغيرها من المواقع[3] .

---

(١) pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1949) p. 108

— ملاحظة : يذكر نيقولا زيادة أن القوة العثمانية لم تتعد ٢١٠ر٣ جنديا .

— انظر نيقولا زيادة : مرجع سابق ص ٨١ .

وهذا الاختلاف فى العدد لايغير من الحقيقة وهى أن عبء الدفاع وقع على الأهالى ، وكما سنرى أن العثمانيين انسحبوا نهائياً من الموقف

(٢) الشنيطى ، محمود : قضية ليبيا (القاهرة ١٩٥١) ص ٤٨

(٣) شكرى ، فؤاد : السنوسية وميلاد دولة ص ١٢٥ — ١٢٩ .

لكن أضطرت تركيا للإنسحاب من الميدان لإشتعال الحرب البلقانية ، فأضطرت فى أكتوبر ١٩١٢ م لعقد معاهدة أوشى « لوزان » مع ايطاليا وبناء عليها[١] :

١ — تقرر أو توقف تركيا وايطاليا القتال ، وتسحب الجنود والضباط الأتراك من ميدان القتال فى طرابلس وبرقة .

٢ — صرح جلالة السلطان العثمانى « محمد الخامس » بتنازله عن حقوقه فى طرابلس وبرقة لأهلها ، ومنحهم استقلالا داخلياً مطلقاً تاماً ، على أن يعين ممثلا له « بلقب نائب السلطان » يقوم بحماية المصالح العثمانية .

٣ — أصدر ملك إيطاليا بدوره منشوراً إلى أهالى ليبيا يذكر فيه أن بلادهم أصبحت خاضعة خضوعاً تاماً للسيادة الملكية الإيطاليه ـ ويعفو فيه عن الليبيين الذين يخلدون للهدوء ، ويعدهم بالمحافظة على الشعائر الدينية الإسلامية ، ويسمح لهم بذكر إسم السلطان فى الصلوات العامة بصفته خليفة المسلمين .

وهكذا خرجت تركيا من ميدان القتال وصارت الزعامة السنوسية هى كل شىء فى مقاومة المستعمرين الإيطاليين ـ والحقيقة إنه بهذه المعاهدة ينتهى الشطر الأول من الحرب الليبية الإيطالية ـ وقد تمكن فيه الإيطاليون كما ذكرنا من إحتلال المدن الساحلية وبقوا محصورين فيها[٢] .

وترتبت على هذه المعاهدة عدة نتائج :

١ — كان للصلح تأثير سيىء على الليبيين ، فقد كانت القوة المعنوية للحرب تعتمد على وجود الترك والعرب متساندين — وكانت الآمال مازالت معقودة على دولة الخلافة .

---

(١) ألحق بالمعاهدة ثلاث ملاحق ، واتفاق سرى — انظر ملحق الكتاب .

(٢) ملاحظة : أحاط الأيطاليون طرابلس بسور وبقوا داخل هذا السور .

٢ — عقب هذا الصلح أسرعت عدة دول أوروبية بالإعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطليان[1].

٣ — لم تحترم الدول إعتراف السلطان ـ بعد تنازله عن حقوقه الشرعية فى البلاد ـ بحق الطرابلسيين فى بلادهم ، وتسابقت كلها كما قلنا فى الإعتراف بحق إيطاليا فى طرابلس .

٤ — كان لتعهد تركيا فى المعاهدة بسحب كل قواتها المسلحة من ليبيا فى نظير أن يسلم الإيطاليون إلى تركيا جزر الدود يكانيز (Dodecanese) التى احتلتها إيطاليا أثناء الحرب — أثر الصاعقة على الليبيين لأنهم أدركوا أن الدولة العثمانية قد تخلت عنهم دون أن تعطيهم فرصة للإستعداد ، فكان عليهم أن يواجهوا المغتصب لبلادهم بأنفسهم وبقوتهم الذاتية .

٥ — لم يعترف الوطنيون بما تعنيه المعاهدة من إنتقال السيادة فى البلاد من أيدى العثمانيين إلى أيدى الإيطاليين . فالولاء للسلطان العثمانى كان قائماً على روابط دينية أكثر من أى شىء آخر .

وعلى العكس إعتبر السنوسيون أن هذا التنازل من السلطان عن سلطانه يعطيهم الحق فى الإستقلال ، ولذا اعتبروا توقيع هذه المعاهدة بمثابة إعلان الإستقلال للإمارة السنوسية[2]. وترتب على هذه المعاهدة أن أصبحت فى ليبيا قيادتان : الأولى ـ فى برقة وفزان ـ يتولاها السنوسيون ، والثانية فى طرابلس يتولاها سليمان البارونى.

وقد استؤنفت الحرب فى برقة بين السنوسيين والقوات الإيطالية ـ ونجحت هذه القوات فى احتلال عدة مواضع (بنينة ، بومريم ، الأبيار ، طوكره ، جردس العبيد ، البرج ، ومرسى سوسه) لكنها تكبدت خسائر كبيرة نتيجة حرب العصابات التى لجأ إليها السنوسيون .

---

(١) اعترفت بها انجلترا فى ١٩ أكتوبر ١٩١٢ ، وفرنسا فى ٢١ منه ، ورومانيا فى ٢٣ منه وتلتها عدة دول .

(٢) الدليل على ذلك إنه ما كان يصدر عن الجغبوب بعد هذه المعاهدة — كان يختم « بخاتم الحكومة السنوسية »

وشن الإيطاليون فى أوائل عام ١٩١٤ م هجوماً شاملا على السنوسيين فى الجبل الأخضر واحتلوا عدة أماكن أخرى (العرقوب ،أم شخنب ، الزويتية ، إجدابيـــة) .

وتعرضت برقة لموجة من الجفاف والقحط . وهاجم الجراد المزارع فانتشر الجوع والأوبئة بين السكان مما أدى لإرتفاع نسبة الوفيات بشكل رهيب[١].

أما فى فزان - فقد احتل الإيطاليون (مرزق) العاصمة لكنهم أضطروا لإحتلالها تحت ضغط هجمات المجاهدين ، واندمجت قيادة فزان بعد ذلك مع قيادة برقة تحت سلطان السنوسيين[٢].

أما فى طرابلس فقد أعان الوطنيون استقلالها وقيام حكومة وطنية فيها بزعامة (سليمان البارونى) ، لكن لم يستطع البارونى أن يصمد كثيراً أمام الإيطاليين فغادر البلاد إلى الآستانه فى نهاية عام ١٩١٣م [٣].

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨م) اشتركت فيها إيطاليا إلى جانب الحلفاء - واشتركت تركيا بجانب المحور[٤].

وأضطرت بريطانيا مراعاة لحليفتها إيطاليا حصار السواحل الليبية ومنع وصول أية إمدادات للمجاهدين الليبيين من مصر . وهكذا وجد الأتراك أنفسهم مرة أخرى فى حرب رسمية ضد إيطاليا . وأصبح الأتراك لايخشون إمداد أحمد الشريف بالذخائر الحربية التى كان بحاجة ماسة إليها هو وأتباعه ، كما كانت الغواصات الألمانية تمـــون أحمد الشريف وأتباعه بحاجتهم من المؤن والذخيرة .

---

(١) تذكر بعض المصادر أرقاماً كبيره لعدد الوفيات تصل إلى ثلثى سكان برقة — لكن لانستطيع أن نحقق من صحة ذلك .

انظر — Pritchard : Dp. Cit. P. 120

(٢) نقولا زيادة : مرجع سابق ص ٨٤ — ٨٦

(٣) الزاوى : مرجع سابق ص ١٧٩ .

(٤) انضمت ايطاليا إلى الحلفاء فى نوفمبر ١٩١٥ ، وانضمت تركيا إلى المانيا فى ديسمبر من نفس العام .

وأهم المعارك الحربية الليبية التى وقعت فى هذه الفترة :

أولا — واقعة القرضابية .

ثانياً — الحملة السنوسية على مصر .

واقعة القرضابية[1] :

أراد القائد الإيطالى الكولونيل (إميانى) أن يثأر من هزائم الإيطاليين فى فزان وأن يؤمن المراكز الساحلية التى كانت تتعرض لهجمات الثوار - فأعد جيشاً قيل إنه وصل إلى أربعة عشر ألف مقاتل - وكان مع الجيش الإيطالى بعض العرب الذين إنضموا للإيطاليين منهم ، (رمضان السويحلى) زعيم مصراته.

وجرت مفاوضات بين الوطنيين الذين تجمعت جموعهم قرب (سرت) وبين الإيطاليين الذين كانوا يريدون أن ينسحب الوطنيون إلى الداخل تاركين المدن الساحلية للإيطاليين ليأمنوا على وجودهم بها - ورفض الوطنيون شروط الصلح، ووقعت الموقعة فى ١٥ جمادى الآخرة ١٣٣٣ هـ ، ١٩ أبريل سنة ١٩١٥م ، وقد تقرر مصير المعركة حين انقلب « رمضان السويحلى » ورجاله على الإيطاليين ، وكان يدبر لهذا الأمر ، وانجلى الموقف عن هزيمة مروعة للجيش الابطالى فلم ينج منه إلا ٥٠٠ جندى . وجرح « الكولونيل إميانى » نفسه وفر إلى « سرت » تاركاً كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد — وانتقم اميانى من زعماء العرب فى سرت بأن أصدر أمره بقتلهم ، فأعمل جنوده فيهم قتلا وأرسل الباقون أسرى الى روما[2] .

وكانت لهذه المعركة آثار عميقة دفعت فى المقاومة الوطنية فى ليبيا روحاً جديدة وأمدتها بشحنة ترتب عليها أن استمرت المقاومة ضد الوجود الإيطالى بعد ذلك اسنوات — وبعد هذه المعركة أضطر الايطاليون الى الجلاء عن

---

(١) القرضابية — بئر تقع شرقى قصر سرت انظر التفاصيل الدقيقة للموقعة — فى : الزاوى : مرجع سابق ص ٢٠٧ وما بعدها

(٢) الأمير شكيب : حاضر العالم الإسلامى ح ٢ ص ١٥٠ .

« مصراته » فى ٥ أغسطس ١٩١٥ م بعد أن ضيق رمضان السويحلى الخناق عليهم بها — وألف السويحلى إدارة خاصة لحكم مصراته .

الحملة السنوسية على مصر :

يرجع السبب فى هذه الحملة الى أن تركيا وألمانيا أرادتا استغلال نفوذ السيد أحمد الشريف فى برقة وحركة الجهاد القائمة فيها فى إحداث ثورة على حدود مصر الغربية ضد الانجليز لشغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الانجليزية وذلك بهدف إنجاح حملة تريد الدولتان القيام بها على قناة السويس — فأرسلت تركيا وألمانيا فى سنة ١٩١٥ بعض رجالهما للإتصال بالسيد أحمد الشريف والمجاهدين فى برقة . وكان ضمن من أرسل لهذا الغرض « نورى بك » أخو أنور باشا ، وسليمان البارونى وعبد الرحمن عزام .

وقد أرسل السلطان حسين كامل فى سبتمبر ١٩١٥ م الى السيد / أحمد الشريف وفداً على رأسه السيد محمد الشريف الادريسى ينصحه بعدم الانزلاق فى الإنضمام للاتراك والألمان ، وكذلك حمل هذا الوفد معه كتابا من السير « هنرى مكماهون » نائب ملك انجلترا فى مصر ، ومن قائد جيش الاحتلال الانجليزى بما يعداته — اذا التزم الحياد — بالتدخل للتوفيق بين الليبيين والايطاليين والمساعدة على أن تنال ليبيا استقلالها[1] .

ويبدو أن السيد أحمد الشريف تورط فى هذه الحرب التى استنفدت طاقات المجاهدين الليبيين دون طائل .

وفى ١١ ديسمبر ١٩١٥ م استولى المهاجمون من السنوسيين وغيرهم على السلوم ثم مرسى مطروح .

لكن ظهر عجز السنوسيين عن الحصول على ما يحتاجونه من طعام ومؤن ، وبدأ الإنجليز يضيقون عليهم الخناق . فلم يلبث أن استرد الإنجليز مرسى

---

(١) الزاوى : مرجع سابق ص ٢٠٨ .

مطروح . وفى ٢٩ فبراير ١٩١٦ م حدثت معركة فاصلة انجلت عن هزيمة السنوسيين ، واحتل الإنجليز سيدى برانى ، ثم استردوا السلوم فى ١٤ مارس ١٩١٦ م — وأنتقل السيد أحمد الشريف مع بعض رفاقه الى سيوه . وفى ٨ فبراير سنة ١٩١٧ م ضيق عليه الانجليز الخناق فأضطر للهرب مع رجاله الى الجغبوب .

وقد أدى تورط السيد أحمد الشريف فى هذه الحملة الفاشلة الى وقوع خلاف بينه وبين ابن عمه « ادريس السنوسى » الذى كان يميل الى مصادقة الانجليز - وتنازل له أحمد الشريف عن القيادة السياسية والعسكرية للسنوسية مكتفياً بالزعامة الدينية .

وأضطر أحمد الشريف - تحت ضغط الإنجليز الذين هددوا بمهاجمة الجغبوب إن بقى بها - الى أن يغادرها الى طرابلس الغرب ، ومنها نقلته غواصة ألمانية الى الآسيتانة . ومنها سافر الى الحجاز حيث وافته المنية بها فى عام ١٩٣٣ م .

ثانياً — فترة المفاوضات بين السنوسيين والايطاليين والبريطانيين

« ١٩١٧ — ١٩٢٣ »

إتفاقية الزويتينه ، ومعاهدة عكرمة :

كانت ايطاليا فى هذه الفترة قد انهكتها الحرب ، كما كانت تعانى من الإضطرابات الداخلية . ولذلك فقد كان يهمها أن تصل الى اتفاق مع السنوسيين يكفل لها الهدوء فى ليبيا ، بينما كانت انجلترا حريصة على أن تصفى المشاكل على حدود مصر الغربية ليمكنها نقل قواتها من هذه الحدود الى أماكن أخرى .

أما إدريس السنوسى فقد كان يرجو فتح ميناء السلوم الذى كانت تأتى عن طريقه المؤن للسنوسيين وسكان برقة عامة ، وان كانت الغواصات الألمانية تنجح بين حين وآخر فى إمداده ببعض ما كان بحاجة إليه بهدف تشجيعه على الإستمرار فى مقاومه الإيطاليين .

وجرت مكاتبات بين السيد ادريس السنوسى والإنجليز والطليان وبناء عليها تهيأ الجو للمفاوضات .

جرت المفاوضات فى الزويتينية بين السيد ادريس والوفد الإيطالى ، بينما كان الوفد الإنجليزى ومعه أحمد حسنين بك يقوم بمهمة التوفيق بين الطرفين . وأستمرت المفاوضات حتى أواخر سنة ١٩١٦ م .

وأستؤنفت المفاوضات فى أوائل سنة ١٩١٧ م فى عكرمه وبالقرب من طبرق وأنتهت بمعاهده « عكرمة » التى وقعت فى ١٤ أبريل سنة ١٩١٧ م[1] :

وبموجب هذه المعاهدة :

١ — اتفق السيد ادريس مع الوفـــد الإيطالى على إنهاء حالة الحرب بين الطرفين .

٢ — اعترف الايطاليون بالإمارة السنوسية للسيد ادريس على أن تشمل « جالو ، وأوجلة ، والكفرة ، والجغبوب » .

٣ — يحتفظ الإيطاليون بما بأيديهم من مدن برقة وقراها ، ومن الأراضى الساحلية .

٤ — لا يعتدى طرف على حدود الطرف الآخر ، ولا ينشىء أحد من الطرفين مراكز حربية جديدة .

٥ — تعاد الزوايا السنوسية وممتلكاتها إلى أصحابها ، ويدفع الإيطاليون مرتبات شيوخ الزوايا الموجودة فى منطقتهم .

٦ — تجرد القبائل من السلاح فى فترة اقصاها العام ، وتحل المعسكرات السنوسية فى تاريخ يحدد فيما بعد .

---

(١) وقع على المعاهدة كل من الاميرالاى دوبنا ، والكوماندتور لويجى بنشور ، ومحمد إدريس المهدى السنوسى ــ انظر .

ــ الزاوى مرجع سابق ص ٢٦٨ ــ ٢٧٢ .

وكذلك . Pritchard : Op. cit p. 131

ولم يكن من الصعب الوصول لإتفاق بين السنوسيين والإنجليز بعد ذلك فقد قبل السيد إدريس إعادة الأسرى جميعهم إليهم ، وتقرر استئناف العلاقات التجارية بطريق الساحل المصرى ، ولم يسمح بإقامة زوايا سنوسية فى مصر ، لكن الزكاة كانت تجمع من أتباع السنوسيين المقيمين فى مصر — وعهد إلى السيد إدريس بإدارة واحة الجغبوب ، مع أنها كانت واحة مصرية .

اتفاقية الرجمة (٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ م) :

خرجت إيطاليا من الحرب العالمية الأولى — منهوكة القوى فى الداخل وعاجزة عن إرسال قوات إضافية لتأكيد سيطرتها الفعلية على ليبيا — ولذا فكرت فى أن تعدل سياستها فى ليبيا بحيث تتمشى مع السياسة الجديدة مع ما أعلنه ولسن من حق الشعوب فى اختيار الحكم الذى ترتضيه ، ولإرضاء الليبيين المطالبين بالحكم الذاتى وبهذا يمكن — كما اعتقدت إيطاليا — أن تحكم ليبيا دون اللجوء الى القوة .

وقد عبر عن ذلك وزير خارجية ايطاليا — كارلو شانزر Carlo Schenzer بقوله : بدا لحكومتنا أن الوقت قد حان لتجربة التعاون المباشر مع أبناء البلاد يعطون حقوقاً سياسية ومدنية كانت من قبل محدودة برأى الحكومتين المركزية والمحلية[١] .

وتنفيذاً لهذه السياسة أعد فى ٣١ أكتوبر ١٩١٩ م قانونان أساسيان مختلفان أحدهما لبرقة ، والآخر لمنطقة طرابلس .

فكان لكل ولاية منهما برلمانها الخاص ، ومجلس حكومتها ، ومجالسها المحلية . وفيما يتعلق ببرقة كان برلمانها من ستين عضواً أكثرهم من زعماء القبائل الذين انتخبهم أتباعهم ، بالإضافة الى ثلاثة أعضاء يمثلون الجالية الإيطالية . وكان هذا البرلمان ينظر فى الضرائب المباشرة ، ويبحث فى المنافع العامة ، ويناقش

---

(١) Schanzer, Carlo : Italian colonial Policy in North Africa Vol.1 1924 P. 45

الإدارة الايطاليه فى المسائل الإدارية ، وكانت تعرض عليه اللوائح التى تتعلق بتطبيق القانون الأساسى- لكن فى الفترة من أبريل ١٩٢١م حتى مارس ١٩٢٣م ، حين حل هذا البرلمان بعد قطع ايطاليا علاقاتها مع السيد ادريس ، لم يعقد هذا البرلمان سوى خمس جلسات[١].

وبناء على هذه العلاقات الجديدة بين الايطاليين والسنوسيين عقدت إتفاقية جديدة لتحدد بدقة العلاقات السياسية والحربية بين الطرفين . وهذه الاتفاقية هى - اتفاقية الرجمة التى عقدت فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠م .

وبموجب هذه الاتفاقية[٢]:

١ — منح السيد اديس لقب (أمير) بحيث يكون وراثياً فى أسرته ، وأعترف به رئيساً لحكومة ذات استقلال ذاتى تدير الأجزاء الداخلية من برقة التى تشمل (واحات الجغبوب ، وأوجله ، وجالو ، والكفرة) على أن يتخذ (اجدابية) مقراً لحكومته .

٢ — خصصت للسيد ادريس علاوة شهرية شخصية وعلاوة لأسرته . وأصبح له حق أن يكون له علم خاص به وحق استعمال باخرة رسمية ، ووعد بمساعدات مالية تغطى نفقاته وأخرى لشيوخ القبائل .

٣ — تدفع ايطاليا مرتبات جميع الموظفين الوطنين والقضاة وغيرهم من الذين يقومون بأعمال مختلفة .

٤ — يسمح للسنوسيين بالإحتفاظ بسلاحهم ، وأن ينتخبوا من يمثلهم فى البرلمان المحلى ، وأعفيت أراضيهم من الضرائب .

٥ — يقتصر الجيش السنوسى على ألف من الرجال على أن يصفى السيد ادريس فى خلال ثمانية شهور - الأدوار السنوسية ، وجميع المنظمات العسكرية والسياسية المتعلقة بها فى المناطق الواقعة خارج حكومته .

٦ — صرح للسيد السنوسى بجمع الزكاة من أتباعه .

---

(١) ضرورى مرجع سابق ص ٢٩ .

(٢) الزاوى : مرجع سابق ص ٢٧٢ - ٢٧٨ .

ويلاحظ أن هذه الاتفاقية مع أنها اعترفت بالسيد السنوسى كحاكم مدنى بالاضافة الى زعامته الدينية — فإن ايطاليا لم تقصد بالطبع وضع السلطة بيده أو الاعتراف به سياسياً - بل إن كثيرين يرون فى الاتفاقية محاولة من ايطاليا لشراء الهدوء وصمت السنوسيين بما تقدمه من أموال بالاضافة الى أن المعاهدة تعنى اعتراف الأمير السنوسى بفصل برقة عن طرابلس ، ولذا كان قبوله لها موضع نقد الكثيرين .

وبدأت المشكلات بين الطرفين حين لم ينفذ السنوسيون ماتعهدوا به من حل (الأدوار) فى غضون المدة المحددة . وتذرع السيد إدريس بأن المحافظة على النظام فى منطقته الإبقاء على الأدوار .. وقد حاول الحاكم الإيطالى دى مارتينو حل الإشكال فعقد إتفاقية أخرى (اتفاقية بومريم) فى ١١ نوفمبر ١٩٢١م مع السنوسيين اتفق بموجبها أن تدار الأدوار بالمشاركة إلى أن يتم تصفية هذه المعسكرات (أى وجود جيش مشترك) فى هذه الجهات .

وقد ظل الوضع بين السنوسيين والإيطاليين هكذا حتى تولى (موسولينى) السلطة فوضع حداً لسياسة التقرب مع السنوسيين ومحاولة إسترضائهم وأعلن إقرار السلام عن طريق الفتح العسكرى . وبناء على ذلك حل الإيطاليون (فى ٦ مارس ١٩٢٣) الجيش المشترك وأسروا الجنود السنوسيين فيه ، وعين موسولينى حاكماً جديداً فى ليبيـــا هو لويجى بنجيوفانى وأعلن أن جميع الإتفاقيات التى قامت بين إيطاليا والسيد أدريس أصبحت ملغاة .

وبهذا فتحت صفحة جديدة من الكفاح بين الليبيين والإيطاليين .

قيام الجمهورية الطرابلسية :

وفيما يتعلق بطرابلس — كان سليمان البارونى قد عاد فى عام ١٩١٥ بوصفه حاكماً جديداً لبلاده وأستأنف الجهاد ضد إيطاليا وظل كذلك إلى نهاية الحرب .

وفى نوفمبر ١٩١٨ م عقد فى (مسلاته) اجتماع وطنى أعلن على أثره عن قيام الجمهورية الطرابلسية ، وأختير أربعة أعضاء لتولى الأمر (الباروني ، السويحلى ، بلخير ، عبد الرحمن عزام) إذ لم يتفق المجتمعون على رئيس واحد للدولة .

وقد وافقت ايطاليا — اتباعاً لسياسة المسالمة فى ذلك الوقت — على الاعتراف بنظام الحكم الجديد فى طرابلس ، وأن تحكم البلاد بالتعاون مع السلطات الوطنية فيها فى ظل القانون الأساسى لطرابلس الذى أصبح لها بموجبه برلمان خاص كبرلمان برقة .[1]

مؤتمر غريان :

كان الطرابلسيون يرون أن إتفاق السيد إدريس مع الايطاليين الذى بموجبه أصبح أميراً على برقة . . بل على أجزاء بسيطة منها — يعنى توجيه ضربة قاصمة لوحدة القطر الليبى — ولذا عقدوا مؤتمرا فى (غريان) اتخذوا فيه قرراً هاما وهو : « إن الحالة التى آلت إليها البلاد لايمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ، ومؤسسة على مايحقق الشرع الاسلامى ، بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة ، ولايعزل الا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب — وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها ، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة — من حدود مصر شرقاً إلى حدود تونس غرباً . »[2]

واعتزم الطرابلسيون أن يحققوا هذه الوحدة وأن يجعلوا الطليان أمام الأمر الواقع ،فاتفقوا على إمارة السيد إدريس ، وأرسلوا إليه وفداً يدعوه إلى طرابلس ليبايعوه الأمارة — وأظهر الأمير ترددا لما كان بينه وبين الطليان من علاقات حسنة — فما كان منهم الا أن كتبوا وثيقة البيعة بالإمارة بتاريخ ٢٨

---

(١) صروري : مرجع سابق ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) الزاوى مرجع سابق ص ٢٨٤ ، ص ٤٢٢ ومابعدها .

يوليو ١٩٢٢ م ، وأرسلوها الى السيد ادريس فى (اجدابيه) مع ممثل هيئة الاصلاح المركزية وهى التى كانت تدير شؤون المجاهدين - فقبلها ووعد بتنفيذ ما جاء فيها من شروط الوحدة ، والشورى ، ومواجهة العدو صفا واحداً فى طرابلس وبرقة [١] .

ولم يلبث السيد إدريس بعد ذلك أن غادر البلاد فى ديسمبر ١٩٢٢ م متعللا بسوء حالته الصحية برفقة قافلة إلى القاهرة عن طريق الجغبوب وتبعه عدد من زعماء القبائل البارزين ، وقد بقى بعضهم معه فى المنفى حتى تحررت البلاد .

ثالثاً - الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٢ م :

منذ أن تقلد موسولينى زمام الامور فى ايطاليا - فى نهاية أكتوبر ١٩٢٢ م - اتجه - كما ذكرنا - الى اخضاع ليبيا بقوة السلاح . ولتحقيق هذا استولى الايطاليون فى ٦ مارس ١٩٢٣ م على المعسكرات المختلطة .

وفى أول مايو ١٩٢٣م - أعلن الحاكم الإيطالى الجديد بونجوفانى Bongiovanni بطلان كل معاهدات الصلح والاتفاقيات المعقودة مع السنوسيين - وكان هذا بمثابة إعلان لبداية حرب جديدة بين الطرفين .

كانت ايطاليا فى ذلك الوقت قد ثبتت أقدامها فى المدن الهامة ، كما أنها كانت فى سلام مع العالم ، وكان فى مقدورها أن تبعث الى ليبيا بقوات كبيرة مزودة بأسلحة حديثة - لكن المجاهدين الليبيين وجدوا زعيماً قديراً - بعد رحيل السيد إدريس إلى مصر - استطاع أن يقودهم فى حرب عصابات أنهكت الإيطاليين بحق وكبدتهم خسائر فادحة - هو « عمر المختار » . [٢]

---

(١) الشنيطى ، محمود : مرجع سابق ص ٩٤ ، ٩٥ ، صرورى ص ٣٤ .
ونص خطاب الهيئة ورد الأمير عليه موجود فى :
الزاوى : ص ٤٧٥ - ٤٦١ .

(٢) ولد عمر المختار فى برقة عام ١٨٦٢ م من أسرة (فرحان) التى تنتمى الى قبيلة المنفة ، وتعلم فى الزوايا السنوسية ، وعمل تحت إمرة السيد أحمد الشريف واشترك منذ ١٩١١ م فى قتال الإيطاليين ، وكان عمره حين تولى القيادة العامة للحركة سبعين عاماً تقريباً .

انظر حدودى : مرجع سابق ص ٣٦ .

وكان قد تبع السيد إدريس الى القاهرة ـ لكنه لم يلبث أن عاد ـ ويبدو أن ذلك كان بالاتفاق مع السيد لتولى قيادة حركة المقاومة ضد الغزو الايطالى .

وترتب على حرب العصابات ، وحرص المجاهدين على عدم الدخول مع الايطاليين فى معركة حاسمة أن شعر الايطاليون أنهم يحاربون شعبا بأسره وليس جيشاً ـ وقد عبر القائد الايطالى تيروزى Terruzi عن ذلك بقوله :

« إننا نحارب عدواً ليس له شكل متماسك ، مما يجعلنا على أهبة الدفاع باستمرار ، وكان الثوار مثل النار يمكن أن يظهروا اليوم فى مكان وغداً على بعد خمسين كم منه ، واليوم الذى يليه على بعد مائة مترا وهكذا .. ولذلك فإن خمسة أو عشرة آلاف من جنودنا غير كافين ضد مائتين أو خمسمائة من الثوار »[1] .

وكان هجوم الثوار عادة بالليل حيث كانوا يفاجئون عدوهم فى أرض وعرة يعرفون مسالكها كل المعرفة ـ حتى أن بعض الكتاب ذكروا أنه كانت فى هذه الفترة فى ليبيا سلطتان هما سلطة الإيطاليين فى النهار ، وسلطة السنوسيين ليلا .

وقد نظم عمر المختار المجاهدين معه على حسب قبائلهم ، فجعل لكل قبيلة فرقة باسمها يساعدها عدد من الإخوان وعلى رأس كل فرقة قائد ، وقائد قام للشئون المدنية ، وقاض للشئون الدينية والقانونية ولها علم سنوسى [2] .

وإذا كان الإيطاليون قد ميزوا بين سكان السواحل الذين تظاهروا بالخضوع لهم وبين الثوار الذين ناصبوهم العداء — فإن الواقع — كما قال جرازيانى نفسه Graziani « إن جميع الأهالى فى ليبيا اشتركوا بطريق مباشر أو غير مباشر فى الثورة — بل لقد كان لعمر المختار عملاء فى كل مركز إيطالى[3] .

ملاحظة . عين تيروزى حاكما لبرقه فى عام ١٩٢٧ .

(٢) الشنيطى محمود : مرجع سابق ص ١٥٤ .

ولذا فكثيراً ما تعرضت البيوت والمتاجر ومضارب القبائل وغيرها للتفتيش حتى فى المناطق الهادئة ، وكان الإيطاليون ينزلون العقاب الشديد بكل من يثبت أن له صلة بالثوار .

وكان السيد عمر المختار على إتصال دائم مع السيد محمد إدريس فى مصر ، وكان يتلقى منه الذخائر والسلاح والمؤن والمعونات بقدر ما تسمح به ، الأحوال فقد كان بوسع إيطاليا أن تبث عيونها ورجالها لتحول دون وصول أية إمدادت للثوار .

ولجأت إيطاليا فى هذه المرحلة من الحرب إلى أعمال الإبادة والقتل ،وحرق المضارب ، وإتلاف الغلال ، وقتل المواشى أو مصادرتها بدون تمييز . واستخدمت فى ذلك الطائرات لضرب الأهالى من الجو . ونجح الإيطاليون فى إحتلال العديد من المدن الصغيرة والمتفرقة سواء فى الجبل الأخضر أو طرق أو غيرهما ولكن فى الواقع ظلت سلطتهم لا تتعدى المراكز التى يقيم فيها الجند .

وفى فبراير عام ١٩٢٦ م نجحت إيطاليا فى إحتلال (الجغبوب) رامية من وراء ذلك إلى كسر معنويات المجاهدين — لكن ذلك لم يزدهم الا تصميماً على القتال [١] .

وحين عين بادوليو Badolio فى عام ١٩٢٨ حاكماً عاماً لليبيا أعلن لأهل ليبيا ، إنه يخيرهم بين الإستسلام التام دون قيد أو شرط وبين أن يبادوا عن بكرة أبيهم ، وعقدت هدنة بين عمر المختار والإيطاليين رغبة فى الوصول إلى صلح دون جدوى . ووجد عمر المختار ألا مفر من مواصلة الحرب إلى النهاية . ولذا وجه نداءه المشهور — يحث فيه المجاهدين على مضاعفة الجهد .[٢]

---

(١) نقولا ، زيادة : مرجع سابق ص ١٠٧ .

(٢) نشرته بعض الصحف المصرية فى ٢ يناير ١٩٢٩ .

وحين وصل جرازياني Graziani إلى برقة فى مارس ١٩٣٠م بدأت صفحة جديدة من الحرب الليبية الإيطالية . فقد كان مصمما على وضع حد للمقاومة الوطنية . ولتحقيق هدفه عمد إلى أن يحول دون وصول أية إمدادات للمجاهدين من بقية السكان أو من الخارج . ولذا وزع على الجند المرقاوى العامل مع الإيطاليين نوعاً مغايراً ومميزا من البنادق، وكان يلقى القبض على كل من يعرف أنه ساعد أحد المجاهدين ، وأوجد ماأطلق عليه اسم (المحكمة الطائرة) وهى محكمة عسكرية ينتقل أعضاؤها بالطائرة لمحاكمة من يلقى عليه القبض بتهمه التعاون مع الثوار .

وأغلق جرازياني الزوايا السنوسية وصادر أملاكها ، وملأ معسكرات الإعتقال بمن يشك فى انتمائهم أو عطفهم على الثوار، وأقام حاجزاً من الأسلاك الشائكة المكهربة بين مصر وليبيا بطول ثلاثمائة كيلو متراً يبدأ من البحر شمالا الى الجغبوب جنوبا لمنع تسرب أية أسلحة من مصر للمجاهدين .

وفى يناير ١٩٣١ م سقطت (الكفرة) فى يده ورفع العلم الإيطالى على القبة حيث يوجد نعش السيد المهدى السنوسى فكان فى ذلك اذلالا — من وجهة نظره للسنوسيين — مابعده إذلال — وفر عدد كبير من سكان الكفرة إلى واحة سيوه والسودان المصرى والعوينات وغيرها .

ورغم أن الإمدادات أخذت تقل وينضب معينها ويندر ورودها للسنوسيين . فقد استمر عمر المختار فى جهاده حتى وقع أسيراً فى يد الجنود الإيطاليين على مقربة من سيدى رافع ، (الزاويه البيضاء) فى ١١ سبتمبر ١٩٣١ م . فأودع السجن ، وحين بلغ النبأ جرازياني وهو فى إيطاليا — أسرع بالعودة ، وأمر المحكمة الطائرة بالانعقاد فى ١٥ سبتمبر ١٩٣١ وعقدت المحكمة جلسة استمرت ساعة وربع ساعة ، وأصدرت بعدها حكما على عمر المختار بالإعدام . فأعدم

رغم شيخوخته ، ورغم أنه كان جريحاً فى الساعة التاسعة من صباح يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣١ م . وكان ذلك إيذانا بإنتهاء المقاومة إلى حين . [١]

انهارت المقاومة الوطنية بعد قتل عمر المختار وخضعت البلاد كلها للإيطاليين لكن هاجر عدد كبير من الليبيين إلى تونس ومصر وسورية ولبنان . وقد تأسست فى سوريا برئاسة بشير السعداوى (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بالشام) — وقد وضعت هذه الجمعية ما أطلق عليه اسم (الميثاق الوطنى) .

كما أن نشاط الليبيين فى مصر تمركز حول السيد محمد إدريس - وإن اقتصر الجهد فى البداية على الكتابة فى الصحف حول القضية الليبية .

لكن لما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، ودخلت إيطاليا الحرب ضد الحلفاء بدأ العمل الجدى . وقد دعا الأمير محمد إدريس إلى اجتماع عقد فى أغسطس ١٩٤٠ م بالقاهرة وأصدر المجتمعون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (الجمعية الوطنية الليبية) بياناً أعلنوا فيه وضع ثقتهم فى بريطانيا العظمى ، وخوض الحرب ضد إيطاليا بجانب جيوشها — وإعلان الثقة بالأمير محمد إدريس المهدى المبايع له بالامارة على برقة وطرابلس ، وتعيين هيئة تجنيد ، وحكومة سنوسية مؤقتة ، على أن يتصل الأمير بالحكومة البريطانية لطلب المخصصات اللازمة للتجنيد ولادارة الحكومة[٢] .

وأقيم معسكر للتدريب فى (إمبابة) بمصر تدرب فيه الكثيرون وساهموا مع جيوش الحلفاء .

وفى فبراير ١٩٤٣ م — أخرج الحلفاء الإيطاليين نهائياً من ليبيا .

---

(١) نقولا زياده مرجع سابق ص : ١١١ .
أورد جرازيانى فى كتابه (برقة التى تهدئتها) الحوار الذى دار بينه وبين عمر المختار بعد أن التقى بعد أن التقى به بعد القبضة عليه .
— انظر شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣١٤ — ٣١٦ .
وكذلك رواية الدكتور العنيزى عن محاكمة المختار ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .
(٢) انظر نص القرار فى :
نقولا زياده : مرجع سابق ١١٩ ، ١٢٠ .

وأعقب ذلك إقامة ثلاث إدارات فيها هي : إدارة برقة ، وإدارة طرابلس وإدارة الفزان — وتولت بريطانيا إدارة الأقليمين الأولين ، بينما عهد لفرنسا بإدارة الإقليم الثالث .

وبعد إحتلال الحلفاء البلاد نشطت الحركة السياسية — وأخذت الأحزاب السياسية تظهر مطالبة بالاستقلال ووحدة البلاد .

وتسجل هذه الفترة — صفحة جديدة من كفاح الليبيين فى سبيل الإستقلال لها مميزاتها ومعالمها الخاصة . وقد أسفرت هذه المرحلة عن قرارين صادرين من الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ م ، ١٧ نوفمبر ١٩٥٠م نص فيهما على أن ليبيا المؤلفة من برقه ، وطرابلس . وفزان ستصير دولة مستقلة ذات سيادة بمجرد أن تتم الإجراءات المبينة بالقرارين المذكورين لكى يصير إستقلال ليبيا نافذاً .

وفعلا صدر أمر ملكى بريطانى أنهى السلطة البريطانية فى طرابلس وبرقة وصدر فى فزان أمر ألغى جميع سلطات فرنسا . وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م أعلن الملك السيد محمد ادريس السنوسى أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة .

على أن هذه الصفحة الجديدة من كفاح ليبيا فى سبيل الاستقلال ـ بعد تخلصها من الإيطاليين ـ تحتاج لدراسة مستقلة ونرجو أن نتناول بالتحليل هذه المرحلة من الكفاح الوطنى فى ليبيا فى الدراسة التى سنخصصها بإذن الله للتاريخ المعاصر للمغرب العربى .

الخاتمة

خاتمة

فى هذه الدراسة حاولنا إلقاء الأضواء على تاريخ الشمال الأفريقى فى العصر الحديث .

وقد رأينا أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر تعرضت هذه البلاد لحملات إستعمارية متتالية . فتاريخها الحديث فى جملته يتمثل فى المحاولات من جانب الدول الإستعمارية لبسط نفوذها على هذه البلاد ، تقابلها حركات المقاومة البطولية من الوطنيين فى سبيل الدفاع عن حقهم فى بلادهم وحريتهم .

وقد امتلأت صفحات هذا التاريخ ببطولات رائعة وبأمثلة لقيادات ناجحة استطاعت أن تتقدم الصفوف وأن تقود شعوبها فى طريق الكفاح والجهاد والصمود .

وقد حاولت الدول الاستعمارية أن تستفيد من عوامل الضعف والتفتيت والتفرقة ومن تفوقها العسكرى لتجد لنفسها ثغرة تنفذ منها وتثبت أقدامها فى البلاد .

وهذه الفترة من تاريخ المغرب العربى مليئة بالدروس والعبر ، فالوسائل التى استخدمها المستعمر لإخضاع البلاد لحكمه ، والاتفاقات والمعاهدات بين الدول الكبرى لتقسيم هذه المناطق فيما بينها لضمان عدم نشوب الخلافات ، وعدم وضع العراقيل من إحداها فى طريق الأخرى — وتبادل هذه الدول لمناطق النفوذ هنا — كما كانت تتبادل السلع التجارية — دون أى اعتبار لأصحاب البلاد الأصليين — والأساليب التى أتبعها المستعمر ليرسخ أقدامه باستخدام القوة حيناً والملاينة ومحاولات الإتفاق مع القوى الوطنية أحياناً أخرى إلى أن تتاح له الفرصة لتحقيق أهدافه — كل هذه وغيرها مما حفل به تاريخ المنطقة فى هذه الحقبة تمثل دروساً حية قوية .

وإذا كانت بلاد المغرب قد حصلت أخيراً على استقلالها — فقد كلفها هذا ثمناً باهظاً من أرواح شهدائها ، ومن جهود أبنائها .

كما أن سنوات الإستعمار الطويلة هذه خلفت وراءها العديد من المشكلات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية ومشكلات الحدود بينها .

ويحتاج علاج هذه المشكلات لجهود لا تقل عما بذل فى سبيل الاستقلال ذاته ـ فقد تعمقت جذور المشكلات بحيث أصبح إقتلاعها يحتاج لكثير من الصبر والروية والأناة والحكمة .

وإذا كان الكفاح السياسى ومقاومة المستعمر هدفاً محدداً واضحاً أمام شعوب المنطقة ، والهدف فيه ماثل فى الغالب أمام الأنظار ـ فإن الكفاح اليوم فى سبيل البناء الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وفى سبيل حل المشكلات المتوارثة المترسبة من عصر الاستعمار بين دول المنطقة ـ يختلف بأن الرؤية فيه قد لا تكون بنفس الوضوح والتحديد.

لذلك يتطلب الأمر ـ كما قلنا ـ حكمة وروية ودراسة ـ ويتطلب قبل كل شىء ، أن نعى دروس الماضى ونتعلم منها ـ ولعل ذلك يضىء لنا الطريق فى الحاضر ويحدد الهدف للمستقبل .

والأمل كبير فى أن يحرز المغرب المستقل اليوم فى ظل حكوماته الوطنية من التقدم والنهضة فى مختلف الميادين ما يكفل له ولأبنائه مستقبلا زاهراً يتناسب مع موقع هذه البلاد وتاريخها وحضارتها الغابرة .

هذا بالإضافة إلى ما تكشفت عنه أراضيها من ثروات طبيعية يمكن أن تسهم فى بناء المستقبل .

والله المعين .

تم بحمد الله

الملاحق

ملاحق الكتاب

تشتمل على :

(ا) نصوص الإتفاقات والمعاهدات الهامة .

(ب) جداول تاريخية للأسر الحاكمة .

(ج) خرائط للمراحل التاريخية التى مرت بها المنطقة .

(د) المراجع مرتبة حسب أبواب الكتاب .

(هـ) فهارس أبجدية للأعلام الواردة بالكتاب .

١ ـ نصوص المعاهدات
والإتفاقات الهامة

أولا — الجزائر

— ١ —

المعاهدة الموقعة بين قائد العسكر الفرنساوى الجنرال بورمون
وبين حسين باشا — داى الجزائر
(فى الثالث عشر من محرم سنة ١٢٤٦ هـ — ٥ يولية ١٨٣٠)

أولا — كافة القلاع الخاصة بمدينة الجزائر، وأبواب المدينة تسلم للعساكر الفرنساوية فى صباح السادس من يوليه الساعة العاشرة.

ثانيا — يتعهد القائد العمومى الفرنساوى أن يترك للباشا أمواله المختصة به.

ثالثا — يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحل الذى يرغبه، وفى مدة إقامته فى مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومى الفرنساوى، ويكون الباشا وعائلته تحت حرس مخصوص.

رابعا — يمنح القائد العمومى هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا — لكافة قواد العساكر الجزائرية.

خامسا — تعطى الحرية للديانة المحمدية، وللمكاتب الأهلية ولديانتهم ولأملاكهم ولتجارتهم ولصنائعهم، وأن لا يعارضوا فى ذلك، وتكون نساءهم محفوظات معتبرات.

سادسا — تكون مبادلة هذه المعاهدة — فى الساعة العاشرة من صباح الغد (السادس من يوليه، والثالث عشر من المحرم من سنة ١٢٤٦ هـ) وعقب ذلك يدخل العساكر قلعة القصبة ويقيمون فى قلاع المدينة والشطوط البحرية.

انظر : تحفة الزائر (اسكندرية ١٩٠٣)

— ٢ —

الاتفاق المعقود

بين الجنرال دى ميشيل — والأمير عبد القادر

(فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤)

إن قائد الجيش الفرنساوى المقيم فى وهران الجنرال دى ميشيل ، والأمير عبد القادر بن محي الدين — اعتمدا واتفقا على ما يأتى ذكره من الأمور :

منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين والعرب ، وكل من الجنرال دى ميشيل ، والأمير عبد القادر يجتهد فى إبقاء الألفة بين شعبين اقتضت الإرادة الآلهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة .

أولا — ولأجل ذلك يتعين وكلاء من الأمير عبد القــــادر فى وهران ، ومستغانم ، وارزيو كى لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب ، كما أنه يقام وكيلا عن فرنسا ضابط فرنساوى فى معسكر الثانى .

ثانياً — يصير احترام ديانة الإسلام وعوائدهم .

ثالثاً — يلزم رد الأسرى من الفريقين .

رابعاً — يصير إعطاء الحرية الكاملة للتجارة .

خامسا — يلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من المعسكر الفرنساوى ، ويلتزم الفرنساويون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير فى المدن الثلاث .

سادساً — من أراد من الأوربيين أن يسافر إلى داخلية البلاد يجب أن

يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير ويصححها الجنرال ، وبذلك يحصل على الحماية فى جميع الأقليم .

حرر فى وهران فى السابع عشر من شوال سنة ١٢٤٩ هـ

٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤ م

إمضاء

الأمير	جنرال
عبد القادر بن محي الدين	دى ميشيل
الجزائرى	

عن : تحفة الزائر (الاسكندريه ١٩٠٣) ص ١٠٥ ، ١٠٦

ثانيا — تونس

— ٣ —

نص منشور (عهد الأمان)

الذى أعلن فى ٢٠ محرم فاتح ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م)

الحمد لله الذى أوضح سبيلا ، وجعل نظام العالم كفيلا ، نزل الأحكام على قدر المصالح، ووعد العادل وتوعد الجائر، ومن أحسن من الله قيلا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرؤوف الرحيم وفضله تفضيلا وبعثه بالحنفية السمحاء تبيينا وفصلها تفصيلا، ورتبها كما أمره ربه إباحة ونديا. وتحريما وتحليلا ، فلن تجد لسنته تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلا، ونهموا الشريعة نصا وتأويلا، وأبقوا سيرتهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أمانا جليلا، ونستوهب منك اللهم توفيقاً يوصل إلى الاسعاد برضاك توصيلا ، وعونا على أمور الإمارة التى من حملها فقد حمل عبئاً ثقيلا ، فقد توكلنا عليك والتجأنا إليك وكفى بالله وكيلا . أما بعد فإن هذا الأمر الذى قلدنا الله منه ماقلده ، وأسند إلينا من أمور خلقه بهذا القطر ماأسنده ، ألزمنا فيه حقوقا واجبة ، وفروضا لازمة راتبة ، لاتستطاع إلا بإعانته التى عليها الاعتماد ، ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد، فمحضنا النصيحة لله فى عباده وأرضه وبلاده والأمل أن لانبقى فيهم ظلما ولاهضما ، ولانحرم لهم فى إقامة حقوقهم نظما ونقضى بتصريف عن هذا القصد بعمله ونيته، من يعلم أن الله لايظلم مثقال ذرة ولايحب الظالم فى بريته فقد قال لنبيه المعصوم الأواب : « ياداوود إن جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم

بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » .

والله يرى أنى آثرت فى قبول هذا الأمر ، على خطره ، مصلحة الوطن على ذاتى ، وعمرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب أوقاتى ، وقدمت من التخفيفات فى الجباية ماعلم خبره ، وظهر بعون الله أثره ، فانتشرت الآمال ، وتشوقت النفوس إلى ثمرات الأعمال ، وانقبضت عن التعدى أيدى العمال ، واستقصاء المصالح يقتضى تقديم أجمال ، ومن رامها جملة فقــــد عرضها ، بسبب التعذر للاهمال

ورأينا غالب أهل القطر لم تحصل لهم الأمنية ، باجراء ماعقدنا عليه النية وجرت عادة الله أن العمران لايقع من نوع الإنسان ، الا إذا علم أن مراءته هى الأمن له والأمان وتحقق أن العدل يدفع عنه خوف العدوان ، وأن لا وصول لهتك ستر من حرماته الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ، ولا يكفى لتحقيقه الواحد والإثنان فاذا رأى الجانى تعدد الأنظار غلط ، إن كان منصفا ، حدسة وقال : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

وقد رأينا سلطة الإسلام ، والدول العظام ، الذين سياستهم الدنيوية إعمال الإعلام فى النقض والإبرام ، يؤكدون الأمان من أنفسهم للرعية ، ويرونه من الحقوق المرعية ، وهو أمر يستحسنه العقل والطبع ، وإذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع لأن الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية الهوى ، ومن الزم العدل وأقسم عليه فهو للتقوى ، وبالأمن تطمئن القلوب وتقوى .

وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الأركان ، وبعض الأعيان بعزمنا على ترتيب

مجالس ذات أركان للنظر فى أحوال الجنايات من نوع الإنسان والمتاجر التى بها ثروة البلدان ، وشرعنا فى فصوله السياسية ، بما لا يصادم إن شاء الله القواعد الشرعية .

هذا وأحكام الشريعة أعزها الله جارية مطاعة والله يديم العمل بها إلى قيام الساعة .

وهذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه وتدوينه وتهذيبه ، وأرجو الذى ينظر إلى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه مما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة . وإن العبد الفقير أعجل لمرضاة ربى بمـا تطمئن إليه النفوس ، وتـكون منزلته فى منزلة المشاهد المحسوس وتأسيسه على قواعد :

الأولى : تأكيد الأمان لسائر رعيتنا وسكان إيالتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان ـ فى أبدانهم المكرمة . وأموالهم المحرمة، وأعراضهم المحترمة الإبحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر فى فى الإمضاء أو التخفيف ما أمكن ، أو الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوى الناس فى أصل قانون الأداء المرتب أو مايترتب ولوإن اختلف باختلاف الـكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ويحط على الحقير لحقارته مايأتى بيانه موضحاً .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة فى استحقاق الإنصاف لأن استحقاقه الملك بوصف الإنسانية لا بغيره من الأوصاف . والعدل فى الارض هو الميزان المستوى يؤخذ به للحق من البطل وللضعيف من القوى .

الرابعة : إن الذى من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينة ولا يمنع من إجراء مايلزم ديانته ، ولا تمتهن مجامعهم ، ويكون لها الأمان من الإذاية والامتهان لان ذمتهم تقتضى أن لهم مالنا وعليهم ماعلينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحته تعم المجموع ولا بد للإنسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله ـ فلا نأخذ العسكر إلا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكرى فى الخدمة أكثر من مدة معلومة كما نحرره فى قانون العسكر .

السادسة : إن مجلس النظر فى الجنايات إذا كان الحكم فيه عقوبة على أحد من أهل الذمة ـ يلزم أن يحضره من تعينه من كبرائهم تأنيسا لنفوسهم ودفعا لما يتوقعونه من الحيف والشريعة توصى بهم خيراً .

السابعة : أن نجعل مجلسا للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا أحبابنا الدول للنظر فى نوازل التجارات ، وبعد الإتفاق مع أحبابنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس كما يأتى إيضاح تفصيله قطعاً لتشعب الخصام .

والثامنة : أن سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم لهم المساواة فى الأمور العرفية والقوانين الحكمية ـ لأفضل لأحدهم على الآخر فى ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من إختصاص أحد به ، بل يكون مباحاً لكل أحد ، ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها ، وتكون العناية بإعانة عموم المتجر ومنع أسباب تعطيله.

العاشرة: إن الوافدين على إيالتنا لهم أن يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة والتى يمكن أن تترتب مثل سائر أهل البلاد لافضل لاحدهم على الآخر ، بعد اتفاقنا مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك ، كما يأتى بيانه .

الحادية عشرة : إن الوافدين على إيالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر مايملك من الدور والاجنة والارضين مثل سائر أهل البلاد ، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة والتى تترتب من غير امتناع ولافرق فى أدنى شىء من قوانين البلاد . ونبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث أن المالك يكون عالما بذلك ، داخلاً على اعتباره بعد الإنفاق مع أحبابنا الدول .

فعلى عهد الله وميثاقه أن تجرى هذه الأصول التى سطرناها على نحو ما بيناها ووراءها البيان لمعناها واشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم فى حق نفسى ومن يكون من بعدى أن لا يتم له أمر إلا باليمين على هذا الأمان الذى بذلت فيه جهدى ، وجمعت فيه سائر الحاضرين من نواب الدول العظام وأعيان رعيتنا شهداء على عهدى . والله يعلم أن هذا القصد الذى أظهرته وجمعت له هؤلاء الأعيان واشهرته ـ وهو ماأودعه الله فى نيتى ، وإجراء أصوله وفروعه فوراً ـ اعظم أمنيتى والمرء مطلوب بجهده ، ومن عاهـــد الله لزمه الوفاء بعهده ، والحق هو العروة الوثقى والآخرة خير وأبقى .

انظر ـ أحمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ١٩٦٣)

— ٤ —

نص معاهده باردو المنعقده

فى ١٢ مايو ١٨٨١

إن دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باى تونس ، لما كان من غرضهما أن يمنعا إلى ألابد حدوث قلاقل كالتى حصلت أخيراً على حدود الدولتين وبسواحل المملكة التونسية ، وأن يحكما علاقات ودهما القديم وروابط حسن الجوار — قد اتفقتا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين السامیین المتعاقدين . وبناء على ذلك فإن فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية قد عين جناب الجنرال باربار نائبا مفوضاً من طرفه ، فاتفق جنابه مع سمو الباى المعظم على البنود الآتية :

البند الأول

إن معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية وسمو باى تونس قد وقع تأكيدها وتجديدها .

البند الثانى

لأجل تسهيل القيام بالإجراءات التى يتحتم على دولة الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذى يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان ، فقد رضى سمـــو باى تونس أن تحتل القوات الفرنسية العسكرية المراكز التى تراها صالحة لإستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل . ويزول هذا الإحتلال عندما تتفق السلطتان الفرنسية والتونسية وتقرران معاً بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على إستتباب الأمن العام والنظام .

البند الثالث

تتعهد دولة الجمهورية الفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباى وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته وعائلته أو يعبث بأمن مملكته .

البند الرابع

تضمن الدولة الفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة التونسية ومختلف الدول الأوربية .

البند الخامس

يمثل الدولة الفرنسية لدى سمو الباى وزير مقيم عام تكون وظيفته السهر على تنفيذ أحكام هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة بين فرنسا والسلطات التونسية فى جميع القضايا التى تهم الجانبين .

البند السادس

يكلف الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لفرنسا فى البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها . وفى مقابل ذلك يلتزم سمو الباى بألا يعقد أى عقد ذى صفة دولية دون إعلام الدولة الفرنسية بذلك والحصول على موافقتها مقدماً .

البند السابع

تحتفظ دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو الباى لنفسهما بحق الإتفاق على وضع نظام للمملكة التونسيه من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائنى المملكة .

البند الثامن

تفرض غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل ويحدد

قيمة هذه الغرامة وطرق جبايتها اتفاق يعقد فيما بعد ، وتكون حكومة الباى هى المسئولة عن تنفيذ هذا الإتفاق .

البند التاسع

لأجل صيانة ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالقطر الجزائرى من تهريب الأسلحة والذخائر فإن دولة سمو الباى يتعهد بأن يمنع قطعاً إدخال السلاح والذخائر الحربية لجزيرة جربة ومرسى قابس والمراسى الأخرى بالمملكة التونسية .

البند العاشر

سيقع عرض هذه المعاهدة على دولة الجمهورية الفرنسية للمصادقة عليها وتسلم الوثيقة المصدق عليها بعد ذلك لسمو باى تونس فى أقرب وقت ممكن.

وكتب بباردو فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ .

الإمضاء

محمد الصادق باى　　　　جنرال بريار

أنظر ـ تونس والحماية الفرنسية ، ومنظمة الأمم (نشر مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى ـ القاهرة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٥٢) ص ٦٧ — ٧٥

— ٥ —

نص اتفاقية المرسى

المنعقدة فى ٨ يونيو ١٨٨٣

(بين تونس وفرنسا)

لما كانت عناية سمو الباى المعظم متجهة إلى تحسين الأحوال الداخلية بالمملكة التونسية وفقا لأحكام المعاهدة المبرمة فى الثانى عشر من شهر مايو سنة ألف وثمانمائة وواحد وثمانين ، وكانت حكومة الجمهورية الفرنسية راغبة في تحقيق أغراض سموه لعرى المودة بين القطرين العامرين — اتفق الطرفان على عقد اتفاق لتحقيق هذا الغرض ،واعتمد رئيس الجمهورية الفرنسية فى ذلك مسيو بابار بولس كامبول وزيره المقيم بتونس الحامل لنيشان اللجيون دونور صنف أو فيسية ونيشان الإفتخار المعهد من الصنف الأكبر . . . الخ فقدم وزيره المشار إليه أوراق اعتماده لعقد الإتفاقية المحددة فى البنود الآتية :

البند الأول

لما كان غرض سمو الباى المعظم أن يسهل للحكومة الفرنسية إتمام حمايتها فقد تكفل بإدخال الإصلاحات الإدارية والعدلية التى ترى الحكومة المشار إليها فائدة فى إدخالها .

البند الثانى

تضمن الحكومة الفرنسية قرضاً يعقده سمو الباى لتحويله أو لدفع الدين السائر الذى لا يمكن أن يتجاوز سبعة عشر مليونا وخمسمائة وخمسين ألفا — ولكنها هى التى تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك ، وقد تعهد سمو

الباى المعظم بأن لا يعقد قرضاً فى المستقبل لحساب المملكة التونسية دون إذن سابق من الحكومة الفرنسية .

البند الثالث

يخصص لسمو الباى المعظم من مداخيل المملكة :

أولا : المبالغ اللازمة للقيام بواجبات القرض الذى ضمنته فرنسا .

ثانيا : مخصصات سمو الباى وقدرها مليونان من الريالات أى مليون ومائتى ألف فرنك ، وما بقى بعد ذلك يعين لمصاريف المملكة ودفع مصاريف الحماية .

البند الرابع

هذه الإتفاقية مؤكدة ومكملة للمعاهدة المعقودة فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ فى ما يحتاج منها إلى التأكيد والتكميل ، ولا تتغير بها الأنظمة التى سبق وضعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية .

البند الخامس

تعرض هذه الإتفاقية على الحكومة الفرنسية للمصادقة عليها وتسلم وثيقة التصديق إلى سمو الباى المعظم فى أقرب فرصة ممكنة .

وإيذاناً بصحة ما تقدم حررت هذه الإتفاقية وختمها الموقعان بخاتميهما .
وكتب بالمرسى فى ٨ يونيو سنة ١٨٨٣ .

الإمضاء

على باى — بولس كامبول

انظر — وثائق تونسية — نشر كتابة الدولة للاخبار والإرشاد (تونس ١٩٦٥)

— ٦ —

نص البروتوكول التونسى الفرنسى

الخاص بإعلان استقلال تونس

(فى ٢٠ مارس ١٩٣٦)

فى ٣ يونيو ١٩٥٥ ونتيجة لمفاوضات حرة جرت بين وفدى البلدين اتفقت الحكومتان الفرنسية والتونسية على الإعتراف لتونس بأن تمارس السيادة الداخلية كامل الممارسة . وبذلك عبرت الحكومتان عن إرادتهما المتجهة إلى تمكين الشعب التونسى من إدراك ازدهاره الشامل والإضطلاع على مراحل ـ بالإشراف على مصيره .

وتعترف الحكومتان بأن تنمية العلاقات الفرنسية التونسية فى كنف الإنسجام والسلم تستجيب لفروض العالم العصرى ، وتلاحظان بإرتياح أن هذا التطور يسمح بالإرتقاء إلى السيادة الكاملة بدون أن تلحق الشعب آلام وتصاب الدولة بانتكاسات ، وتؤكد أن اعتقادهما بأن فرنسا وتونس إذ تقيمان علاقاتهما على أساس الإحترام المتبادل الكامل لسيادة كل منهما فى نطاق إستقلال الدولتين وتساويهما فإنهما تعززان التضامن الذى يربط بينهما لفائدة البلدين العظمى .

ونتيجة لبيان رئيس الحكومة الفرنسية الذى ألقاه عند مطالبته البرلمان بالتزكية ولرد سمو الباى المؤكد كلاهما من جديد إرادتهما المشتركة الرامية إلى تطوير علاقاتهما بنفس المسألة والمودة ـ فان الحكومتين فتحتا مفاوضات بباريس فى ٢٧ فبراير .

وبناء على ذلك : تعترف فرنسا على رؤوس الملأ باستقلال تونس .

وينتج عن ذلك :

(ا) أن المعاهدة المبرمة بين فرنسا وتونس فى ١٢ مايو ١٨٨١ لم يعد فى إمكانها ضبط العلاقات الفرنسية التونسية .

(ب) أن ما كان من التدابير التى إقتضتها اتفاقيات ٣ يونيو ١٩٥٥ متنافيا مع نظام تونس الجديد باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة يقع تنقيحه أو إلغاؤه .

(ج) أن تونس تمارس سلطاتها فى ميدان الشؤون الخارجية والأمن والدفاع وأنها تشكل جيشاً وطنياً تونسياً .

واتفقت تونس وفرنسا ـ فى نطاق احترام سيادة كل منهما ـ على ضبط أو إكمال تدابير التعاون بين البلدين — وذلك بتنظيم تعاونهما فى الميادين التى تشترك فيها مصالحهما وخاصة فيما يتعلق بالدفاع والشؤون الخارجية .

والاتفاقيات التى ستبرم بين فرنسا وتونس سوف تثبت تفاصيل إسناد الإعانة التى تقدمها فرنسا إلى تونس لبناء هيكل الجيش الوطنى التونسى .

وتستأنف المفاوضات فى ١٦ أبريل ١٩٥٦ بغية إبرام العقود الضرورية لتنفيذ المبادىء التى اقتضاها هذا البروتوكول ، وذلك فى أقصر الآجال الممكنة وعملا بتلك المبادىء نفسها .

انظر : كتابة الدولة للاخبار والإرشاد (تونس ١٩٦٥) ص ٨٥ ، ٨٦

— ٧ —

ثانيا — المغرب الأقصى

الإتفاقية الفرنسية البريطانية (٨ إبريل سنة ١٩٠٤)

المادة الأولى — تصرح حكومة صاحب الجلالة البريطانية بأنه ليس لديها أية نية لتغيير الوضع السياسى الحالى فى مصر .

كما تصرح حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنها لن تعوق عمل بريطانيا فى مصر ، فلا تطالبها بتحديد فترة معينة لإنهاء الإحتلال البريطانى لأراضيها ، كما لا تطالبها بأى إجراء آخر فى هذا الشأن .

وأنها توافق على مسودة المرسوم الخديوى الملحق بهذه الإتفاقية والذى يحتوى على الضمانات الضرورية لحماية مصالح حملة الأسهم المصريين ، وبشرط عدم إدخال تعديلات على المرسوم بعد إصداره مهما تكن دون موافقة الدول الموقعة على اتفاقية لندن سنة ١٨٨٥ .

وكذلك تم الإتفاق على أن يحتفظ لخبير فرنسى بمنصب المدير العام لمصلحة الآثار المصرية كما كان الحال فى الماضى .

كذلك تستمر المدارس الفرنسية فى مصر تتمتع بما كان لها من حرية العمل فى الماضى .

المادة الثانية — تصرح حكومة الجمهورية الفرنسية بأنه ليس لديها أية نية لتغيير الوضع السياسى فى (المغرب) .

كما تصرح حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جانبها بأنها تعترف بحق فرنسا — بصفتها دولة تمتد ممتلكاتها إلى مسافة طويلة ملاصقة لحدود

للمغرب — فى المحافظة على النظام بهذا البلد وتقديم المعونة اللازمة فيما يحتاج اليه من اصلاحات إدارية واقتصادية ومالية وعسكرية .

وتعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية أنها لن تعوق عمل فرنسا فى هذا السبيل بشرط ألا يمس هذا العمل الحقوق التى تتمتع بها بريطانيا فى المغرب طبقاً لنصوص المعاهدات والإتفاقيات ، وما جرى عليه العرف ، وهذه الحقوق تشمل التجارة الساحلية بين مـــوانى المغرب ، التى تمارسها السفن البريطانية منذ عام ١٩٠١ .

المادة الثالثة — تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جانبها إحترامها للحقوق التى تتمتع بها فرنسا فى مصر طبقا لنصوص المعاهدات والإتفاقيات والعرف ، وهذه الحقوق تشمل التجارة الساحلية بين الموانى المصرية التى منحت السفن الفرنسية حق ممارستها .

المادة الرابعة — لما كانت الحكومتان مرتبطتين بمبدأ حرية التجارة سواء فى مصر أو فى المغرب ، فهما تعلنان أنهما لن تشجعا عدم المساواة فى هذين البلدين فى فرض الرسوم الجمركية أو فى أى نوع آخر من الضرائب ، أو فى أجور النقل بالسكك الحديدية .

وتطبق على المعاملات التجارية بين بريطانيا وفرنسا من جهة ، والمغرب ومصر من جهة أخرى نفس المعاملة الخاصة بتجارة الترانسيت عند مرورها بالممتلكات الفرنسية والبريطانية فى أفريقية .

وتعقد بين حكومتى بريطانيا وفرنسا إتفاقية تحدد نظام الترانسيت والمراكز التى تمر منها هذه التجارة .

ومع ذلك فحكومة الجمهوريه الفرنسية تحتفظ لنفسها فى المغرب بحقها فى الإمتناع عن منح إمتيازات لإنشاء الطرق والسكك الحديدية والموانى وغيرها إلا بشرط احتفاظ الدولة بسلطتها على هذه المشروعات الكبرى ذات المنفعة العامة .

كما تحتفظ حكومة صاحب الجلالة البريطانية لنفسها بمثل هذا الحق فى مصر .

المادة الخامسة ـ تصرح الحكومة البريطانية بأنها سوف تستخدم نفوذها فى مصر بحيث لا يوضع الموظفون الفرنسيون الذين يعملون حاليا فى خدمة الحكومة المصرية ، تحت ظروف أقل ملاءمة لمصلحتهم من تلك التى يعمل فى ظلها الموظفون البريطانيون فى هذه الحكومة .

كما أن حكومة الجمهورية الفرنسية من ناحيتها لن تعترض على تطبيق شروط مشابهة لهذه على الموظفين البريطانيين الذين يعملون حالياً فى خدمة الحكومة المغربية .

المادة السادسة — لضمان حرية المرور فى قناة السويس تصرح حكومة الجلالة البريطانية بأنها ملتزمة بنصوص اتفاقية القسطنطينية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ ، كما تعلن موافقتها على وضع هذه النصوص موضع التنفيذ . ولما كان هذا كافيا لضمان حرية المرور فى قناة السويس ـ فإن تنفيذ النص الأخير من الفقرتين الأولى والثانية من المادة الثامنة من هذه الإتفاقية يظل معلقا .

المادة السابعة — لضمان حرية المرور فى مضيق جبل طارق توافق الحكومتان على عدم السماح بإقامة أية تحصينات أو منشآت استراتيجية على ذلك الجزء من ساحل المغرب المحصور بين مليلية والمرتفعات المشرفة على الشاطىء الشرقى لنهر سبو — دون أن تشمل هذين المركزين .

ومن ذلك فإن هـــذا الشرط لا ينطبق على المراكز التى تحتلها أسبانيا حالياً على الساحل المغربى من البحر المتوسط .

المادة الثامنة — لما كانت الحكومتان تكنان لأسبانيا شعور الود الخالص فإنهما تدخلان فى اعتبارهما الخاص المصالح التى تستمدها هذه الدولة من موقعها الجغرافى ومن سيادتها الإقليمية على بعض الأماكن الواقعة على الساحل المغربى للبحر المتوسط .

وستعمل الحكومة الفرنسية على التفاهم مع الحكومة الأسبانية بشأن هذه المصالح على أن تبلغ حكومة صاحب الجلالة البريطانية بكل اتفاق يتم بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية بشأن هذا الموضوع .

المادة التاسعة — توافق الحكومتان على أن تقدم كل منهما للاخرى تأييـــدها الدبلوماسى حتى يتسنى تنفيذ البنود الخاصة بمصر والمغرب فى هذه الاتفاقية .

انظر — روم ، لاندو : أزمة المغرب الأقصى (ترجمة اسماعيل على . وحسن الحوت) — القاهرة ١٩٦١ ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٤

— ٨ —

المواد السرية الملحقة بالاتفاق الفرنسى البريطانى

(أبريل سنة ١٩٠٤)

المادة الأولى — إذا وجدت إحدى الحكومتين أنها مضطرة بحكم الظروف القاهرة إلى تعديل سياستها الخاصة بمصر أو مراكش ، فإن الإلتزامات التى ارتبطت بها كل منهما نحو الأخرى بموجب المادة الرابعة والسادسة والسابعة من الإتفاقية التى وقعت اليوم تظل قائمة .

المادة الثانية — ليس لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية فى الوقت الحاضر النية فى أن تقترح على الدول الأخرى إدخال تعديلات على نظام الإمتيازات أو على النظام القضائى فى مصر .

وفى حالة ما إذا رأت الحكومة البريطانية أنه من المرغوب فيه إدخال إصلاحات على النظام التشريعى فى مصر تطابق النظم القائمة فى البلاد المتمدينة فإن حكومة الجمهورية الفرنسية لا ترفض قبول مثل هذه الإقتراحات ، على أن يكون مفهوماً أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تقبل ما قد تقترحه عليها الجمهورية الفرنسية خاصا بادخال إصلاحات مماثلة فى المغرب .

المادة الثالثة — اتفقت الحكومتان على أن منطقة معينة من أراضى المغرب المجاورة لـ (مليلية) و (وسبته) وغيرهما من المدن الأسبانية يجب أن تدخل ضمن دائرة النفوذ الأسبانى — وذلك إذا توقف السلطان عن ممارسة سلطته على هذه الأراضى ، على أن يوكل إلى أسبانيا حكم المنطقة الساحلية من مليلية إلى المرتفعات الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر سبو ، دون أن تدخل فيها هذه المرتفعات .

ومع ذلك فلا بد أن تبدى أسبانيا مقدماً موافقتها الرسمية على نصوص المادتين الرابعة والسابعة من الإتفاقية التى تم توقيعها اليوم وتتعهد بتنفيذ هذه النصوص .

وعلى أسبانيا أيضا أن تتعهد بعدم التنازل عن بعض أو كل الأراضى التى توضع تحت سلطتها أو التى تقع فى دائرة نفوذها .

المادة الرابعة — إذا رأت أسبانيا أن من الأصلح لها رفض الدعوى الموجهة إليها للموافقة على نصوص المادة السابقة ، فإن الإتفاقية الفرنسية البريطانية التى تتضمنها التصريحات الموقع عليها اليوم تظل سارية المفعول .

المادة الخامسة — إذا لم يمكن الحصول على موافقة الدول الأخرى على مسودة المرسوم الذى ورد ذكره فى المادة الأولى من الإتفاقية الموقعة اليوم — فليس للحكومة الجمهورية الفرنسية الحق فى الإعتراض على تسديد الدين المضمون والدين الممتاز والدين الموحد بسعر التعادل بعد ١٥ يوليو سنة ١٩١٠ .

(تم التوقيع عليها من صورتين فى لندن بتاريخ ٨ أبريل سنة ١٩٠٤) .

انظر — روم لاندو : مرجع سابق ص ٢١٥ ، ٢١٦

—٩—

الاتفاق الفرنسى الأسبانى

(فى ٣ أكتوبر ١٩٠٤)

ترجمة التصريح الذى نشر :

بما أنه قد تم الإتفاق بين حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة ملك أسبانيا على مدى الحقوق ومدى ضمان المصالح الناشئة لفرنسا من ملكيتها للجزائر ، و كذلك على مدى الحقوق والمصالح الأسبانية الناشئة من ملكيتها للساحل المغربى .

ولما كان صاحب الجلالة ملك أسبانيا قد أعلن نتيجة لذلك إنضمامه إلى الاتفاقية الفرنسية البريطانية الصادرة فى ٨ أبريل ١٩٠٤ وهى الخاصة بالمغرب ومصر والتى أبلغتها إلى جلالته حكومة الجمهورية الفرنسية .

فإن الحكومتين تعلنان فى هذا الإتفاق تمسكهما الكامل بمبدأ سلامة أراضى الإمبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان .

إمضاء

دلكاسيه	ليون راى كاستيلو
(عن فرنسا)	(عن أسبانيا)

روم ، لاندو : مرجع سابق ـ ٢ ص ٢١٧

—١٠—

الاتفاق الفرنسى الأسبانى

(فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤)

(البنود السرية)

تتضمن هـذه البنود السرية احدى عشرة نقطة أساسية تتلخص فيما يلى :

تنقسم منطقة النفوذ الأسبانى إلى قسمين أحدهما شمالى يمتد من منفذ مليوية على البحر المتوسط إلى خط يمتد بين حوض نهرى اناون، وسبو ، وبين كرت، ورغة ـ ثم يتجه نحو الشمال إلى لوكوس عن طريق جبل مولاى بوشته، ومن هناك يتجه إلى ساحل المحيط الأطلسى قرب السرجة (المادة الثانية) .

أما القسم الجنوبى فبالإضافة إلى للمتلكات الأسبانية فى (ريودىأورو) التى تم تحديدها فى اتفاق ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٠ فالمنطقة الأسبانية يحدها خط يسير محاذياً إلى درعه وسوس — حتى يصل البحر عنـــد مصب ماسه (المادتان ٤ ، ٥) .

وتعهدت أسبانيا بألا تنقل أو تتخلى عن حق الإشراف على هذه المناطق لاجزئيا ولا لأى دولة أخرى . (المادة السابعة) .

وفى المنطقة الشمالية تعهدت أسبانيا بألا تقوم بعمل منفرد دون إستشارة فرنسا أولا ، وهذا الشرط يظل نافذاً لمدة أقصاها خمس عشرة سنة ولاينقض هذا التعهد إلا فى الظروف الآتية :

١ ـ إذا إنهار النظام السياسى للمغرب وإنهارت معه السلطة الشريفة .

٢ ـ إذا أصبحت المحافظة على الحالة الراهنة أمراً مستحيلا بسبب عجز الحكومة الشريفة عن صيانة الأمن والنظام .

٣ ـ إذا ثبتت استحالة المحافظة على الحالة الراهنة لأى سبب آخر من طبيعته أن يكون موضوعاً للاتفاق بين فرنسا وأسبانيا (المادة الثالثة) .

أما النظام الدولى لطنجه فيظل قائماً (المادة التاسعة) .

وبجانب هذه المواد توجد مواد تتعلق بالنظام الإجتماعى والإقتصادى ، فالمادتان ١٠ ، ١١ أجازتا التعاون الفرنسى الأسبانى فى بعض المشروعات التجارية وحرية تداول النقد الأسبانى وإنشاء المدارس الأسبانية .

ملاحظة : ظلت هذه البنود غير معروفة تماماً حتى نشرتها صحيفة (Le Matin) فى عددها الصادر بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩١١ بعد أن حصلت عليها من مصدر لم تذكره .

—١١—

النقط الأساسية فى اتفاق الجزيرة

(٧ أبريل سنة ١٩٠٦)

(١٣٢ بنداً)

الفصل الأول : يتناول قوة البوليس ويتضمن مايلى :

١ — يجب وضع قوة البوليس تحت إشراف السلطان على أن يختار أفرادها من السكان الوطنيين وأن توزع على الموانى التجارية الثمانية .

٢ — يقوم ضباط الصف الفرنسيون والأسبان بمساعدة السلطان فى تنظيم هذه القوة على أن يكون استخدامهم لمدة خمس سنوات فقط ، أما الإجراءات التفصيلية فتعرض على الهيئة الدبلوماسية فى طنجة للموافقة عليها .

٣ — لاتزيد قوات البوليس على خمسة آلآف ولاتقل عن ألفين .

٤ — يقوم بنك الدولة بتقديم الإعتمادات المالية اللازمة لنفقات هذه القوة .

٥ — يكون المفتش العام للبوليس من جنسية سويسرية .

٦ — ترسل نسخ من تقرير المفتش العام إلى طنجه، كما أن لطنجه الحق فى مطالبة المفتش العام بتقديم تقارير إذا دعت الحاجة .

٧ — مرتب المفتش العام يبحث فيما بعد .

٨ — عند التعاقد معه يبلغ ذلك إلى طنجه .

٩ — يعين فى تطوان والعريش مفتشون أسبان ، وفى الرباط فرنسيون ،

وفى طنجة والدار البيضاء مفتشون من جنسيات مختلفة . كذلك يعين مفتشون فرنسيون فى الموانى المغربية الثلاثة الباقية .

ويتعلق الفصل الثانى والثالث : ببنك الدولة ويسمى « بنك المغرب » وله حق إصدار أوراق النقد . وبجانب ذلك يقوم بما يلى :

١ — له وحده الحق فى عقد القروض القصيرة الأجل .

٢ — له أن يقدم قروضا للحكومة المغربية مقيدة بشروط .

٣ — يتولى أعمال دار صك النقود .

٤ — يفتح حساباً منفصلا لضريبة قدرها ٢ر٥ ٪ من قيمة الواردات الأجنبية .

ويخضع البنك للقوانين الفرنسية على أن تعقد إتفاقية ملحقة تحدد بالدقة العلاقات بين البنك وحكومة المغرب . ويكون مجلس إدارة البنك فى طنجه . وهذا الفصل يضم فى جملته ٢٧ بنداً .

أما الفصل الرابع : فيتناول الإيرادات والضرائب (ومجموع مواده ١٨) وتنص إحدى المواد على أن يدفع الأجانب ضريبة « الترتيب » ، كما تنص مادة أخرى على حقهم فى شراء الأراضى الزراعية وإقامة المبانى .

أما المواد الأقل أهمية فتتناول الإقتراحات المالية وغيرها .

والمادة ٦٦ ذات أهمية كبرى فهى تخول الحكومة المغربية الحق فى فرض ضريبة مؤقتة قدرها ٢ر٥ ٪ كرسم جمركى على قيمة البضائع المستوردة ، على أن يخصص إيراد هذه الضريبة للأشغال العامة (وتكون عقودها تحت إشراف الهيئة الدبلوماسية) .

والفصل الخامس : يشمل المواد من ٧٧ إلى ١٠٥ ويختص بالجمارك .

والفصل السادس : يتناول الاشغال العامة والخدمات ويقرر ما يلي :

١ — لا يصح التنازل عن احد هذه الاشغال العامة أو الخدمات .

٢ — تحتفظ الدول الموقعة على العقد لنفسها بحق الإشراف على الإمتيازات الممنوحة لرءوس الأموال الأجنبية بحيث لا يكون من طبيعة هذه الإمتيازات أن تضعف سيطرة الحكومة المغربية على الخدمات العامة الرئيسية .

٣ — يجب على الحكومة المغربية أن تعرض جميع العقود على الهيئة الدبلوماسية .

٤ — للهيئة الدبلوماسية حق الإشراف على امتيازات التعدين والمحاجر والغابات وجميع المسائل المتعلقة بنزع الملكية .

أما الفصل السابع : والأخير فيتناول التنظيمات العامة الخاصة بالتصديق على الاتفاق .

انظر — محمد خير : المسألة المغربية (القاهرة ١٩٦١) ص ٤٠١ — ٤٠٥

—١٢—

معاهدة الحماية بين فرنسا والمغرب

(تم التوقيع عليها فى فاس بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩١٢)

لما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة الشريفة ترغبان فى إقرار وضع سياسى لحكم المغرب، يقوم على أساس من النظام الداخلى والأمن العام، ويهيىء الظروف لإدخال الإصلاحات وضمان التنمية الإقتصادية للبلاد — فقد اتفقتا على مايلى :

المادة الأولى — وافقت حكومة الجمهورية الفرنسية وصاحب الجلالة السلطان على وضع نظام جديد لحكم المغرب يشمل الإصلاحات الإدارية والقضائية والتعليمية والإقتصادية والمالية والعسكرية التى تراها الحكومة الفرنسية ملائمة للعمل بها فى أراضى المغرب .

على أن يتضمن النظام الجديد المحافظة على الأوضاع الدينية واحترام ما للسلطان من مقام سام تقليدى ، وممارسة الشعائر الإسلامية ، والمحافظة على جميع النظم الإسلامية وخصوصا نظام الحبوس (الأوقاف) ، كما يتضمن أيضاً تنظيم المخزن الشريف على أسس من الإصلاح .

سيتم التفاهم بين حكومة الجمهورية الفرنسية والحكومة الأسبانية بشأن المصالح التى تستمدها الحكومة الأسبانية من وضعها الجغرافى ومن ملكيتها لأراضى على الساحل المغربى .

وبنفس الطريقة تحتفظ مدينة (طنجة) بوضعها الدولى الخاص المعترف به والذى يحدد نظام الحكم المحلى القائم بها .

المادة الثانية — يوافق جلالة السلطان على أنه من الآن فصاعداً تشرع الحكومة الفرنسية — بعد إخطار المخزن مقدماً — فى الإحتلال العسكرى لأراضى المغرب بالطريقة التى تراها ضرورية للمحافظة على النظام وتأمين المبادلات التجارية وأن تمارس جميع المهام ذات الصفة البوليسية فوق أراضى المغرب وفى مياهه الإقليمية .

المادة الثالثة — تتعهد حكومة الجمهورية الفرنسية بأن تقدم معونتها بصفة دائما إلى صاحب الجلالة الشريفة ضد جميع الأخطار التى قد تهدد شخصه أو عرشه أو تعرض أمن بلاده للخطر ، كما تقدم نفس المعونة إلى وارث العرش وخلفائه .

المادة الرابعة — الإجراءات التى يقتضيها النظام الجديد للحماية يتم إعدادها بمرسوم يصدره صاحب الجلالة الشريفة أو السلطات التى يخولها حق النيابة عنه على أن يكون حق اقتراحها للحكومة الفرنسية . ويراعى اتباع نفس هذا النظام فيما يتعلق بوضع قوانين جديدة أو تعديل القوانين الحالية .

المادة الخامسة — يمثل الحكومة الفرنسية لدى صاحب الجلالة الشريفة مندوب (مقيم عام) وهذا المقيم العام يمثل جميع إختصاصات حكومة الجمهورية فى المغرب ويسهر على تنفيذ الإتفاقية الحالية .

والمقيم العام هو طريق الإتصال الوحيد بين السلطان وممثلى الدول الأجنبية فى جميع العلاقات التى يرتبط بها هؤلاء الممثلون الأجانب مع الحكومة المغربية .

ويناط بالمقيم العام ، بوجه خاص ، جميع المسائل المتعلقة بالاجانب فى الإمبراطورية الشريفة وله حق التصديق على المراسيم التى يصدرها صاحب الجلالة الشريفة واصدارها بالنيابة عن الحكومة الفرنسية .

المادة السادسة — يقوم ممثلو فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون بتمثيل المصالح المغربية والرعايا المغاربة فى الخارج وحماية مصالحهم .

ويتعهد صاحب الجلالة الشريفة بألا يعقد إتفاقاً ذا طبيعة دولية دون الحصول مقدماً على موافقة الحكومة الفرنسية .

المادة السابعة — تحتفظ حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة الشريفة لنفسهما بحق وضع أسس لنظام مالى جديد وذلك بإتفاق متبادل بينهما ، على ألا يخل ذلك بالحقوق الممنوحة لحاملى سندات القروض العامة المغربية ، وأن يكون من شأن هذا النظام أن يجعل من الممكن ضمان ما على الخزانة الشريفة من التزمات ، وأن يتولى جمع إيرادات الإمبراطورية الشريفة بانتظام .

المادة الثامنة — يصرح صاحب الجلالة الشريفة بأنه فى المستقبل سيمتنع عن عقد قروض عامة أو خاصة بطريقة مباشرة، كما يمتنع عن منح أى إمتياز مهما كانت طبيعته دون ترخيص بذلك من الحكومة الفرنسية .

المادة التاسعة — تعرض المعاهدة الحالية على حكومة الجمهورية الفرنسية للتصديق عليها على أن تسلم الوثيقة المصدق عليها إلى جلالة السلطان دون إبطاء .

واقراراً بما تم الاتفات عليه حرر الموقعون أدناه هذا العقد ووضعوا اختيامهم عليه .

فارس فى ٣٠ مارس ١٩١٢ (١١ ربيع سنة ١٣٣٠) .

إمضاء

عبد الحفيظ　　　　رينو

— ١٣ —

الاتفاقية الفرنسية المغربية

(فى ٢ مارس سنة ١٩٥٦)

إن صاحب الجلالة سيدى محمد الخامس ملك المغرب وحكومة الجمهورية الفرنسية يعلنان عزمهما على تطبيق كل ما يتضمنه تصريح (لاسل سان كلو) المؤرخ بسادس نوفمبرسنة ١٩٥٥ تطبيقا كاملا ، وقد تحقق لديهما — لما اجتازه المغرب من التطور فى ميدان الرقى — أن عقد الحماية المبرم فى فاس والمؤرخ ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ قد أصبح لا يتلاءم ومقتضيات الحياة العصرية ، وأنه لا يمكن من الآن فصاعداً للعلائق الفرنسية المغربية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنوده — وبناء على ذلك فإن حكومة الجمهورية الفرنسية تؤكد علانية إعترافها باستقلال المغرب الذى يقتضى بالأخص ديبلوماسية وجيشا ، كما تؤكد عزمها على أن تحترم وحدة تراب المغرب المضمونة بحكم المعاهدات الدولية وتعمل على احترامها .

وإن حكومة الجمهورية وصاحب الجلالة سيدى محمد الخامس ملك المغرب يصرحان أن المفاوضات التى أستهلت فى باريس بين المغرب وفرنسا وهما دولتان متساويتان وذاتا سيادة تهدف إلى إبرام أوفاق جديدة تحدد الترابط بين البلدين فى الميادين المشتركة فيها مصالحهما ، وتنظم على أساس الحرية والتساوى تعاونهما خصوصاً فى شئون الدفاع والعلاقات الخارجية والاقتصاد والثقافة . وتضمن حقوق الفرنسيين المقيمين فى المغرب وحرياتهم وكذلك حقوق المغاربة المقيمين فى فرنسا وحرياتهم . وهذا فى دائرة احترام سيادة البلدين . وقد اتفق كل من حكومة الجمهورية الفرنسية وصاحب الجلالة

سيدى محمد الخامس ملك المغرب على أن العلائق الجديدة بين فرنسا والمغرب ستقوم على مقتضيات البروتوكول الملحق بهذا التصريح المشترك ريثما يجرى العمل بالأوفاق المشار إليها .

وقع عليه بوزارة الخارجية

الرئيس البكاى — والرئيس بينو

وتم التوقيع فى نفس الوقت على البروتوكول الخاص بمدة الانتقال ويقضى:

أولا — يمارس جلالة السلطان السلطة التشريعية بكامل السيادة ويطلع ممثل فرنسا على الظهائر والقرارات ويبدى ملاحظاته عندما تمس هذه الظهائر بمصالح فرنسا ومصالح الفرنسيين والأجانب فى الفترة الإنتقالية .

ثانيا — يتصرف جلالة سلطان المغرب فى جيش وطنى ، وفرنسا على استعداد لمساعدة هذا الجيش ، ووضعية الجيش الفرنسى الحالية ستبقى على ماهى عليه فى المدة الإنتقالية .

ثالثا — ميادين التسيير التى حافظت عليها السلطات الفرنسية سيقع تسليمها بعد اتفاق يقع بين الطرفين .

والحكومة المغربية ممثلة فى لجنة منطقة الفرنك التى هى الهيئة الإدارية المركزية للسياسة العــــالمية لمجموع منطقة الفرنك كعضو له صوت فى المداولات .

ومن جهة أخرى فان الضمانات التى يتمتع بها الموظفون المستخدمون الفرنسيون فى المغرب سيحافظ عليها .

رابعا — يحمل ممثل الجمهورية الفرنسية بالمغرب لقب مندوب فرنسا السامى .

وحرر فى باريس فى ٢ مارس ١٩٠٦ .

التوقيع	التوقيع
كريستيان بينو	البكاى مبارك

انظر ــ كتاب منجزات وأهداف (الذى أصدرته وزارة الانباء والسياحة بالمملكة المغربية ــ ١٩٦٧)

رابعا — ليبيا

— ١٤ —

نص الإنذار الإيطالى
المقدم إلى رئيس الوزارة العثمانية (حقى باشا)
بشأن ليبيـــا

يا صاحب الدولة : ما انفكت الحكومة الإيطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة ، وضع حد لسوء النظام ، وإهمال الحكومة العثمانية فى طرابلس ، وبنى غازى ، وإنالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام أفريقية الشمالية . وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن يجعل المصالح الحيوية بحسب ما تستلزمه مصلحة ايطاليا فى أول درجة بالنظر لقصر المسافة بين تلك البلاد والشواطىء الإيطالية . وبالرغم من حسن مسلك الحكومة الإيطالية ، التى كانت دائما موالية ومساندة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير ، وبالرغم من أعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس ، وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع تلاقى دائما مقاومة مطردة لا تحتمل .

فالحكومة العثمانية هى التى كانت تبدى عـــداء دائما نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنى غازى ، وما زالت كذلك حتى الآن . واقترحت الحكومة الملكية الإيطالية أن تتفاهم معها ، وأعلنت أنها ميالة إلى أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق مع المعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها .

ولكن الحكومة الملكية الإيطالية لا تشعر الآن أنها فى أحوال موافقة

للدخول فى المفاوضات بهذا الموضوع — المفاوضات التى برهن الاختبار على عدم نفعهـــا ، وهى لا تشتمل على ضمانة للمستقبل ، ولن تـكون إلا سبباً للاحتـكاك والنزاع .

ومن جهة أخرى فقد وردت الأخبار إلى الحـكومة الإيطالية من قنصليها فى طرابلس ، وبنى غازى تفيد أن الحالة هناك خطرة جداً بسبب التحريض العام على الرعايا الإيطاليين ، ذلك التحريض الذى قواه الضباط وسائر موظفى الحـكومة حتى أصبح خطراً شديداً لا على الإيطاليين فحسب بل على سائر الأجانب أيضاً على إختلاف جنسياتهم . ولما أصبحوا يخشون على حياتهم شرعوا يهجرون البلاد بسرعة .

ثم إن وصول النقالات العسكرية العثمانية إلى طرابلس زاد الحالة خطراً وحرجا مع أن الحـكومة الملـكية الإيطالية نبهت الحـكومة العثمانية إلى نتائجه السيئة من قبل . ولهـــذا فالحـكومة الملـكية مضطرة إلى إتخاذ الإحتياطات اللازمة دفعاً للخطر الناجم عنه .

ولما رأت الحـكومة الإيطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها — قررت أن تحتل طرابلس وبنى غازى احتلالا عسكرياً . هذا هو الحل الوحيد الذى تعول عليه إيطاليا .

والحكومة الملـكية تنتظر أن تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الإحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ولا تجد صعوبة فى إنفاذ ما تريد إنفاذه ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة .

وقد صدرت الأوامر للسفير الإيطالى فى الآستانة بأن يلتمس جواباً جازماً فى هذه المسألة من الحـكومة العثمانية فى مدة أربع وعشرين ساعة

من تسليمه هذا البلاغ ، فإذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الإيطالية مضطرة إلى تنفيذ المشروعات المدبرة لضمان الإحتلال ، وترجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى أربع وعشرين ساعة لنا على يد السفير العثمانى فى رومة .

فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ .

وزير الخارجية

سان چوليانو

أنظر ـ الراوى، الظاهر أحمد : جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب (١٩٧٠) ص ٥٢ ـ ٥٤ .

— ١٥ —

معاهدة أوشى (لوزان)

بين الدولة العثمانية وايطاليا

(٩ سبتمبر ١٩١٢)

لما كان جلالة ملك ايطاليا ، وجلالة سلطان العثمانين يرغبان كل منهما كالآخر فى إيقاف الحرب الدائرة بين الدولتين — فقد عينا مندوبيهما : نعين جلالة ملك إيطاليا المسيو بيترو برتولينى الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، ونشان القديسين « موريس ولا زار » من الدرجة الثانية والعضو فى مجلس النواب ، والمسيو جويدو فوزيناتو الحامل نشان تاج ايطاليا من الدرجة الأولى ، ونشان القديسين «موريس ولازار» من الدرجة الثانية والعضو بمجلس النواب وفى مجلس الدولة ، والمسيو جيسب فولفى الحامل نشان القديسين (موريس ولازار) من الدرجة الثالثة ونشان ايطاليا من الدرجة الثالثة .

وعين جلالة سلطان العثمانين عطوفه محمد نابى بك الحامل النشان العثمانى من الدرجة الأولى والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض ، وسعادة روم أو غلو فخر الدين بك الحامل النشأن المجيدى من الدرجة الثانية ، والنشان العثمانى من الدرجة الثالثة والمندوب فوق العادة والمندوب المفوضى .

وقد تبادل أولئك المفوضون فحص أوراق اعتمادهم فوجدوها صحيحة قانونية ، واتفقوا على المواد الآتية :

المادة الأولى : تتكفل الدولتان أن تتخذا — طالما تمضى المعاهدة — الإجراءات الضرورية لوقف رحى الحرب حالا ، وسيرسل معتمدون خصوصيون إلى ساحل الحرب لتنفيذ ذلك .

المادة الثانية : تتكفل الحكومة العثمانية ، وحكومة ايطاليا بأن تصدرا الأوامر حالا بعد إمضاء هذه المعاهدة باستقدام ضباطهما وجيوشهما وموظفيهما الملكيين — الأولى من طرابلس الغرب وبرقة ، والثانية من الجزر التى احتلتها فى بحر ايجه .

ويجلو الضباط والجيوش والموظفون الملكيون الايطاليون فعلا من الجزر المذكورة بعد جـــلاء الضباط والجيوش والموظفين العثمانيين عن طرابلس وبرقه .

المادة الثالثة : تتبادل الحكومتان الأسرى والرهائن بأسرع مايمكن .

المادة الرابعة : تتكفل الحكومتان باصدار عفو عام تام — فتعفو حكومة ايطاليا عن سكان طرابلس وبرقه ، والحكومة العثمانية عن سكان جزر بحرايجه التابعين للسلطنة العثمانية الذين اشتركوا فى الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض التهم بسببها ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لايمكن محاكمة أى شخص من أى طبقة أو من أى فئة كانت ولامس شخصه أو أملاكه أو حقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية أو بسبب الآراء التى أبداها فى مدة الحرب . ويطلق فى الحال سراح الأشخاص الذين سجنو أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الخامسة : يعمل حالا بجميع المعاهدات والإتفاقات والعقود التى

عقدت أو كانت نافذة بين الفريقين المتعاقدين قبل إعلان الحرب مهما يكن جنسها أو نوعها والغاية منها .

وتعود حالة الحكومتين ورعاياهما إزاء بعضهما إلى مثل ما كانت عليه قبل وقوع الحرب .

المادة السادسة : تتكفل ايطاليا بأن تعقد مع الدولة العثمانية حينما تجدد معاهدتها التجارية مع الدول الأخرى — معاهدة تجارية على قاعدة الحق العام الأوروبى ، بمعنى أن تترك للدولة العثمانية كل استقلالها الاقتصادى ، وحق السير فى أمورها التجارية والجمركية على خطط الدول الأوروبية من دون أن تغل يدها الإمتيازات القنصلية والمعاهدات الأخرى المعمول بها الآن . ولا يعمل بهذه المعاهدة التجارية إلا حينما يعمل بالمعاهدات التجارية التى تعقدها الدولة العثمانية على هذه القاعدة مع الدول الأخرى . ثم إن ايطاليا تقبل من جهة أخرى رفع رسوم الجمرك عن البضائع فى السلطنة العثمانية من ١١ إلى ١٥٪ فى المائة باحتكار الأصناف الخمسة الاتية أو بزيادة الرسوم على ما تستهلك منها وهى : البترول ، وورق السيجارة ، ثقاب الكبريت ، والكحول ، وورق اللعب على شرط أن تشمل هذه المعاملة جميع واردات البلاد الأخرى فى آن واحد ، وبلا تمييز ولا تفريق، وتكون إدارة هذه الاحتكارات ملزمة بأخذ قسم من هذه الأصناف من الواردات الإيطالية بحيث يعين مقدار هذا القسم على قاعدة الوارد السنوى منها . ويكون ثمنها مطابقا لحالة السوق حين شرائها مع مراعاة جنس البضائع ومتوسط ثمنها فى السنوات الثلاث السابقة لسنة إعلان الحرب .

فاذا رأت الدولة العثمانية أن تستعيض عن احتكار هذه الأصناف بفرض

ضريبة إضافية على ما يستهلك فقط ، وجب لفرض هذه الضريبة على الأصناف المذكورة الإيطالية أن تفرض أيضاً على حاصلات الدولة العثمانية والأمم الأخرى من هذه الأصناف .

المادة السابعة : تتكفل الحكومة الإيطالية بالغاء مكاتب البريد الإيطالية فى السلطنة العثمانية حالما تلغى الدول التى لها مثل هذه المكاتب فى بلاد الدولة العثمانية — مكاتبها .

المادة الثامنة : لما كانت الدولة العلية تنوى مفاوضة الدول فى مؤتمرات وبطريقة أخرى فى إبطال الإمتيازات القنصلية من السلطنة العثمانية واستبدالها بنظام الحق الدولى — فايطاليا تعلن من الآن رغبتها فى تعضيدها فى ذلك تعضيداً صادقاً ، وتعترف بأحقية مقاصدها فى هذا القبيل .

المادة التاسعة : تعلن الدولة العثمانية أنها مستعدة أن تعيد الرعايا الإيطاليين الموظفين فى مصالحها والذين أضطرت أن تفصلهم عنها حين إعلان الحرب إلى وظائفهم إظهاراً لرضاها عن خدماتهم الصادقة لها ، وأن تدفع لهم رواتب الإستيداع عن الأشهر التى قضوها خارج وظائفهم ، ولا يضر هذا الانقطاع عن الخدمة أقل ضرر بالمستخدمين الذين يستحقون معاشاً .

ثم تتكفل الحكومة العثمانية أيضا أن تتوسط لدى المصالح التى لها علاقة بها مثل صندوق الديون العمومية ، وشركات السكك الحديدية والبنوك وغير ذلك حتى تعامل الرعايا الإيطاليين الذين كانوا فى خدمتها نفس هذه العاملة .

المادة العاشرة : تتكفل حكومة ايطاليا أن تدفع سنويا الى صندوق

الديون العمومية العثمانية لحساب حكومة جلالة السلطان مبلغاً معادلا للمبلغ الذى خص فى السنوات الثلاث السابقة لإعلان الحرب من إيرادات ولايتى طرابلس وبرقة لصندوق الديون العمومية العثمانية ويعين مقدار هذا المال السنوى معتمدان تعين إحداهما حكومة ايطاليا ، والاخر الحكومة العثمانية ، فاذا وقع خلاف بين المعتمدين يرفع الأمر إلى مجلس تحكيم يرأسه مرجح يعين باتفاق الفريقين فإذا لم يتم الاتفاق على ذلك عين كل فريق من الفريقين دولة وعينت الدولتان مرجحاً ، ويحق لكل من حكومة ايطاليا وصندوق الديون العمومية بواسطة الحكومة السلطانية أن يطلب استبدال هذا المال السنوى بمبلغ تكون فائدته موازية للمال السنوى المذكور بمعدل ٤٪ .

وتعترف حكومة إيطاليا من الآن أن هذا المال السنوى لا يكون فى حال من الأحوال أقل من مليونى فرنك ايطالى ، وهى مستعدة أن تدفع إلى صندوق الديون العمومية العثمانية رأس المال كله دفعة واحدة حالما يطلب منها ذلك .

المادة الحادية عشرة : يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ إمضائها .

ولهذه المعاهدة ملاحق ثلاثة :

الملحق رقم : ١

منشور جلالة السلطان إلى سكان طرابلس وبرقة :

لما كانت حكومتنا السنية فى حالة يستحيل معها عليها أن تسديكم المساعدات التى تحتاجون إليها للدفاع عن وطنكم ، ولما كانت من الناحية الأخرى مهتمة بضمان راحتكم وهنائكم حاضراً ومستقبلا ، فرغبة منا فى إتقاء

مواصلة حرب مدمرة لكم ولعائلاتكم ، وذات خطر على امبراطوريتنا ،وفى إدخال الهناء والسلام إلى وطنكم — قد منحتكم إستقلالا داخلياً مطلقاً وتاما عالى من حقوق السيادة عليكم ، وسيدار بلادكم بموجب قوانين جديدة وأنظمة خاصة يشترك رجالكم فى إعدادها لكى تأتى مطابقة لحاجاتكم وعاداتكم ولقد عينت شمس الدين بك المعروف بصدق الخدمة ممثلا لى عندكم ومنحته لقب نائب السلطان ، وعهدت إليه المصالح العثمانية فى بلادكم ، وذلك لمدة خمس سنوات مع احتفاظى بحق تجديدها أو تعيين غيره .

ولما كانت أمنيتنا المحافظة على بقاء الأحكام الشرعية القائمة بينكم ، فقد احتفظنا بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نواب عنه من العلماء أبناء البلاد فيقضون بينكم طبقاً لما تقضى به الشريعة .

وستدفع رواتب القاضى من جانبنا ، ومثل ذلك راتب نائب السلطان . أما الموظفون الشرعيون الاخرون فتدفع رواتبهم من داخل البلاد .

الملحق رقم : ٢

منشور ملك ايطاليا إلى سكان طرابلس وبرقة :

عملا بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب ، وبرقه خاضعين خضوعا تاماً مطلقا للسيادة الملكية الإيطالية ورغبة فى التعجيل باعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ، وبناء على اقتراح مجلس الوزراء — أصدرنا المرسوم الآتى :

المادة الأولى : منح العفو التام للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا فى الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض التهم بسببها ، ماعدا الجرائم المختصة بالحق

العام ، بحيث لا يمكن محاكمة أى شخص من أى طبقة أو أى فئة كانت ولا يمس شخصه أو أملاكه وحقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التى أبداها مدة الحرب ، ويطلق فى الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الثانية : يظل أهالى طرابلس وبرقة متمتعين بتمام الحرية فى إقامة شعائر الدين الإسلامى كما كانوا فى الماضى ، ويواظبون على ذكر إسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة ، ويعترف بالنيابة عنه للشخص الذى يعينه جلالته لذلك ، ويدفع راتب هذا النائب من الايرادات المحلية ، وتحترم حقوق المصالح الدينية (الأوقاف) كما كانت فى الماضى ، ولا يوضع أقل عائق فى سبيل علائق المسلمين بقاضى القضاة رئيسهم الأمين يعينه شيخ الإسلام ، والنواب الذين يعينهم هو الذين تدفع رواتبهم من الإيرادات المحلية .

المادة الثالثة : ويعترف أيضاً لنائب السلطان المذكور بحماية مصالح السلطنة العثمانية والرعايا العثمانين ، حسب ماصارت اليه فى الولايتين المذكورتين بعد اصدار قانون ٢٥ فبراير ١٩١٢ .

المادة الرابعة : تعين بمرسوم ملكى لجنة يكون من أعضائها بعض أعضاء البلاد تقترح وضع الأنظمة المدنية والإدارية للولايتين ، على أن يستمدا من المبادىء الحرة ويقوما على احترام أخلاق البلاد وعوائدها .

الملحق رقم ٣

خاص بما يجب مع سكان جزائر بحر ايجه .

الإتفاق السرى

وضع اتفاق سرى لهذه المعاهدة — هذا نصه :

المادة الأولى : تتعهد حكومة الإمبراطورية العثمانية بأن تصدر فى خلال أيام من توقيع هذا الإتفاق على الأكثر فرماناً موجهاً الى الشعب الطرابلسى والبرقاوى يطابق الملحق رقم ١ .

المادة الثانية : يجب أن توافق الحكومة الملكية الإيطالية مقدماً على تعيين نائب السلطان والرؤساء الدينيين ، وأن تحدد رواتب هؤلاء الروساء، ونائب السلطان باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين وتدفع رواتبهم من الدخل المحلى ماعدا راتب القاضى، فإن الحكومه العثمانية هى التى تدفعه ويجب الأ يزيدعدد هؤلاء الرؤساء على ما كان عليه قبل إعلان الحرب .

المادة الثالثة : تتعهد الحكومة الإيطالية الملكية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى مرسوما ملكيا مطابقا لنص الملحق رقم ٢ .

المادة الرابعة : تتعهد الحكومة العثمانية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى إرادة ملكية طبقا لنص الملحق رقم ٣ .

المادة الخامسة : عقب نشر المراسيم الثلاثة ذات الطرف الواحد المنصوص عليها فى ماتقدم- يوقع الفريقان المتعاقدان معاهدة عامة طبقا لنص الملحق رقم ٤ .

المادة السادسة : ومن المتفق عليه طبعاً والمفهوم من هذا الإتفاق أن حكومة الامبراطورية العثمانية تتعهد أن لا ترسل ولا تسمح بارسال سلاح من تركيا إلى طرابلس الغرب وبرقة أو ذخائر أو أسلحة أو ضباط أو جنود .

المادة السابعة : لاتطالب حكومة من الحكومتين الأخرى بما انفقته من نفقات على إطعام أسرى الحرب وإيوائهم .

المادة الثامنة : يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بإبقاء هذا الإتفاق سرياً على أن يكون لكل حكومة حق الخيار فى إعلانه عند تقديم المعاهدة المنصوص عليها فى الملحق الرابع إلى برلمانها .

يوضع هذا الإتفاق موضع التنفيذ يوم توقيعه .

المادة التاسعة : ومن المتفق عليه أن الملاحق المنصوص عليها فى هذا الإتفاق تعتبر جزءاً متمماً له .

كتب فى لوزان بنسختين فى ١٥ أكتوبر ١٩٢١ .

بيترو بير توليني   جويدو فوزينانو   جيسب[1] فولبى

محمد نابى   روم أوغلو فخر الدين .

وتنفيذاً لما جاء فى الإتفاق السرى المذكور — فقد وضعت نصوص المعاهدة ، ووقع عليها مندوبو الحكومتين فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر يوم ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ .

انظر — الزاوى ، الطاهر أحمد : مرجع سابق ص ١٤٦–١٥٤ .

ب – جداول بالأسر الحاكمة

(١) أمراء دولة الأغالبة

الأمير	تاريخ التولية
إبراهيم بن الأغلب	١٨٤هـ — ٨٠٠م .
أبو العباس عبد الله الأول	١٩٧هـ — ٨١٢م .
زيادة الله الأول	٢٠١هـ — ٨١٧م .
أبو عقال الأغلب	٢٢٣هـ — ٨٣٨م .
أبو العباس محمد الأول	٢٢٦هـ — ٨٤١م .
أبو إبراهيم أحمد	٢٤٢هـ — ٨٥٦م .
زيادة الله (الثانى)	٢٤٩هـ — ٨٦٣م .
أبو الغرانيق محمد (الثانى)	٢٥٠هـ — ٨٦٤م .
إبراهيم الأصغر (الثانى)	٢٦١هـ — ٨٧٥م .
أبو العباس عبد الله (الثانى)	٢٨٩هـ — ٩٠٢م .
زيادة الله (الثالث)	٢٩٠هـ — ٩٠١م .

(٢) أئمة دولة الأدارسة وخلفاؤها

الإمام أو الخليفة	تاريخ التولية
إدريس الأول بن عبد الله الكامل	١٧٢هـ — ٧٨٩م .
إدريس الثانى بن إدريس الأول	١٧٧هـ — ٧٩٣م .
محمد بن إدريس الثانى	٢١٣هـ — ٨٢٨م .
على الأول بن محمد	٢٢١هـ — ٨٣٦م .
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤هـ — ٨٤٩م .

الإمام أو الخليفة	تاريخ التولية
يحيى الثانى بن يحيى الأول	٢٣٤هـ — ٨٤٩م .
على الثانى بن عمر	» »
يحيى الثالث بن القاسم	» »
يحيى الرابع بن إدريس	٢٩٢هـ — ٩٠٤م .
الحسن بن محمد بن القاسم الحجام	٣١٠هـ — ٩٢٢م .
موسى بن أبى العافية — مغتصب	٣١٣هـ — ٩٢٦م .
القاسم كنون بن إبراهيم بن محمد	— —
أبو العيش أحمد بن كنو	٣٣٧هـ — ٩٤٨م .
الحسن بن كنون	٣٤٣هـ — ٩٥٤م .

(٣) الخلفاء العبيديون

الخليفة	تاريخ التولية
عبد الله المهدى	٢٩٧هـ — ٩٠٩م .
أبو القاسم محمد (القائم بأمر الله)	٣٢٢هـ — ٩٣٣م .
الطاهر إسماعيل (المنصور)	٣٣٤هـ — ٩٤٥م .
أبو التميم معد (المعز لدين الله)	٣٤١هـ — ٩٥٢م .

(٤) أمراء الدولة الزيرية الصنهاجية

بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى	٣٦١هـ — ٩٧١م .
أبو الفتح المنصور بن بلكين	٣٧٣هـ — ٩٨٤م .
أبو سناد باديس بن المنصور	٣٨٦هـ — ٩٩٦م .
المعز بن باديس	٤٠٦هـ — ١٠١٦م .

(٥) ملوك الدولة الحمادية

الملك	تاريخ توليته
حماد بن بلكين بن زيرى	٣٩٨هـ — ١٠٠٧م .
القائد بن حماد	٤١٩هـ — ١٠٢٨م .
محسن بن القائد	٤٤٦هـ — ١٠٥٤م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٤٧هـ — ١٠٥٥م .
الناصر بن علناس	٤٥٤هـ — ١٠٦٢م .
المنصور بن الناصر	٤٨١هـ — ١٠٨٩م .
باديس بن المنصور	٤٩٨هـ — ١١٠٤م .
العزيز بالله بن المنصور	٤٩٨هـ — ١١٠٥م .
يحيى بن العزيز بالله	٥١٥هـ — ١١٢١م .

(٦) سلاطين المرابطين

(٤٤٨ — ٥٤١هـ/١٠٥٦ — ١١٤٧م)

السلطان	تاريخ توليته
(١) يوسف بن تاشفين	٤٦٥هـ — ١٠٧٣م .
(اعترف باشتراك ابن بكر بن عمر معه فى الحكم حتى سنة ٨٠ هـ)	
انفرد بالحكم	٤٨٠هـ — ١٠٨٧م .
(٢) على بن يوسف	٥٠٠هـ — ١١٠٦م .
(٣) تاشفين بن على	٥٣٧هـ — ١١٤٣م .

(٤) إبراهيم بن تاشفين ٥٤١هـ — ١١٤٦م.

(٥) اسحق بن على بن يوسف ٥٤٧هـ — ١١٤٧م.

ابراهيم
|
تاشفين
|
(١) يوسف
|
(٢) على
|
(٥) اسحق — (٣) تاشفين
|
(٤) ابراهيم

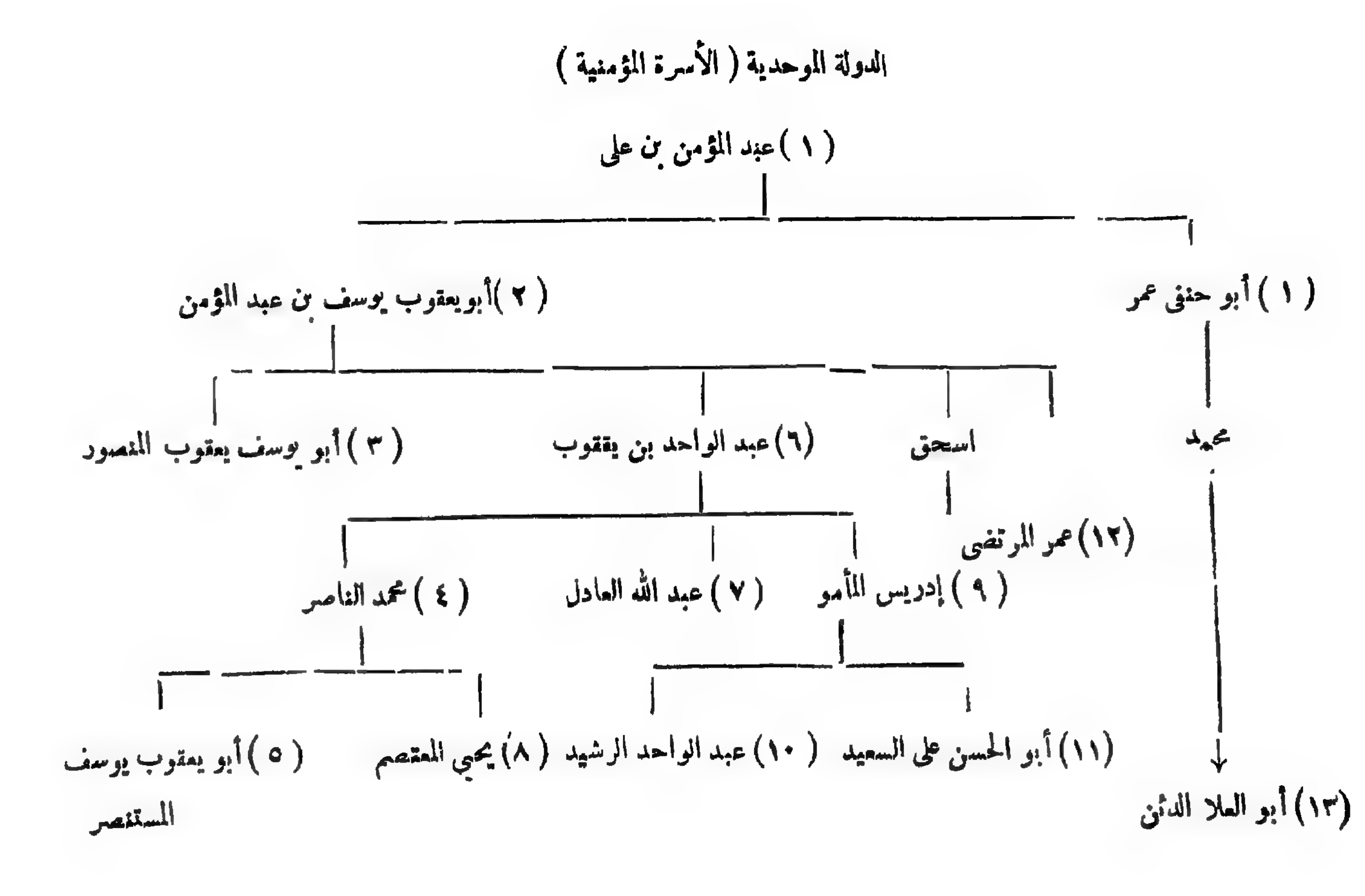
(٧) الخلفاء الموحدون

الخليفة	تاريخ التولية
محمد المهدى بن عبد الله تومرت (صاحب الدعوة)	٥١٥هـ — ١١٢١م.
(١) عبد المؤمن بن على	٥٢٤هـ — ١١٣٠م.
(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن	٥٥٨هـ — ١١٦٣م.
(٣) أبو يوسف يعقوب (المنصور)	٥٨٠هـ — ١١٨٤م.
(٤) محمد الناصر بن يعقوب	٥٩٥هـ — ١١٩٩م.
(٥) أبو يعقوب يوسف (المستنصر)	٦١١هـ — ١٢٢٠م.
(٦) عبد الواحد بن يعقوب	٦٢٠هـ — ١٢٢٣م.
(٧) عبد الله العادل بن يعقوب المنصور	٦٢١هـ — ١٢٢٤م.
(٨) يحيى بن الناصر (المعتصم)	٦٢٤هـ — ١٢٢٧م.
(٩) إدريس المأمون بن المنصور	٦٣٠هـ — ١٢٣٢م.
(١٠) عبد الواحد الرشيد بن إدريس	
(١١) أبو الحسن على السعيد	
(١٢) أبو صفر — عمر المرتضى	
(١٣) أبو العلا الدائن	

الدولة المو

أولا : محمد المهدى محمد عبد الله تومر،

ثانياً : الأسرة المؤمنية


الدولة الموحدية (الأسرة المؤمنية)
(١) عبد المؤمن بن على
(١) أبو حفص عمر
(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
محمد
اسحق
(٦) عبد الواحد بن يعقوب
(٣) أبو يوسف يعقوب المنصور
(١٢) عمر المرتضى
(٩) إدريس المأمو
(٧) عبد الله العادل
(٤) محمد الناصر
(١١) أبو الحسن على السعيد
(١٠) عبد الواحد الرشيد
(٨) يحيي المعتصم
(٥) أبو يعقوب يوسف المستنصر
(١٣) أبو العلا الدثق

(٨) ملوك الدولة الحفصية

الملك	تاريخ التولية
أبو زكريا يحيى الأول	٦٢٧هـ — ١٢٢٩م.
أبو عبد الله محمد الأول (المنتصر)	٦٤٧هـ — ١٢٤٩م.
أبو زكريا يحيى الثانى (الواثق)	٦٧٥هـ — ١٢٧٧م.
أبو إسحق إبراهيم — الأول	٦٧٨هـ — ١٢٧٩م.
أحمد ابن مرزوق بن أبى عطوة (الدعى)	٦٨١هـ — ١٢٨٢م.
أبو حفص عمر — الأول (المستنصر)	٦٨٣هـ — ١٢٨٤م.
أبو زكرياء يحيى المنتخب لإحياء دين الله	٦٨٣هـ — ١٢٨٤م.
أبو عبد الله محمد — الثانى (المنتصر)	٦٩٤هـ — ١٢٩٥م.
أبو بكر — الأول (الشهيد)	٧ ٩هـ — ١٣٠٩م.
أبو البقاء خالد — الأول (الناصر)	٧٠٩هـ — ٩١٣٠٩م.
أبو يحيى زكرياء اللحيانى	٧١٧هـ — ١٣١٧م.
أبو ضربة محمد — الثالث (المستنصر)	٧١٧هـ — ١٣١٧م.
أبو يحيى أبو بكر — الثانى (المتوكل)	٧١٨هـ — ١٣١٨م.
أبو حفص عمر الثانى	٧٤٧هـ — ١٣٤٦م.
أبو العباس أحمد الأول	٧٤٩هـ — ١٣٤٨م.
أبو إسحق إبراهيم الثانى (المستنصر)	٧٥١هـ — ١٣٥٠م.
أبو البقاء خالد — الثانى	٧٧٠هـ — ١٣٦٨م.

الملك	تاريخ التولية
أبو العباس أحمد الثانى (المستنصر)	٧٧٢هـ — ١٣٧٠م .
أبو فارس عبد العزيز (المتوكل)	٧٩٦هـ — ١٣٩٣م .
أبو عبد الله محمد ـ الرابع (المنتصر)	٨٣٨هـ — ١٤٣٤م .
أبو عمرو عثمان	٨٣٩هـ — ١٤٣٥م .
أبو زكرياء يحيى ـ الثالث .	٨٩٣هـ — ١٤٨٨م .
أبو عبد الله محمد ـ الخامس (المتوكل)	٨٩٩هـ — ١٤٩٣م .
أبو عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس	٩٣٢هـ — ١٥٢٥م .
أبو العباس أحمد ـ الثالث ـ ابن الحسن	٩٤٨هـ — ١٥٤١م .

(٩) الدولة الزيانية

(فى تلمسان)

الدور الأول	تاريخ التولية
أبو يحيى (يغمر إسن بن زيان)	٦٣٣هـ — ١٢٣٦ م
أبو سعيد عثمان بن يغمر إسن	٦٨١هـ — ١٢٨٣ م
أبوزيان محمد ـ الأول ـ بن عثمان	٧٠٣هـ — ١٣٠٤ م
أبو حمو موسى الأول ـ بن عثمان	٧٠٧هـ — ١٣٠٨ م
أبوتا شفين عبد الرحمن الأول بن موسى	٧١٨هـ — ١٣١٨ م
الدور الثانى	
أبو سعيد عثمان (الثانى) بن عبد الرحمن	٧٤٩ — ١٣٤٨ م
أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن	٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م
أبو حمو موسى الثانى بن يوسف	٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م
أبو زيان محمد الثانى بن عثمان	٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م
أبو تاشفين عبد الرحمن الثانى	٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م
أبو ثابت يوسف بن عبد الرحمن	٧٩٥ هـ — ١٣٩٣ م
أبو الحجاج يوسف بن موسى	٧٩٦ هـ — ١٣٩٤ م
أبو زيان محمد الثانى بن موسى	٧٩٦ هـ — ١٣٩٤ م
أبو محمد عبد الله الأول بن موسى	٨٠١ هـ — ١٣٩٨ م
أبو عبد الله محمد الثالث الواثق بن موسى	٨٠٤ هـ — ١٤٠١ م
عبد الرحمن الثالث بن خوله	٨١٣ هـ — ١٤١١ م
السعيد بن أبى حمو موسى	٨١٤ هـ — ١٤١١ م

أبو مالك عبد الواحد بن موسى	٨١٤ هـ — ١٤١٢ م
أبو عبد الله محمد الرابع بن الحمرة	٨٢٧ هـ — ١٤٢٤ م
أبو مالك عبد الواحد (ثانيا)	٨٣١ هـ — ١٤٢٨ م
أبو العباس أحمد المعتصم العاقل بن موسى	٨٣٤ هـ — ١٤٣١ م
أبو ثابت محمد الخامس	٨٦٦ هـ — ١٤٦٢ م
تاشفين بن أبى ثابت	٨٩٠ هـ — ١٤٨٥ م
أبو ثابت محمد السادس	٨٩٠ هـ — ١٤٨٥ م
أبو عبد الله محمد السابع	٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م
أبو حمر موسى الثالث أبو قلهون	٩٠٩ هـ — ١٥٠٣ م

(١٠) الدولة المرينية

	تاريخ التولية
يعقوب بن عبد الحق (المنصور)	٦٦٧ هـ — ١٢٦٨ م
يوسف بن يعقوب (الناصر لدين الله)	٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م
عامر بن عبد الله (أبو ثابت)	٧٠٦ هـ — ١٣٠٦ م
سليمان بن عبد الله	٧٠٨ هـ — ١٣٠٨ م
أبو سعيد عثمان بن يعقوب	٧١٠ هـ — ١٣١٠ م
أبو الحسن على بن أبى سعيد (المنصور بالله)	٧٣١ هـ — ١٣٣٠ م
أبو عنان فارس بن أبى الحسن (فى حياة والده)	٧٥١ هـ — ١٣٥٠ م
أبو زيان محمد بن أبى عنان (» » ») خلع وخنق	
أبو بكر بن أبى عنان » » » مات غريقا بعد سنتين ، ٥٠ يوما	
أبراهيم بن على	٧٦٠ هـ — ١٣٥٦ م

تاشفين بن على ٧٦٢ هـ — ١٣٦١ م

محمد بن يعقوب ٧٦٢ هـ — ١٣٦١ م

عبد العزيز بن الحسن ٧٦٧ هـ — ١٣٦٥ م

محمد بن عبدالعزيز ٧٧٤ هـ — ١٣٧٢ م

أبو العباس بن ابراهيم (أحمد أبن ابراهيم) وخلع ٧٧٥ هـ — ١٣٧٣ م

موسى بن أبى عنان ٧٨٦ هـ — ١٣٨٤ م

محمد بن أبى العباس (خلع بعد ٤٢ يوما) ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م

أبو زيان محمد بن أبى الفضل (خلع بعد ١٠ أيام) ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م

أبو العباس السابق (أحمد بن إبراهيم) ثانية ٧٨٩ هـ — ١٣٨٧ م

عبد العزيز بن أبى العباس ٧٩٩ هـ - ١٣٩٦ م

عبد الله بن أبى العباس ٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م

أبو سعيد بن أبى العباس ٨٠١ هـ — ١٣٩٨ م

عبد الحق بن أبى سعيد ٨٣١ هـ — ١٤٢٨ م

(١١) الدولة الوطاسية

(عاصمتها فاس)

تاريخ التوليد

محمد الشيخ بن أبى ذكرياء ٨٧٦ هـ — ١٤٧٢ م

محمد بن محمد الشيخ (البرتغالى) ٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م

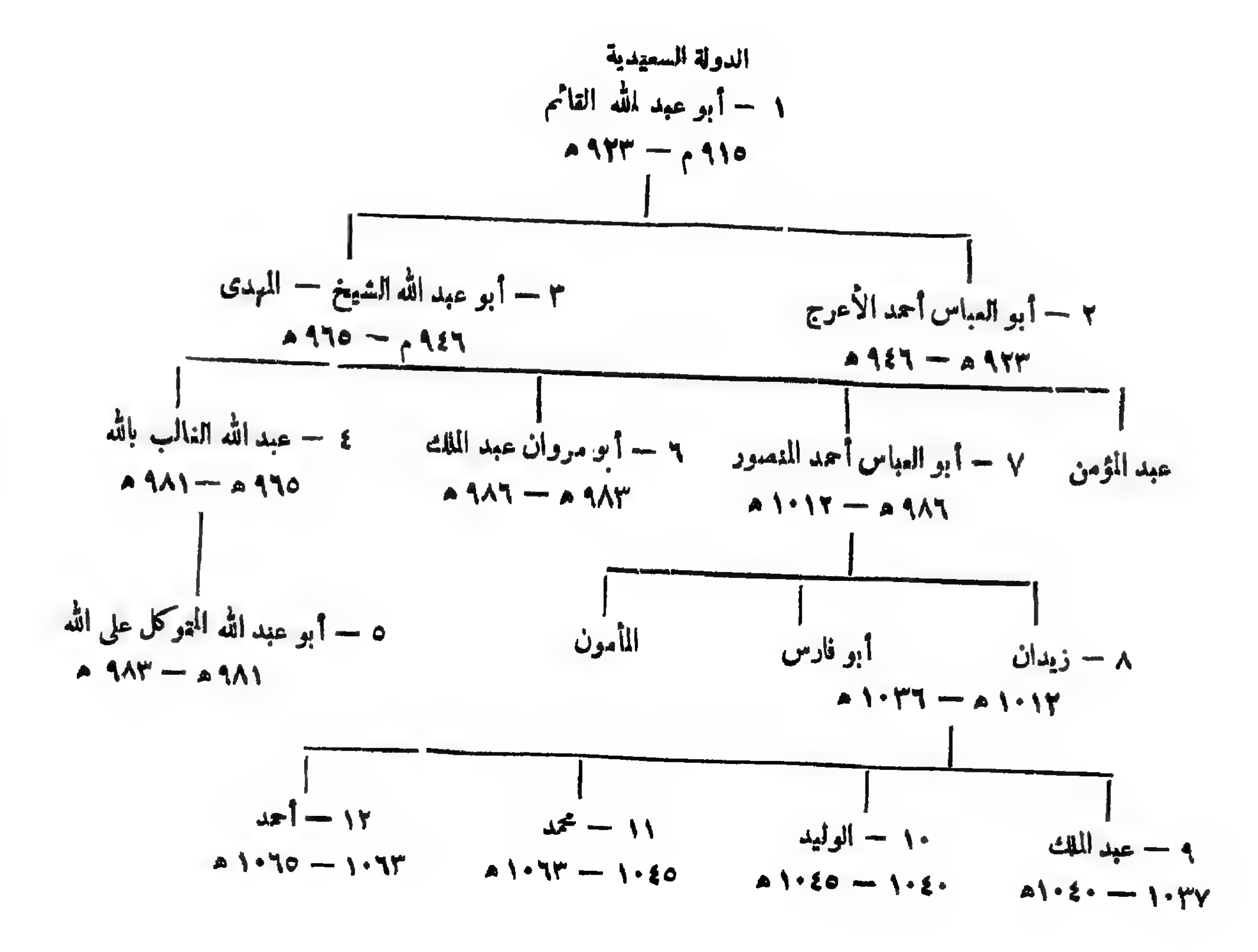
أبو حسونه على بن محمد الشيخ (خلع ثم عاد للملك) ٩٣١ هـ — ١٥٢٤ م

أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ ٩٣١ هـ — ١٥٢٤ م

أبو حسونه ٩٦١ هـ — ١٥٥٣ م

(١٢) الدولة السعدية

	تاريخ التولية
أبو عبد الله القائم بأمر الله	٩١٥ هـ — ١٥٠٩ م
أبو العباس أحمد ـ الأعرج ـ (بويع فى حياة أبيه)	٩٢٣ هـ — ١٥١٢ م
أبو عبد الله الشيخ ـ المهدى	٩٤٦ هـ — ١٥٣٩ م
أبو محمد عبد الله الغالب بالله	٩٤٦ هـ — ١٥٣٩ م
أبو عبد الله المتوكل على الله (المسلوخ)	٩٦٥ هـ — ١٥٥٦ م
أبو مروان ـ عبد الملك	٩٨١ هـ — ١٥٧٣ م
أبو العباس أحمد المنصور ـ الذهبي	٩٨٦ هـ — ١٥٧٨ م
زيدان بن أحمد	١٠١٢ هـ — ١٦٠٣ م
عبد الملك بن زيدان ـ أبو مروان	١٠٣٧ هـ — ١٦٢٧ م
الوليد بن زيدان	١٠٤٠ هـ — ١٦٣٠ م
محمد بن زيدان	١٠٤٥ هـ — ١٦٣٥ م
أبو العباس أحمد	١٠٦٣ هـ — ١٦٥٢ م


الدولة السعدية
١ — أبو عبد الله القائم
٩١٥م — ٩٢٣هـ
٢ — أبو العباس أحمد الأعرج
٩٢٣هـ — ٩٤٦هـ
٣ — أبو عبد الله الشيخ — المهدى
٩٤٦م — ٩٦٥هـ
عبد المؤمن
٧ — أبو العباس أحمد المنصور
٩٨٦هـ — ١٠١٢هـ
٦ — أبو مروان عبد الملك
٩٨٣هـ — ٩٨٦هـ
٤ — عبد الله الغالب بالله
٩٦٥هـ — ٩٨١هـ
٥ — أبو عبد الله المتوكل على الله
٩٨١هـ — ٩٨٣هـ
٨ — زيدان
١٠١٢هـ — ١٠٣٦هـ
أبو فارس
المأمون
٩ — عبد الملك
١٠٣٧ — ١٠٤٠هـ
١٠ — الوليد
١٠٤٠ — ١٠٤٥هـ
١١ — محمد
١٠٤٥ — ١٠٦٣هـ
١٢ — أحمد
١٠٦٣ — ١٠٦٥هـ

١٥ — الدولة العلوية

تاريخ التولية

المولى الرشيدبن الشريف العلوى الحسنى ١٠٥٠ هـ — ١٦٤٠ م

أبو الفداء اسماعيل بن الشريف الحسنى

(المولى اسماعيل) ١٠٨٢ هـ — ١٦٧١ م

أبو العباس أحمد الذهبي بن اسماعيل (خلع ثم أعيد) ١١٣٩ هـ — ١٧٢٦ م

عبد الملك بن اسماعيل ١١٤٠ هـ — ١٧٢٧ م

المولى عبد الله اسماعيل

(خلع ثم أعيد نحو خمس مرات) ١١٤١ هـ — ١٨٢٨ م

أبو الحسن على بن اسماعيل (خلع) ١١٤٧ هـ — ١٧٣٤م

أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (خلع) ١١٥١ هـ — ١٧٣٨ م

المستضىء بن اسماعيل (خلع)

زين العابدين بن اسماعيل

(خلع بعد خمسة شهور) ١١٥٣ هـ — ١٧٤٧ م

المولى محمد بن عبد الله ١١٧١ هـ — ١٧٥٧ م

المولى يزيد بن محمد بن عبد الله ١٢٠٤ هـ — ١٧٨٩ م

أبو الربيع المولى سليمان بن عبد الله ١٢٠٦ هـ — ١٧٩١ م

المولى عبد الرحمن بن هشام ١٢٣٨ هـ — ١٨٢٢ م

المولى محمد بن عبد الرحمن ١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م

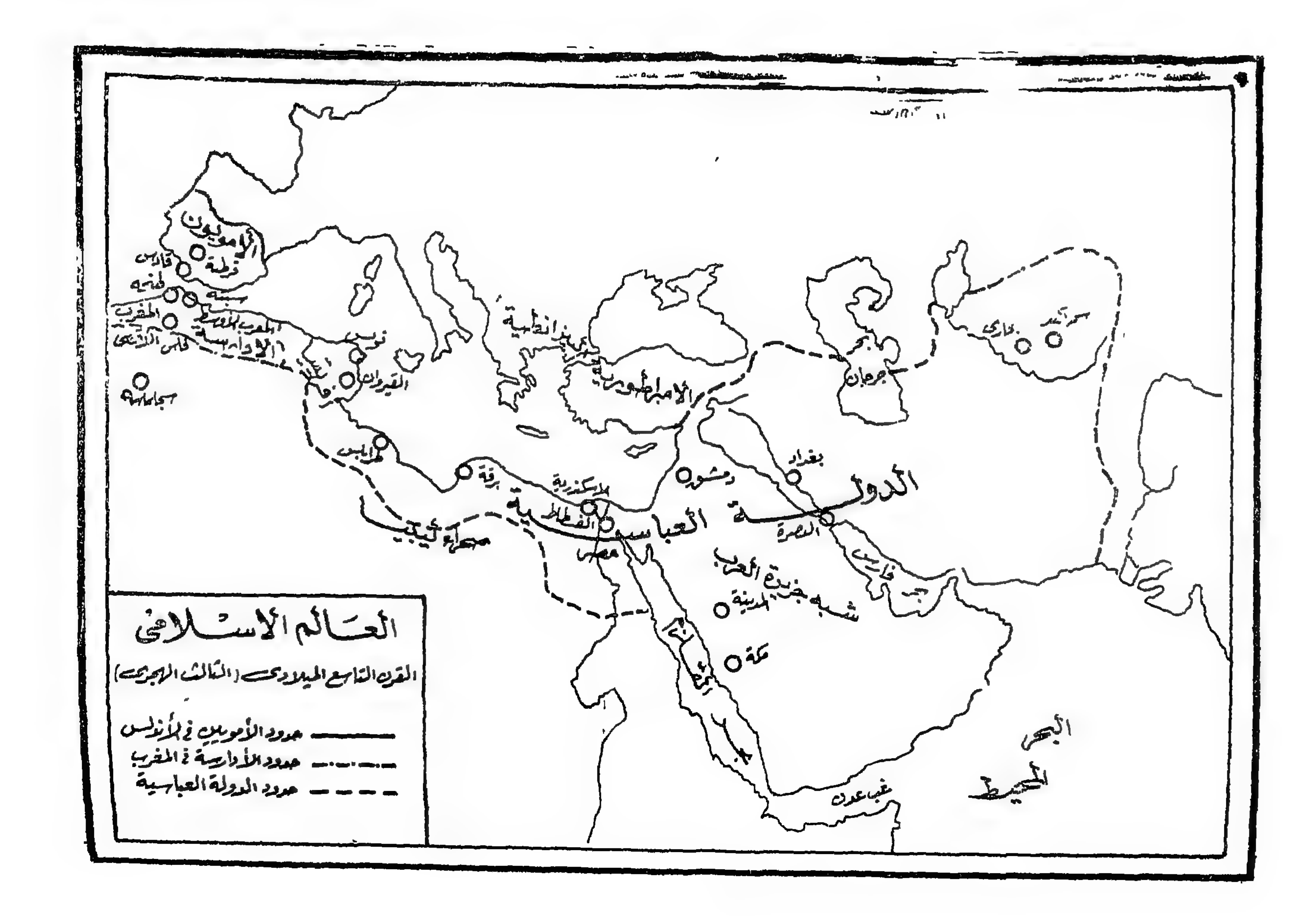
المولى الحسن بن محمد ١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م

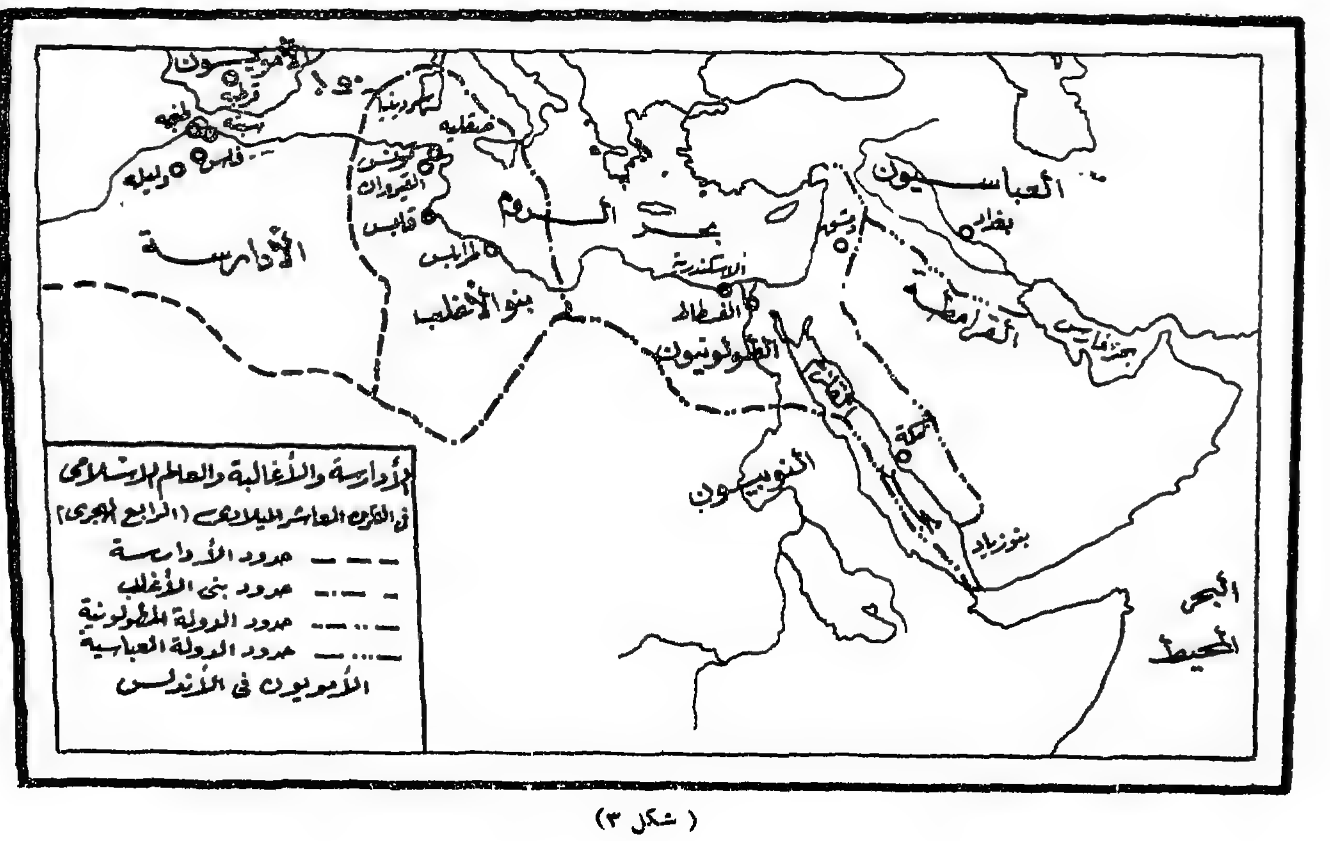
	تاريخ التولية
المولى عبد العزيز بن الحسن	١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م
المولى عبد الحفيظ بن الحسن	١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م
المولى يوسف بن الحسن	١٣٣٠ هـ — ١٩١١ م
السلطان عبد الله محمد بن يوسف	١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م
الملك الحسن الثانى	١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م

ج خرائط المراحل التاريخية التى مرت بها المنطقة

فتح العرب للمغرب الأقصى
خط سير حملة عقبة بن نافع
أسبانيا
المحيط الأطلنطي
طنجة
وليلة
تلمسان
جبال الأوراس
القيروان
قابس
جربة
البربر
أسفى
أغمات
نفيس
السوس
غدامس

(شكل ١)


العالم الإسلامي
القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري)
حدود الأمويين في الأندلس
حدود الأدارسة في المغرب
حدود الدولة العباسية
الأمويون
قرطبة
قادس
طنجة
سبتة
المغرب
المغرب الأوسط
الأدارسة
فاس
سجلماسة
تونس
القيروان
طرابلس
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
مصر
صحراء ليبيا
الدولة العباسية
دمشق
بغداد
البصرة
فارس
شبه جزيرة العرب
المدينة
مكة
غب عدن
البحر المحيط
الإمبراطورية البيزنطية
بحر الخزر
جرجان
بخارى
سمرقند


الأدارسة والأغالبة والعالم الإسلامي
في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)
حدود الأدارسة
حدود بني الأغلب
حدود الدولة الطولونية
حدود الدولة العباسية
الأمويون في الأندلس
الأمويون
قرطبة
سبتة
طنجة
فاس
وليلة
الأدارسة
سردينيا
صقلية
تونس
القيروان
قابس
طرابلس
بنو الأغلب
بحر الروم
الإسكندرية
الفسطاط
الطولونيون
النوبيون
مكة
بنو زياد
القرامطة
العباسيون
بغداد
البحر
المحيط

(شكل ٣)

المرابطون والحماديون وبنو زيري
القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)

حدود دولة المرابطين
حدود الحماديين
حدود بني زيري
حدود الدولة الفاطمية
حدود دولة السلاجقة
حدود أراضي متنازع عليها بين المسلمين والصليبيين

المرابطون
مراكش
تلمسان
الجزائر
وهران
الحماديون
بنو زيري
تونس
القيروان
قابس
طرابلس
البحر المتوسط
برقة
الإسكندرية
القاهرة
الفاطميون
دمشق
بغداد
الإمبراطورية السلجوقية
القرامطة
بحر فارس
البحر الأسود
البحر المحيط

(شكل ١٤)

دولة الموحدين والعالم الإسلامي
القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)

حدود دولة الموحدين
حدود دولة الأيوبيين
حدود دولة العباسيين
حدود سلاجقة الروم
حدود قشتاله وأرغون والبرتغال (في الأندلس)

دولة الموحدين
البحر المتوسط
البحر الأسود
الإمبراطورية البيزنطية
سلاجقة الروم
العباسيون
الشام
مصر
الأيوبيون
الكرك
الإسكندرية
برقة
طرابلس
قابس
صفاقس
بسكرة
القيروان
المهدية
تلمسان
مراكش
سجلماسة
أرغون
قشتالة
البرتغال
البحر المحيط
بحر فارس
المدينة
مكة

(شكل ٥)

تفتت وحدة الشمال الأفريقي

القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)

- حدود بني مرين
- حدود بني زيان
- حدود الحفصيين
- حدود بني نصر في الأندلس
- حدود المماليك البرجية
- حدود الامبراطورية العثمانية

المغول التيمورية

الامبراطورية العثمانية

العراق

بنو زيان

بنو مرين

البربر

مالي

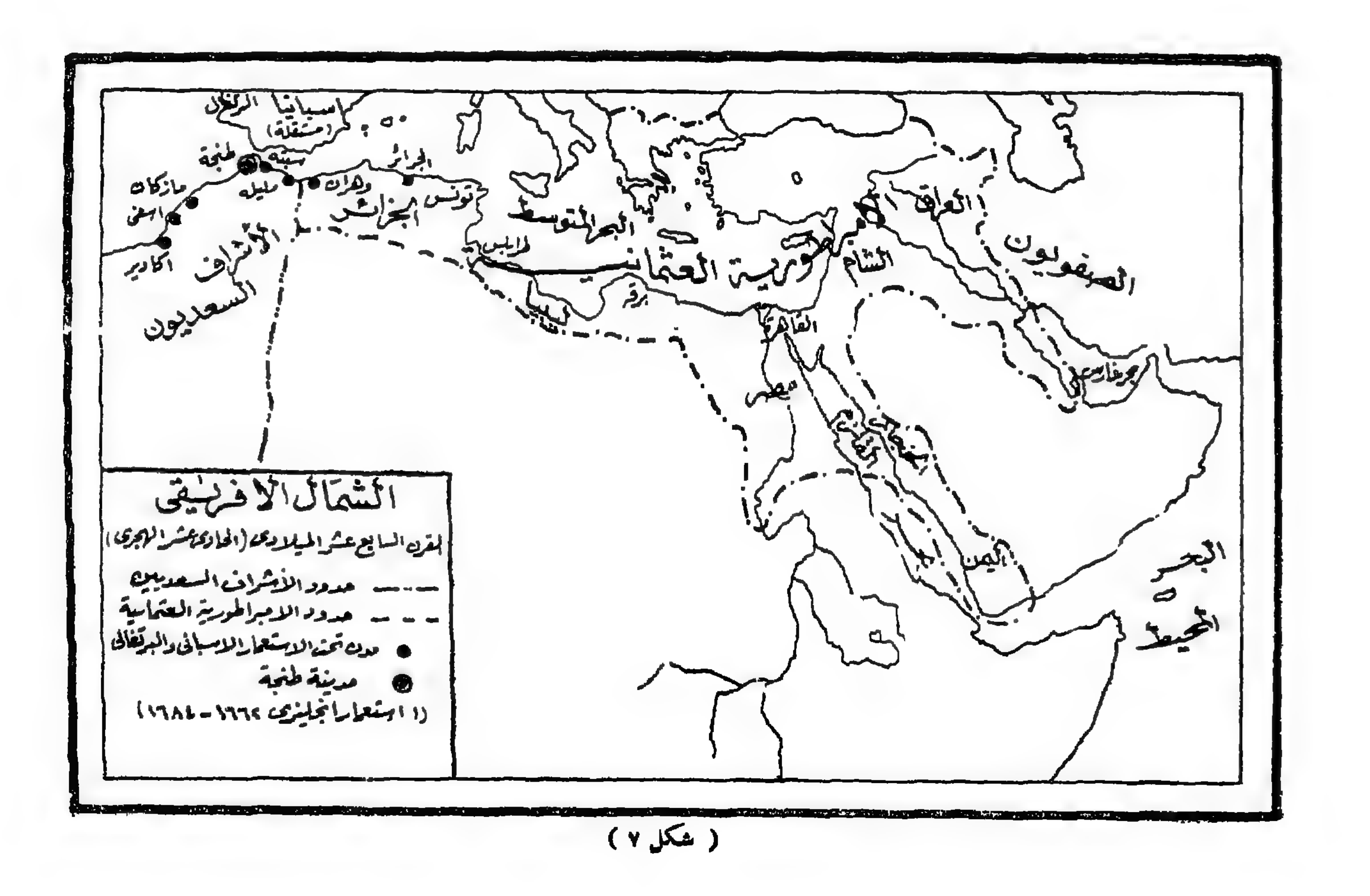
عرب

البحر المتوسط

فارس

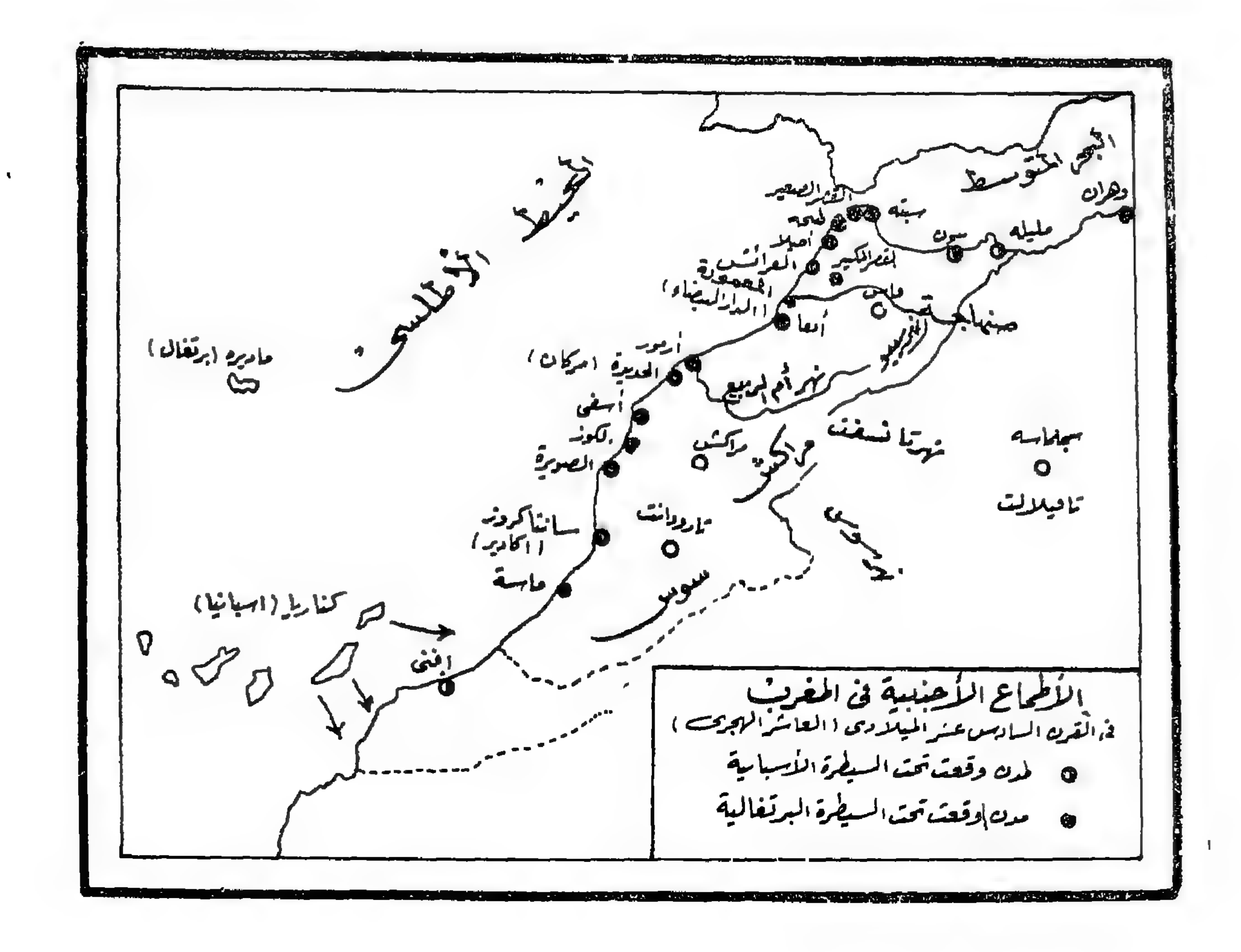
البحر المحيط

(شكل ٦)



الشمال الأفريقي
القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري)
حدود الأشراف السعديين
حدود الامبراطورية العثمانية
مدن تحت الاستعمار الاسباني والبرتغالي
مدينة طنجة
(استعمار انجليزي ١٦٦٢ - ١٦٨٤)
اسبانيا
البرتغال
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
الجزائر
تونس
مازكان
اسفي
اكادير
الأشراف
السعديون
الجزائر
البحر المتوسط
الامبراطورية العثمانية
طرابلس
برقة
ليبيا
الشام
القاهرة
مصر
العراق
الصفويون
البحرين
اليمن
البحر
المحيط

(شكل ٧)

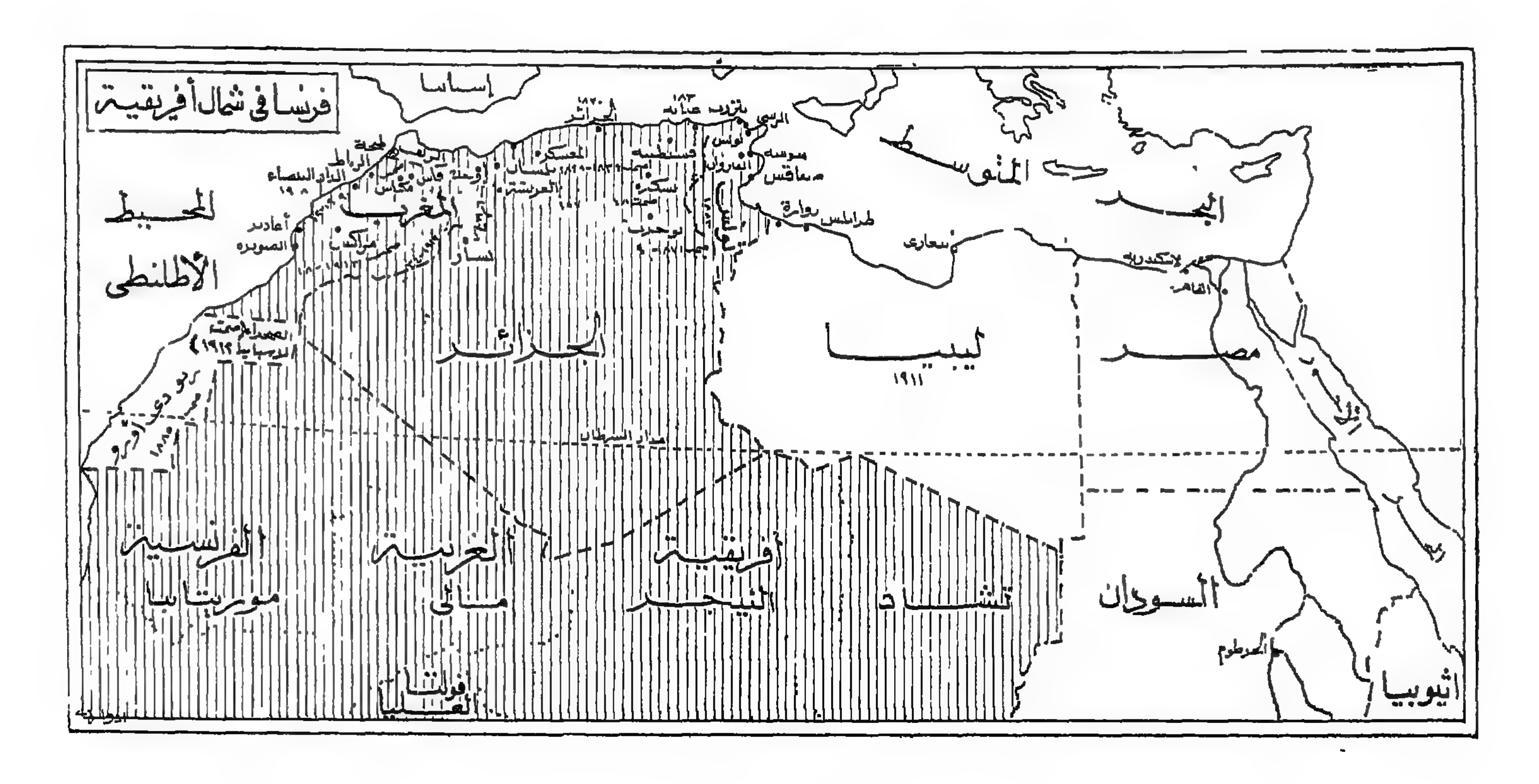

الأطماع الأجنبية في المغرب
في القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)
مدن وقعت تحت السيطرة الأسبانية
مدن أوقعت تحت السيطرة البرتغالية
البحر المتوسط
وهران
مليلة
سبتة
طنجة
القصر الصغير
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
المعمورة
الدار البيضاء
أنفا
فاس
صنهاجة
أزمور
الجديدة (مزكان)
آسفي
أكوز
الصويرة
مراكش
نهر أم الربيع
تارودانت
سانتا كروز (أكادير)
ماسة
سوس
إفني
كناريا (اسبانيا)
ماديرا (برتغال)
المحيط الأطلسي
سجلماسة
تافيلالت

الشمال الافريقي
في القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)

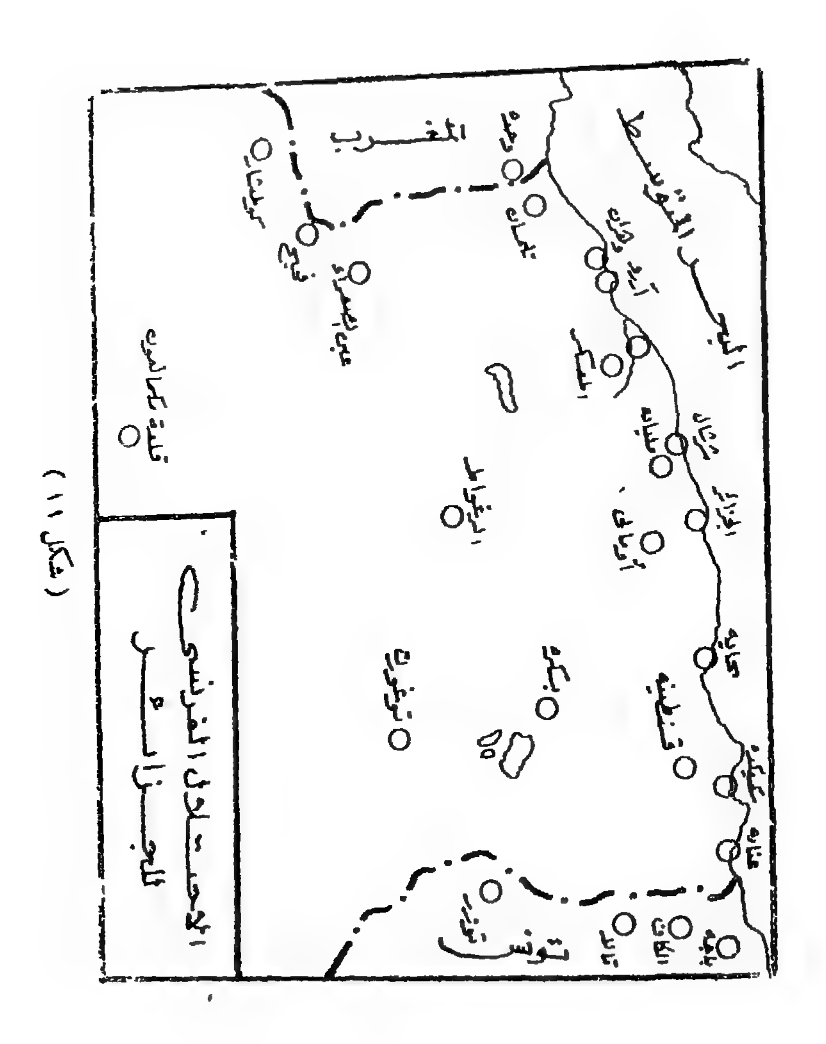
حدود بني وطاس
حدود بني زيان
حدود الحفصيين
حدود دولة المماليك البرجية
حدود الدولة العثمانية
حدود الصفويين
مدن تحت الاستعمار الاسباني والبرتغالي

اسبانيا
طنجة
سبتة
مليلة
وهران
بنو وطاس
بنو زيان
الحفصيون
البحر المتوسط
الامبراطورية العثمانية
البرجية
الصفويون
خليج عدن
البحر المحيط

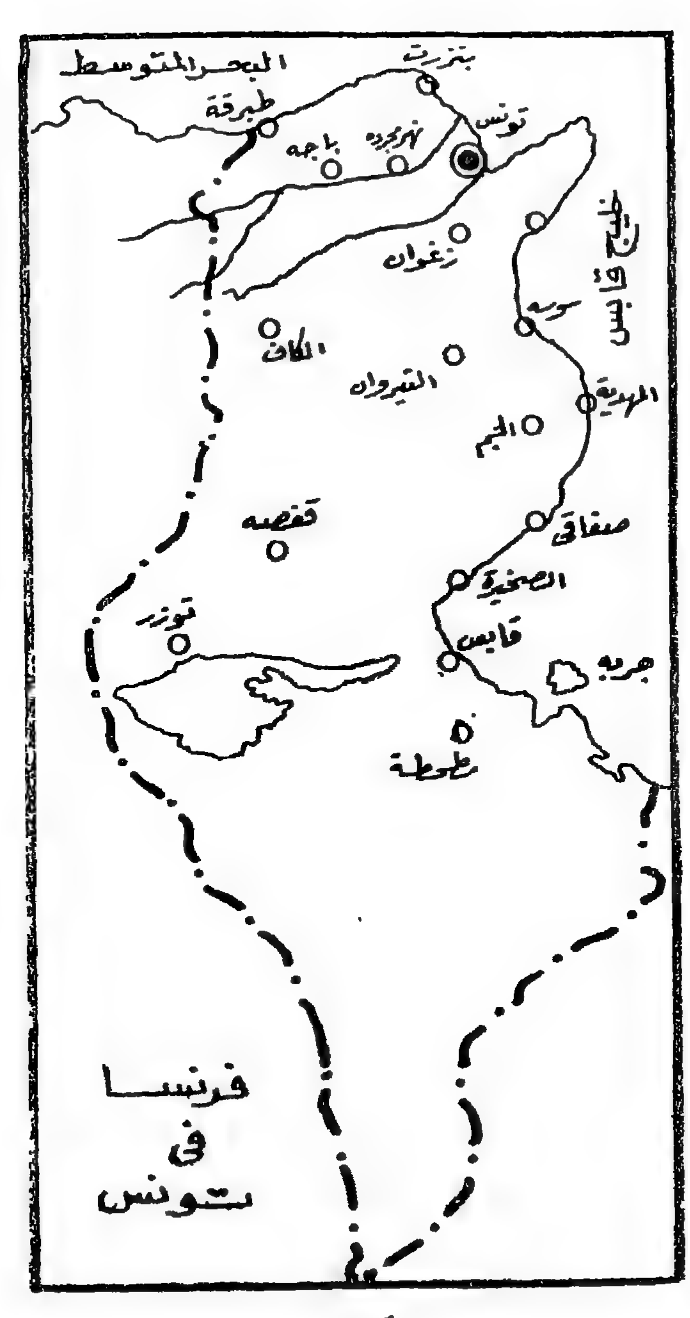
(شكل ٩)


فرنسا فى شمال أفريقية
إسبانيا
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى
المغرب
الجزائر
ليبيا
١٩١١
مصر
السودان
أثيوبيا
موريتانيا
مالى
النيجر
تشاد
الفرنسية
العربية
أفريقية
طرابلس
بنغازى
الإسكندرية
القاهرة
الخرطوم
صفاقس
سوسة
تونس
الجزائر
أغادير
الصويرة
مراكش
الرباط
الدار البيضاء

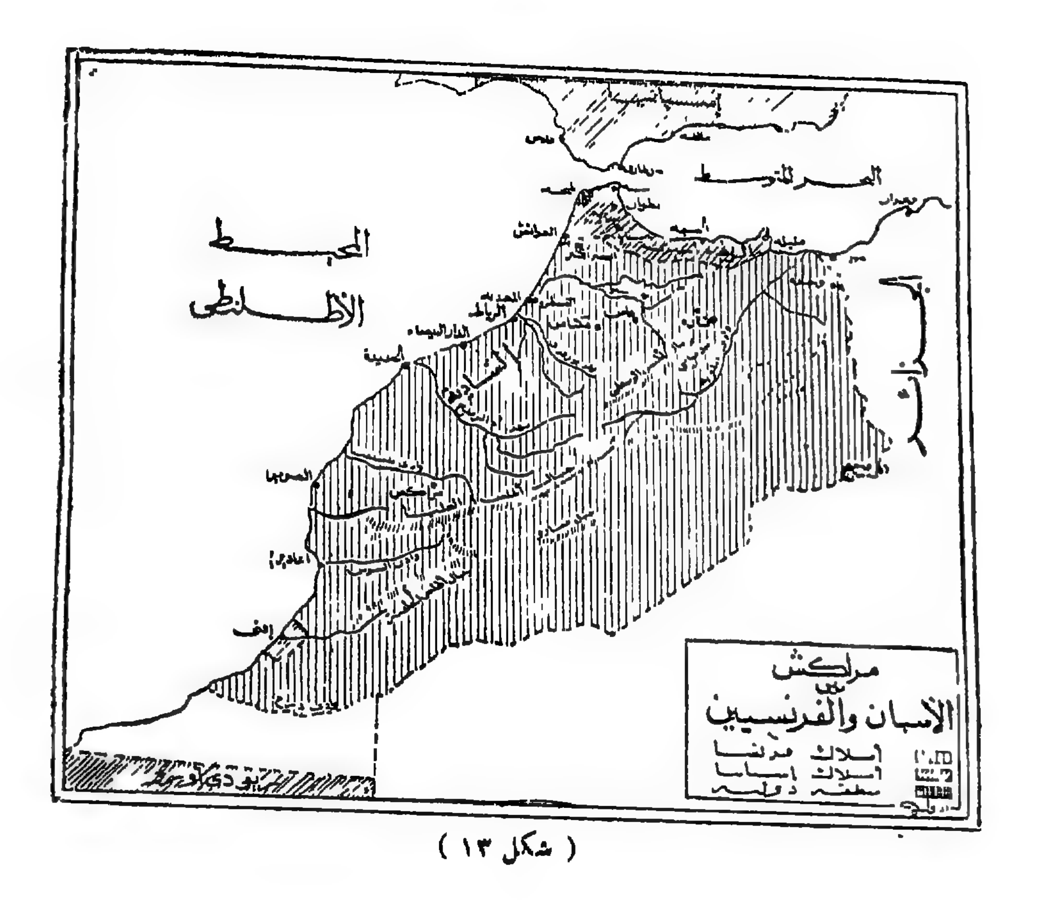
(شكل ١٠)



(شكل ١١)

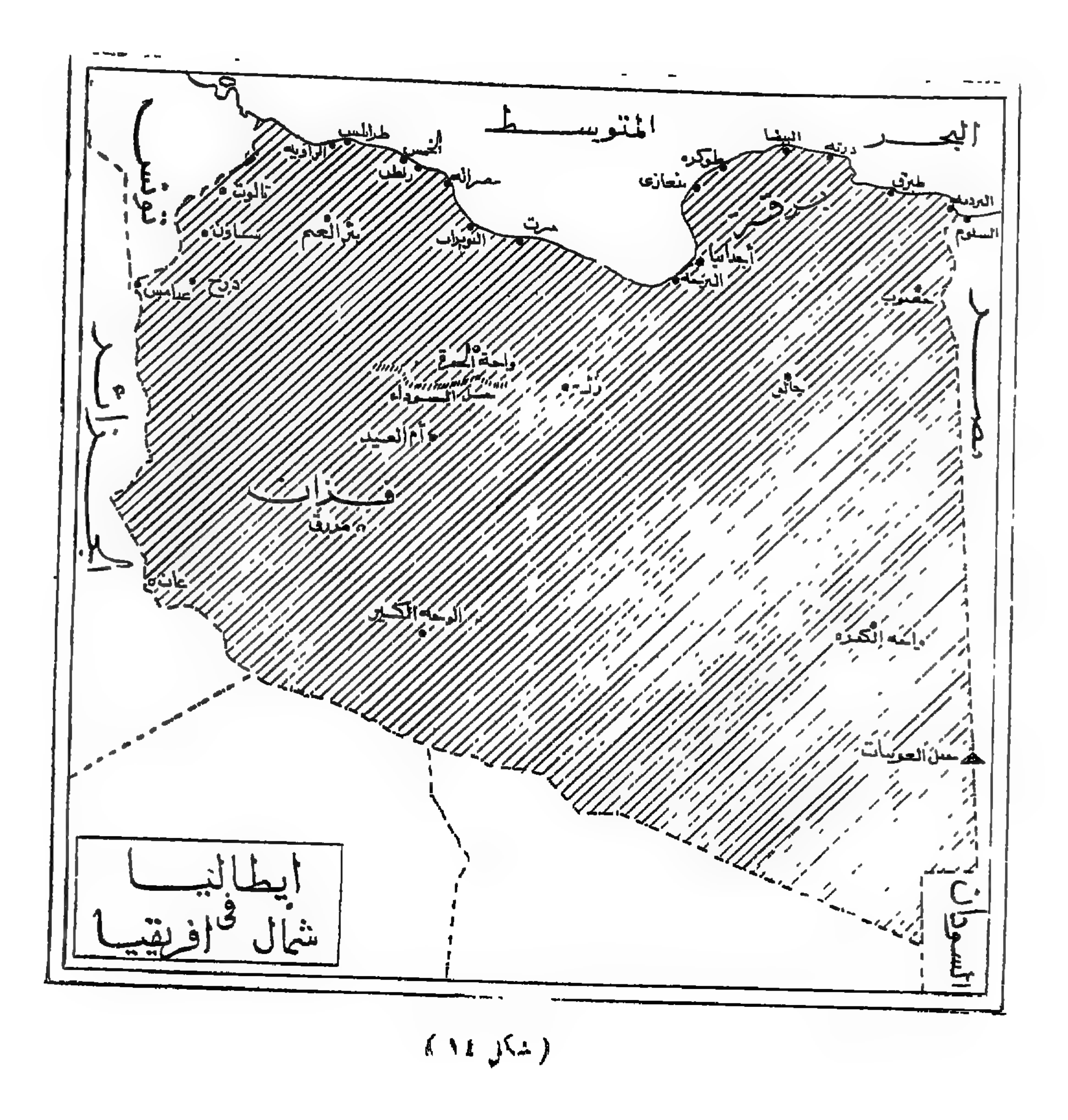

البحر المتوسط
بنزرت
طبرقة
تونس
باجه
نهر مجرده
خليج قابس
زغوان
سوسه
الكاف
القيروان
المهدية
الجم
صفاقس
قفصه
الصخيرة
توزر
قابس
جربه
مطماطة
فرنسا
في
تونس

(شكل ١٢)



المحيط
الأطلنطى
البحر المتوسط
الجزائر
مراكش
بين
الإسبان والفرنسيين
أملاك فرنسا
أملاك إسبانيا
منطقة دولية

(شكل ١٣)



البحر المتوسط
ايطاليا في شمال افريقيا
السودان
مصر
فزان
برقة
طرابلس
الخمس
مصراتة
بنغازى
البيضا
درنة
طبرق
السلوم
أجدابيا
جالو
واحة الجفرة
أم العبيد
مرزق
غدامس
نالوت
جغبوب
الكفرة

(شكل ١٤)

د - المراجع

أولا — مراجع التمهيد

(المغرب قبل العصر الحديث)

١ — أبن أبى شنن (ناشر) : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينيـــة (لمؤلف مجهول) — الجزائر ١٩٢٠ .

٢ — ابن الخطيب : أعمال الإعلام — القسم الثالث (تحقيق العبادى ، ابراهيم الكتانى) .

٣ — ابن خلدون ، عبد الرحمن (٨٠٨ ﻫ) : كتاب العبر (القسم المتعلق بالدول الإسلامية بالمغرب) (الجزائر ١٨٤٧) .

٤ — ابن عبد الحكم (٢٦٧ ﻫ) : فتوح مصر وأخبارها (ليدن ١٩٢٠ م)

٥ — ابن عذارى المراكشى ، أبو العباس أحمد بن محمد (٧١٢ ﻫ) : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب حـ ١، حـ٢ (نشر دوزى)

(نشر دوزى الجزء الأول من الكتاب المتعلق بتاريخ المغرب إلى قيام دولة المرابطين ، ونشر الجزء الثانى الخاص بالأندلس حتى وفاة ابن أبى عامر بليدن فيما بين ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ م ـ ونشرت بيروت عام ١٩٥٠ م طبعة تجارية سقيمة ، وقد نشر ليفى بروفنسال وكولان حـ ١ ، حـ ٢ مصححين من مخطوط مغربى عثرا عليه ، كما نشر بروفنسال قطعة أخرى من الجزء الثانى من مخطوط بفاس، وهى خاصة بتاريخ الأندلس حتى ٤٧٨ ﻫ ،وبين عامى ١٩٦٠ ، ١٩٧٣ — نشرت كلية الآداب بالرباط الجزء الثالث وهو يتعلق بتاريخ الأندلس والمغرب العربى) .

٦ — ابن مرزوق ، عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب (٧٨٢ هـ) : المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن (الأصل بخزانة الاسكوريال)، ومنه صورة بالخزانة العامة بالرباط برقم (١١١ ق) ، وقد نشر طرف منه بمجلة معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط — المجلد الخامس عام ١٩٢٥ م.

٧ — ابن مرزوق : البيان الحسن فى دولة على أبى الحسن المرينى (مخطوط بدار الوثائق بالرباط)

٨ — البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن أبى مصعب البكرى (٤٨٧ هـ) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) (باريس ١٩١١) .

٩ — ارنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين - القاهرة ١٩٤٧ م)

١٠ — اسماعيل بن الأحمر (٨٠٧ هـ) : روضة النسرين فى دولة بنى مرين (المطبعة الملكية بالرباط - ١٩٦٢ م) .

١١ — البلاذرى (٢٦٠ هـ) : فتوح البلدان .

١٢ — التهامى الوزانى : المغرب الجاهلى (تطوان ١٣٦٦ هـ)

١٣ — الجيلالى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام (١٩٥٤) حـ ١ ، حـ ٢

١٤ — الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب (قطعة منه تحقيق المنجى الكعبى - تونس ١٩٦٨ م)

١٥ — السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير حـ ٢ (القاهرة ١٩٦٦ م).

١٦ — الناصرى ، أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء ١٩٥٥) الأجزاء الأربعة الأولى .

١٧ — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى حـ ٣ ، حـ ٤ (القاهرة ١٩٦٥)

١٨ — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية .

١٩ — عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تاريخ المعرب (١٩٤٩)

(عاصر المؤلف دولة الموحدين ، وقد تناول الكتاب تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى ـ ولد المؤلف فى مراكش سنة ٥٨١ هـ فى بدء حكم أبى يوسف المنصور الموحدى ، وغادر مراكش إلى فاس ، ثم سافر إلى الأندلس ، وفى عام ٦١٣ هـ سافر إلى مصر والحجاز والشام ، ثم بغداد ، والتقى بوزير من خاصة أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسى فأملى عليه كتابه هذا الذى فرغ منه يوم السبت لست بقين من جمادى الآخره سنة ٦٢١ هـ ـ إستجابة لرغبة الوزير العباسى) .

٢٠ — على بن أبى زرع الفاسى: الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (دار المنصور بالرباط ١٩٧٢ م)

٢١ — على بن أبى زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس (دار المنصور بالرباط ١٩٧٣ م) .

(هناك خلاف حول المولف ، ولكن المرجح أنه على ابن أبى زرع - كما يذهب بعض معاصرية أو القريبين من زمانه مثل الجزنائى فى (أخبار

زهرة الآس) ، والخطيب السلماني في (الإحالة) ، وابن خلدون في (العبر وديوان المبتدأ والخبر)— وقد تناول تاريخ العرب عموماً وفاس خصوصاً منذ بداية الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ هـ من عهد السلطان المريني عثمان بن يعقوب عبد الحق — المشهور بأبي سعيد) .

٢٢ — القلقشندي : صبح الأعش في صناعة الإنشا جـ ٨ .

٢٣ — محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (حزءان ، القاهرة ١٩٦٤)

٢٤ — محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ١٩٦٦)

دوريات :

مجلة هسبريس (Hésperis) العدد الثامن عشر سنة (١٩٣٤)

ثانياً ـ الأطماع البرتغالية والأسبانية

في المغرب العربي

وثائق ومخطوطات :

ا — باللغة العربية :

١ — الحوات ، الربيع سليمان بن محمد العلمي الشفشاوني :

البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (مخطوط بالخزانة العامة ـ بالرباط ـ برقم ٢٦١ د)

٢ — الزياني ، عبد العزيز الحسن المهدي (١٦٤٦) :

الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ٦٦ ج)

٣ — الصومعى ، عبد الرحمن (من رجال القرن العاشر الهجرى) :

التشوف الصغير (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ١١٠٣ د)

٤ — الفاسى ، عبد الرحمن بن عبد القادر (١٦٨٥ م) :

تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر الفاسى (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٣٣٠ ك)

٥ — الفاسى ، محمد المهدى (١٦٩٨ م) :

تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية الزروقية (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٧٦ ج)

٦ — القادرى ، محمد بن الطيب (١٧٧٣ م) :

نشر المثانى الكبير ـ جزآن (مخطوط با
١٢٣٤ ك)

٧ — اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود (٦٩٠

الفهرست (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

٨ — إملاق ، عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن ا

الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ،
الجهاد (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برة

ب — باللغات الأجنبية :

1—Antonio Baiao : Documentos de Corpo Chronologico relativos a Marracos (L'Acadime des Sciences de Lisbonne–1925)

2—Archives Notionales de La Torre do Tombo a Lisbonne (Archives Et Bibliotheques de Portugal)-Documents Arabes.

3—Archive General de Simancas-Estado-Legajo 478 et 479 (Archives Et Bibiotheques D'Espagne)

4—De Castries, Le comte ; Les Sources inédites de L'histoire du Maroc (Paris 1905 et suite)

Portugal : Tome 1 (Juillet 1516 - Avril 1516)

Tome 11 (Mai 1516-Dec. 1526).

Tome 11 - Seconde Partie (Janvier 1527 - Dec 1534)

Tome 111 (Janvier 1535 - Dec 1541)

Tome VI (Janvier 1542 - Dec 1551)

Tome V (1552 - 1580)

Spagne : Tome 1 (Melilea au XVI Siecle)

Tome 11 (1552 - 1560)

5—Documents inédits sur L'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique 1506–1570 (Alger 1875)

6—Joao De Sousa : Documentos Arabicos (Lisbonne 1790).

مراجع باللغة العربية أو معربة :

١ — ابن الزيات ، يوسف التادلي (٦٢٧هـ) : التشوف إلى رجال التصوف (نشره ادولف فور ـ الرباط ١٩٥٨) .

٢ — ابن القاضي ، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (١٦١٦ م) :
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (المطبعة الحجرية بفاس د . ت) .

٣ — ابن عسكر ، محمد بن علي السريفي الشفشاوني (٩٨٦هـ) : دوحة الناشر لمن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (المطبعة الحجرية بفاس د.ت)

٤ — الحجوي ، محمد المهدي : حياة الوزان الفاسي وآثاره (الرباط ١٩٣٥) .

٥ — الكانوني ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : أسفي وما إليه قديماً وحديثاً (١٣٥٣هـ) .

٦ — المحبي ، أبو عبد الله محمد (١٧٠٠ م) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (مصر ١٢٨٤هـ) .

٧ — الشرقي ، عبد القادر : بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبني عامر (الجزائر ١٩٢٤) .

٨ — المقري ، أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب — أربعة أجزاء (المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢هـ) .

٩ — اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود (١٦٩٠م) : المحاضرات (المطبعة الحجرية بفاس ١٣١٧هـ) .

١٠ — اليفرنى ، محمد الصغير المراكشى (١٧٢٨) : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى - جزآن (مطبعة أنجى ١٨٨٨) .

١١ — اليفرنى : صفوة من انتشر من علماء القرن الحادى عشر (المطبعة الحجرية بفاس) .

مراجع أجنبية :

1—Coindreau, Roger : Les Corsaires de Salé (Paris 1946)

—De Caravalho, Vasco : La Domination Portugaise au Maroc-1415-1769. (Lisbonne 1936).

3—De Marmol, Luiz : L'Afrique de Marmol (3 vols. Paris 1667).

4—De Sousa, Luiz : Les Portugais et l'Afrique du Nord: de 1521 à 1557 (Lisbonne 1940).

5—Ford, J.D.H : Letters of John 111, King of Portugal 1521-1557 (Cambridge 1931).

6—Friganier, M.: Historia de Santa Cruz. (D.N.)

7—Gois, Damiao de : Le Portugais au Maroc de 1495 à 1521 (Rabat 1937).

8—Golevin, J, : La Place de Mazagan sous la domination Portugais (Larose 1917).

9—Johnston, H.B. : A History of the colonisation of Africa by Alien Races (Cambridge 1913)

10—Julien, Charles, André : Histoire de l'Afrique du Nord de la conquuêt Arabe à 1830 (Paris 1952).

11—Recard, Robert : Etude Sur L'histoire dis Portugais au Maroc (Paris 1955)

12—Ibid : Un document Portugais sur la place de Mazagan au début du XVII siècle (Paris 1932)

دوريات :

ا — باللغة العربية :

١ — شوقى الجمل : أضواء على حياة الحسن بن محمد الوران وإنتاجه الفكرى والمؤثرات التى تأثر بها . (مجلة المناهل المغربية ـ العدد الثامن ـ مارس ١٩٧٥).

٢ — شوقى الجمل : صفحات من تاريخ البرتغال الاستعمارى فى المغرب العربى ـ فى ضوء وثائق الأرشيف البرتغالى (مجلة الدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥) .

٣ — عبد العزيز عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة (مجلة تطوان ١٩٥٨ ، ١٩٥٩) .

ب — باللغات الأجنبية :

1—Recard, Robert : La cote Atlantique Du Maroc au debut du XVI siecle Dapres des Instructions Nautiques Portugaises (Hesperis Tome VII - 1927).

2—Recard, Robert : Le Maroc septentrional au XV siecle d'apres les chroniques Portugaises (Hesperis XXIII–1936 pp. 89–143).

3—Recard, Robert:Les Portugois et l'Afrique du Nord sous le regne de Jean III (1521-1557) ; d'apres la chronique de Francisco d'Andrede (Hésperis XXIV–1937) pp. 259-345.

ثالثاً ـ المغرب العربي في العصر الحديث

(موجه عام)

وثائق .

1—Documents diplomatiques Francais relatifs aux origines de la guerre de 1914 (1871-1914).

2—British Documents of the Origin of the War II (London 1927-1928).

مراجع باللغة العربية :

١ — جلال يحيى : المغرب الكبير (الجزء الثالث ـ العصور الحديثة)١٩٦٦.

٢ — صلاح العقاد : المغرب العربي (د . ت) .

٣ — كلود ، هنرى ـ بريتان اندريه ـ لا كست ايف : الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي ترجمة محمد عتاني (د . ت) .

المراجع الأجنبية :

1—Barbour, N. : A Survey of North West Africa (London 1958)

2—Charles-Roux : France et Afrique du Nord avant 1830.

3—Cook, George : Conquest and Colonization of North Africa (London 1860)

4—Hanotaux, G.: Histoire des Colonies Francaises (vols. 2 et 3- Paris 1930)

5—Julien, Ch André : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisse-Algerie-Maroc - Paris 1931)

6—Julien, Ch. André : L'Afrique du Nord en Marche (Paris 1952).

7—Piquet, V. : Les civilisations de l'Afrique du Nord (Paris 1917).

8—Roberts, St. John : History of the French Colonial Policy 1871-1925 (2 Vols.-London 1929).

6—Torneau, Roger : Evolution politique de l'Afrique du Nord Musulmane 1920-1961 (Paris 1962).

10—Yver, G.: L'Afrique du Nord Francaise dans l'Histoire (Paris 1937

رابعاً — الجزائر

وثائق ومخطوطات :

أ — عربية :

١ — ابن إسماعيل ، أحمد بن إسماعيل بن صالح باى : ذكر طرف يسير يتعلق بأيام صالح باى الأزميرلى (تقلد صالح باى وظيفة باى ١١٨٥هـ - ١٧٧١ م - مخطوط بدار الوثائق بالرباط) .

٢ — ابن العطار ، أحمد بن المبارك بن العطار القسنطيني : تاريخ بلاد قسنطينة (مخطوط بدار الوثائق بالرباط ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٠ م) .

٣ — ابن العنترى محمد الصالح بن العنترى: الأخبار المبينه لإستيلاء الترك على قسنطينة (دار الوثائق بالرباط - ١٢٦٢ هـ ١٨٤٦ م).

ملاحظة : المخطوطات الثلاثة فى دار الوثائق الرباط فى مجلد واحد (مجموعة) .

٤ — ابن وشاح الكاتب : ورتبة المعسكر المجيدى الثالث (نسخة خطية من نظام جيش عبد القادر الجزائرى — وثائق الرباط رقم ١٥٤٢ / د) .

ب — أجنبية :

1—Bourgin, G. : Les documents de L'Algerie conservés aux archives Nationales Paris (Revue-Africane 1906).

2—Bugeaud, Le marechal : Le traite de la Tafna Discours prononce a la Chambre des deputés (1838).

3—Clauzel, Le maréchal : Correspondance du maréchal Clauzel (Publieé par G. Esquer) 2 vols. (1949-1950).

—Documents Relatifs au traite de la Tafna 1837, par Georges Yver (Alger-1924) .

5—Livres Jaunes-Affaires d'Alger.

6—Orleans, Ferdinand Philippe duc d' : Campagnes de l'armée d'Afrique (1835-1839), Publieés par ses fils (Levy 1870)

7—Plantet, E. : Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France 1577-1830 (2 vols. (-Paris 1889)

8—Valeé, marechal : Correspondance du marechal Valee Publiee par G. Yver(5 vols. 1837-1841).

9—Vver, G. : Documents relatifs au traité de la Tafna 1837 (Alger 1924).

مراجع باللغة العربية أو معربة :

١ — ابن عبد الحكم : فتوح أفريقيا (الجزائر ١٩٤٢) .

٢ — ابن عـــذارى : البيان المغرب (ليدن ١٨٨١م) .

٣ — أبو القاسم الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف (الجزائر ١٩٠٩) .

٤ — أبو القاسم الحفناوى : قرطاجة فى أربعة عصور (تونس ١٩٢٠) .

٥ — إحســـان حقى : الجزائر العربية (١٩٦١) .

٦ — أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر (الجزائر ١٣٥٠هـ) .

٧ — أحمد توفيق المدنى : محمد عثمان باشا (الجزائر ١٣٥٦هـ) .

٨ — أحمد عزت عبد الكريم : المسألة الجزائرية فى السياسة الدولية فى سنة ١٨٣٠ (القاهرة ١٩٦٠) .

٩ — الجيلالى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام حـ ١ (الجزائر ١٩٥٣) .

١٠ — الجيلالى ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام حـ ٢ (الجزائر ١٩٥٥) .

١١ — الإدريسى ، الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (ليدن ١٨٦٤).

١٢ — صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة (١٩٦٤) .

١٣ — عبد القادر نور الدين (ناشر) : غزوات عروج (القاهرة ١٩٣٤) .

١٤ — عبد القادر نور الدين: صفحات من تاريخ مدن الجزائر (قسنطينة ١٩٦٥)

١٥ — عثمان الـكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر (تونس ١٩٤٤) .

١٦ — محمد ابن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (جزءان — الاسكندرية ١٩٠٣)

١٧ ـ محمد الزركشى : تاريخ الدولتين (تونس ١٢٨٩هـ) .

١٨ ـ محمد بيرم الخامس : صفوة الاعتبار (مصر ١٣٠٢هـ) .

١٩ ـ محمد مبارك الميلى : تاريخ الجزائر (قسنطنية ١٣٥٠هـ) .

٢٠ ـ يحيى جلال : السياسة الفرنسية فى الجزائر (١٩٥٩) .

مراجع أجنبية :

1—Bernard, Auguste : L'Algerie (Paris 1936).

2—Blunt, Wilfred : Desert Hawk, Abd-El Kader and the French conquest of Algeria (London 1947).

3—Bugeaud, Le marechal : Memoire sur notre etablisement dans la province d'Oran par suite de la paix (1838).

4—Cat, E. : Histoire de l'Algerie (Paris 1929).

5—Clark : Algerie in Turmoil; A history of the rebellion (1959).

6—De Grammort, H. : Histoire d'Alger sous la domination Turque (1516-1838) (Paris 1887).

7—Demontes, V. : La colonisation militaire sous Bugeaud (Paris 191).

8—Dehniee, Le baron : Precis historique et administratif de la campagne d'Afrique (1831).

9—Douin, Georges : Mohamed Ali et l'expedition d'Alger 1829-1830 (Caire 1930).

10—Emerit, Marcel : L'Algerie a l'epoque d'Abd El Kader (Larose 1951) .

11—Esquer, Gabriel : Les commencements d'un Empire. La Prise d'Alger (1830).

12—Esquer, Gabriel : Histoire d'Algerie (Paris 1950).

13—Fernel, commandant : Compagne d'Afrique en 1830 (1831).

14—France, Julien : L'Histoire de la colonisation de l'Algerie (Alger 1928).

15—Gatherot, Gustave : La conquête d'Alger (1830) d'apres les papiers inedits du marcechal de Bourmont (Paris 1929).

16—Gillespre, Joane : Algeria, Rebellion and revolution (London 1960)

17—Gsell, S.et Marcais, G. : Histoire d'Algerie (Paris 1929).

18—Hanotaux, G. : Histoire des colonies Francaises (vols. 2 et 3 Paris 1930) .

19—Julien , Ch. Andre : Histoire de l'Algerie Contemporaine, 1827-1871 (Paris 1964).

20—Lucas, Sir Charles : The partition and Colonisation of Africa (Oxford 1922).

21—Marchand, E.P. : L'Europe et la conquete d'Alger (Paris 1913).

22—Naguéres, Henri : L'expedition d'Alger 1830 (Paris (1962).

23—Nettement, Alfred : Histoire de la conquéte d'Alger (ecrite sur des documents inedits et authentiques, suivie du Tableaux de la conquête de l'Algerie) (Paris 1856).

24—Passedat, Jean Louis : Le gouvernement du Marechal de Mac-Mahon en Algerie de 1864 à 1870 (Alger 1953)

25—Pichon, Baron : Alger sous la domination Francaise;son etat present et son avenir (1833)

26—Playfair, Sir R. Lanbert : A Bibliography of Algeria from the expedition of Charles V in 1541 to 1887 (From Supplementary Papers of the Royal Geographical Society (Vol II Part II) (1922)

27—Ricard, Mgr. Antonie : Le cardinal Lavigerie, primat d'Afrique, archevêque de Corthage et Alger 1825-1892 (1893)

28—Rimbault, P. : Alger 1830-1830 (Larose 1929)

29—Renin, I. : Le Royaume d'Alger sous le dernier dey (Alger 1900).

30—Rousset, Camille : La conguête d'Alger (1879)

31—Sarian, Paul Emile : La crise Algerienne (Paris 1919).

32—Swain, James Edgar : The struggle for the control of the Mediterranean prior to 1848 (A study in Anglo-French Relations) (Boston 1933).

33—Vaysettes, E. : Histoire de constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837. (1869).

34—Walsin Esterhazy, M. ; La Domination Turque dans l'ancienne Regence d'Alger (Paris (1840).

35—Yver, G : Abd El Kader et le Maroc en 1838 (1929).

دوريات :

أ ـ اللغة العربية :

شوقى الجمل : أضواء جديدة على تاريخ مدينة قسنطينة فى ضوء ثلاث مخطوطات بدار الوثائق بالرباط (مجلة معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ـ ١٩٧٤) .

ب ـ باللغات الأجنبية :

1—Ghaillé, Jacques : Au Lendemain de la bataille d'Isly (Hésperis 1948) pp. 381–402.

2 - Julien, Ch. Andre : L'avenir d'Alger et L'opposition des liberaux des economistes (Bull. Soc. Geog. Oran 1922).

خامساً ـ تونس

وثائق ومخطوطات :

ا ـ باللغة العربية :

١ ـ تونس والحماية الفرنسية ومنظمة الأمم (نشر مكتب الاستعلامات ـ اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى ـ القاهرة ١٩٥٢) .

٢ ـ وثائق تونسية ـ ثورة على بن غذاهم ح ١ ، ح ٢ (تونس ١٩٦٧) .

٣ ـ وثائق تونسية ـ نشر كتابة الدولة للأخبار والإرشاد (تونس ١٩٦٥) .

٤ ـ وثائق ودوريات ـ الحزب الاشتراكى الدستورى التونسى (تونس ١٩٧١) .

٥ ـ عبد الجليل التميمى : بحوث ووثائق فى التاريخ العربى (١٨١٦-١٨٧١) (تونس ١٩٧٢).

ب ـ باللغات الأجنبية :

1—Documents Diplomatiques Francaises (1871-1914). Ministre des Affaires Etrangères (Paris 1928).

2—Livres Jaunes-Affaires de Tunisie (Paris 1881)

3—Correspondence Respecting the affairs of Tunis (Lonon 1881).

4—Histoire des Relations Tuniso-Francaises ; Ministre des Affaires, Culturelles et dl'information (Tunis 1972)

مراجع باللغة العربية :

١ ـ ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد الرعينى : المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس (تونس ١٣٥٠هـ) .

٢ ـ أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسى (تونس ١٩٧٣) .

٣ ـ أحمد ابن أبى الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ م) ٨ أجزاء .

٤ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٨) .

٥ ـ أحمد بن عامر : تونس عبر التاريخ (تونس ١٩٦٠) .

٦ ـ إحسان حقى : تونس العربية (د . ت) .

٧ ـ التجانى ، أبو محمد عبد الله : رحله التجانى (تونس ١٩٥٨) .

٨ ـ الحبيب تامر : هذه تونس (القاهرة ١٩٤٨) .

٩ ـ الفاضل بن عاشور : الحركة الأوروبية والفكرية فى تونس (١٩٥٦) .

١٠ـ المنجى الشملى : خير الدين باشا (تونس ١٩٧٢) .

١١ـ ب سلامه : ثورة على بن غذاهم ١٨٦٤ (تونس ١٩٦٧) .

١٢ـ جانياج ، جان : ثورة ١٨٦٤ ـ ثورة على بن غذاهم .
(أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية ـ الفصل الخامس)
(تونس ١٩٦٥) .

١٣ ـ جلال يحيى : المغرب الكبير حـ ٢ (القاهرة ١٩٦٦) .

١٤ ـ خير الدين التونسى : أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك (١٨٨٢).

١٥ ـ شفيق غربال : تونس الخضراء (القاهرة ١٩٤٣) .

١٦ ـ صفوت ، محمد مصطفى : مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، وأثره على البلاد العربية (القاهرة ١٩٥٧) .

١٧ـ علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى (القاهرة ١٩٥٤)

١٨ ـ محمد بيرم التونسى : صفوة الاعتبار لمستودع الأبصار والأقطار (القاهرة ١٨٩٠) .

١٩ـ محمد الصالح مزالى : الوراثة على العرش الحسينى ، ومدى إحترام نظامها (تونس ١٩٦١)

٢٠ـ محمد المرزوقى : صراع مع الحماية (تونس ١٩٧٣) .

٢١ـ محمد محمود السروجى : العلاقات التونسية بين الحماية والإستقلال (الاسكندرية ١٩٦٨) .

٢٢ — نيقولا زياده : تونس فى عهد الحماية (القاهرة ١٩٦٣) .

٢٣ — يونس د رمونة : تونس بين الحماية والإحتلال (د . ت) .

مراجع أجنبية :

1—Aguesses, L. : Souverainete et nationalité en Tunississie (1930)

2—Arnoulet, Francois : Considerations sur la politique interna-nationale des beys de Tunis entre 1830 et 1880 (Paris 1955).

3—Broadley, A M.: The last punic War. Tunis past and present, with a narrative of the French conquest of the Regency(2 vols -London 1882).

4—Cambon, Henri, : Histoire de La Regence de Tunis (Paris 1948).

5—De Lanessan : La Tunisie (1917).

6—Depois, J. : La Tunisie 1930).

7—D'Estournelles de contant : La Politique Francaise en Tunisie (1854-1891) (1891).

8—F-Laux, d. ; La regence de Tunis au XIX siecle (Paris 1865).

9—Jara, Felix : Bourguiba et la naissance d'une nation (Paris 1956).

10-Ling, Dwight : Tunisia from protectorate to Republic (1967).

11—Safawat, M.M. ; Tunis and the Great Powers (Alex. 1943).

2—Ziadeh, Nicola : Origins of Tunisan Nationalism (Beirut 1969)

دوريات ومنشورات :

١ — الحبيب الجنجانى : الحركة الإصلاحية فى تونس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (حوليات الجامعة التونسية — العدد السادس ١٩٦٩) .

٢ — تونس ، ٦٧ عاماً تحت الاحتلال (منشورات لجنة المغرب العربى) .

٣ — مأساة عرش : (منشورات الحزب الدستورى التونسى — القديم) .

٤ — شوقى الجمل : أضواء على رحلة التجانى .
(مجلة المناهل المغربية — العدد الخامس مارس ١٩٧٦) .

سادساً — المغرب الأقصى

وثائق ومخطوطات :

أ — عربية :

١ — ابن القاضى ، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى :
درة الحجال فى غرة أسماء الرجال (نسخة خطية ـ الخزانة البدراوية بفاس) .

٢ — الحسن بن محمد الحسينى المنونى : النزع اللطيف فى التلميح بمفاخر مولاى إسماعيل بن الشريف (مخطوط رقم ٥٩٥/ح بوثائق الرباط) .

٣ — الزيانى ، عبد العزيز بن الحسن المهدى : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة (مخطوط بوثائق بالرباط ٦٦/ح) .

٤ — الزيانى ، أبو القاسم : البستان الظريف فى دولة أولاد مولاى الشريف (مخطوط بوثائق الرباط ١٥٧٧/د) .

٥ — الشفشاونى ، الحوات أبو الربيع سليمان بن محمد العلمى :
البدور الضاوية فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (مخطوط بوثائق الرباط ٢٦١/د) .

٦ — القادرى ، عبد السلام بن عبد الله الخياط : التحفة القادرية فى مناقب عبد الله الشريف الوزانى ورجال الشاذلية عموماً (جزآن — مخطوط بوثائق الرباط ٢٣٢١/ك) .

٧ — القادرى ، محمد بن الطيب : نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى (مخطوط بوثائق الرباط برقم ٢٢٥٣/ك) .

٨ — إملاق ، عبد القادر محمد بن أحمد بن الحسن : الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد (مخطوط بوثائق الرباط برقم ٩١/د) .

ب — أجنبيـة :

1—De Castries : Les sources inedites de l'histiore du Maroc 1530-184-5(19 volumes Paris 1905-1924)

2—Documents Dimplomatiques Francaises. Question de la protection diplomatique et consulaire au Maroc,

3—Livres Jaunes-Affaires du Maroc (1901-1912)

4—British Museum-Public Record Office-State Papers: Foreign Towns (Barbary States-Vols. 1, 2)

المراجع العربية والمعربة :

١ — ابن عسكر ، محمد بن على السريفى الشفشاونى : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. (المطبعة الحجرية بفاس ـ د.ت).

٢ — ابن جلون ، عبد المجيد : هذه مراكش (القاهرة ١٩٤٩) .

٣ — ابن عبود ، محمد عبد السلام : مركز الأجانب فى مراكش (د . ت)

٤ — أبو فارس ، عبد العزيز الفشتالى : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا (تحقيق د . عبدالكريم كريم — مطبوعات وزارة الأوقاف بالرباط ١٩٧٤)

٥ — إحسان حقى : المغرب العربى (بيروت د . ت) .

٦ — العقاد ، صلاح : المغرب فى بداية العصور الحديثة (القاهرة ١٩٦٣) .

٧ — العقاد ، صلاح : المغرب العربى (القاهرة ١٩٦٦) .

٨ — المحبى ، أبو عبد الله محمد : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (مصر ١٢٨٤ هـ) .

٩ — المقرى ، أحمد بن محمد التلمسانى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب — ٤ أجزاء (المطبعة الأزهرية ١٣٠٢ هـ) .

١٠ـ الناصرى ، أحمد بن خالد السلاوى : الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ٩ أجزاء ـ (الدار البيضاء ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) .

١١ ـ اليفرانى ، أبو عبد الله محمد الصغير : نزهة الحادى فى أخبار ملوك القرن الحادى ـ جزآن (طبعة أنجى ١٨٨٨)

١٢ ـ اليفرانى : روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف (المطبعة الملكية بالرباط ١٩٦٢) .

١٣ ـ اليوسى ، أبو على الحسن بن مسعود : المحاضرات (المطبعة الحجرية بفاس ١٣١٧ هـ)

١٤ ـ ثابت ، كريم خليل : عبد الكريم والحرب الريفية (القاهرة ١٩٢٥)

١٥ ـ جورج ، كولان (ناشر) : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكادرتية (لمؤلف مجهول ـ الرباط ١٩٣٤) .

١٦ ـ حجى ، محمد : الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (الرباط ١٩٦٤) .

١٧ ـ روم ، لاندو : أزمة المغرب الأقصى (جزءان) ترجمة إسماعيل على ، وحسين الحوت ـ مراجعة د عبد العزيز الأهوانى (القاهرة ١٩٦١) .

١٨ ـ صبحى ، حسن : التنافس الاستعمارى الأوروبى فى المغرب (القاهرة ١٩٦٥) .

١٩ ـ صفوت ، محمد مصطفى : الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وموقف الدول الكبرى إزاءه (١٩٥٢) .

٢٠ ـ عبد الله كنون : ذكريات مشاهير رجال المغرب حـ ١ (ترجم فيه لعبد العزيز الفشتالى) .

٢١ ـ عمر أبو النصر : بطل الريف ـ ا
(١٩٣٤) .

٢٢ ـ عودة ، عبد الملك : السياسة والحـ

٢٣ ـ علال الفاسى : الحركات الاستقلالي

٢٤ ـ محمد خير فارس : المسألة المغربية بين

٢٥ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضا

٢٦ ـ محمود كامل فريد : انتصار عبد الكريم الريفى (القاهرة ١٩٢٥) .

٢٧ ـ محمود كامل فريد : حوادث الأمير عبد الكريم ـ الزعيم الريفى المشهور بالمغرب الأقصى (د . ت) .

مراجع أجنبية :

1—Anderson. F. : The First Maroccan Crisis (1904-1906) (Chicago 1903).

2—Autohny Sherely : Travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Sherely (Hakluyt-Principal Navigations T. II and III).

3—Ashford, G. : Political change in Morocco (New Jersey 1961)

4—Ayach. A. Le Maroc (Paris 1956).

5—Barrat. Robert : Justice pour le Maroc (Paris 1953).

6—Barthou, L. : Lyautey et le Maroc.

7—Barnad, Augastin : Le Maroc (Paris 1921).

8—Bovill. E. W. : The golden trade of the Moors (Oxford 1961)

9—Cambon, Henri. : Histoire du Maroc (Paris 1952)

10—Catroux, General. : Lyautey Le Marocain (Paris 1952)

11—Cour, August : L'establisement des dynasties des Cherifs au Maroc et leur rivalite avec les Turques de la regence d'Alger (1509-1830) (Paris 1904).

12—Defontin, M. : Le grand Ismail, empereur du Maroc (1929).

13—El Hagoui, Omar : L'histoire dimplomatique du Maroc (Paris 1937).

14—Gabrielle · Abd El Krim et les evènements du Rif (Casablanca 1953).

15—Hardi, G. : Portrait de Lyautey (Paris 1934).

16—Hardi, G. : Histoire des colonies Francaises et de l'expansion de la France dans le monde (1941)

17—Harris, Walter Burton : Moroco that was (London 1921)

18—Harris, Walter Butron : France, Spain and the Rif (London 1927).

19—Landau Rom : The sultan of Marocco (London 1951)

20—Landau, Rom : The Moroccan drama (London 1956).

21—Laue, C.:La Victoire Franco-Espagnole dans Le Rif (1927)

22—Latreill, Capt: Albert : La campagne de 1844 en Maroc. La Bateille d'Isly (1912).

23—Lazrak , Rachid : Le contentieux Territorial entre le Maroc et l'Espagne (CasaBlanca 1974).

24—Levi-Provencal : Les historiens des Chorfa (Paris 1922)

25—Maurois, A. : Lyautey (Paris 1935).

26—Miege, Jean Louis ; Le Maroc et L'Europe 1830-1894 (Paris 1961)

27—Pere Dan : Histoire de Barbarie et se crossaires (1644)

28—Scot. S. : Memoire de S. Scot sur la commerce Marocaine (1638)

29—Stanley, Lane Pool : The international city of Tangier (California 1955).

30—Stuart, Graham Henry ; The international city of Tangier (California 1955)

31—Terrasse, H. : Histoire du Maroc (2 vols. Casablanca 1949)

32—Weil : Oeuvres militarres du Marechal Bugeaud duc d'Isly (1883) .

33—**Wilkins, George ; Three miseries of Barbary, Plague Femine, Civil wars (1604).**

34—**(Unknown) : A true historicall discourse of Muley Hamets rising to the three kingdomes of Morucos, Fes, and Sus (Londres 1609).**

سابعاً — ليبيا

مخطوطات ووثائق :

١ ـ الحشائشى ، محمد بن عثمان : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المسكية فى أخبار المملكة الطرابلسية .

(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٥٧ تاريخ .)

٢ ـ السنوسى ، محمد بن على : السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين
(مخطوط بدار الكتب المصريه برقم ٢٥٦٧ تاريخ)

٣ ـ السنوسى ، محمد بن على : المنهل الرايق فى أصول الطرائق (مخطوط بدار الكتب المصرية ـــ برقم ١٢٥ مصطلح حديث تاريخ)

مراجع عربية :

١ ـ أحمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب (نشر مكتبة الفخرانى : د . ت) .

٢ ـ أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٨) .

٣ ـ أرسلان ، شكيب : حاضر العالم الإسلامى حـ ١ (١٩٢٦) .

٤ ـ البارونى ، أبو القاسم : حياة سليمان باشا البارونى (القاهرة ١٩٤٨) .

٥ ـ الحداد ، محمد على : حاضر طرابلس الغرب (بغداد ١٩٣٧) .

٦ ـ الزاوى ، الطاهر أحمد : جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب (القاهرة ١٩٥٠) .

٧ ـ السنوسى ، محمد بن على : إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن (الجزائر ١٣٣٨ هـ) .

٨ ـ السنوسى : المسائل العشر ـ المسمى بغنية المقاصد ، وخلاصة المراصد (القاهرة ١٩٢٦) .

٩ ـ السنوسى : الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية (القاهرة ١٩٤٣) .

١٠ ـ السنوسى : المسلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (القاهرة ١٣٥٧ هـ) .

١١ ـ السنوسى : مقدمة موطأ الإمام مالك (القاهرة ١٣٨٥ هـ) .

١٢ ـ الشريف ، أحمد : الدرة الفردية فى بيان مبنى الطريقة السنوسية المحمدية ومنشأ مشايخها وأسانيدها العلمية المتصلة بمنبع الخير والجود ، محمد صلعم (المطبعة الحجازية ـ د . ت) .

١٣ ـ الشنيطى ، محمود : قضية ليبيا (القاهرة ١٩٥١) .

١٤ ـ العيساوى ، محمد الأخضر : رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار (القاهرة ١٩٣٦) .

١٥ ـ الأشهب ، محمد الطيب بن إدريس : برقة العربية — أمس واليوم (القاهرة ١٩٤٧) .

١٦ ـ الأشهب ، محمد الطيب بن إدريس : السنوسى الكبير (١٩٥٦) .

١٧ ـ يعمر ، مصطفى : المجمل فى تاريخ ليبيا (الإسكندرية ١٩٤٧) .

١٨ ـ حكيم ، سامى : حقيقة ليبيا (القاهرة ١٩٦٨) .

١٩ ـ خدورى ، مجيد : ليبيا الحديثة (ترجمة نيقولا زياده — بيروت ١٩٦٦)

٢٠ ـ رشدى ، راسم : طرابلس الغرب فى الماضى والحاضر (طرابلس ١٩٥٣)

٢١ ـ زيادة ، نيقولا : برقة الدولة العربية الثامنة (بيروت ١٩٥٠) .

٢٢ ـ زياده ، نيقولا : ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال (القاهرة ١٩٥٨) .

٢٣ ـ ستوارد ، لوثرب : حاضر العالم الإسلامى (ترجمة عجاج نويهض — القاهرة ١٣٥٢ ﻫ)

٢٤ ـ شكرى ، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة (القاهرة ١٩٤٨) .

٢٥ ـ شكرى ، محمد فؤاد : ميلاد دولة ليبيا الحديثة — وثائق تحريرها واستقلالها (القاهرة د . ت) .

٢٦ ـ شلبى ، محمود : عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشى (القاهرة ١٩٥٨)

٢٧ ـ كاكيا ، أنتونى جوزيف : ليبيا فى العهد العثمانى
(تعريب حسن العسلى — طرابلس ١٩٦٠)

٢٨ ـ محمود ، حسن سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر (القاهرة ١٩٦٢) .
وأخبار الجزائر جزءان (الاسكندرية ١٩٠٣) .

المراجع الأجنبية :

1—Abott G.F. : The Holy war in Tripoli (London 1912).
2—Adams. C.C. : The Sanusiya order (N.D.)

3—Askew, W.C. : Europe and Italy's acquisition of Libya 1911-1912 (Durham 1942)

4—Barclay, Thomas : The Turco Italian war and its problems (London 1912).

5—Bennet, Ernest : With the Turks in Tripoli (London 1912).

6—Cumming, D.C. : The modern History of Cyrenaica (N.D.)

7—Duveyrier, H. : Le Confrerie Musulmane de Sedi Mohammed ben Ali es Senousi et Son Domaine Geographique (Paris 1886).

8—Fabes, Rosita : The Secret of the Sahara Kufara (London 1921).

9—Hollis, Christopher : Italy in Affrica (London 1941).

10—Holt, P.M. : The Mahdist State in the Sudan 1881-1898 (Oxford 1958)

11—Macartney Maxwell and Cremona Paul : Italy in North Africa (London 1913).

—Massey, W.T. : The desert campaigns (London 1918).

13—Murabet, Mohamed : Brief History of Tripolitania (Tripoli 1955)

14—Pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (Oxford 1941)

15—Rinn, Louis : Marabouts et Kouan (Alger 1884).

16—Safwat, M. : Tunis and The Great Powers (1943)

17—Schanzer, Carlo : Italian Colonial Policy in North Africa (1924).

18—Sfarza, Carle Contemporary Italy (Translated by Drake and Denise de Kay) London 1946).

19—Villard, Henry Srrano : Libya, the New Arab Kingdom of North Africa (U.S.A. 1956).

20—Vischer, Hans : Across the Sahara from Tripoli to Bornu (London 1910).

(كشاف)

فهارس أبجدية للأعلام الواردة فى الكتاب

(ب)

غ

(ف)

ن

ه

و

ى

